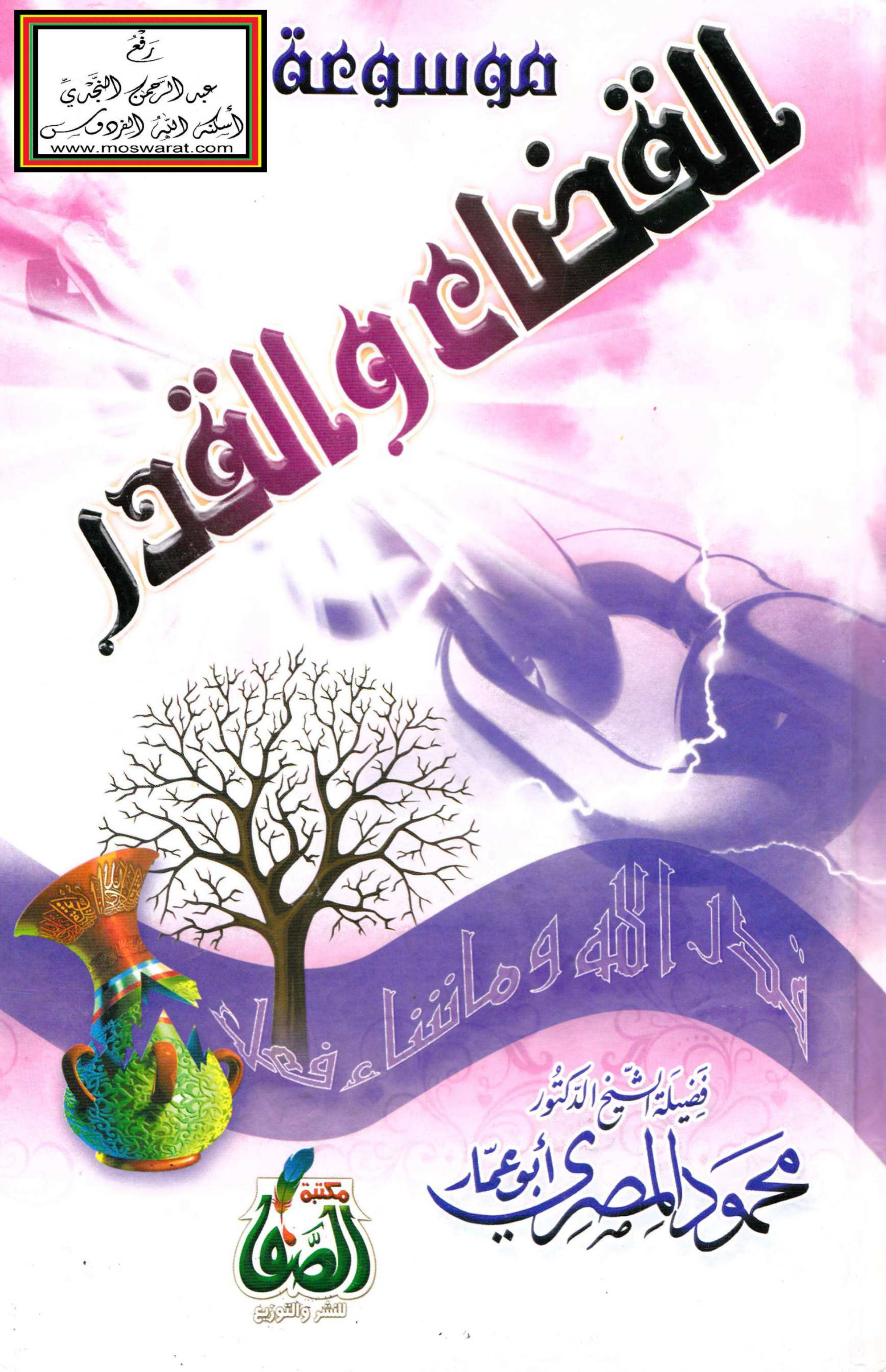


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
موسوعة
القضاء والقدر
قدر الله وما شاء فعل
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري أبو عمار
مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

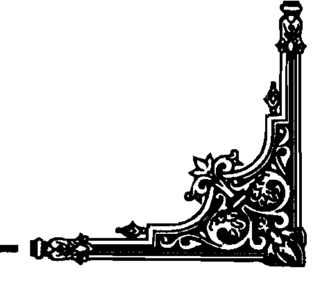

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



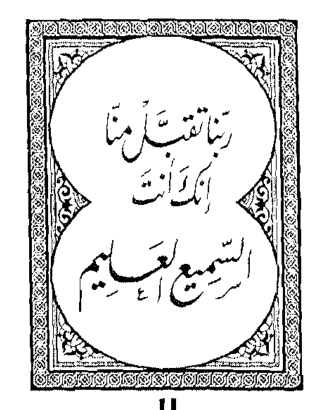
موسوعة

القضاء والقدر

فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤



بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٥٢٢٥

الترقيم الدولي: 978-977-6430-81-5

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر، أمام الجامع الأزهر، القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك، خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤



مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين، فمازال فضل الله العظيم الكريم يتوالَى علينا بالتوفيق لإخراج ونشر الكتب النافعة، المبينة لشرع ربنا تبارك وتعالى ، فقد مَنَّ علينا سبحانه بالتوفيق لإخراج عدة طبعات جديدة للمصحف الشريف، حرصنا فيها على غاية الإتقان فى جميع ما يتعلق بها.

كما وفقنا لإخراج كتب تفسير كتاب الله العزيز، سواء كان كاملًا، أو مفرقًا على هيئة سورة تلو السورة، أو مجموعة سور، أو موضوع تلو موضوع، كآيات الأحكام وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز، كما وفقنا لإخراج كتب الحديث النبوى الشريف والتى عليها قوام هذا الدين وهى بيان وتفسير لكتاب الله العزيز، والتى قام بها الجهابذة الأولون من سلفنا الصالح علماء الحديث، الذين وفقهم الله عَزَّوَجَلَّ لتوصيل الدين وتبليغه كتابًا وسنةً، قولًا وفعلًا، نصًّا وفَهمًا وعملًا.

وقد أخرجنا بفضل الله عدة كتب كموطأ الإمام مالك، وصحيحى الإمامين البخارى ومسلم، وسير أعلام النبلاء، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى، وشرح صحيح مسلم وغيرها من الكتب المتضمنة لحديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رواية ودراية، وشرحًا وبيانًا.

وأيضًا وفقنا لإخراج كتب العلوم الشرعية التى تخدم الكتاب والسنة

بشتى الأشكال. والتى قام بها من تبع الأولين بإحسان لبيان مراد الله عَزَّوَجَلَّ فى كتابه وسنة رسوله ﷺ، فى صور شتى ما بين المطول والمختصر- رحمنا الله وإياهم وغفر لنا ولهم، وأحسن إلينا وإليهم.

ويسرنا اليوم أن نقدم هذا الكتاب الذى بين يديك أخى القارئ وهو كتاب: «موسوعة القضاء والقدر»، وهو إضافة جديدة لإصداراتنا والتى نرجو من الله عَزَّوَجَلَّ أن يتقبلها منا قبولًا حسنًا، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [(١)].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [(٣)].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

۞ لابُدَّ أن نعلم أنه لا سعادة للعبد فى الدنيا والآخرة إلا بالإيمان بالله (جلَّ وعلا).. ونحن نعلم أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان وأركانه، وأنه لا يتم إيمان العبد إلا به.

۞ وإن أول خطوة فى طريق بعث الأمة وعودتها مرة أخرى لقيادة

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

البشرية ... هى العودة إلى العقيدة الصحيحة الصافية.

۞فالإسلام عقيدة.. تنبثق منها شريعة .. تلك الشريعة تنظم كل شؤون الحياة .. ولا يقبل الله من قومٍ شريعتهم إلا إذا صحَّت عقيدتهم.

۞فبهذه العقيدة استطاع النبى ﷺ أن يُحوِّل أمة من رُعاةٍ للإبل والغنم إلى سادة وقادة للشعوب والأمم.

۞بهذه العقيدة استطاع هذا الجيل القرآنى الفريد الذى تربَّى بين يدى النبى ﷺ أن يقيم للإسلام دولة تملأ سمع وبصر التاريخ فى فترة لا تُساوى فى حساب الزمان شيئًا.

۞ونحن فى هذه الأيام نحتاج إلى أن نتعايش بقلوبنا مع تلك العقيدة وأن نُحولها إلى واقعٍ عملى فى حياتنا وأخلاقنا وسلوكياتنا ومعاملاتنا.

۞وعقيدة الإيمان بالقدر تحتاج إلى ترسيخ فى قلوب المؤمنين .. وذلك بأن نعلم أن هذا الكون لا يقع فيه شيء جُزافًا ولا اعتباطًا بغير علمٍ ولا تدبيرٍ .. وإنما يحدث ذلك بعلم الله وتقديره... فقد علم الله (سبحانه) الأشياء كلها فى الأزل قبل وقوعها وقدَّرها على ما تكون عليه .. بل وقدَّر زمانها ومكانها ومقدارها وصفاتها وأحوالها، وسجَّل ذلك كله فى كتابٍ مسطورٍ وإمامٍ مبين، لم يفرط فيه من شيء.. فكل ذلك يقع بعلمه ومشيئته وقدرته.

۞فإذا استقرَّ الإيمان بالقدر فى قلبك فسوف تعيش سعيدًا راضيًا عن قضاء الله وقدره؛ لأنك توقن أن الله لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، وأنه أرحم بك من رحمة الأم بطفلها الرضيع .. بل وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن

ينفعوك بشيء فلن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف.

۞ إن هذه العقيدة إذا رسخت فى نفسك وقرَّت فى ضميرك صارت البليَّة عطية، والمحنة منحة.

۞ وللرضاء بهذا القضاء نتائج سارة، وثمرات طيبة، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة: أنه يُكسب صاحبه قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد، وانتفى من حياته القلق والاضطراب، لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه فى غير ما خوف، ولا هيبة، ولا تردد، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماضٍ، ولا يغتم لحاضر، ولا يؤلمه هم المستقبل وبذلك يكون أسعد الناس حالًا وأطيبهم نفسًا، وأصلحهم بالًا، وأهدأهم خاطرًا، ومنها أيضًا: أنه يكون من أشجع الناس عقلًا وقلبًا، وأكرمهم قولًا ونفسًا، إذ مَن عرف أن أجله محدود، ورزقه محدود، فلا الجُبن يزيد فى عمره،ولا الشُّح يزيد فى رزقه، نافَس فى البطولات، وسابق فى المكرمات.

۞ ومما لا شك فيه أن هذه الصفات قد تجلَّت واضحة فى هذه الأمة، أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة فى نفوسهم، قوية فى قلوبهم، فقد فاقوا الناس شجاعة وكرمًا، وصبراً وحِلْمًا، ومعرفة وعلمًا، الأمر الذى تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة(١).

(١) عقيدة المؤمن/ الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص: ٤٣٦).

۞ فكن راضيًا - أيها الأخ الحبيب - عن الله عَزَّوَجَلَّ ولا تظن أنه كان بوسعك أن تمنع قضاء الله -جلَّ وعلا-.. فإذا كان الأمر كذلك فما عليك إلا أن ترضى وتسلم، فإن الله أرحم بك من رحمة الأم بطفلها الرضيع... واعلم يقينًا أن الله لا يبتليك ليعذبك، وإنما ليطهرك ويقربك.

- فما عليك إلا أن تأخذ بالأسباب فإذا وقع المقدور، وحلَّ المكتوب فقل: قدر الله وما شاء فعل، فإن هذا الرضا يزيل همك ويخفف عليك وقع المصاب ويُرضى ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ أسأل الله (جل وعلا) أن يردنا جميعًا إلى العقيدة الصحيحة الصافية التى عاش عليها النبى ﷺ وأصحابه ... وأن يرزقنى وإياكم لذة الرضا بالقضاء والقدر .. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

الراضي بالمقادير والأقدار



كلامٌ نفيسٌ في الإيمان بالقدر

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في مقدمة كتابه القيم «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل»:

«إن أهم ما يجب معرفته على المُكلَّف النبيل فضلًا عن الفاضل الجليل، ما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، فهو من أسنى المقاصد والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه، فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان، التي يرجع إليها، ويدور في جميع تصاريفه عليها،... فالعدل قوام المُلك، والحكمة مظهر الحمد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة، وكمال النعمة،... فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

وقد سلك جماهير العقلاء في هذا الباب في كل وادٍ، وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وركبوا كل صعب وذَلول، وقصدوا الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته، وتكلمت فيه الأمم قديمًا وحديثًا، وساروا للوصول إلى مغزاه سيرًا حثيثًا، وخاضت فيه الفِرق على تبايُنها واختلافها، وصنَّف فيه المصنفون الكتب على تنوُّع أصنافها.

فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهذا الشأن -أي: بشأن القدر- ويطلب الوصول فيه إلى حقيقة العرفان، فتراه إما مترددًا فيه مع نفسه، وإما مناظرًا لبني جنسه.

وكُلٌّ قد اختار لنفسه قولًا لا يعتقد الصواب في سواه، ولا يرتضي إلا إياه، وكلهم - إلا من تمسك بالوحي - عن طريق الصواب مردود، وباب الهدى في

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٥٤).

وجهه مسدود، تحسَّى علمًا غير طائل، وارتوى من ماءٍ آجن، قد طاف على أبواب الأفكار، ففاز بأخس الآراء والمطالب، فرح بما عنده من العلم الذى لا يُسمن ولا يُغنى من جوع، وقدَّم آراء من أحسن به الظن على الوحى المُنزَّل المشروع، والنص المرفوع، حيران يأتم بكل حيران، يحسب كل شراب ماء فهو طول عمره ظمآن، ينادى إلى الصواب من مكان بعيد، أَقبِل إلى الهدى فلا يستجيب إلى يوم الوعيد، قد فرح بما عنده من الضلال، وقنع بأنواع الباطل وأصناف المُحال، منعه الكفر الذى اعتقده هدى وما هو ببالِغه عن الهداة المهتدين، ولسان حاله أو مقاله يقول: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

ولمَّا كان الكلام فى هذا الباب نفيًا وإثباتًا موقوفًا على الخبر عن أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وأمره فأسعد الناس بالصواب فيه مَنْ تَلَقَّى ذلك من مشكاة الوحى المبين ورغب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المتهوكين، وتشكيكات المُشككين، وتكلُّفات المتنطعين، واستمطر دَيم الهداية من كلمات أعلم الخلق برب العالمين فإن كلماته الجوامع النوافع فى هذا الباب وفى غيره كفتْ وشفتْ وجمعتْ وفرَّقتْ وأوضحت وبيَّنت وحلَّت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن.

ثم تلاه أصحابه من بعده على نهجه المستقيم وطريقه القويم فجاءت كلماتهم كافية شافية مختصرة نافعة لقرب العهد ومباشرة التلقِّى من تلك المشكاة التى هى مظهر كل نور ومنبع كل خير وأساس كل هدى ثم سلك آثارهم التابعون لهم بإحسان فاقتفوا طريقهم وركبوا مناهجهم واهتدوا

(١) سورة الأنعام: الآية: (٥٣).

بهداهم ودعوا إلى ما دعوا إليه ومضوا على ما كانوا عليه»[١].

۞ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي هَذَا الْبَابِ وَغَيرِهِ مَا دَلَّ عَلَيهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَكَانَ عَلَيهِ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ: وَهُوَ أَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الأَعْيَانِ الْقَائِمَةُ بِأَنْفُسِهَا وَصِفَاتِهَا الْقَائِمَةِ بِهَا مِنْ أَفعَالِ الْعِبَادِ وَغَيرِ أَفعَالِ الْعِبَادِ. وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يشَأْ لَمْ يكُنْ؛ فَلَا يكُونُ فِي الْوُجُودِ شَيءٌ إلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَلَا يمْتَنِعُ عَلَيهِ شَيءٌ شَاءَهُ؛ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَلَا يشَاءُ شَيئًا إلَّا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيهِ.

وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يكُونُ وَمَا لَمْ يكُنْ لَوْ كَانَ كَيفَ يكُونُ وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ أَفْعَالُ الْعِبَادِ وَغَيرُهَا وَقَدْ قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يخْلُقَهُمْ: قَدَّرَ آجَالَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَكَتَبَ ذَلِكَ وَكَتَبَ مَا يصِيرُونَ إلَيهِ مِنْ سَعَادَةٍ وَشَقَاوَةٍ فَهُمْ يؤْمِنُونَ بِخَلْقِهِ لِكُلِّ شَيءٍ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَمَشِيئَتِهِ لِكُلِّ مَا كَانَ وَعِلْمِهِ بِالأَشْيَاءِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ، وتَقْدِيرِهِ لَهَا وَكِتَابَتِهِ إيَّاهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ»[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَلَفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مُتَّفِقُونَ أَيضًا عَلَى أَنَّ الْعِبَادَ مَأْمُورُونَ بِمَا أَمَرَهُمْ اللهُ، بِهِ مَنْهِيونَ عَمَّا نَهَاهُمْ اللهُ عَنْهُ وَمُتَّفِقُونَ عَلَى الإِيمَانِ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ الَّذِي نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَمُتَّفِقُونَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لِأَحَدِ عَلَى اللهِ فِي وَاجِبٍ تَرَكَهُ وَلَا مُحَرَّمٍ فَعَلَهُ بَلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى عِبَادِهِ»[٣].

---

(١) كتاب شفاء العليل (٣، ٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٩).

(٣) نفس المصدر (٨/ ٤٥٢).

۞ ويقول الإمام الطحاوى رحمه الله تعالى:

«وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللهِ تَعَالَى فِى خَلْقِهِ لَمْ يطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِى مُرْسَلٌ ... وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِى ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ كَمَا قال الله تَعَالَى فِى كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾(١)»(٢).

۞ ويقول أبو المظفر السمعانى فيما حكاه عنه الحافظ ابن حجر:

«سَبِيلُ مَعْرِفَةِ هَذَا الْبَابِ التَّوْقِيفُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دُونَ مَحْضِ الْقِياسِ وَالْعَقْلِ فَمَنْ عَدَلَ عَنِ التَّوْقِيفِ فِيهِ ضَلَّ وَتَاهَ فِى بِحَارِ الْحِيرَةِ وَلَمْ يبْلُغْ شِفَاءَ الْعَينِ وَلَا مَا يطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ لِأَنَّ الْقَدَرَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ تَعَالَى اخْتُصَّ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ بِهِ، وَضَرَبَ دُونَهُ الْأَسْتَارَ وَحَجَبَهُ عَنْ عُقُولِ الْخَلْقِ، وَمَعَارِفِهِمْ لِمَا عَلِمَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ فَلَمْ يعْلَمْهُ نَبِى مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ... وَقِيلَ: إِنَّ سِرَّ الْقَدَرِ ينْكَشِفُ لَهُمْ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَا ينْكَشِفُ لَهُمْ قَبْلَ دُخُولِهَا»(٣).

۞ وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «ومن السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه والإيمان بها لا يُقال: لِمَ ولا كيف؟» لا يُقال: لِمَ رزق الله فلانًا؟ ولِمَ منع الله عن فلان؟ وكيف نصر الله فلانًا؟ وكيف خذل الله فلانًا؟ وكيف غفر الله لفلان؟ وكيف لم يغفر الله لفلان؟ وكيف هدى الله فلانًا وكيف أضل الله فلانًا؟

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

(٢) العقيدة الطحاوية بتعليق الشيخ ناصر الدين الألبانى: (ص: ٢١).

(٣) فتح البارى (١١/ ٤٧٧).

۞ وقال الإمام أبو بكر محمد الحسين الآجُرِّى رحمه الله تعالى: «مذهبنا فى القدر أن نقول: إن الله عز وجل خلق الجنة وخلق النار، ولكل واحدة منهما أهلًا، وأقسم بعزته أنه يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين. ثم خلق آدم عليه السلام، واستخرج من ظهره كل ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة. ثم جعلهم فريقين: فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

الخلقُ كلهم له، يفعل فى خلقه ما يريد، غير ظالمٍ لهم، جَلَّ ذِكره عن أن يُنسَب ربنا إلى الظلم، وإنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك، وأما ربنا عز وجل فله ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما، وما تحت الثرَّى، وله الدنيا والآخرة، جَلَّ ذِكره، وتقدست أسماؤه،... أحب الطاعة من عباده، وأمر بها، فجرتْ ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونهى عن المعاصى، وأراد كونها من غير محبته منه لها، ولا للأمر بها، تعالى الله عز وجل أن يأمر بالفحشاء، أو يحبها، وجل ربنا وعز أن يجرى فى ملكه ما لم يُرد أن يجرى، أو شىء لم يُحط به علمه قبل كونه، قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وبعد أن يخلقهم، قبل أن يعملوا قضاءً وقدرًا.

قد جرى القلم بأمره عز وجل فى اللوح المحفوظ بما يكون، من برّ أو فجور، يثنى على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ... لولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] وكذا ذَمَّ قومًا عملوا بمعصيته، وتوعدهم على العمل بها، وأضاف العمل إليهم بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾[2] »[3].

---

(١) سورة الحديد: الآية: (٢١).

(٢) سورة النحل: الآية: (٩٢).

(٣) الشريعة للآجرى (١٥٠-١٥٢) بتصرف يسير.

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

لَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ دُونَ هِدَايَةٍ ... بِالْوَحْيِ تَأْصِيلًا وَلَا تَفْصِيلَا

كَالطَّرْفِ دُونَ النُّورِ لَيسَ بِمُدْرِكٍ ... حَتَّى تَرَاهُ بُكْرَةً وَأَصِيلَا

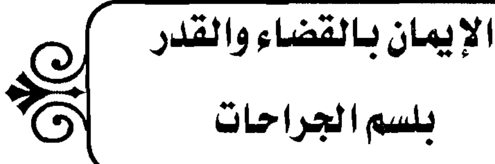
فَإِذَا النُّبُوَّةُ لَمْ ينَلْكَ ضِيَاؤُهَا ... فَالْعَقْلُ لَا يهْدِيكَ قَطُّ سَبِيلَا

نُورُ النُّبُوَّةِ مِثْلُ نُورِ الشَّمْسِ ... لِلْعَينِ الْبَصِيرَةِ فَاتَّخِذْهُ دَلِيلَا

طُرُقُ الْهُدَى مَسْدُودَةٌ إِلَّا عَلَى ... مَنْ أَمَّ هَذَا الْوَحيَ وَالتَّنْزِيلَا

فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ الطَّرِيقِ تَعَمُّدًا ... فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَرَدْتَ وُصُولَا

يَا طَالِبًا دَرْكَ الْهُدَى بِالْعَقْلِ دُو ... نَ النَّقْلِ، لَنْ تَلْقَى لِذَاكَ دَلِيلَا




الإيمان بالقضاء والقدر بلسم الجراحات

إن بلسم الجراحات هو الإيمان بالقضاء والقدر، وعجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، قد علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، علم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء، لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عَزَّوَجَلَّ عليه، رضى فرضى الله عنه، وسعد فى حياته وأخراه، واطمأن قلبه وسكنت روحه، فهو فى نعيم وأى نعيم!!

فالإيمان بالقضاء والقدر نعمة على البشر وبلسم وظل وافر من الطمأنينة وفيض من الأمن والسكينة، ووقاية من الشرور، وحافز على العمل، وباعث على الصبر والرضا، والصبر مُرٌّ مذاقه، لذيذة عاقبته.

صبرت ومَنْ يصبر يجدْ غبَّ صبره ... ألذَّ وأحلى من جنى النحل فى الفم

فاحرص على ما ينفعك، وارضَ بما قسم الله لك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا، ولكن قل: «قدر الله وما شاء فعل» [(١)(٢)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر، من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) هكذا علمتنى الحياة (ص: ١٤-١٦) بتصرف.

عجبًا لأمر المؤمن

۞ إن الابتلاء سنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير... يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

وقال سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[2].

وقال ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير - وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن - إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له»**[3].

أخي الحبيب... أختي الفاضلة: إن الحياة لا تخلو من الشدائد وإن الأمل والأمن، والرضا والحب، والسكينة النفسية، ثمار شهية لغراس العقيدة في نفس المؤمن، وذخائر لا تنفد لإمداده في معركة الحياة، وإنها لمعركة طويلة الأمد، كثيرة التكاليف محفوفة بالأخطار والمشقات.

ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يُفقد منه مال...أو..أو..إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة..حتى قال الشاعر يصف الدنيا:

(١) سورة العنكبوت: الآيات: (١-٣).

(٢) سورة البقرة: الآيات: (١٥٥-١٥٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق، من حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

جُبلت على كدرٍ وأنت تريدها صفوًا من الآلام والأكدارِ!
ومُكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نارِ

وإذا كان هذا سنة الله فى الحياة عامة، وفى الناس كافة، فإن أصحاب الرسالات خاصة أشد تعرضًا لنكبات الدنيا وويلاتها، إنهم يدعون إلى الله فيحاربهم دُعاة الطاغوت، وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل، ويهدون إلى الخير فيعاديهم أنصار الشر، ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر... وبهذا يحيون فى دوامة من المحن، وسلسلة من المؤامرات والفتن، سُنة الله الذى خلق آدم وإبليس، وإبراهيم ونمرود، وموسى وفرعون، ومحمدًا وأبا جهل ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾(١)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ ﴾(٢)، هذا شأن الأنبياء، وشأن ورثتهم، والسائرين على دربهم، والداعين بدعوتهم، مع الطغاة الصادين عن سبيل الله ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾(٣).

وقد أثبت الاستقراء والمشاهدة أن أشد الناس جزعًا، وأسرعهم انهيارًا أمام شدائد الحياة هم الملحدون والمرتابون وضعاف الإيمان، وقد وصف القرآن هذا النموذج من الناس فقال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴾(٤). ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١١٢).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٣١).

(٣) سورة البروج: الآية (٨).

(٤) سورة هود: الآية (٩).

(٥) سورة فصلت: الآية (٤٩).

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾[1]. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

إنهم لا يؤمنون بقدر فيرضوا به، ولا بإله فيطمئنوا إلى حكمته فى خلقه، ولا بأنبياء فيجدوا فى حياتهم القاسية قدوة وعبرة، ولا بحياة أخرى فتهبّ عليهم نسماتها منعشة للنفس، وطاردة للكآبة، باعثة للأمل.

إنهم كسفينة فقدت الدفة والشراع، وكل عوامل الثبات أمام الأمواج والعواصف، فهى لأدنى حركة من الريح يشتد اهتزازها وتمايلها، ويحيط بها الموج من كل مكان، وسرعان ما تغوص إلى الأعماق!

ولا غرو أن نجد الانتحار أكثر ما يكون فى البيئات التى ضعف دينها أو فقدته، فإن لم يكن الانتحار فهو الألم القاتل، والجزع الهالع، والكآبة الحزينة، والحزن الكئيب، والحياة التى خلت من معنى الحياة. اهـ.

ليس من مات فاستراح بميتٍ ... إنما الميتُ ميت الأحياء

إنما الميتُ مَن يعيش كئيبًا ... كاسفًا باله قليل الرجاء

أما المؤمن الواثق فى موعود ربه فيتسلى فى مصيبته بعلمه أن الله سوف يجبر له كل مُصاب فى الجنة.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٣).

(٢) سورة الحج: الآية (١١).

القضاء والقدر لغةً وشرعًا

أولاً: القضاء والقدر لغة وشرعًا:

(١) **معنى القضاء لغة:** إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته [١].

وقال ابن الأثير في النهاية: القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه ... فمعنى القضاء في اللغة هو إحكام الشيء، وإتمام الأمر، وهذا هو معنى القضاء، وإليه ترجع جميع معاني القضاء الواردة في اللغة، وقد يأتي بمعنى القدر [٢].

وقد ورد لفظ القضاء ومشتقاته كثيرًا في القرآن الكريم، وكل معانيه التي قد تأتي متداخلة أحيانًا ترجع إلى الأصل السابق.

فمن المعاني التي ورد بها:

- معنى الأمر: قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [٣] أي: أمر سبحانه وتعالى بعبادته وحده لا شريك له [٤].

- ومعنى الإنهاء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [٥] أي: تقدمنا إليه وأنهينا [٦].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٩٩).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (ص٤٢٢).

(٣) سورة الإسراء: الآية: (٢٣).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٦٢) - القضاء والقدر / د. عبد الرحمن المحمود (ص٣٤).

(٥) سورة الحجر: الآية: (٦٦).

(٦) زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٤٠٧)، القضاء والقدر (ص٤٣).

- ومعنى **الحُكم**: قال تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾[١] أى: اصنع واحكم وافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك[٢].

- ومعنى **الفراغ**: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾[٣].

أى: فرغ من تسويتهن سبع سماوات فى يومين[٤]،... ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾[٥] أى: فرغ من الأجل الأوفى والأتم[٦].

- ومعنى **الأداء**: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾[٧] أى: أديتموها وفرغتم منها[٨].

- ومعنى **الإعلام**: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٩] أى: تقدمنا وأخبرنا بنى إسرائيل فى الكتاب الذى أُنزل إليهم أنهم يفسدون فى الأرض مرتين[١٠].

- ومعنى **الموت**: يقال: ضربه فقضى عليه، أى: قتله[١١]، قال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾[١٢] أى: مات[١٣].

---

(١) سورة طه: الآية: (٧٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٩٨)، القضاء والقدر/ د. عبد الرحمن المحمود (ص٤٣).
(٣) سورة فصلت: الآية: (١٢).
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٩٩)، ابن كثير (٧/ ١٥٦).
(٥) سورة القصص: الآية: (٢٩).
(٦) معالم التنزيل للبغوى (٥/ ١٧٢).
(٧) سورة البقرة: الآية: (٢٠٠).
(٨) تفسير الطبرى (٢/ ٢٩٥)، القضاء والقدر للمحمود (ص٣٥).
(٩) سورة الإسراء: الآية: (٤).
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٢٠، ٢١).
(١١) لسان العرب (٥/ ١٨٧)، القضاء والقدر للمحمود (ص٣٥).
(١٢) سورة القصص: الآية: (١٥).
(١٣) القضاء والقدر للمحمود (ص٣٥).

۞ وهناك اشتقاقات أخرى ذكرتها كتب اللغة [١]، ... ومن خلال عرض هذه المعانى يتبين ما بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى من رابط قوى، فتقدير الله للأمور وكتابته لذلك، وكونها تجرى بحكمة ودقة على حسب ما أرادها سبحانه وقضاها كل هذه المعانى يوحى بها المعنى اللغوى بمختلف معانيه الواردة [٢].

(٢) **القدر لغةً:** فالقاف والدال والراء أصلٌ صحيح يدل على مبلغ الشيء وكُنهه ونهايته[٣]. ويُطلَق القدر على الحكم والقضاء أيضًا ومن ذلك حديث الاستخارة «**فاقدره ويسره لى**»[٤].

والقدَر بتحريك الدال أو تسكينها معناه الطاقة ... قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾[٥]: طاقته.

ويأتى أيضًا القدر بمعنى التضييق،... قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ﴾[٦]. يعنى: فضيق عليه،... ومنه قوله تعالى فى حق نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[٧] أى: لن نضيق عليه، وليس كما ظن بعض الناس أن يونس عليه السلام شك فى قدرة الله ... كلا.

وقدرت الشيء أقدره من التقدير، ومنه الحديث: «**فإن غمَّ عليكم**

(١) الصحاح للجوهرى (٦/ ٢٤٦٣)، تاج العروس (١٠/ ٣٩٦).

(٢) القضاء والقدر (ص٣٦).

(٣) الصحاح للجوهرى (٢/ ٢٨٦)، معجم مقاييس اللغة (٥/ ٦٢).

(٤) صحيح: رواه البخارى (١١٦٦) كتاب الجمعة.

(٥) سورة البقرة: الآية: (٢٣٦).

(٦) سورة الفجر: الآية: (١٦).

(٧) سورة الأنبياء: الآية: (٨٧).

فاقدروا له»[١]. أي قدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يومًا.

وقيل: قدروا له منازل القمر، فإنه يدلكم على أن الشهر تسع وعشرون أم ثلاثون[٢].

وقدر كل شىء ومقداره: مقياسه، يقال: قدره به قدرًا إذا قاسه، والقدر من الرحال والسروج: الوسط [٣].

ويتبين لنا من التعريف اللغوى للقضاء والقدر: أن رابطًا قويًا جدًّا بينهما وبين التأصيل اللغوى والشرعى كذلك.

(٣) المعنى الشرعي للقضاء والقدر:

هو تقدير الله تعالى الأشياء فى القِدَم، وعلمه سبحانه أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده، وعلى صفاتٍ مخصوصة وكتابته سبحانه لذلك ومشيئته لها ووقوعها على حسب ما قدرها جلّ وعلا وخلقه لها[٤].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٦) كتاب الصوم، ومسلم (١٠٨٠) كتاب الصيام.

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٢٣).

(٣) ترتيب القاموس المحيط (٣/ ٥٧٠).

(٤) شفاء العليل لابن القيم (ص ٢٩)، القضاء والقدر للمحمود (ص ٤٠).

منزلة الإيمان بالقدر

۞ للإيمان بالقدر أهمية كبرى بين أركان الإيمان، يدركها كل من له إلمام ولو يسير بقضايا العقيدة الإسلامية وأركان الإيمان؛ ولذلك ورد التنصيص فى السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره.

وترجع أهمية هذا الركن ومنزلته بين بقية أركان الإيمان إلى عدة أمور:

۞ الأول: ارتباطه مباشرة بالإيمان بالله تعالى، وكونه مبنيًّا على المعرفة الصحيحة بذاته تعالى وأسمائه الحسنى، وصفاته الكاملة الواجبة له تعالى، وقد جاء فى صفاته سبحانه صفة العلم، والإرادة، والقدرة، والخلق، ومعلوم أن القدر إنما يقوم على هذه الأسس.

«وعلى هذا الأساس قامت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، فكان الإيمان بهما متممًا للإيمان بالله تعالى، وبصفاته، وعنصرًا من حقيقته المشرقة»[١].

ولا شك أن الإقرار بتوحيد الله وربوبيته لا يتم إلا بالإيمان بصفاته تعالى،... فمن زعم أن هناك خالقًا غير الله تعالى فقد أشرك،... والله تعالى خالق كل شىء، ومن ذلك أفعال العباد[٢].

ولهذا يُروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبه توحيده»[٣].

---

(١) مع الله فى صفاته وأسمائه الحسنى/ الشيخ حسن أيوب (ص ١١٦).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٠٤).

(٣) روى مرفوعًا: رواه الطبرانى فى الأوسط، وموقوفًا: رواه اللالكائى فى «شرح السنة» رقم (١١١٢) (٤/ ٦٢٣)، انظر: شرح الطحاوية (ص ٣٠٥) تحقيق: الألبانى.

ولهذا السبب - والله أعلم - لم يُذكر ركن الإيمان بالقدر فى كتاب الله تعالى مع بقية أركان الإيمان كما ورد فى السنة؛ لأن الإيمان بالقدر هو إيمان بربوبيته وأسمائه وصفاته، ومراتب القدر الأربع هى صفات الله تعالى.

۞ **الثانى**: حين ننظر إلى هذا الكون ونشأته وخلق الكائنات فيه -ومنها هذا الإنسان - نجد أن كل ذلك مرتبط بالإيمان بالقدر فـ«**أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: ربّ، وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1]، والإنسان يوجد على هذه الأرض، وينشأ تلك النشأة الخاصة، ويعيش ما شاء الله فى حياة متغيرةٍ فيها الصحة والسقم، والغِنى والفقر، والقوة والضعف... وينظر الإنسان من حوله فيرى تفرُّق هذه الصفات على الناس؛ وعلى الجماعات والدول... ينظر إلى كل ذلك فلا يجد المَخرج إلا فى العقيدة الصحيحة، وعلى رأسها الإيمان بالقدر.

۞ **الثالث**: الإيمان بالقدر هو المحكّ الحقيقى لمدى الإيمان بالله تعالى على الوجه الصحيح، وهو الاختبار القوى لمدى معرفة الإنسان بربّه تعالى، وما يترتب على هذه المعرفة من يقينٍ صادق بالله، وبما يجب له من صفات الجلال والكمال.

وذلك أن القدر فيه من التساؤلات والاستفهامات الكثيرة لمن أطلق لعقله المحدود العنان فيها.

وقد كَثُر الاختلاف حول القدر، وتوسَّع الناس فى الجدل والتأويل لآيات القرآن الواردة بذكره، بل وأصبح أعداء الإسلام فى كل زمان يثيرون

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧- ٢٠١٨).

البلبلة فى عقيدة المسلمين، عن طريق الكلام في القدر ودسِّ الشبهات حوله، ومن ثَمَّ أصبح لا يثبت على الإيمان الصحيح واليقين القاطع إلاّ من عرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، مُسلِّمًا الأمر لله، مطمئنَّ النفس، واثقًا بربه تعالى، فلا تجد الشكوك والشبهات إلى نفسه سبيلًا، وهذا ولا شك أكبر دليل على أهمية الإيمان به بين بقية الأركان.

۞ تساؤل: قد يتساءل البعض فيقول: إذا كان الإيمان بالقدر بهذه الأهمية، فلماذا لم يَرِدِ النَّص على وجوب الإيمان به فى القرآن الكريم مع بقية الأركان المذكورة؟

والجواب: أنه لم يَرِد النص عليه فى القرآن؛ لكونه داخلًا فى ركن الإيمان بالله وملتصقًا به؛ بل هو جزء منه، وعلى هذا فقد ورد ذكر القدر فى القرآن ضمن بيان التوحيد(١).

---

(١) انظر: مبادئ الإسلام للمودودى (ص ٨) - نقلًا عن (القضاء والقدر) د. عبد الرحمن المحمود.

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان[١]

۞ الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التى لا يتم إيمان العبد إلا بها، ففى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب فى سؤال جبريل عليه السلام الرسول ﷺ عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره.** قال - أى: جبريل عليه السلام -: **صدقت**»[٢].

والنصوص المخبرة عن قدر الله أو الآمرة بالإيمان بالقدر كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٣]. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٤]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[٥]. وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٦]. وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٧].

وروى مسلم فى صحيحه عن طاووس قال: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شىء بقدر ... قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجزُ والكَيس[٨]، أو الكَيس والعَجْز»[٩].

---

(١) من كتاب (القضاء والقدر) / د. عمر الأشقر رحمه الله.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨) كتاب الإيمان.

(٣) سورة القمر: الآية: (٤٩).

(٤) سورة الأحزاب: الآية: (٣٨).

(٥) سورة الأنفال: الآية: (٤٢).

(٦) سورة الفرقان: الآية: (٢).

(٧) سورة الأعلى: الآيات: (١-٣).

(٨) الكَيس ضد العجز.

(٩) صحيح: رواه مسلم: (٢٦٥٥) كتاب القدر.

وروى مسلم أيضًا عن أبى هريرة قال: «جاء مشركوا قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1]»[2].

والنصوص فى ذلك كثيرة جدًّا فإن النصوص الدالة على علم الله وقدرته ومشيئته وخلقه تدل على قدره سبحانه وتعالى،... فالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله ومشيئته وخلقه، كما سيأتى بيانه، وذكر النصوص الواردة فى ذلك.

والقدر يدل بوضعه - كما يقول الراغب الأصفهانى فيما نقله عنه ابن حجر العسقلانى - على القدرة وعلى المقدور الكائن بالعلم[3].

فلله تعالى القدرة المُطلقة، وقدرته لا يُعجزها شىء، ومن أسمائه سبحانه وتعالى القادر والقدير والمقتدر،... والقدرة صفة من صفاته.

فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر.

والقدير فعيل منه، وهو للمبالغة، ومعنى (القدير) الفاعل لما يشاء، على قدر ما تقتضيه الحكمة لا زائدًا عليه، ولا ناقصًا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله عز وجل... قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

و (المقتدر) مفتعل من اقتدر، وهو أبلغ من (قدير) ومنه قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[5].

---

(١) سورة القمر: الآيتان: (٤٨، ٤٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم: (٢٦٥٦) كتاب القدر.

(٣) فتح البارى: (١١/ ٤٤٧).

(٤) سورة الأحقاف: الآية: (٣٣).

(٥) سورة القمر: الآية: (٥٥).

وقد سُئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عن القدر: فقال: « القدر قدرة الله »(١).

۞ قال الإمام ابن القيم: « وقال الإمام أحمد: القدرُ قدرة الله... واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًّا، وقال: هذا يدل على دقة أحمد وتبحُّره فى معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفا، فإن إنكاره إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها».... وقد صاغ ابن القيم هذا المعنى شعرًا فقال:

فحقيقة القدر الذى حار الورى ... فى شأنه هو قدرة الرحمنِ

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمدٍ ... لما حكاه عن الرضى الربانِ

له قال الإمام شفى القلوب بلفظةٍ ... ذات اختصار وهى ذات بيانِ

ولذا فإن الذين يكذبون بالقدر لا يثبتون قدرة الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: « مَنْ لم يقل بقول السلف فإنه لا يثبِت لله قدرة، ولا يثبته قادرًا ... كالجهمية ومن اتبعهم، والمعتزلة المجبرة والنافية: حقيقة قولهم أنه ليس قادرًا، وليس له الملك، فإن المُلك إما أن يكون هو القدرة، أو المقدور، أو كلاهما، وعلى كل تقدير فلا بدَّ من القدرة، فمن لم يثبت له قدرة حقيقية لم يُثبت له مُلكًا »(٢).

والذين كذبوا بالقدر لم يوحدوا الله عَزَّوَجَلَّ، فإن نُفاة القدر يقولون: «خالق الخير غير خالق الشر، ويقول من كان منهم فى ملتنا: إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى، وربما قالوا: ولا يعلمها أيضًا، ويقولون: إن جميع أفعال الحيوان واقعة بغير قدرته ولا صنعه، فيجحدون

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/ ٣٠٨).
(٢) شفاء العليل: (٤٩).

مشيئته النافذة، وقدرته الشاملة،... ولهذا قال ابن عباس: القدر نظام التوحيد، فمن وحدَّ الله وآمن بالقدر تمَّ توحيده، ومن وَحَّدَ الله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه »[١] .

وقد تقاطر أهل العلم على تقرير القدر والنصِّ على وجوب الإيمان به، وما من عالم من علماء أهل السنة الذين هم أعلام الهدى وأنوار الدُّجى إلا وقد نصَّ على وجوب الإيمان به، وبدَّع وسفَّه من أنكره وردَّه.

❁ **يقول النووى** رحمه الله تعالى **فى شرحه لأحاديث القدر من صحيح مسلم:** «وفى هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة فى إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء الله وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها»[٢] .

وقال فى موضع آخر: «تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى»[٣] .

❁ **ويقول ابن حجر** رحمه الله تعالى: «مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلَّها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٤]»[٥] .

❊ ❊ ❊

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ٢٥٨).

(٢) شرح النووى على مسلم: (١٦/ ١٩٦).

(٣) شرح النووى على مسلم (٢/ ١٥٥).

(٤) سورة الحجر: الآية: (٢١).

(٥) فتح البارى: (١١/ ٤٧٨).

علاقة القدر بمباحث الربوبية

۞ هى علاقة وثيقة فلا يمكن أن يقع فى مُلك الله تعالى ما لا يشاء، ولا يمكن أن يكون فى مُلك الله تعالى ما لا يعلم، ولا يمكن لأحدٍ أن يخرج عن علم الله تعالى، ولا عن قدرته إذ كل شىء صادر عن علمه وحكمته وفعله تبارك وتعالى. وهذا هو مبحث الربوبية،... قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[1].

وهذا هو مبحث القدر أيضًا، فمن ظنَّ أن الله تعالى يقع فى مُلكه ما لا يشاء، أو ما لا يعلم فقد بطل إيمانه بربوبية الله تعالى،... كذلك مَن ظنَّ أن شيئًا يقع فى الكون بغير قوة الله تعالى وقدرته.

۞ **وقال أبو جعفر الطحاوى فى الطحاوية[2]:**

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يعْلَمَ أَنَّ اللهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِى كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا لَيسَ فِيهِ نَاقِضٌ وَلَا مُعَقِّبٌ وَلَا مُزِيلٌ وَلَا مُغيرٌ وَلَا نَاقِصٌ وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِى سماواته وأرضه وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ وَأُصُولِ الْمَعْرِفَةِ وَالِاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِى كِتَابِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[3] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[4].

فويلٌ لمن صار لله تعالى فى القدر خصيمًا وأحضر للنظر فيه قَلْبًا سَقِيمًا لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِى فَحْصِ الْغَيبِ سِرًّا كَتِيمًا وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكًا أثيمًا. انتهى.

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٥٤).

(٢) «الطحاوية» (ص ٣٥).

(٣) سورة الفرقان: الآية: (٢).

(٤) سورة الأحزاب: الآية: (٣٨).

ويؤيد ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: القدر نظام التوحيد فمن وحَّد الله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه[1].

۞ وقال ابن أبى العز الحنفى[2] تعليقًا على ذلك:

وَهَذَا لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ يتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِعِلْمِ اللهِ الْقَدِيمِ وَمَا أَظْهَرَ مِنْ علمه الذى لا يُحاط به وَكِتَابِهِ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ. وَقَدْ ضَلَّ فِى هَذَا الْمَوْضِعِ خَلَائِقُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ وَالْفَلَاسِفَةِ وَغَيرِهِمْ، مِمَّنْ ينْكِرُ عِلْمَهُ بِالْجُزْئِياتِ أَوْ بِغَيرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمَّا يدخُلُ فِى التَّكْذِيبِ بِالْقَدَرِ. وَأَمَّا قُدْرَةُ اللهِ عَلَى كُلِّ شَىءٍ فَهُوَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِهِ الْقَدَرِيةُ جُمْلَةً، حَيثُ جَعَلُوهُ لَمْ يخْلُقْ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، فَأَخْرَجُوهَا عَنْ قدرته وخلقه. انتهى.

---

(١) السُّنَّة اللالكائى (٤/ ٦٧٠) نقلًا عن (القضاء والقدر عند السلف) / الشيخ على الوصيفى.

(٢) فى شرح الطحاوية (ص ٣٠٥).

ما الفرق بين القضاء والقدر؟

۞ لقد انقسم العلماء فى ذلك إلى فريقين:

الفريق الأول: قالوا: إنه لا فرق بين القضاء والقدر، فكل واحد منهما يدخل فى معنى الآخر، فإذا أُطلق التعريف على أحدهما شمل الآخر، ولذلك إذا أُطلق القضاء وحده، فُسِّر بالقدر، وكذلك القدر، فلا فرق بينهما فى اللغة، كما أنه لا دليل على التفريق بينهما فى الشرع.

وقال آخرون: هناك فرق بين القضاء والقدر، فالقضاء: هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال فى الأزل.

أما القدر: فهو الحكم فى وقوع الجزئيات لهذه الكليات التى قُدّرت فى الأزل، فالقضاء أشمل وأعمُّ من القدر.

ومنهم من قال: بأن القدر: هو التقدير، والقضاء، هو التفصيل.

بمعنى: أن القدر: هو التقدير القديم الأزلى، والقضاء: هو التفصيل لهذا القدر الكلى فى أوقات معلومة بمشيئة الله تبارك وتعالى على الكيفية التى أرادها أو خلقها عزَّ وجلَّ.

فالقضاء والقدر لفظان متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن افترقا، يعنى: إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا بمعنى: إذا ذُكر القضاء والقدر معًا، فالمعنى لكل مفردة منهما واحد، وإذا أُفرد اللفظان صار لكل مفردة منهما معنى يختلف عن معنى الآخر. فالتقدير: هو ما قدره الله سبحانه وتعالى فى الأزل أن يكون فى خلقه التقدير، وعلى هذا يكون التقدير سابقًا على القضاء، وأما القضاء إذا ذُكر مع القدر فكلاهما معنى واحد مشترك.

ويرى الخطابى: أن القضاء والقدر أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه[١].

۞ هذه هى أهم الأقوال فى الفرق بين القضاء والقدر، ونخلص منها إلى ما يلى:

(١) الذين فرقوا بينهما ليس لهم دليل واضح من الكتاب والسنة يفصل فى القضية.

(٢) عند إطلاق أحدهما يشمل الآخر[٢]، وهذا يوحى بأنه لا فرق بينهما فى الاصطلاح؛ ولذا فالراجح أنه لا فرق بينهما.

(٣) ولا فائدة من هذا الخلاف؛ لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهما يُطلَق على الآخر، وعند ذكرهما معًا فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل عليه الآخر. والله أعلم[٣].

---

(١) المسائل العقدية التى حكى فيها الإجماع ابن تيمية الإجماع (ص٨١٠)، معالم السنن (٥/ ٧٧).

(٢) انظر: تفسير فتح البيان فى مقاصد القرآن / محمد صديق خان (٧/ ٣٧٥).

(٣) الإيمان بالكتب السماوية والرسل والقدر / د. على الصلابى (ص ٤٤).

أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر

۞ وردت فى كتاب الله تعالى آيات تدل على أن الأمور تجرى بقدر الله تعالى، وعلى أن الله تعالى علم الأشياء وقدَّرها فى الأزل، وأنها ستقع على وفق ما قدرها سبحانه وتعالى[١].

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢] قدر الله كل شىء فى الأزل وكتبه سبحانه.

* يقول القرطبي: الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ، أَيْ عَلِمَ مَقَادِيرَهَا وَأَحْوَالَهَا وَأَزْمَانَها قَبْلَ إِيجَادِهَا، ثُمَّ أَوْجَدَ مِنْهَا مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ يُوجِدُهُ عَلَى نَحْوِ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ، فَلَا يَحْدُثُ حَدَثٌ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ أَو السُّفْلِيِّ إِلَّا وَهُوَ صَادِرٌ عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا إِلَّا نَوْعُ اكْتِسَابٍ وَمُحَاوَلَةٌ وَنِسْبَةٌ وَإِضَافَةٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بِتَيْسِيرِ اللهِ تَعَالَى وَبِقُدْرَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَإِلْهَامِهِ، سُبْحَانَهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا خَالِقَ غَيْرُهُ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، لَا كَمَا قَالَتِ الْقَدَرِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَنَّ الْأَعْمَالَ إِلَيْنَا وَالْآجَالَ بِيَدِ غَيْرِنَا.

قَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: قَدِمَ وَفْدُ نَجْرَانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: الْأَعْمَالُ إِلَيْنَا وَالْآجَالُ بِيَدِ غَيْرِنَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ يَكْتُبُ عَلَيْنَا الذَّنْبَ وَيُعَذِّبُنَا؟ فَقَالَ: «**أَنْتُمْ خُصَمَاءُ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

---

(١) القضاء والقدر / د. المحمود (ص ٥٠).

(٢) سورة القمر: الآية: (٤٩).

وقَوْلُـهُ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[١] أَيْ قَضَائِي فِي خَلْقِي أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ. وَاللَّمْحُ النَّظَرُ بِالْعَجَلَةِ. اهـ.

(٢) وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٢]. أى قضاءً مقضيًّا، وحُكمًا مبتوتًا وهو كظلٍّ ظليل، وليلٍ أليل، وروضٍ أريض فى قصد التأكيد[٣].

(٣) وقوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾[٤] أى: إنه جاء موافقًا لقدر الله تعالى وإرادته على غير ميعاد[٥].

(٤) وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[٦]. أى: جعلنا الماء فى مقرٍّ يتمكن فيه وهو الرحم، مؤجَّلًا إلى قدرٍ معلوم قد علمه الله سبحانه وتعالى وحكم به، فقدرنا على ذلك تقديرًا فنعم القادرون نحن، أو: فقدرنا ذلك تقديرًا فنعم المقدرون له نحن على قراءتين[٧]، والقراءة الثانية ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بالتشديد توافق قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[٨].

---

(١) سورة القمر: الآية: (٥٠).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٣٨).

(٣) فتح البيان فى مقاصد القرآن – وتفسير صديق حسن خان (٧/ ٣٧٥).

(٤) سورة طه: الآية: (٤٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٨٧).

(٦) سورة المرسلات: الآيات: (٢١-٢٣).

(٧) القضاء والقدر/ د. عبد الرحمن المحمود (ص٥١).

(٨) سورة عبس: الآية: (١٩).

(٥) وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(١): أي كل شيءٍ مما سواه مخلوقٌ مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيءٍ تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره (٢).

* يقول الشوكاني في فتح القدير: أي: قدَّر كل شيء مما خلقه بحكمته على ما أراد وهيأه لما يصلح له، ... قال الواحدي: قال المفسرون: قدر له تقديرًا من الأجل والرزق، فجرتْ المقادير على ما خلق.

(٦) وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٣)، أى: بأجل، كحفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلًا معلومًا (٤).

(٧) وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(٥).

يخبر تعالى أنه مالك كل شىء، وأن كل شيءٍ سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ كما يشاء وكما يريد ولما له فى ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة (٦).

- وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾(٧) أى: صرفناه

---

(١) سورة الفرقان: الآية: (٢).

(٢) صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤).

(٣) سورة الرعد: الآية: (٨).

(٤) صحيح تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٢).

(٥) سورة الحجر: الآية: (٢١).

(٦) صحيح تفسير ابن كثير (٢/ ٥٤٧).

(٧) سورة الواقعة: الآية: (٦٠).

بينكم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بعاجزين [١].

- وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [٢].

(٨) قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [٣]، قال ابن عباس والسُّدى: أى عظِّم ربك الأعلى، وقيل: نزِّه ربَّك عن السوء وعما يقول فيه الملحدون.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ قيل: خلق آدم فسوَّى خلقه، وقيل: خلق في أصلاب الآباء وسوَّى في أرحام الأمهات.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قال مجاهد: قدَّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة، وقيل: قدر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسًا ولمراعيهم إن كانوا وحشًا.

- وقال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [٤]، أى: قدَّر أجله ورزقه وعمله، وشقى أو سعيد [٥].

وغير ذلك من الآيات التى تدل على أن الله قدر كل شىء.

---

(١) صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٢).

(٢) سورة فصلت: الآية: (١٠).

(٣) سورة الأعلى: الآيات: (١-٣).

(٤) سورة عبس: الآية: (١٩).

(٥) صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩٥).

الأدلة من السنة على وجوب الإيمان بالقدر

۞ جاء فى السنة الصحيحة المستفيضة: أن الإيمان بالقدر ركن من أركان العقيدة الإسلامية الستة، كما حدد ذلك حديث جبريل المشهور الذى رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن جبريل سأل النبى ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة. فحين سأله عن الإيمان، قال: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[1].

فلا يتحقق إيمان عبد حتى يؤمن بالقدر.

۞ ولقد دلَّت نصوص السنة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، والأحاديث الواردة فى ذلك كثيرة جدًّا، ولكن نعرض لبعضها وسنبين البعض الآخر فى الأدلة التفصيلية عند الحديث على مراتب القدر ... ومن هذه الأحاديث:

(١) حديث جبريل: المشهور .... فقد قال ﷺ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[2].

(٢) حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليُصيبه**»[3].

فَنَفَى الإيمانَ حتى يؤمن العبد بالقدر، وأن ما يجرى عليه إنما هو بقدر

(١، ٢) صحيح: رواه مسلم (٨) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٥٨٥).

من الله لا يتغير أبدًا، ونفى الإيمان عمَّن لم يؤمن بالقدر ... يدل على وجوبه.

(٣) حديث عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأنى محمد رسول الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**»[١].

فالمراد بالحديث نفى أصل الإيمان عمَّن لم يؤمن بهذه الأربع: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله، ويؤمن بالموت: أى فناء الدنيا، أو المراد: اعتقاد أن الموت يحصل بأمر الله لا بفساد المزاج كما يقول الطبائعيون، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر وأن كل ما يجرى بقدر الله تعالى وقضائه[٢]،.... ونَفَى أصل الإيمان عمَّن لم يؤمن بهذه الأمور ... يدل على وجوب الإيمان بها.

(٤) حديث طاوس، قال: أدركت أُناسًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: كل شىء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل شىء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز**»[٣].

قال القاضى: يَحْتَمِل أَنَّ الْعَجْز هُنَا عَلَى ظَاهِره، وَهُوَ عَدَم الْقُدْرَة. وَقِيلَ: هُوَ تَرْكُ مَا يجِب فِعْلُه، وَالتَّسْوِيف بِهِ وَتَأْخِيره عَنْ وَقْته قَالَ: وَيحْتَمِل الْعَجْز عَنِ الطَّاعَات، وَيَحْتَمِل الْعُمُوم فِى أُمُور الدُّنْيا وَالْآخِرَة. وَالْكَيس ضِدّ الْعَجْز، وَهُوَ النَّشَاط وَالْحِذْق بِالْأُمُورِ[٤].

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٢٤٦).

(٢) تحفة الأحوذى للمباركفورى (٣/ ٢٠١).

(٣) صحيح: رواه مسلم، (٢٦٥٥) كتاب القدر.

(٤) شرح النووى على مسلم (١٦/ ٢٠٥).

(٥) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[١][٢].

وهذان الحديثان يدلان على التصريح بإثبات القدر وأنه عام فى كل شىء، حتى أن العاجز قد قدر عجزه، والكيس قد قدر كيسه، فكل ذلك مُقدَّر فى الأزل، معلوم لله مراد له[٣]، وهذا يدل على وجوب الإيمان بالقدر.

وقَالَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يا بُنَى إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: مَقَادِيرَ كُلِّ شَىءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**». يا بُنَى إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيرِ هَذَا فَلَيسَ مِنِّى**»[٤].

أما هذا القلم ما هو؟ وكيف هو؟ وكيف يكتب؟ فهو من عالم الغيب الذى نؤمن به، ولا نعرف كُنهه، ولا نطلب حقيقته، كالعرش واللوح والكرسى ونحوهما... كل الذى يَعنينا هنا أن ما يكتبه هذا القلم الإلهى فى الكتاب المكنون هو «القدر».

وقد ورد فى القدر والإيمان به أحاديث كثيرة، تقصَّاها أحد جهابذة العلماء[٥] فبلغت ٢٢٧ حديثًا، منها ٧٢ حديثًا فى وجوب الإيمان بالأقدار،

---

(١) سورة القمر: الآيتان: (٤٨، ٤٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم: (٢٦٥٦) كتاب القدر.

(٣) انظر: شرح النووى على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٥).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧-٢٠١٨).

(٥) هو العالم اليمنى الإمام الحُجة المجتهد أبو عبد الله محمد بن المرتضى، المعروف بابن =

و١٥٥ فى ثبوتها.

(٦) وقد ورد عن النبى ﷺ التحذير من التكذيب بالقدر، وذلك فى الحديث الذى رواه أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة عاقٌّ ولا مدمن خمر، ولا مُكذب بقدر**»[(١)]. ولا شك أن هذه الأمور المنفى دخول الجنة بسببها متفاوتة وأعظمها التكذيب بالقدر، فالتصديق بالقدر واجب وسبب لدخول الجنة.

۞ قال أحد السلف: «مَن كذَّب بالقدر كذَّب بالإسلام؛ إن الله تعالى قدَّر أقدارًا وخلق الخلق بقدر، وقسَّم الآجال بقدر، وقسَّم الأرازق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى».

= الوزير، صاحب كتاب (إيثار الحق على الخلق) و(العواصم والقواصم)، و(ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) وغيرها من الكتب القيمة، توفى سنة ٨٤٠ هـ.

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦ / ٤٤١)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٦٧٥).



بعض الوصايا النبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر

۞ لقد أرسل الله نبيه محمدًا ﷺ ليُخرج البشرية كلها من أدران الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان ... وهو مَنْ هو ﷺ؟ إنه الرجل الذى ربَّاه الحق (جلَّ وعلا) وصنعه على عينه ليُربى به الكون كله.

۞ ومن أجل ذلك كان النبى ﷺ يربى أصحابه ويزكى نفوسهم بالإيمان والتوحيد واستقامة القلب والجوارح على طاعة الله (جلَّ وعلا).

۞ وها نحن نتعايش مع بعض الوصايا النبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر.

(١) الوصية الأولى:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِى الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يقُولُ: **«إذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيرْكَعْ رَكْعَتَينِ مِنْ غَيرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيرٌ لِى فِى دِينِى وَمَعَاشِى وَعَاقِبَةِ أَمْرِى - أَوْ قَالَ :عَاجِلِ أَمْرِى وَآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِى وَيسِّرْهُ لِى، ثُمَّ بَارِكْ لِى فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِى فِى دِينِى وَمَعَاشِى وَعَاقِبَةِ أَمْرِى - أَوْ قَالَ: فِى عَاجِلِ أَمْرِى وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّى وَاصْرِفْنِى عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِى الخَيرَ حَيثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِى»** قَالَ: **«وَيسَمِّى حَاجَتَهُ»**[(١)].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٨٢) كتاب الدعوات.

۞ وهذه الوصية النبوية تُعَدُّ تدريبًا عمليًّا على توطين النفس ورضاها بالقضاء والقدر، وتسليمها لما يقدر الله، اعتقادًا بأن ذلك هو الأصلح، والأنفع للعبد، فإذا هَمَّ المسلم بأمر من الأمور المباحة، من سفر أو زواج، أو تجارة أو غير ذلك فعليه أن يبادر إلى العمل بهذه الوصية النبوية، فيدعو بدعاء الاستخارة متذللًا أمام ربه، متواضعًا بين يديه، مستسلمًا لأمره، راضيًا بحكمه، داعيًا أن يختار الله له ما فيه الخير فى دينه ومعاشه وعاقبة أمره، وأن يصرف عنه هذا الأمر إن كان فيه شر، ثم يعزم على هذا الأمر، فإن انشرح صدره له، ويسَّر الله طريقه، فهو الخير الذى اختاره الله، وإن جاء الأمر على عكس ذلك، فعليه أن يفرح، لأن الله صرف عنه شرًّا واختار له ما يُصلحه، ولو لم يدرك الحكمة فلتطمئن نفسه ولا يبقى متعلقًا بهذا الأمر، أو قلقًا من أجله،... وبهذه الوصية النبوية، يدرب المسلم نفسه عمليًّا على الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، ويجاهد نفسه على مخالفة هواها ويربيها على الالتزام بأمر الله، لأن فى ذلك صلاح دُنياه وآخرته[1].

روى الأعمش عن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى يتيسر له، نظر إليه الله من فوق سبع سماوات، فيقول للملائكة: اصرفوه عنه فإنى إن يسَّرته له أدخلته النار، قال: فيصرفه الله عنه، قال: فيقول: من أين دُهيت؟ وما هو إلا فضل الله سبحانه.

ولذلك كان الرسول ﷺ يهتم كثيرًا بدعاء الاستخارة ليُعلمه لأصحابه، كما يعلمهم السورة من القرآن، وهذا دليل على غاية الاهتمام به، والحرص عليه[2].

(١، ٢) منهج الإسلام فى تزكية النفس (١/ ١٦١).

(٢) الوصية الثانية:

عن أبى هريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تَقُل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قُل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**» [(١)].

وفى هذا الحديث النبوى يبين الرسول ﷺ أن من أراد نيل محبة الله ورضوانه فعليه أن يبادر إلى تقوية إيمانه ومجاهدة نفسه، وطلب القوة فى العلم والجسم، وغير ذلك من عناصر القوة النافعة التى تتضافر جميعها لتكوين شخصية المسلم الذى يحبه الله سبحانه،... ولكى يحظى المسلم بذلك فلا بد له من الأخذ بالوصايا النبوية الواردة فى هذا الحديث: وهى أن يحرص على ما ينفعه ويطلب العون من الله سبحانه ولا يعجز، وأن يُسلِّم أمره لله فيما قدّر له فلا يسخط ولا يشتكى من المصائب ولا يدَعْ للشيطان مدخلًا يقول له: «لو أنى فعلت كذا وكذا» فكلمة «لو» تجلب الحسرة والأسى، وتزيد اللوعة وتورث القلق والاضطراب، ولن يستطيع إعادة ما فات ولا إحياء من مات مهما تحسر، وإنما سيجلب لنفسه الكآبة ولجسمه الأمراض والآلام ويتعرض لغضب الله، باعتراضه على قدره، فالعلاج العملى أن يقول: «قدّر الله وما شاء فعل»، مُعلنًا استسلامه لأمر الله ورضاه بقضائه وأن يُعوِّد لسانه على هذا القول كلما ناله شيء يكرهه [(٢)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٢) منهج الإسلام فى تزكية النفس (١/ ١٦٠).

(٣) الوصية الثالثة:

قال رسول الله ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[١]. وفى رواية البخارى: «**إذا نظر أحدكم إلى مَن فُضِّل عليه فى المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضل عليه**»[٢].

وفى هذا الحديث دواء لداء الحسد والتشكِّى من الأقدار، فالنفس التى تتطلع إلى الآخرين لن ترضى بحالٍ من الأحوال كلما بلغت درجة من الغنى والجاه تعودتها فملَّتها وتطلعت إلى المزيد فهى دائمًا فى تلهُّف إلى كثرة المال وتعلق به وسخط وحسرة وإزدراء للنعم، وجحود للمُنعم، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[٣].

فإذا اتبع المسلم هذه الوصية النبوية فإنه سيعرف قدر النعمة ويرضى بما قسم الله له، وينال القناعة، ويحظى بالسعادة ولو كان مبتلى بالفقر أو المرض أو المصائب المختلفة، لأنه إن كان فقيرًا لا يملك وفرة من المال فلينظر إلى من ابتُلى بالفقر المدقع والجوع الشديد، وإن كان مريضًا يشكو من بعض الآلام فلينظر إلى من ابتُلى بعاهة أو مرض مزمن خطير، وهكذا يبقى دائمًا مقدرًا للنعمة راضيًا بما قسم الله له شاكرًا صابرًا.

ولو أخذ المسلمون اليوم بهذه الوصية النبوية لسعدت أحوالهم،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٣) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٩٠) كتاب الرقاق.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٤٣٨) كتاب الرقاق.

واستقامت أوضـاعهم، وعرفـوا الثمـرة الحقيقيـة للإيمـان بالقـضاء والقـدر، وسارعوا إلى التنافس فى التقوى والعمـل الـصالح والتقـرب إلـى الله عوضًـا عن التنافس على حطام الدنيا الزائل [١].

***

(١) منهج الإسلام فى تزكية النفس (١/ ١٦٣).

القصص القرآني .. والإيمان بالقدر[(١)]

۞ من المعلوم قطعًا أن الدين عند الله هو الإسلام .. وأن جميع الرسل والأنبياء ومَن تبعهم كانوا معتقدين بعقيدة التوحيد الخالصة الصحيحة، كما أوحى إليهم ربهم تبارك وتعالى ،... والإيمان بصفات الله تعالى، ومنها، العلم والقدرة والإرادة والخلق كلها داخلة فى التوحيد الذى هو أساس دين الإسلام،... وتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء وغيرهم، وبيَّن قولهم بالقدر، وبأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون.

(١) فى قصة نوح عليه الصلاة والسلام: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[(٢)].

فهم قالوا لنوح عليه السلام مستعجلين: يا نوح قد جادلتنا أى: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك، فأتنا بما تعدنا من العذاب، فأجابهم نوح مبينًا أن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى، فهو الذى يأتيكم بالعذاب إن شاء، ثم بيَّن نوح أيضًا أن نُصحه لا ينفع إذا كان الله يريد إغواءهم، فإرادة الله غالبة، ومشيئته نافذة[(٣)].

فالآيات دلَّت على يقين نوح عليه السلام وإيمانه بالقدر.

(٢) وفى قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام لما أراد ذبحه بأمر

---

(١) بتصرف من كتاب (القضاء والقدر) / د. عبد الرحمن المحمود (حفظه الله).

(٢) سورة هود: الآيات: (٣٢-٣٤).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، وانظر أيضًا: تفسير السعدى (٣/ ٤٢٢).

الله،...يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[١].

فقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾: أى العمل، كما قال ابن عباس، أو المشى... والمعنى: مشى مع أبيه كما قاله قتادة[٢]، وقال ابن قتيبة: بلغ أن ينصرف معه ويعينه[٣]، وفى هذا يكون فى الغالب أحب ما يكون لوالديه، فرأى أبوه فى المنام أن الله يأمره بذبحه، ورؤيا الأنبياء وحى، فقال الابن مستسلمًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، فأخبر أنه موطّن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى لأنه لا يكون شىء بدون مشيئة الله[٤].

وهذا هو الشاهد.

(٣) وفى قصة يوسف عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[٥].

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ أى: إذا أراد أمرًا قيَّض له أسبابًا ويسَّره وقدَّره، إنه هو العليم بمصالح عباده، الْحَكِيمُ: فى أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده[٦]، فيوسف عليه السلام كان مؤمنًا بالقدر موقنًا أن ما جرى ويجرى له ولغيره إنما هو بقضاء الله وقدره.

---

(١) سورة الصافات: الآية: (١٠٢).

(٢) انظر: زاد المسير ابن الجوزى (٧/ ٧١) وما بعدها.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ص٢٧٣).

(٤) تفسير السعدى (٦/ ٣٨٩).

(٥) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).

(٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٦).

(٤) وموسى عليه الصلاة والسلام ذكر الله عنه إيمانه بأن الهداية والإضلال بيد الله، وهما تحت مشيئته، فقال تعالى في معرض قصته: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾[١]، فقوله: ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾: أي لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا من قبل هذا الوقت،.. قال موسى اعترافًا بالذنب وتلهُّفًا على ما فرط من قومه، أو المعنى: لو شئت أهلكتهم وإياى من قبل خروجنا حتى يعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموننى، وهذا على أن «لَوْ» للتمنى. ثم قال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾: أى ما هو إلا اختبارك وامتحانك تضل بهما من تشاء وتهدى من تشاء، ولا هادى لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت، فأنت وحدك لك الملك ولك الخلق والأمر[٢]، فقول موسى هذا يدل على تصديقه وإيمانه بالقدر، ولهذا قال الواحدى: «وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التى لا يبقى لهم معها عذر»[٣].

(٥) وفى قصة موسى مع الشيخ الكبير حينما ورد ماء مدين يقول تعالى عن الشيخ: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٤] ، والشاهد قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٥).

(٢) انظر فى تفسير الآية وبيان معانيها: كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لأبى القاسم محمد بن أحمد ابن جزى الكلبى الغرناطى (٢/ ٨٥)، وزاد المسير لابن الجوزى (٣/ ٢٦٨-٢٦٩)، والفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للجمل (٢/ ١٩٦).

(٣) انظر: فتح البيان فى مقاصد القرآن/ صديق حسن خان (٣/ ٤١٧) وما بعدها.

(٤) سورة القصص: الآية: (٢٧).

﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي: حسن الصحبة والوفاء، أو الصلاح العام ويدخل فيه صلاح المعاملة من باب أولى، وقيَّد ذلك بمشيئة الله تفويضًا للأمر إلى توفيق الله ومعونته[١].

(٦) ويقول تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام والخضر بعد أن بيَّن له أنه لا يستطيع الصبر معه،.... فأجابه موسى كما قال الله: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴾[٢].

ومعناه: سأصبر بمشيئة الله ولكن هل الاستثناء شامل قوله: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴾ أو لا؟ قولان للمفسرين والأرجح شموله لهما[٣]، قال فى تفسير الجلالين: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴾ أى: وغير عاصٍ ﴿لَكَ أَمۡرًا ﴾ تأمرنى به، وقيَّد بالمشيئة لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم، وهذه عادة الأنبياء والأولياء ألا يثقوا إلى أنفسهم طرفة عين[٤]. فتعليق الأمر بمشيئة الله تعالى دليل على إيمان موسى بأن أى شىء لا يكون إلا إذا قدَّره الله وشاءه،... وقصة موسى والخضر كلها فى باب القدر، وقد وردت بتمامها فى صحيح البخارى، وقال ﷺ فى آخرها: «**يرحم الله موسى وددنا لو أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما**»[٥].

(٧) وبعد أن خسف الله بقارون وبداره يقول تعالى عن قومه: ﴿ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكانى (٤/ ١٦٩).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٩).

(٣) انظر: تفسير القرطبى: الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧)، فتح البيان فى مقاصد القرآن، صديق حسن خان (٥/ ٤٧٧)، وانظر: زاد المسير لابن الجوزى (٥/ ١٧٠).

(٤) تفسير الجلالين: حاشية الجمل (الفتوحات الإلهية) (٣/ ٣٧).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٢) كتاب العلم، ومسلم (٢٣٨٠) كتاب الفضائل.

وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾[١].

فقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ لبعض عباده ويضيقه على بعضهم فله الأمر، يفعل ما يشاء سبحانه وتعالى[٢].

(٨) ويقول تعالى عن زكريا ومريم: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾[٣].

فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: الراجح أنه من كلام مريم، وهو يفيد التقرير بأن الله قد يرزق عباده بغير حساب، وأن ذلك مرتبط بمشيئته سبحانه[٤].

(٩) وفي قصة الرجل صاحب الجنتين، يقول تعالى عن صاحبه أنه قال له وهو يحاوره ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾[٥] أي: هلَّا قلت عندما دخلتها: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي الأمر بمشيئة الله، وما شاء الله كان فترد أمر جنتك من الحُسن والنضارة لخالقه سبحانه، ولا تفتخر به لأنه ليس من عملك وصنعك ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: وهلَّا قلت: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، معترفًا بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها، وإن شاء أفناها، وأنك عاجز عنها، وعن غيرها لولا معونة الله[٦].

فهذا يدل على إيمان الرجل بالقضاء والقدر ودعوته إليه.

---

(١) سورة القصص: الآية: (٨٢).

(٢) انظر: تفسير السعدى (٦/ ٦١).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

(٤) انظر: روح المعانى: الألوسى (٣/ ١٤١)، وانظر فتح البيان فى مقاصد القرآن/ صديق حسن خان (٢/ ٤٨).

(٥) سورة الكهف: الآية: (٣٩).

(٦) انظر: فتح البيان فى مقاصد القرآن/ صديق حسن خان (٥/ ٤٥٤-٤٥٥).

(١٠) والجن يذكر تعالى أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [1]، فهم بعد أن مُنعوا من استراق السمع جزموا أن الله أراد أن يُحدث في الأرض حادثًا كبيرًا من خيرٍ أو شرٍّ، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ....﴾ الآية،... فهم مؤمنون بأن الله له الإرادة المطلقة، وقد كانوا مؤدبين فقد أضافوا الخير إلى الله تعالى والشر حذفوا فاعله تأدُّبًا [2].

❁ فهذه النصوص التي أشرنا إليها - ونحن إنما ذكرنا نماذج فقط - تدل على عدة أمور:

أحدها: أن الأصل في البشرية التوحيد خلافًا لنظرية تطور الأديان.

الثاني: أن الإقرار بالقدر جزء من هذا التوحيد الذي هو دين أبينا آدم ودين الرسل من بعده.

الثالث: وحدة دين الرسل من جهة العقيدة - وإن اختلفت شرائعهم - والإيمان بالقدر جزء من هذه العقيدة.

---

(١) سورة الجن: الآية (١٠).

(٢) تفسير ابن كثير - سورة الجن (٨/ ٢٦٧).

القول بالقدر في عهد النبي ﷺ

۞ نحن نعلم يقينًا أن نزول القرآن ووجود النبى ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم كان له الدور الأساسى فى سلامة عقيدة أصحاب الرسول ﷺ وصفائها ونقائها من أى شائبة.

ولذلك لم يقع فى عهد الرسول ﷺ أى انشقاق أو ابتداع فى أمور العقيدة (ومنها القدر) وهذا لا يعنى عدم وقوع بعض الأسئلة التى يأتى جوابها حاسمًا من الرسول ﷺ، أو المخاصمة حول القدر التى يُنهيها أيضًا رسول الله ﷺ، أو المخاصمة من جانب المشركين فقط.

۞ **وإذا ما استعرضنا هذه الفترة سنقف على الحوادث التالية:**

۞ كان رسول الله ﷺ يبين لأصحابه أن كل شىء يجرى بقضاء الله وقدره، حتى فى الأمور التى يعتادها الناس، فقد روى أبو زرعة قال: حدثنا صاحبٌ لنا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «**لا يُعدى شىءٌ شيئًا**»، فقال أعرابى: يا رسول الله! البعير أجرب الحشفة ندبنه[1] فيجرب الإبل كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فمن أجرب الأول؟ لا عدوى ولا صَفَر[2]، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ورزقها ومصائبها**»[3].

---

(١) الحشفة: ما فوق الختان، أو رأس الذكر، وندبنه - ضُبط بضم النون وسكون الدال وكسر الباء- والدبن حظيرة الغنم، والمعنى ندخل البعير فى المعاطن فيجرب الإبل كلها. (تحفة الأحوذى ٣/ ٢٠٠- الهندية) وفى نسخة بذنبه.

(٢) ولا صفر: قال البخارى: هو داء يأخذ البطن، وقيل: هو الحية، وقيل: المراد شهر صفر؛ لأن العرب فى الجاهلية كانوا يحرمون صفر، ويستحلون المحرم، فنهى الرسول عن ذلك- انظر: فتح البارى (١٠/ ٧١- الطبعة السلفية).

(٣) رواه البخارى (٥٧١٧) كتاب الطب، والترمذى وابن ماجه، وهذا لفظ الترمذى.

فبيَّن رسول الله ﷺ أن العدوى ليست هى التى تُمرض السليم، بل المرض إنما هو بتقدير من الله تعالى، ولهذا أجاب الرسول ﷺ الأعرابى بقوله: «**فمن أجرب الأول**»، ثم بيَّن أنَّ الله خلق كل نفسٍ وحياتها ومصائبها وجعل لذلك أسبابًا[١].

۞ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء مشركوا قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون فى القدر فنزلت الآية: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[٢]. ويُلاحَظ هنا أن المخاصمة جاءت من المشركين فنزلت الآية مهددة لهم بالنار، ورادَّة عليهم فى دعواهم.

۞ وعَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (خَرَجَ عَلَينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِى الْقَدَرِ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حتَّى كَأَنَّمَا فُقِئ فِى وَجْنَتَيهِ الرُّمَّانُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَينا فقَالَ: «**أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِى هَذَا الْأَمْرِ ..عَزَمْتُ عَلَيكُمْ عَزَمْتُ عَلَيكُم أَلا تنازعوا فِيهِ**»[٣].

وفى رواية أخرى: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِى الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِى وَجْهِهِ، حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ، فَقَالَ: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ، تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ**» قَالَ: فَقَالَ: عَبْدُ اللهِ ابْنُ عَمْرٍو، مَا غَبَطْتُ نَفْسِى بِمَجْلِسٍ تَخَلَّفْتُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا غَبَطْتُ نَفْسِى بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَتَخَلُّفِى عَنْهُ»[٤].

---

(١) انظر تحفة الأحوذى (٣/ ٢٠٠).

(٢) سورة القمر: الآيتان: (٤٨-٤٩).

(٣) حسن: رواه الترمذى (٢١٣٣)، وحسنه الألبانى فى المشكاة (٩٨، ٩٩).

(٤) حسن صحيح: رواه ابن ماجه (٨٥)، وصححه الألبانى فى تخريج الطحاوية (ص٢١٨).

فنلاحظ أن التنازع والمخاصمة وُجدت بين الصحابة حول القدر، ولكن لما نهاهم رسول الله - وهو مُغضَب - كَفُّوا ورجعوا عن ما هم فيه، بل وندموا حتى يصل الأمر إلى أن أحد الصحابة لا يغبط نفسه بمجلس فيه الرسول تخلف عنه إلا هذا المجلس فرحًا بكونه لم يشهده.

۞ وقد وردت أحاديث فى السنن وغيرها عن النبى ﷺ فى ذم القدرية ووصفهم بأنهم مجوس هذه الأمة، وهى وإن كانت لا تخلو من مقال، إلا أن بعضهم يصل إلى درجة الحسن، وبعضها يقوى بعضًا.

۞ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**الْقَدَرِيةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا، فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا، فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**»[1].

۞ وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُكَذِّبُونَ بِأَقْدَارِ اللهِ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ، وَإِنْ لَقِيتُمُوهُمْ فَلَا تُسَلِّمُوا عَلَيهِمْ**»[2].

۞ وعن نَافِعٍ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما جاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يقْرأُ عَلَيكَ السَّلَامَ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ بَلَغَنِى أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّى السَّلَامَ، فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**يكُونُ فِى هَذِهِ الْأُمَّةِ - أَوْ- فِى أُمَّتِى خَسْفٌ أَوْ مَسْخٌ أَوْ قَذْفٌ فِى أَهْلِ الْقَدَرِ**»[3].

۞ وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِى ﷺ: «**يكُونُ فِى أُمَّتِى خَسْفٌ وَمَسْخٌ**

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٤٢).

(٢) حسن - دون جملة التسليم -: رواه ابن ماجه (٩٢)، وحسنه الألبانى فى المشكاة (١٠٧)، الظلال (٣٢٨)، الروض النضير (١٩٧)، دون جملة التسليم.

(٣) حسن: أخرجه الترمذى (٢١٥٢)، وابن ماجه (٤٠٦١)، وحسنه الألبانى فى المشكاة (١١٦).

وَذَلِكَ فِي الْمُكَذِّبِينَ بِالْقَدَرِ»[(١)].

۞ فهذه الأحاديث تدل على أن الرسول ﷺ قد حذَّر أصحابه من القدرية، ووصفهم بأنَّهم مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يقولون بإلهين، وهؤلاء يقولون بأن هناك خالقَين، فالله خالق، والعباد خالقون لأفعالهم.

۞ والصحابة - رضوان الله عليهم جميعًا - لم يخوضوا في القدر، بل سلَّموا وآمنوا بالله، وقد كان بين ظهرانيهم جماعات من المنافقين وغيرهم يعارضون ويجادلون رسول الله ﷺ، وخاصة أوقات الجهاد والمحنة، فكانت الآيات القرآنية تنزل فاضحة لهؤلاء، مُبينة أن الأمر بيد الله، وأن الآجال عنده، وأنه لو كُتب على أحد القتل لبرز إلى مضجعه، كما فصَّلت ذلك سورة آل عمران والتوبة وغيرهما.

يقول تعالى مُعقبًا على غزوة أُحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن

---

(١) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في المشكاة: (١٠٦)، وفي الصحيحة تحت حديث: (١٧٨٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٥٤).

يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١].

ولا شك أن هذه الآيات فيها البيان الشافى، وفيها ما يدفع كل شبهة أو لبس، سواء من جهة القدر أو غيره، ومن ثم بقى الصحابة بإيمانهم العميق وفهمهم الدقيق، مسلمين لله رب العالمين[٢].

---

(١) سورة التوبة: الآيتان: (٥٠-٥١).

(٢) انظر فى موضوع القدر فى عهد الرسول ﷺ: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لمصطفى عبد الرزاق (ص ٢٨١)، وانظر: تأثير الفكر الدينى فى البلاغة العربية للدكتور مهدى صالح السامرائى (ص ٦٠)، وانظر أيضًا: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، الدكتور صبحى الصالح (ص ٧٤) وما بعدها - نقلًا عن كتاب (القضاء والقدر) د. عبد الرحمن المحمود.

نهى النبي ﷺ عن الخوض في القدر

كل من أراد أن يبحث فى موضوع «القضاء والقدر» يواجه بعض الاعتراضات على جواز البحث والخوض فيه، ويستدل هؤلاء المعترضون بأحاديث وردت فى ذلك، وبأن أصل القدر سر الله، لم يطَّلع عليه مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبى مُرسَل.

۞ ولما كان موضوع هذا الكتاب الذى بين أيدينا عن القضاء والقدر كان لزامًا علينا أن نناقش ذلك، ولو بصورة مختصرة .. فنورد بعض ما ورد من الأحاديث ثم نرد الاعتراضات الواردة.

- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر، قال: وكأنما تفقَّأ فى وجهه حَبُّ الرُّمَّان من الغضب، قال: فقال لهم: «**ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك مَن كان قبلكم**»[1].

وعن ثوبان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «**إذا ذُكر أصحابى فأمسكوا، وإذا ذُكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا**»[2].

وروى أبو هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أن النبى ﷺ قال للصحابة لما تنازعوا فى القدر: «**عزمت عليكم أن تنازعوا فيه**»[3]، وقد اختلف العلماء فى توجيه هذه الأحاديث:

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة (٨٥)، وصححه الألبانى فى تخريج الطحاوية (ص ٢١٨).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٩٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٥).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ٣٤).

(أ) فبعضهم رأى ثبوتها، واستدل بها على وجوب الوقف على الخوض والكلام فى القدر، وقال: إن هذا أحسن المذاهب لمن آثر الخلاص والسلامة.

(ب) وبعضهم رَدَّ هذه الأحاديث، وقال: إن أسانيدها كلها لا تخلو من مقال، فهى إذن ضعيفة لا يُحتَج بها [(١)].

(ج) والذى نُرجحه أنها ثابتة، وأقل ما فيها أنها حسنة، لأن لها طُرقًا يقوى بعضها بعضًا، وحينئذ فالجواب عنها كما يلى:

- إن المنهى عنه إنما هو الخوض فيها بالباطل، وذلك بالخوض فى كل ما يتعلق بالقدر، ومحاولة معرفة وجه الحق فيه عن طريق العقل القاصر، ولا شك أن هذا لا يجوز.

- والقدر ركن من أركان الإسلام، وقد وردت فيه الآيات والأحاديث عن النبى ﷺ، فكيف يأتى النهى عن الكلام فيه؟ إن هذا دليل على أن النهى إنما هو مُنصَبٌّ على الخوض فيه على وجه التنازع والاعتراض على الله تعالى لا وجه المعرفة الصادقة من الأدلة الصحيحة.

- وفى الأحاديث نفسها ما يدل على ذلك، ألا وهو قوله: «**إذا ذُكر أصحابى فأمسكوا**» فهل معناه الإمساك عن ذكر الصحابة وفضائلهم وجهادهم؟ أم أن النهى مُنصَبٌّ على شىء معين؟ وهو الإمساك عن ذكرهم بالباطل، وعما شجر بينهم رضوان الله عليهم جميعًا وكذلك يُقال فى القدر.

- والرسول ﷺ نهى الصحابة عن التنازع فى القدر، وهذا حق؟ لأن

(١) القضاء والقدر / د. عبد الرحمن المحمود (ص٢٥).

التنازع مظنة الاختلاف، وهذا داعٍ إلى القول فيه بغير الحق، وهو مَنهيٌّ عنه،... وإلا فالقدر من أركان الإيمان، ولا بد من معرفة هذا الركن بالتفصيل كما جاء فى الكتاب والسنة وأقوال السلف، حتى يتحقق الإيمان، وحتى يثمر ثماره المرجوة.

- وعلماء السلف الذين ذكروا القدر، وبحثوا فيه، بل ألَّفوا رسائل وكُتبًا مستقلة،... هل معناه أنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ؟ وإذا كانت تَرِدُ حوله بعض الإشكالات، ألا يجب بيان الحق للناس حتى لا يضلوا؟ وحتى لا يكونوا على بصيرة من أمر دينهم؟

- أما ما يُؤْثَر عن بعض العلماء من أن القدر سر الله فى خلقه، وهذا صحيح يجب إدراكه لكل من يبحث فى القدر، لكن هذا محصور فى الجانب الخفى من القدر، ألا وهو كونه سبحانه وتعالى أضل وأهدى، وأمات وأحيا، ومنع وأعطى، وقسم ذلك بين عباده بقدرته ومشيئته النافذة.

فمحاولة معرفة سر الله فى ذلك لا تجوز، لأن الله حجب علمها حتى عن أقرب المقربين،... أما جوانب القدر الأخرى وحِكَمه العظيمة، ومراتبه ودرجاته وآثاره، فهذا مما يجوز الخوض فيه، وبيان الحق للناس فيه، بل بيانه مما يندب إليه وينبغى شرحه وإيضاحه للناس، إذ الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان التى ينبغى تعلُّمها ومعرفتها[1].

---

(١) القضاء والقدر / د. عبد الرحمن المحمود (ص٢٧).

القول بالقدر في عهد الخلفاء الراشدين وعهد الصحابة[١]

كان أمر العقائد فى عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم على ما كان عليه فى عهد رسول الله ﷺ من سلامة العقيدة، والتسليم لله ورسوله ﷺ فى كل أمر وعدم الجدال والخوض فيما خاض فيه من بعدهم.

وبالنسبة لعقيدة القضاء والقدر، كان موقف الصحابة والتابعين التسليم والإيمان به على الوجه الحق، كما بيَّنه لهم رسول الله ﷺ ولم يكن يبدر منهم شيء إلا كما بدر من بعضهم فى عهد الرسول ﷺ وسرعان ما يزول الالتباس بالإيمان القوى بعد البيان والإيضاح،... ولعل من المناسب أن نورد بعضًا من هذه الوقائع التى وقعت بين الصحابة حول القدر - على وجه الاستشكال لا على وجه الاعتراض، لنتبين من خلالها كيف كانوا يعالجون الشبهات، وكيف كانوا يسارعون إلى الإيمان والتسليم:

(١) فمن ذلك ما جاء فى رواية مسلم المشهورة فى أول من قال بالْقدر حين لقى يحيى بن يعمر، وَحميد بن عبد الرَّحْمَن الْحِمْيرِى عبد الله بن عمر، فيه: فقلت -يحيى بن يعمر-: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ[٢] - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ- وَأَنَّهُمْ يزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ[٣]، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّى بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّى»، وَالَّذِى يحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ

---

(١) بتصرف من كتاب (القضاء والقدر) - د. عبد الرحمن المحمود.

(٢) يتقفرون: الاقتفار والتقفُّر: الاقتداء والاتباع، ومعناه: يطلبون العلم ويتتبعونه.

(٣) أُنُف: أي: مُستأنَف، لم يسبق به علم ولا قدر من الله.

مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يؤمِنَ بِالْقَدَرِ»... ثُمَّ ذكر حديث جبريل المشهور [١].

(٢) ومن ذلك ما وقع لابْنِ الدَّيلَمِى، حيثُ قَالَ: «أَتَيتُ أُبَى بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ لَهُ: وَقَعَ فِى نَفْسِى شَىءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِى بِشَىءٍ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِى، قَالَ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِى سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ»، قَالَ: ثُمَّ أَتَيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيتُ حُذَيفَةَ بْنَ الْيمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيتُ زَيدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِى عَنِ النَّبِى ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ». وهكذا [٢].

فهؤلاء الصحابة كلهم يتفقون على جوابٍ واحد لهذه المسألة، مما يدل على وضوح المنهج، ووضوح العقيدة، لسلامة المصدر الذى أخذوا عنه جميعًا عقيدتهم وإيمانهم ومعرفتهم التامة بربهم تبارك وتعالى.

(٣) ومن ذلك ما رُوى عَنْ أَبِى الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِى، قَالَ: قَالَ لِى عِمْرَانُ بْنُ حُصَينٍ: أَرَأَيتَ مَا يعْمَلُ النَّاسُ وَيكْدَحُونَ فِيهِ [٣]، أَشَىء قَضَى عَلَيهِمْ وَمَضَى عَلَيهِمْ مِنْ قَدَرٍ سَابق؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبِلُونَ بِهِ فِيمَا أَتَاهُمْ نَبِيهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَىءٌ قُضِى عَلَيهِمْ، وَمَضَى عَلَيهِمْ، قَالَ: فَقَالَ: أَفَلَا يكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٤٤).

(٣) يكدحون: الكدح: السعى فى العمل.

شَىءٍ خَلْقُ اللهِ وَمِلْكُ يدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فقَالَ لِى: يرْحَمُكَ اللهُ إِنِّى لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ[١] عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَينِ مِنْ مُزَينَةَ أَتَيا رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَا: يا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيتَ مَا يعْمَلُ النَّاسُ الْيوْمَ، وَيكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَىءٌ قُضِى عَلَيهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيهِمْ؟ فَقَالَ: «**لا، بَلْ شَىءٌ قُضِى عَلَيهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِى كِتَابِ اللهِ عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[٢]**»[٣].

فهذه القصة واضحة الدلالة فيما قلناه قبل قليل، فعمران بن حصين رضي الله عنه لم يقصد إيراد الشبهة، وإنما أراد توضيح أمر القدر بهذا الأسلوب التساؤلى، والجواب عنده واضح، فقد سمعه من رسول الله ﷺ، ولكن ما أروع إجابة أبى الأسود رحمه الله وقد فزع لهذا الأمر فزعًا شديدًا، حيث قال: «كُلُّ شَىءٍ خَلْقُ اللهِ وَمِلْكُ يدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ».

(٤) وعن عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ سُلَيمٍ، قَالَ: قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِى رَبَاحٍ فَقُلْتُ لَهُ: يا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ أَهْلَ البَصْرَةِ يقُولُونَ فِى القَدَرِ، قَالَ: يا بُنَى، أَتَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاقْرَأِ الزُّخْرُفَ، قَالَ: فقَرَأْتُ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٤] فقَالَ: أَتَدْرِى مَا أُمُّ الكِتَابِ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَقَبْلَ أَنْ

(١) أحزر: أى: أختبر وأمتحن.

(٢) سورة الشمس: الآيتان: (٧، ٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٠) كتاب القدر.

(٤) سورة الزخرف: الآيات: (١-٤).

يَخْلُقَ الأَرْضَ، فِيهِ إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَفِيهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [(١)].

قَالَ عَطَاءٌ: فَلَقِيتُ الوَلِيدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَتْ وَصِيَّةُ أَبِيكَ عِنْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: دَعَانِي أَبِي فَقَالَ لِي: يا بُنَى، اتَّقِ اللهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِى اللهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللهِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ القَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**».

قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يا بُنَى، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَىءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ** » يا بُنَى إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيرِ هَذَا فَلَيسَ مِنِّى**»[(٢)].

ونأخذ من هذا كيف كان حرص الصحابة على أن يتلقى عنهم مَن بعدهم العقيدة السليمة، وألا يبتدعوا فيها فيضلوا.

(٥) وهناك وقائع وأحداث بين الصحابة مع غيرهم تُبين موقفهم من القدر،... فمن ذلك ما روى أن عمر رضي الله عنه أُتى بسارق فقال له: لِمَ تسرق؟ قال: سرقت بقضاء الله وقدره[(٣)]، فقال له عمر: ونحن نقطع يدك بقضاء الله

---

(١) سورة المسد: الآية: (١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧-٢٠١٨).

(٣) ذكره ابن تيمية فى منهاج السنة (٢/ ٥٩).

وقدره،... فالسارق احتجَّ بالقدر على السرقة، وهى من المعايب، وهذا لا يجوز، ولهذا كان جواب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حاسمًا، وبنفس الأسلوب الذى احتج به السارق.

۞ ويبين عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمن سأله أن الحذر لا ينفع عن القدر إذا حَلَّ، فحين سُئل: كَيفَ تَفَقَّدَ سُلَيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْهُدْهُدَ مِنْ بَينِ الطَّيرِ؟، قَالَ: «إِنَّ سُلَيمَانَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِ، نَزَلَ مَنْزِلًا فَلَمْ يدْرِ مَا بُعْدُ الْمَاءِ، وَكَانَ الْهُدْهُدُ مُهَنْدِسًا، قَالَ: فَأَرَادَ أَنْ يسْأَلَهُ عَنِ الْمَاءِ فَفَقَدَهُ،... قُلْتُ: وَكَيفَ يكُونُ مُهَنْدِسًا وَالصَّبِى ينْصُبُ لَهُ الْحِبَالَةَ فَيصِيدُهُ، قَالَ: إِذَا جَاءَ الْقَدَرُ حَالَ دُونَ الْبَصَرِ»(١).

وهناك قصة أخرى عن ابن عباس مشابهة لهذه القصة، وهى تبين أيضًا شدة موقفه فى الحق،... فعن أَبِى يحْيى مَوْلَى ابْنِ عَفْرَاءَ، قَالَ: أَتَيتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَمَعِى رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يذْكُرُونَ الْقَدَرَ أَوْ يُنْكِرُونَهُ، فَقُلْتُ: يا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا تَقُولُ فِى الْقَدَرِ لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَتَوْكَ يسْأَلُونَكَ؟ -وَقَالَ: مَرَّةً يسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَدَرِ - إِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ أَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ؟، فَحَسَرَ قَمِيصَهُ حَتَّى أَخْرَجَ مَنْكِبَهُ، وَقَالَ: «يا أَبَا يحْيى لَعَلَّكَ مِنَ الَّذِينَ ينْكِرُونَ الْقَدَرَ وَيُكَذِّبُونَ بِهِ، وَاللهِ لَوْ أَنِّى أَعْلَمُ أَنَّكَ مِنْهُمْ أَوْ هَذَينِ مَعَكَ لَجَاهَدْتُكُمْ، إِنْ زَنَا فَبِقَدَرٍ، وَإِنْ سَرَقَ فَبِقَدَرٍ، وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَبِقَدَرٍ»(٢).

وهكذا يحسم ابن عباس هذا الأمر مبينًا وجه الحق، معلنًا أنه سيجاهد من خالف فى هذه العقيدة.

---

(١) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد فى كتاب السنة فى مواضع متعددة (٢/ ١١٨، ١٢٤، ١٢٥).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد فى كتاب السنة (٢/ ١٢٥-١٢٦)، وانظر: معارج القبول للشيخ حافظ حكمى (٢/ ٣٦٩).

۞ وأحيانًا نجد بعض الصحابة يعرض على بعض إخوانه شيئًا من الشُّبَه ليبين وجه الحق فيها،... فعن مَعْمَر، قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِأَبِى مُوسَى الْأَشْعَرِى: «وَدِدْتُ أَنِّى أَجِدُ مَنْ أُخَاصِمُ إِلَيهِ رَبِّى عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَنَا، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: أَيُقَدِّرُ عَلَىَّ شَيئًا يُعَذِّبُنِى عَلَيهِ؟ فَقَالَ أَبُو مُوسَى: نَعَمْ، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ لَا يظْلِمُكَ، فَقَالَ عَمْرٌو: صَدَقْتَ»[1].

۞ تلك نماذج وصور من مواقف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حول القدر[2]، وهى تعطينا صورة لحال السلف الصالح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومَن عاصرهم، فى إيمانهم وعقيدتهم، وهى توحى أيضًا بالمنهج الواجب اتخاذه عند دراسة العقيدة، وكيف تكون التربية الحقيقية حتى يتكون المجتمع المسلم، ويتربَّى أفراده، كما تَربَّى صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا شك أن الانحراف الخطير الذى يعيشه العالم الإسلامى اليوم – فى العقيدة وغيرها – ناشئ من التخبُّط فى دراسة العقيدة الإسلامية، والعدول عن مصادرها الأصلية، ومن التخبُّط فى المنهج الذى تُدرَّس به هذه العقيدة.

---

(١) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد فى كتاب السنة (٢/ ١٢٤).

(٢) انظر فى هذا الموضوع أيضًا: كتاب (الإمام الصادق) لمحمد أبى زهرة (ص ١٤٣).

من أقوال الصحابة رضي الله عنهم في القدر

۞ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ فَكَانُوا فِي قَبْضَتِهِ، فَقَالَ لِمَنْ فِي يمِينِهِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ، وَقَالَ لِمَنْ فِي يدِهِ الْأُخْرَى: ادْخُلُوا النَّارَ وَلَا أُبَالِي فَذَهَبَتْ إِلَى يوْمِ الْقِيامَةِ.

۞ وَخَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَهُ جُمْهُورُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ حَتَّى قَدِمَ دِمَشْقَ فَوَقَعَ بِالشَّامِ طَاعُونٌ، فَخَافَ عُمَرُ أَنْ يَقْدُمَ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ كَانَ بِالشَّامِ فَقِيهًا، فَاخْتَلَفُوا عَلَيهِ حَتَّى جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَرَوَى لَهُ عَنِ النَّبِي ﷺ: **«إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضِ قَوْمٍ فَلَا تُقْدِمُوا عَلَيهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»**، فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَخَطَبَهُمْ عَلَى بَابِ الْجَابِيةِ[1] لِيَقُصَّ عَلَيهِمْ وَيُعَرِّفَهُمْ سَبَبَ انْصِرَافِهِمْ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: كَمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَأَمَرَ رَسُولُهُ اسْتِفْتَاحَ الْخَطِيبِ بِهَا: مَنْ يضْلِلُ اللهُ فَلَا هَادِي لَهُ، وَمَنْ يهْدِي فَلَا مُضِلَّ لَهُ، فَقَالَ جَاثْلَيقُ[2] النَّصَارَى: إِنَّ اللهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا مَرَّتَينِ أَوْ ثَلَاثًا، فَأَنْكَرَ الصَّحَابَةُ ذَلِكَ عَلَيهِ مَرَّتَينِ.

فَقَالَ عُمَرُ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَا يقُولُ؟

قَالُوا: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يزْعُمُ أَنَّ اللهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا، فَقَالَ عُمَرُ: كَذَبْتَ بَلِ

---

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق.

(٢) جاثليق: لعلها رتبة دينية عند النصارى.

اللهُ خَلَقَكَ وَاللهُ أَضَلَّكَ، ثُمَّ يميتُكَ. فَيُدْخِلُكَ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ، أَمَا وَاللهِ لَوْلَا عَهْدٌ لَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ،... وَتفرَّقَ النَّاسُ وَمَا يخْتَلِفُ فِي الْقَدَرِ اثْنَانِ[1].

۞ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه، خَرَجَ إِلَى الشَّامِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ[2] لَقِيهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ، أَبُوعُبَيدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّامِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، فَاختَلَفُوا، فقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ مَعَكَ بَقِيةَ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ.

فَقَالَ عُمَرُ: ارْتَفِعُوا عَنِّي.

ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ المُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ.

فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي.

ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيخَةِ قُرَيشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيهِ رَجُلاَنِ، فقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيهِ. قَالَ أَبُوعُبَيدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ: يَا أَميرَ المُؤمِنينَ أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غيرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيدَةَ؟ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ،

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٢٦).

(٢) سرغ: قرية بوادى تبوك فى أرض الجزيرة.

أَرَأَيتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيا لَهُ عُدْوَتَانِ[١]، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيسَ إِنْ رَعَيتَ الخَصْبَةَ رَعَيتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيتَ الجَدْبَةَ رَعَيتَهَا بِقَدَرِ اللهِ؟

قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - وَكَانَ مُتَغَيبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ - فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**» قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ[٢].

۞ وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِي: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ يطُوفُ بِالْبَيتِ يقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي فِيهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي عَلَى الشِّقْوَةِ فَامْحُنِي مِنْهَا وَاثْبِتْنِي فِي السَّعَادَةِ، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ.

❊❊❊

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: لَا يؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ مَا أَصَابَهُ لَمْ يكُنْ لِيخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يكُنْ لِيصِيبَهُ. اهـ.

❊❊❊

۞ **وقال ابن مسعود:** لَأَنْ أَعُضَّ عَلَى جَمْرَةٍ أَو أَنْ أَقبض عَليهَا حَتَّى تَبْرُدَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لِشَيءٍ قَدْ قَضَاهُ اللهُ: لَيتَهُ لَمْ يكُنْ، وقال: لَا يَطْعَمُ رَجُلٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَيُقِرَّ وَيعْلَمَ أَنَّهُ ميتٌ مُخْرَجٌ، وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ. اهـ.

---

(١) ثنية عدوى وهو جانب من الوادي وحافته.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٧٢٩) كتاب الطب.

۞ وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَصْدَقُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَأَحْسَنُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، فَاتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَإِنَّ الشَّقِي مِنْ شَقِي فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدَ مِنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ[١].

۞ وقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: انْتَهَى عَجَبِي إِلَى ثَلَاثٍ: الْمَرْءُ يفِرُّ مِنْ الْقَدَرِ وَهُوَ لَاقِيهِ، وَيرَى فِي أَعْينِ أَخِيهِ الْقَذَا فَيعِيبهَا، وَيكُونُ فِي عَينِهِ مِثْلُ الْجِذْعِ فَلَا يعِيبُهَا وَيكُونُ فِي دَابَّتِهِ الصَّعَرُ وَيُقَوِّمُهَا جُهْدَهُ، وَيكُونُ فِي نَفْسِهِ الصَّعَرُ فَلَا يُقَوِّمُهَا.

۞ وقَالَ أَبو الدَّرْدَاءِ: «ذِرْوَةُ الْإِيمَانِ أَرْبَعٌ: الصَّبْرُ لِلْحكَمِ، وَالرِّضَا بِالْقَدَرِ، وَالْإِخْلَاصُ لِلتَّوَكُّلِ وَالِاسْتِسْلَامُ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ»[٢].

۞ وقال ابن عمر: إِنَّ أَوَّلَ مَا خلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فَجَرَى الْقَلَمُ بمَا هُوَ كَائِنٌ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ النَّاسُ اليومَ فِيمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ. اهـ.

۞ وعَنْ يحْيى بْنِ يعْمَرَ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نُسَافِرُ فَنَلْقَى قَوْمًا يقُولُونَ: لَا قَدَرَ، قَالَ: «إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَهُمْ مِنْهُ بَرَاءٌ، ثَلَاثَ مِرَاتٍ».

۞ وَقَالَ ابنُ عبَّاسٍ: الْقَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَلَمْ يؤْمِنْ بِالْقَدَرِ كَانَ كُفْرُهُ بِالْقَضَاءِ نَقْضًا لِلتَّوْحِيدِ، وَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَآمَنَ بِالْقَدرِ كَانَ

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٣٨).

(٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٤٩).

الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا.

۞ وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يقُولُ: الْعَجْزُ وَالْكَيسُ بِقَدَرٍ.

۞ وقال ابن عباس: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَانَ عَلَى عَرْشِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ شَيئًا فَخلَقَ الْخَلْقَ فكَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يوْم الْقِيامَة فَإِنَّمَا يُجْرِى النَّاسَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرَغَ مِنْهُ.

۞ وعن عَطَاءِ بْنِ أَبِى رَبَاحٍ قال: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يا أَبَا عَبَّاسٍ أَرَأَيتَ مَنْ صَدَّنِى عَنِ الْهُدَى، وَأَوْرَدَنِى الضَّلَالَةَ ، وَالرَّدَى ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ ظَلَمَنِي؟ قَالَ: إِنْ الْهُدَى إِنْ كَانَ شَيئًا لَكَ عِنْدَهُ فَمَنَعَكَاهُ فَقَدْ ظَلَمَكَ، وَإِنْ كَانَ هُوَ لَهُ يُؤْتِيهِ مِنْ يشَاءُ فَلَمْ يظْلِمْكَ، قُمْ لَا تُجَالِسْنِى[١].

۞ وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِى: قُضِى الْقَضَاءُ وَجَفَّ الْقَلَمُ وَأُمُورٌ بِقَضَاءٍ فِى كِتَابٍ قَدْ خَلَا[٢].

۞ قال الإمام ابن القيم: وهذه الآثار كلها تُحقق هذا المقام -أي: الإيمان بالقضاء والقدر- وتُبين أن مَن لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه وهذا فى كل كتاب أنزله الله على رسوله ﷺ[٣].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٣٧-٧٣٩) بتصرف.

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٧٤٦).

(٣) طريق الهجرتين (ص ١١٢).

أفعال العباد مخلوقة مُقدرة[١]

لا يَخرج العباد وأفعالهم عن غيرها من المخلوقات، فقد عَلِم الله ما سيخلقه من عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب كل ذلك فى اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى قدر الله فيهم، فعملوا على النحو الذى شاءه فيهم، وهدى مَن كتب الله له السعادة، وأضل مَن كتب عليه الشقاوة، وعلم أهلَ الجنة ويسَّرهم لعمل أهلها، وعلم أهلَ النار ويسَّرهم لعمل أهلها.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢].

وجاءت أحاديث كثيرة تَواتَر معناها على أن رب العباد علم ما العباد عاملون، وقدّر ذلك وقضاه وفرغ منه، وعلم ما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاء، وأخبرت مع ذلك كله أن القدر لا يمنع من العمل، «**اعملوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له**».

وسنورد هنا بعض النصوص الدالة على ذلك:

النصوص الدالة على تقدير الله أفعال العباد

(١) الأحاديث الدالة على أن أعمال العباد جفَّت بها الأقلام وجَرَتْ بها المقادير:

روى مسلم فى صحيحه عن جابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعشم قال: يا رسول الله، بيِّن لنا ديننا كأنَّا خُلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جَفَّت به الأقلام، وجَرَتْ به المقادير، أم فيما يُستقبَل؟ قال: « **لا، بل فيما**

---

(١) بتصرف من (القضاء والقدر) - د. عمر الأشقر رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) سورة الصافات: الآية: (٩٦).

جفَّت به الأقلام وجرت بها المقادير ». قال: ففيم العمل؟

فقال: « **اعملوا فكلٌّ مُيسَّر** » وفى رواية: «**كل عامل مُيسَّر لعمله**»[١].

(٢) علم الله بأهل الجنة وأهل النار:

وروى البخارى عن عمران بن حصين قال: قال رجل: يا رسول الله، «أَيُعْرف أهل الجنة من أهل النار؟

فقال: «**نعم**».

قال: فلِمَ يعملون؟ قال: «**كلٌّ يعمل لما خُلق له، أو يُسِّر له**»[٢].

وروى مسلم فى صحيحه عن عليٍّ قال: «كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد[٣]. فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرةٌ[٤]. فنكّس[٥]. فجعل ينكث بمخصرته[٦]، ثم قال: «**ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كُتبت شقيه أو سعيدة** ».

قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا، ونَدَعْ العمل؟ فقال: «**من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة**». فقال[٧]: « **اعملوا فكُلٌّ مُيسَّر، أمّا أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٩٦) كتاب القدر.

(٣) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

(٤) المخصرة: عصا صغيرة.

(٥) نكس رأسه: خفضه.

(٦) أى يخط بمخصرته فى التراب.

(٧) هكذا فى الحديث كرر « فقال ».

فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة ». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1][2].

(٣) استخراج ذرية آدم من ظهره بعد خلقه وقسمهم إلى فريقين: أهل الجنة وأهل النار:

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الله مسح ظهر آدم بعد خلقه له، واستخرج ذريته من ظهره أمثال الذَّر، واستخرج منهم أهل الجنة وأهل النار.

۞ روى مالك والترمذى وأبو داود عن مسلم بن يسار قال: سئل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[3].

قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال: **«إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون »**.

فقال رجل: ففيم العمل يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: **« إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيُدخله الله الجنة. وإذا**

---

(١) سورة الليل: الآيات: (٥-١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٤٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر.

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٧٢).

خلق الله العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيُدخله الله النار »(١) .

۞ وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « **أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان** - يعني عرفه - **فأخرج من صُلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذَّر، ثم كلمهم قُبُلًا قال:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٢) »(٣) .

۞ وروى أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: « **خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذَّر، وضرب كتفه اليسرى، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كَفِّه اليسرى: إلى النار ولا أبالي** »(٤) .

وبيَّن الرسول ﷺ في حديث آخر: « **أنَّ الله** عَزَّوَجَلَّ **خلق خلقه في ظُلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومَن أخطأه ضَلَّ** » فلذلك أقول جفَّ القلم على علم الله.

(٤) كتابة الله لأهل الجنة وأهل النار:

روى الترمذي في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: « خرج

---

(١) مشكاة المصابيح (١/ ٣٤)، ورقم الحديث (٩٥)، وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني فيه: رجال إسناده ثقات رجال الشيخين، غير أنه منقطع بين مسلم بن يسار وعمر، لكن له شواهد كثيرة.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان: (١٧٢-١٧٣).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وصححه الألباني في المشكاة (١٢١).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٤٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩).

علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان: فقال: «**أتدرون ما هذان الكتابان؟**» فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا.

فقال للذى فى يده اليمنى: «**هذا الكتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمل على آخرهم[1]، فلا يُزاد فيهم، ولا يُنقَص منهم أبدًا**».

ثمَّ قال للذى فى شماله: «**هذا كتاب من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمل على آخرهم، فلا يُزاد فيهم، ولا يُنقَص منهم أبدًا**».

فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان الأمر قد فُرغ منه؟

فقال: «**سدِّدوا وقاربوا[2]، فإن صاحب الجنة يُختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أى عمل. وإن صاحب النار يُختم له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل**».

ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما. ثم قال: «**فرغ ربكم من العباد، فريق فى الجنة وفريق فى السعير**»[3].

(٥) التقدير فى ليلة القدر والتقدير اليومى:

بيَّنا من قبل أن الله قدَّر مقادير عباده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ودَلَّ الكتاب والسنة على أن هناك تقديران: تقدير

---

(١) أُجمل على آخرهم، أى: جمعوا أهل الجنة وأهل النار عن آخرهم، وعُقدت جملتهم، فلا يتطرق إليها زيادة ولا نقصان.

(٢) السداد: الصواب فى القول والعمل- والمقاربة: القصد فيهما.

(٣) صحيح: رواه الترمذى (٢١٤١) وأحمد (٢ / ١٦٧)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٤٨).

حولى وتقدير يومى، فأما التقدير الحولى ففى ليلة القدر، ففيها يُكتب من أم الكتاب ما يكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر، وما يقوم به العباد من أعمال ونحو ذلك...قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾[1].

أما التقدير اليومى فهو سوق المقادير إلى المواقيت التى قُدرت لها فيما سبق،... قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾[2].

روى ابن جرير عن منيب بن عبد الله عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: «**أن يغفر ذنبًا، ويُفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين**».

وجملة أقوال المفسرين فى الآية: «أن الله من شأنه فى كل يوم أن يُحيى ويميت، ويخلق ويرزق، ويُعزُّ قومًا ويُذل قومًا، ويشفى مريضًا، ويفك عانيًا، ويفرج مكروبًا، ويجيب داعيًا، ويعطى سائلًا، ويغفر ذنبًا، إلى ما لا يُحصَى من أفعاله وإحداثه فى خلقه»[3].

(٦) كتابة ما قدر للإنسان وهو جنين فى رحم أمه :

ورد فى الأحاديث أن الله يرسل ملكًا للجنين فى رحم أمه فيكتب رزقه وأجله وشقاءه وسعادته،... ففى صحيحى البخارى ومسلم عن عبد الله (هو ابن مسعود) قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إن أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون**

---

(١) سورة الدخان: الآيات: (٣-٥).

(٢) سورة الرحمن: الآية: (٢٩).

(٣) ذكره صاحب معارج القبول: (١/ ٣٤٦) عن البغوى المفسر.

مضغة مثل ذلك ثم يُرسَل المَلَك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد. فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»[١].

وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: « وكَّل الله بالرحم مَلَكًا، فيقول: أى رب نطفة، أى رب علقة، أى رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضى خلقها قال: أى رب ذكر أم أنثى، أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل، فيكتب كل ذلك فى بطن أمه »[٢].

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يُختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يُختم له بعمل أهل الجنة »[٣].

وعن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال: « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة »[٤].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٣٢) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٩٥) كتاب القدر، ومسلم (٢٦٤٦) كتاب القدر.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥١) كتاب القدر.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

ومما يَحسن أن يُساق فى هذا الباب لما فيه من العبرة، قصة الذى أخبر الرسول ﷺ أنه من أهل النار،... ففى الصحيحين عن أبى حازم عن سهل ابن سعد أن رجلًا من أعظم المسلمين غناءً فى غزوة غزاها مع النبى ﷺ، فنظر النبى ﷺ فقال: «**من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى هذا**».

فاتَّبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدِّ الناس على المشركين، حتى جُرح فاستعجل الموت، فجعل ذُبابة سيفه بين ثدييه، حتى خرج من بين كتفيه. -أي: انتحر-.

فأقبل الرجل إلى الرسول مسرعًا: فقال: أشهد أنك رسول الله.

فقال: «**وما ذاك؟**».

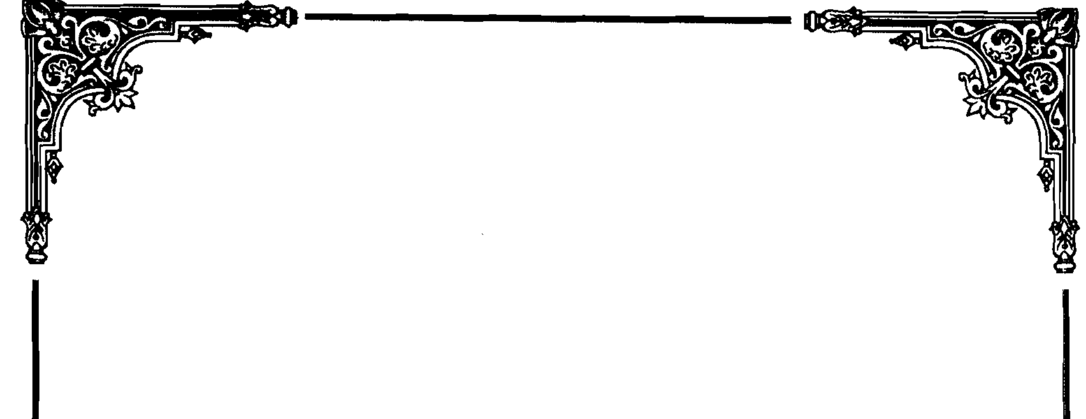
قال: قلت لفلان: مَن أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناءً عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جُرح استعجل الموت فقتل نفسه.

فقال النبى ﷺ عند ذلك: « **إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة. ويعمل عمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم**» [١].

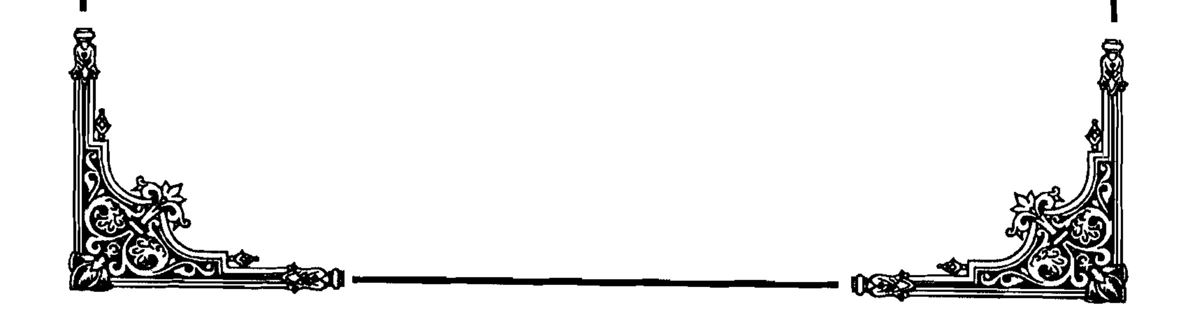
---

(١) متفق عليه:رواه البخاري (٦٤٩٣) كتاب الرقاق، ومسلم (١١٢) كتاب الإيمان.





مراتب القدر





مراتب القدر

۞ مراتب الإيمان بالقضاء والقدر أربعة:

أولًا: مرتبةُ علم الله بالأشياء قبل كونها.

ثانيا: مرتبة كتابة الله للأشياء قبل كونها.

ثالثًا: مرتبة مشيئة الله للأشياء قبل كونها.

رابعًا: مرتبة خلق الله للأعمال وإيجادها.

۞ وتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع تلك المراتب الأربعة.

۞ أولاً: مرتبة العلم:

الإيمان بعلم الله عَزَّوَجَلَّ المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والمُمكنات والمستحيلات،... فعَلِمَ ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم فى جميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم ومَن هو منهم من أهل الجنة ومَن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنة والنار، عَلِمَ دَقَّ ذلك وجَليله وكثيره وقليله وظاهره وباطنه وسره وعلانيته ومبدأه ومنتهاه، كل ذلك بعلمه الذى هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علّام الغيوب[1].

وها هي الأدلة على ذلك من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) معارج القبول للحافظ الحكمى (١/ ٩٢٠).

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾[(١)].

الجميع مُندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالِمٌ أين ذهبت؟ وأين تفرقت؟ ثم يُعيدُهَا كما بدأها أوّل مرّة فإنه بكل شيءٍ عليم[(٢)].

❁ وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾[(٣)].

ومفاتح الغيب فسَّرها رسول الله ﷺ بأنها خمس لا يعلمها إلا الله وهى المذكورة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[(٤)].

والآية دلَّت على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محيطٌ علمه بجميع الموجودات بريّها وبحريّها وما تسقط من ورقة إلا يعلمها فهو يعلم حركة الجمادات، ومن باب أَولَى غيرها من الحيوانات وبنى الإنسان المكلَّفين[(٥)]، وقد أحاط علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل حبة كائنة فى ظلمات الأرض من الأمكنة المظلمة أو النبات الذى فى بطن الأرض قبل أن يظهر[(٦)].

---

(١) سورة سبأ: الآية: (٣).

(٢) صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٦٠٥).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (٥٩).

(٤) سورة لقمان: الآية: (٣٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٠).

(٦) فتح البيان صديق خان (٣/ ١٧٢)، القضاء والقدر للمحمود (ص ٥٦).

۞ وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾(١)

أى: السر والعلانية، أو الدنيا والآخرة، أو المعدوم والموجود(٢).

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾(٣). أى: هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى ستصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صُلبه أمثال الذّرّ، ثم قسمهم فريقين فريقًا للجنة وفريقًا للسعير،... وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ﴾ قد كتب المَلَك الذى يوَكَّلُ به: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾(٥).

فبعد أن أحرق موسى عليه السلام العجل، ونسفه فى البحر، فبطل أن يكون إلهًا كما زعموا،... فلما فعل ذلك وتبين لهم بُطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وهو الله سبحانه وتعالى، المتوحد بالألوهية، والذى قد أحاط علمه بجميع الأشياء(٦).

وقال تعالى: مجيبًا الملائكة بعد إخبارهم أنه جاعلٌ فى الأرض خليفة واستفهامهم ... قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٧).

---

(١) سورة الحشر: الآية: (٢٢).
(٢) تفسير النسفى (٥/ ١٨١).
(٣) سورة النجم: الآية: (٣٢).
(٤) صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٨).
(٥) سورة طه: الآية: (٩٨).
(٦) تفسير السعدى (٥/ ١٨٥).
(٧) سورة البقرة: الآية: (٣٠).

أى: أنه سيكون فى تلك الخليقة أنبياء، ورسل، وقوم صالحون، وساكنوا الجنة[١]، فعلمُه محيط بكل شىء.

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] فعواقب الأمور لا يعلمها إلا الله[٣].

وقال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[٤]، فلا يخرج عن علمه شىء منها كائنًا ما كان، فإحاطته سبحانه بكل شىء علمًا يدل على ثبوت صفة العلم لله المتصف به أزلًا والشامل لكل شىء[٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾[٧]. أى: أَوَ ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم وما تُكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة[٨]؟

۞ وما هي أدلة هذه المرتبة من السنة:

۞ قال ﷺ: «بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٨)، القضاء والقدر / المحمود (ص ٥٧).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢١٦).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٨).

(٤) سورة الطلاق: الآية: (١٢).

(٥) فتح البيان (٩/ ٤٧٤)، القضاء والقدر / المحمود (ص ٥٦).

(٦) سورة الجن: الآية: (٢٨).

(٧) سورة العنكبوت: الآية: (١٠).

(٨) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٧).

السماء وهو السميع العليم»[١].

فاسم الله «العليم» يقتضى أنه سبحانه عالم بأرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم والشقى منهم والسعيد قبل أن يخلقهم[٢].

۞ وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله ﷺ! أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: «نعم»، قال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: «**كُلٌّ مُيسَّر لما خُلِقَ له**»[٣]،... فالرسول ﷺ أخبر الرجل بأن الله قد علم أهل الجنة من أهل النار، وهذا يدل على علم الله المحيط بكل شىء، والشامل لكل شىء.

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يُنصرانه، كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها**»، قالوا: يا رسول: أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»... والشاهد قوله: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[٤] بالنسبة لأولاد المشركين والمسلمين، ومعنى ذلك أنهم لو عاشوا فإن الله عالم بأعمالهم خيرها وشرها، فالله يعلم ما

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٢٦).

(٢) المباحث العقدية/ على الكيلانى (٢/ ٨٨٠).

(٣) رواه مسلم: كتاب القدر: باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه، ورقمه (٢٦٤٩)، ورواه البخارى لكن بلفظ: «أيُعرَف أهل الجنة من أهل النار؟» كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله، فتح البارى (١١/ ٤٩١)، ورواه أبو داود: كتاب السنة، باب فى القدر، ورقمه (٤٧٠٩)

(٤) صحيح: رواه البخارى (٢٦٥٨) كتاب القدر.

كان، وما لم يكن لو كان كيف يكون [١].

۞ **وعن عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها **أن نبى الله** ﷺ **قال: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى مَن تشاء إلى صراطٍ مستقيم»** [٢].

۞ **وعن عليٍّ** رضي الله عنه **قال:** كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالسًا، وفى يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: **«ما منكم من نفس إلا وقد عُلم منزلها من الجنة والنار»**. قالوا: يا رسول الله، فلِمَ نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: **«لا، اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لما خُلق له ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾**، إلى قوله: **﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾** [٣]» [٤]، ... والشاهد قوله: **«ما منكم من نفسٍ إلا وقد عُلم منزلها من الجنة والنار»** فالله علم أهل الجنة وأهل النار بعلمه القديم، فالحديث يدل على ثبوت العلم الكامل لله تعالى [٥].

۞ **وعن ابن عباس** رضي الله عنهما **قال:** سُئل النبى ﷺ عن أولاد المشركين فقال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»** [٦].

ثانيًا: مرتبة الكتابة:

۞ وهى أن الله تعالى كتب مقادير المخلوقات،... والمقصود بهذه

---

(١) القضاء والقدر / د. عبد الرحمن المحمود (ص ٥٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم، (٧٧٠) كتاب الصلاة.

(٣) سورة الليل: الآيات: (٥-١٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر.

(٥) القضاء والقدر / د. عبد الرحمن المحمود (ص ٥٩).

(٦) صحيح: رواه البخارى (٢٦٦٠) كتاب القدر.

الكتابة. الكتابة فى اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذى لم يفرط فيه الله من شىء، فكل ما جرى ويجرى فهو مكتوب عند الله.

۞ وهذا أمر ثابت إذ أن كل شىء قدَّره الله تعالى فى الكون مكتوب بعلم الله تعالى وحكمته قبل أن يُخلق جملة وتفصيلًا.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

۞ قال ابن الجوزى:

وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ، من اللوح المحفوظ، تَسْتَنْسِخُ الملائكةُ كلّ عام ما يكون من أعمال بنى آدم، فيجدون ذلك موافقًا ما يعملونه ... قالوا: والاستنساخ لا يكون إلاّ مِنْ أصلٍ. اهـ[3].

۞ وقال ابن جرير الطبرى:

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ألستم قومًا عربًا تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل. اهـ[4].

۞ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يكُونُ فِى مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا. فَقَدْ كَتَبَ فِى اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ. فَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إلَيهِ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ

(١) سورة الحديد: الآية: (٢٢).

(٢) سورة الجاثية: الآية: (٢٩).

(٣) زاد المسير (٧/ ٣٦٥).

(٤) تفسير الطبري (٢٨/ ١٥).

وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. اهـ[١].

۞ وقال ابن الجوزى رَحِمَهُ اللَّهُ:

المعلومات كلها قد أحاط بها علم الله القديم، قبل وجود المخلوقات كلها، ولكن كتابتها وقعت فى أوقاتٍ متفاوتة[٢].

وقد كان أول أمر الكتابة قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ودليل ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**»[٣].

۞ وها هي الأدلة من القرآن الكريم على مرتبة الكتابة:

۞ قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٤]، أى: جميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ ... والإمام المبين هَهُنا: هو أم الكتاب[٥].

۞ وقال تعالى فى آية جمعت بين مرتبتى العلم والكتابة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٦] ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أى: لا يغيب عن علمه وبصره

---

(١) العقيدة الواسطية (ص ١٥٨).

(٢) الفتح (١١/ ٥١٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

(٤) سورة يس: الآية: (١٢).

(٥) صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٤).

(٦) سورة يونس الآية: (٦١).

وسمعه ومشاهدته أى شىء، حتى مثاقيل الذر، بل ما هو أصغر منها، وهذه مرتبة العلم،... وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾: مرتبة الكتابة، وكثيرًا ما يقرن الله سبحانه وتعالى بين هاتين المرتبتين[١].

۞ وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٢]، على أحد الوجهين، وهو أن المقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، فالله أثبت فيه جميع الحوادث، فكل ما يجرى مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ.

۞ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[٣]. وهذه الآية من أوضح الأدلة الدالة، على علمه المحيط بكل شىء، وأنه علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب الله ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ ، فالآية جمعت بين المرتبتين[٤].

۞ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٥].

۞ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٦]. فأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة[٧]. والآية دالة على مرتبة الكتابة عند مَن

---

(١) تفسير السعدى (٣/ ٣٦٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٣٨).

(٣) سورة الحج: الآية: (٧٠).

(٤) القضاء والقدر/ د. عبد الرحمن المحمود (ص ٦٠).

(٥) سورة فاطر الآية: (١١).

(٦) سورة الأنبياء: الآية: (١٠٥).

(٧) صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٧).

فسَّر الزبور بالكتب بعد الذكر، والذكر أمُّ الكتاب عند الله، وهو اللوح المحفوظ.

۞ وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(١).

أى: خفية أو سر من أسرار العالم العلوى والسفلى، إلا فى كتاب مبين، قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جَلىٍّ أو خَفى، إلا هو مطابق لما كُتب فى اللوح المحفوظ(٢)، فالآية دليل على الكتابة السابقة لكل ما سيقع.

۞ وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾(٣) أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدى الملائكة عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أى: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أى: مجموع عليهم، ومُسطَّر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها(٤).

۞ وقال تعالى فى قصة أسرى بدر: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٥)، أى: لولا كتاب سبق به القضاء عند الله أنه قد أحل لكم الغنائم وأن الله رفع عن أمة محمد ﷺ لمسَّكم العذاب(٦)، فالآية دليل على الكتاب السابق(٧).

۞ وقال تعالى عن موسى حين قال له فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ

---

(١) سورة النمل: الآية: (٧٥).

(٢) تفسير السعدى (٥/ ٥٩٨).

(٣) سورة القمر: الآيتان: (٥٢، ٥٣).

(٤) صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٥).

(٥) سورة الأنفال: الآية: (٦٨).

(٦) تفسير السعدى (٣/ ١٩١).

(٧) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤٨)، تفسير النسفى (٣/ ٣٨٩).

(٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾[١].

إن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدّر وهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أى: الذين لم يعبدوا الله، أى: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى فى جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عَمَلَهمُ عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم فى كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أى: لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئًا،... يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئًا تبارك وتعالى وتقدّس وتَنزَّه، فإن علم المخلوقات يعتريه نقصانان: أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزَّه نفسه عن ذلك[٢].

۞ وها هي الأدلة من السُّنَّة على مرتبة الكتابة:

۞ من أوضح أدلة هذه المرتبة ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء**»[٣] فالدليل من الحديث قوله: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض**»، فالمراد تحديد وقت الكتابة فى اللوح المحفوظ أو غيره، لا أصل التقدير، فإن ذلك أزلى لا أول له، وقوله: «وعرشه على الماء»، أى: قبل خلق السموات والأرض[٤].

---

(١) سورة طه: الآيتان: (٥١، ٥٢).

(٢) صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١١٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٣).

۞ وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يا غُلامُ، إِنِّى مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ: احْفَظِ اللهَ يحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ ينْفَعُوكَ، لَمْ ينْفَعُوكَ إِلا بِشَىءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يضُرُّوكَ، لَمْ يضُرُّوكَ إِلا بِشَىءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[(١)].

۞ ومن الأحاديث المشهورة حديث: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ**»، وفيه: «أن الله أمره بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة»... فعن أَبى حفصة، قال: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يا بُنَى، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَىءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**» يا بُنَى إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيرِ هَذَا فَلَيسَ مِنِّى**»[(٢)]، فالرواية فيها دليل على مرتبة الكتابة حيث أمر الله القلم بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة[(٣)].

۞ وفى رواية أخرى عن عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ سُلَيم، قَالَ: قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِى رَبَاحٍ فَقُلْتُ لَهُ: يا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ أَهْلَ البَصْرَةِ يقُولُونَ فِى القَدَرِ[(٤)]، قَالَ: يا بُنَى، أَتَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاقْرَأِ الزُّخْرُفَ، قَالَ:

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧-٢٠١٨).

(٣) القضاء والقدر/ المحمود (ص: ٦٥).

(٤) أى: يقولون بنفى القدر - انظر: تحفة الأحوذى (٣/ ٢٠٣).

فَقَرَأْتُ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[1] فَقَالَ: أَتَدْرِى مَا أُمُّ الكِتَابِ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الأَرْضَ، فِيهِ إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَفِيهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2].

قَالَ عَطَاءٌ: فَلَقِيتُ الوَلِيدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَتْ وَصِيةُ أَبِيكَ عِنْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: دَعَانِى أَبِى فَقَالَ لِى: يا بُنَى، اتَّقِ اللهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِى اللهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللهِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ القَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**[3]»[4].

فقوله للقلم بعد خلقه: اكتب مقادير كل شىء،.. جمع مقدار وهو الشىء الذى يُعرف به قدر الشىء وكميته كالمكيال والميزان، وقد يُستعمل بمعنى القدر نفسه، وهو الكمية والكيفية، وفى الرواية الأخرى: اكتب القدر[5]، والمقصود بأمِّ الكتاب فى الآية التى استشهد بها عطاء: اللوح المحفوظ[6]، فالروايتان فيهما دليل على مرتبة الكتابة، حيث أمر الله القلم

---

(١) سورة الزخرف: الآيات: (١-٤).

(٢) سورة المسد: الآية: (١).

(٣) الأبد: قيل الأبد هو الزمان المستمر غير المنقطع، لكن المراد به هنا الزمان الطويل، ويدل على ذلك رواية ابن عباس ففيها: «إلى أن تقوم الساعة» تحفة الأحوذى (٣/ ٢٠٤).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧-٢٠١٨).

(٥) انظر: عون المعبود شرح سنن أبى داود مع شرح ابن القيم (١٢/ ٤٦٨).

(٦) انظر: فتح القدير (٤/ ٥٤٧) وكتاب التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن جزى الغرناطى (٤/ ٤٤).

بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقد ورد عن النبى ﷺ ما يبين أن ما مضت به المقادير، وسبق علم الله به، قد تمت كتابته فى اللوح المحفوظ، وجَفَّ القلم الذى كُتب به، وامتنعت فيه الزيادة والنقصان،... فعن جابر رضي الله عنه قال: «جاء سراقة بن مالك بن جُعشم رضي الله عنه قال: يا رسول الله، بيِّن لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير**»، قال: ففيم العمل؟ فقال: «**اعملوا فكلٌّ مُيسَّر**»[١].

۞ **وعن عبدالله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما **قال**: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان فقلنا: لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا، فقال: للذى فى يده اليمنى: «**هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أُجمل على آخرهم فلا يُزاد فيهم، ولا يُنقَص منهم أبدًا**، ثم قال للذى فى شماله: **وهذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أُجمل على آخرهم فلا يُزاد فيهم ولا يُنقَص منهم أبدًا** ... الحديث»[٢]، فقوله: «**وفى يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟**» الظاهر من الإشارة أنهما حِسِّيان، وقيل: تمثيل واستحضار للمعنى الدقيق الخفى فى مشاهدة السامع حتى كأنه ينظر إليه رأى العين ... ولا يُستبعد إجراؤه على الحقيقة، فإن الله قادر

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٨) كتاب القدر.

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٢١٤١) وأحمد (٢ / ١٦٧)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٤٨).

على كل شىء[١] ، والدليل من الحديث قوله: هذا كتاب من رب العالمين لكلٍّ من أهل الجنة وأهل النار، مكتوبة فيه أسماؤهم وقبائلهم،... ففى ذلك إثبات الكتابة لما قضاه الله وقدَّره وعلمه.

وفى الحديث الطويل الذى رواه علىٌّ رضي الله عنه بيان أن كل نفس قد كتب مكانها من الجنة والنار، وقد كُتبت شقية أو سعيدة ... ونَصُّه: قال: «كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد[٢] ، ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته[٣] ، ثم قال: «**ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وكتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كُتبت شقية أو سعيدة** قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: **من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال: اعملوا فكلٌّ مُيسَّر، أما أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة** ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٤]»[٥] وهذا دليل واضح على الكتابة السابقة ومنها كتابة أهل الجنة وأهل النار.

---

(١) تحفة الأحوذى: للمباركفورى (٣/ ١٩٩).

(٢) هو مدفن المدينة، ومعروف الآن بجنة البقيع.

(٣) المخصرة: ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا لطيفة أو عكاز لطيف أو غيرهما.
ونكس رأسه: أى: طأطأ رأسه وخفضه، ونكت: أى خطَّ خطًّا يسيرًا مرة بعد مرة. انظر: حاشية صحيح مسلم – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى (٤/ ٢٠٣٩).

(٤) سورة الليل: الآيات: (٥-١٠).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٤٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر.

۞ ثالثًا: مرتبة الإرادة والمشيئة:

۞ وهذه المرتبة قد دلّ عَلَيهَا إِجْمَاع الرُّسُل من أَوَّلهمْ إِلَى آخِرهم وَجَمِيع الْكتب الْمُنَزَّلَة من عِنْد الله والفطرة الَّتِى فطر الله عَلَيهَا خلقه وأدلة الوُجُودِ والعيان وَلَيسَ فِى الْوُجُود مُوجب وَمُقْتَضى إِلَّا مَشِيئَة الله وَحده فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لم يَشَأْ لم يكن ... هَذَا عُمُوم التَّوْحِيد الَّذِى لَا يقوم إِلَّا بِهِ والمسلمون من أَوَّلهمْ إِلَى آخِرهم مُجمعون على أَنه مَا شَاءَ الله كَانَ وَمَا لم يَشَأْ لم يكن وَخَالفهُم فِي ذَلِك مَن لَيسَ مِنْهُم فِى هَذَا الْموضع وَإِن كَانَ مِنْهُم فِى مَوضِع آخر فجوَّزوا أَن يكون فِى الْوُجُود مَا لَا يشَاء الله وَأَن يشَاء مَا لَا يكون وَخَالف الرُّسُل كلهم وأتباعهم من نفى مَشِيئَة الله بِالْكُلِّيَةِ.

۞ قال الطحاوى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكُلُّ شَىءٍ يجْرِى بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ... وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لم يكن.

يهْدِى مَنْ يشَاءُ وَيعْصِمُ وَيُعَافِى فَضْلًا وَيُضِلُّ من يشاء ويخذل ويبتلى عدلا وَكُلُّهُمْ يتَقَلَّبُونَ فِى مَشِيئَتِهِ بينَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، وهو مُتعالٍ عن الأضداد والأنداد، لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا غالب لأمره، آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَيقَنَّا أَنَّ كُلًّا مِنْ عنده[١].

۞ وها هي الأدلة من القرآن الكريم على مرتبة الإرادة والمشيئة:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٢].

---

(١) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية (ص ٢٢١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٥٣).

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[٥].

أى: إنما يأمر بالشىء، أمرًا واحدًا لا يحتاج إلى تكرار... إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له «كن» قولة فيكون[٦].

۞وقد ورد فى القرآن الكريم فى الحديث عن بعض الأنبياء وغيرهم تعليقهم كل أمر بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

(أ) فنوح عليه الصلاة والسلام، لما قال له قومه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[٧].

(ب) وشعيب عليه السلام بعد ما طلب منه قومه أن يعود إلى ملتهم بيَّن أنه لا يمكن أن يعود إلى ملتهم بعد أن نجاه الله منها هو والمؤمنون معه ولا ينبغى لهم ذلك إلا إذا شاء الله ذلك فقال: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ ﴾[٨]

---

(١)سورة آل عمران: الآية: (٤٠).
(٢)سورة يونس: الآية: (٩٩).
(٣)سورة الأنعام: الآية: (٣٥).
(٤)سورة محمد: الآية: (٤).
(٥)سورة يس: الآية: (٨٢).
(٦)صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٦٧٥)
(٧)سورة هود: الآيتان: (٣٢، ٣٣).
(٨)سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

فعلَّق أعظم شيء وهو الإيمان والكفر على مشيئة الله.

(ج) ويوسف عليه السلام، قال لأهله بعد أن التقى بهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1].

(د) وقال موسى عليه السلام للعبد الصالح: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[2].

(هـ) والله سبحانه وتعالى وجَّه نبيه قائلًا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[3]. فهذه الآيات تدل على استقرار عقيدة المسلمين ويقينهم بهذه المرتبة من مراتب القدر[4].

وفى القرآن آيات كثيرة تدل على أن حوادث الدنيا إنما تجرى وفق مشيئته سبحانه وتعالى، فهو الذى يُؤتى المُلك مَن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو الذى يُعز من يشاء، ويُذل من يشاء، فتدول الدول، ويعز الذليل، ويذل العزيز كل ذلك بمشيئة الله...قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]، وهو الذى يصور الخلق فى الأرحام كيف يشاء ذكورًا، وإناثًا، أشقياءً، وسعداءً، مختلفين فى صفاتهم وأشكالهم حُسنًا وقُبحًا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[6][7].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٩).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٩).

(٣) سورة الكهف: الآيتان: (٢٣-٢٤).

(٤) القضاء والقدر/ المحمود (ص ٧٠).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (٢٦).

(٦) سورة آل عمران: الآية: (٦).

(٧) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤).

۞ وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [1]، أي: ييسره له وينشطه ويُسهله لذلك، ويوسع قلبه للتوحيد والإيمان به ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أي يجعل صدره ضيقًا، لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه [2].

۞ وقال تعالى في معرض الحديث عن أهل الكتاب، ونهى النبي ﷺ على أن يتبع أهواءهم، وأمره أن يلتزم الحكم بما أنزل الله، مُبينًا أن لكلٍّ من الأمم الثلاثة: اليهود والنصارى، وأمة محمد، شريعة ومنهاجًا في كلٍّ من التوراة والإنجيل والقرآن،«وقد نسخ القرآن ما قبله» قال بعد ذلك: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ [3]، أي: لجعلكم على شريعة واحدة، وكتابٍ واحد، ورسول واحد، لكن لما لم يشأ الله ذلك، بل شاء الابتلاء والاختبار، فكنتم على الحالة التي أنتم عليها، فمشيئة الله مُطلقة، والنافذ هو ما يشاؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا دليل على مرتبة المشيئة [4].

۞ وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [5]، أي: أنت المعطي وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن [6].

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٢٥).

(٢) صحيح تفسير ابن كثير (٢/ ٦٩).

(٣) سورة المائدة: الآية: (٤٨).

(٤) القضاء والقدر/ عبد الرحمن المحمود (ص ٦٩).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (٢٦).

(٦) صحيح تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٨).

۞ وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [١]، أى وهو الذى يصور الخلق فى الأرحام كيف يشاء ذكورًا وإناثًا، أشقياءً وسُعداءً مختلفين فى صفاتهم وأشكالهم، حُسنًا وقُبحًا [٢].

۞ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [٣].

۞ والآيات كثيرة جدًّا فى إثبات مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن،... والذين نفوا مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ هم القدرية مجوس هذه الأمة، فإنهم آمنوا بالأسباب ومشيئة العباد، وكفروا برب الأرباب، ورب الأسباب، ومقابل بدعتهم في نفى مشيئة العباد، وجعل العبد مجبورًا على أعماله وأقواله حتى قال قائلهم:

ألقاه فى اليمِّ مكتوف اليدين　　　وقال إياكَ إياكَ أن تبتلَّ بالماءِ

والذى عليه أهل السنة والجماعة وما مضى عليه سلفنا الصالح إثبات مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ النافذة، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن للعباد كذلك قدرة على أعمالهم ولهم مشيئة،... والله - تعالى - خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم وأقوالهم وأعمالهم، وهو - تعالى - الذى منحهم إياها وأقدرهم عليها، وجعلها قائمة بهم مضافة إليهم حقيقة، وبحسبها كُلِّفوا، وعليها يُثابون ويُعاقَبون، ولم يكلفهم الله - تعالى - إلا وسعهم، ولم يُحملهم إلا طاقتهم ... قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٦).

(٢) القضاء والقدر (ص ٧١).

(٣) سورة السجدة: الآية: (١٣).

سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2][3].

۞ وها هي الأدلة من السنة على مرتبة الإرادة والمشيئة:

۞ عقد البخارى رَحِمَهُ اللَّهُ فى صحيحه فى كتاب التوحيد بابًا عرض فيه لبعض النصوص الواردة فى إثبات المشيئة والإرادة، فقال: (باب فى المشيئة والإرادة)[4]، ثم أورد بعض الآيات والأحاديث الواردة، ونحن نذكر شيئًا منها مما أورده البخارى وغيره:

۞ ومن الأحاديث الدالة على الإرادة والمشيئة: الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «**مَن يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطى، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم مَن خالفهم حتى يأتى أمر الله**»[5].

فقوله: «**مَن يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين**» فيه إثبات مرتبة الإرادة، وأن الأمور كلها تجرى بمشيئة الله تعالى ولهذا قال ﷺ: «**وإنما أنا قاسم والله مُعطى**» أى: إنما أنا أقسم ما أمرنى الله بقسمته، والمعطى حقيقة هو الله تعالى، فالأمور كلها بتقدير الله تعالى والإنسان مُصرَّف مَربوب[6].

ومن الأحاديث الدالة على الإرادة حديث حذيفة بن أسيد الغفارى

---

(١) سورة الإنسان: الآيتان: (٢٩، ٣٠).

(٢) سورة التكوير: الآيات: (٢٧-٢٩).

(٣) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية (ص ٢٢٢).

(٤) انظر: «فتح البارى» (١٣/ ٤٤٥).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الإمارة.

(٦) انظر: شرح النووى على صحيح مسلم (٧/ ١٢٩).

صاحب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن ملكًا موكلًا بالرحم، إذا أراد الله أن يخلق شيئًا بإذن الله لبضع وأربعين ليلة ..**» الحديث [١] فالله هو المُريد لخلق الآدمى، والأحاديث الدالة على مرتبة المشيئة والإرادة كثيرة جدًّا[٢].

۞ وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طُلبت إليه حاجة قال: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء**» [٣]. فأوصى بالشفاعة وذلك فيما ليس بمُحرَّم ... وضابطها: ما أذن فى الشرع دون ما لم يأذن فيه، ثم بيَّن أن الله يقضى على لسان رسوله ما شاء،... أى: يُظهر على لسان رسوله بالوحى أو الإلهام ما قدره فى علمه بأنه سيقع [٤]، فهذا يدل على مرتبة المشيئة.

۞ **وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لى إن شئت ارحمنى إن شئت، ارزقنى إن شئت، وليعزم مسألته إنه يفعل ما يشاء لا مُكره له»**[٥].

ففيه إثبات المشيئة لله تعالى فهو الغفور الرحيم، والرازق إذا شاء، وهو سبحانه يفعل ما يشاء، لا مُكره له، والحديث فيه الحث على العزم فى المسألة والجزم فيها، دون ضعف أو تعليق على المشيئة، وإنما نهى عن التعليق على المشيئة لأنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا فى حق من يتوجه

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٥) كتاب القدر.

(٢) انظر: «شفاء العليل» لابن القيم (ص: ٤٤، ٤٧).

(٣) صحيح: رواه البخارى (١٤٣٢) كتاب الزكاة.

(٤) المصدر نفسه (١٣/ ٤٥٢).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٧٨) كتاب الذكر والدعاء.

إلى الإكراه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا مُكره له، كما نَصَّ عليه الرسول ﷺ هنا [١].

۞ وقال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوى خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قُل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**» [٢].

ففى الحديث حَثَّ رسول الله ﷺ على الإيمان بمقادير الله وبمشيئة الله وإرجاع ما يقع للعبد إلى مشيئة الله: «**وما شاء فعل**» فيه إثبات المشيئة لله تعالى [٣].

۞ وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا قال للنبى ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال النبى ﷺ: «**أجعلتنى والله عدلًا، بل ما شاء الله وحده**» [٤]، والحديث واضح الدلالة على إثبات مرتبة المشيئة، وأن الله تعالى له المشيئة المطلقة، وأن للعباد مشيئة خاضعة لمشيئة الله تعالى ... والنهى فى الحديث إنما هو عن قرن مشيئة الله بمشيئة الرسول ﷺ، حيث عطفها بالواو والتى هى لمطلق الجميع من غير ترتيب ولا تعقيب، والرسول مثل غيره من العباد، فالكل خاضعون لمشيئة الله، ومشيئتهم تابعة لمشيئة الله [٥].

۞ وقد أقر النبى ﷺ على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أجابه بعد سؤاله له هو وفاطمة بقوله: «**ألا تصليان؟** » فأجابه بقوله: أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن

---

(١) شرح النووى على مسلم (١٧/ ٦ ٧)، فتح البارى (١١/ ١٤٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٣) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (٢/ ٨٨٣).

(٤) مصنف ابن أبى شيبة رقم ٦٧٤٢).

(٥) القضاء والقدر / المحمود (ص٧٥).

يبعثنا بعثنا، قال عليٌّ: فانصرف حين قلت له ذلك، ولم يرجع إلىَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1][2].

ففى هذا الحديث إثبات لمشيئة الله تعالى وأن العبد لا يفعل شيئًا إلا بإرادة الله وأما انصراف النبى ﷺ وضربِه فخذه، واستشهاده بالآية، فمعناه: أنه تعجب من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا، ولهذا ضرب فخذه[3].

۞ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد يُصرفها حيث شاء**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ مُصرِّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»[4].

والشاهد قوله: «**كقلبٍ واحد يُصرفها حيث يشاء**»، ومعناه أنه سبحانه وتعالى متصرف فى قلوب عباده كلهم، فيهدى ويضل كما يشاء، ففيه دلالة على مرتبة المشيئة[5].

۞ وفيما يقال عند دخول القبور ما ورد عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع ويقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا**

(١) سورة الكهف: الآية: (٥٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٢٧) كتاب الجمعة، ومسلم (٧٧٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) شرح النووى على مسلم (٤/ ٢٠٤٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر.

(٥) شرح النووى على مسلم (١٦/ ٢٠٤).

مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ »[١].

۞ وكان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «**ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[٢].

وهذا تحقيق لوحدانيته لتوحيد الربوبية خلقًا وقدرًا وبدايةً وهداية هو المعطى المانع لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولتوحيد الإلهية شرعًا وأمرًا ونهيا[٣].

وفي هذا الحديث: فيه من التفويض إلى الله تعالى والإذعان له والاعتراف بوحدانيته والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به وأن الخير والشر منه والحث على الزهادة في الدنيا والإقبال على الأعمال الصالحة[٤].

۞ وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده فقال: «**لا بأس عليك طهور إن شاء الله**»، قال الأعرابي: طهور، بل هي هي حمى تفور على شيخ كبير، تُزيره القبور، قال النبي ﷺ: «**فنعم إذًا**»[٥].

وهذا الحديث استدل به البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد على إثبات مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ ، كما هو واضح في تخريج الحديث، حيث بوّب له باب: في المشيئة والإرادة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٧٧) كتاب الصلاة.

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٧٦).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٤/ ١٩٥، ١٩٦).

(٥) صحيح: رواه البخاري (٧٠٣٢) كتاب التوحيد.

والشاهد منه قوله ﷺ: إن شاء الله. فجعل كون هذا المرض الذى أصيب به المريض طهورًا من ذنوبه ومكفرًا لها مقيدًا بمشيئة الله تعالى وفوَّض ذلك فإن شاء الله تعالى جعله كفارة وطهورًا فهو يفعل ما يشاء وهو على كل شىء قدير [1].

رابعًا: مرتبة الخلق:

وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَىءٍ فَهُوَ خَالِقُ كُلِّ عَامِلٍ وَعَمَلِهِ، وَكُلِّ مُتَحَرِّكٍ وَحَرَكَتِهِ، وَكُلِّ سَاكِنٍ وَسُكُونِهِ، وَمَا مِنْ ذرة فى السماوات وَلَا فِى الْأَرْضِ إِلَّا وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالِقُهَا وَخَالِقُ حَرَكَتِهَا وَسُكُونِهَا، سُبْحَانَهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ [2].

۞ وهذا أمر مُتَّفق عليه بين الرسل عليهم السلام، وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفِطَر والعقول والاعتبار، وخالف فى ذلك مجوس الأمة فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين - وهى أشرف ما فى العالم - عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته بل جعلوهم الخالقين لها ولا تعلُّق لها بمشيئته ولا تدخل تحت قدرته. وكذلك قالوا فى جميع أفعال الحيوانات الاختيارية.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [3].

وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شىء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصًا بذاته، وصفاته، فإنه الخالق بذاته

---

(١) المباحث العقدية (٢/ ٨٨٤).

(٢) معارج القبول (٣/ ٩٤٠).

(٣) سورة الزمر: الآية: (٦٢).

وصفاته وما سواه مخلوق له واللفظ قد فرَّق بين الخالق والمخلوق، ومما يدل على قدرته سبحانه على أفعالهم قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) واعتراض القدرية على الاستدلال بذلك والجواب عنه نظير الاعتراض على قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٢) وجوابه ونزيده تقريرًا أن أفعالهم أشياءً ممكنة والله قادر على كل ممكن فهو الذى جعلهم فاعلين بقدرته ومشيئته ولو شاء لحال بينهم وبين الفعل مع سلامة آلة الفعل منهم كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٣).

ومما يدل على أن الله عَزَّوَجَلَّ هو خالق أفعال العباد .. قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾(٤)، والضحك والبكاء فعلان اختياريان، فهو سبحانه المُضحك المبكى حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكى حقيقة(٥).

۞ وها هي الأدلة من القرآن الكريم على مرتبة الخلق:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٦)، وفي آية أخرى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٨٤).

(٢) سورة الرعد: الآية: (١٦).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٣).

(٤) سورة النجم: الآية: (٤٣).

(٥) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية (ص ٢٢٢-٢٢٣).

(٦) سورة الرعد: الآية: (١٦).

(٧) سورة غافر: الآية: (٦٢).

وهذه نصوص واضحة فى الدلالة على مرتبة الخلق، وقد جاءت الآية الأولى فى معرض إنكار أن يكون للشركاء خلق كخلقه سبحانه وتعالى فنفى ذلك سبحانه آمرًا رسوله أن يقرر هذه الحقيقة التى تفصل فى الأمر، وتدل على وحدانية الله تعالى وانفراده بالخلق والرزق ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[١]، وفى موضع آخر جاءت هذه الآية لبيان قدرة الله تعالى وكماله ودلائل وحدانيته ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[٢].

أما الآية الثانية فقد جاءت أيضًا لبيان قدرة الله التامة، حيث جعل لعباده الليل والنهار ثم بيَّن سبحانه أنه خالق كل شىء[٣].

وقال تعالى: مُمتنًّا على الصحابة - رضوان الله عليهم - بعد أن أمرهم بالتثبُّت فى خبر الفاسق قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[٤].

والشاهد قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ ...﴾ فهو سبحانه هو الذى حسَّنه بتوفيقه وقربه منكم، وهو الذى جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروهًا عندكم وذلك بما أودع فى قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، فالفاعل فى كل ذلك هو الله تعالى[٥].

وهناك آيات كثيرة تدل على أن الله تعالى هو المُضل والهادى،

---

(١) سورة الرعد: الآية: (١٦).

(٢) سورة الزمر: الآية: (٦٢).

(٣) القضاء والقدر/ المحمود (ص٧٨).

(٤) سورة الحجرات: الآية: (٧).

(٥) فتح البيان فى مقاصد القرآن / صديق خان (٩/ ٧٤).

والمؤيد لعباده المؤمنين، والهازم لأعدائهم وأنه المُضحك والمبكى، والمميت والمحيى، وكل ذلك دليل مرتبة [١] الخلق.

وقد أورد الحافظ ابن كثير هذا الدعاء فى تفسيره آية الحجرات السابقة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ قال: لمّا كان يوم أُحد وانكفأ المشركون قال ﷺ: «استووا حتى أُثنى على ربى» فصاروا خلفه صُفُوفًا: فقال النبى ﷺ: **«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لما أضللت، ولا مُضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مُقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول، اللهم إنى أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزيِّنه فى قلوبنا، وكَرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتِل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق»** [٢].

فترى فى هذا الحديث الإقرار بأن الله تعالى هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا دليل على مرتبة الخلق [٣].

۞وقال تعالى فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث كسر أصنامهم ثم جاء إليه قومه يناقشونه مسرعين فقال لهم كما حكى الله عنه: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا

---

(١) القضاء والقدر/ المحمود (ص٧٩).

(٢) مسند أحمد (٣/ ٤٢٢٤) السنة لابن أبى عاصم (رقم ٣٨١).

(٣) القضاء والقدر/ عبد الرحمن المحمود (ص٨٠).

تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[(١)]، أى: خلقكم وعملكم فتكون (ما) مصدرية، وقيل: إنها بمعنى الذى، فيكون المعنى: والله خلقكم وخلق الذى تعملونه بأيدكم وهو الأصنام[(٢)].

وقد ذكر ابن كثير القولين ثم قال: (وكلا القولين متلازم، والأول أظهر)[(٣)] وقد علل ذلك بما يؤيده من رواية البخارى فى أفعال العباد عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**»، وتلا بعضهم عند ذلك ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة[(٤)] فالله تعالى خالق الخلق وأفعالهم كما دلَّت على ذلك الآية والحديث.

۞ وها هي الأدلة من السنة على مرتبة الخلق:

۞ قال ﷺ: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[(٥)].

والحديث يدل على شيء مما خلق الله تعالى وهو خلق الإنسان وما احتواه هذا المخلوق من أعضاء وأجهزة يعجز الإتيان بمثلها إلا من هو

---

(١) سورة الصافات: الآيتان: (٩٥، ٩٦).

(٢) انظر: «زاد المسير فى علم التفسير» لابن الجوزى (٧/ ٧٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٢).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٢).

(٥) صحيح: رواه البخارى، (٥٩٤٧) كتاب الدعوات.

خالق كل شيء سبحانه ... فالناظر في نفسه ودقة تكوينها وعجيب خلقتها يؤمن بأن الله خالق كل شيء [١]، فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتوحيده والاعتراف بأنه خالقه، العالم به إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه [٢].

۞ وعن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجَّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين**» وإذا سجد قال: «**اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين**» [٣].

ففي الحديث: دلالة على أن الله فطر السماوات والأرض أي خلقهن وأبدعهن وأتقن صنعهن وأوجدهن من العدم على غير مثالٍ سابق.

فخَلْقُه سبحانه لهذا الكون من أرضٍ وسماوات وما فيهن من رطب ويابس ومخلوقات عجيبة أكبر دليل على هذه المرتبة وأن الله يخلق الخلق بقدرته على ما اقتضاه علمه السابق ومشيئته النافذة [٤].

۞ وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجُبن والبُخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنت خير مَن زكاها، أنت وليها ومولاها**» [٥].

---

(١) المباحث العقدية (٢/ ٨٨٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٢١).

(٣) صحيح: رواه مسلم، (٧٧١) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) المباحث العقدية (٢/ ٨٨٦).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٢)، كتاب الذكر والدعاء.

الشاهد قوله: «**اللهم آت نفسى تقواها وزكِّها ..**» ، فالفاعل هو الله تعالى فهو الذى يُطلَب منه ذلك، ولفظ «خير» ليس للتفضيل، بل لا مزكى للنفس إلا الله، ولهذا قال بعد ذلك: «**أنت وليها ومولاها**»[1]، فهو سبحانه الملهم للنفس الخير والشر.

۞ **قال تعالى**: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[2].

قال سعيد بن حبير فى تفسير هذه الآية: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أى: فالخلق لله والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومُخيَّر فيه،.. وقال ابن زيد فى معنى الآية: جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها بالفجور[3].

۞ **وقد قال** ﷺ **لأبى موسى الأشعرى** رضي الله عنه: «**يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة**»، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «**قل: لا حول ولا قوة إلا بالله**»[4]. والشاهد قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، ففيها الاعتراف بأنه لا صانع غير الله، ولا رادَّ لأمره وأن العبد لا يملك من أمره شيئًا، فمعناها: لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل معناه لا حول فى دفع شر ولا قوة فى تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته، وحُكِى هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب ،... والكنز هنا: معناه ثواب مُدَّخر فى الجنة عند الله وهو ثوابٌ نفيس[5].

---

(١) شرح النووى على مسلم (١٧/ ٤١).

(٢) سورة الشمس: الآية: (٨).

(٣) زاد المسير / ابن الجوزى (٩/ ١٤٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٠٥) كتاب المغازى، ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٥) شرح النووى على صحيح مسلم (١٧/ ٢٧).

۞ وعن ورّاد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إليَّ ما سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى عليَّ المغيرة قال: سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[1].

الشاهد قوله: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت**» فالمعطى والمانع هو الله تعالى، فهو الفاعل لهما، وهذا يدل على أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «**ولا ينفع ذا الجد منك الجد**» أى: لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك، بل ينفعه عمله الصالح[2].

۞ وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول:

«**والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا**

فأنزلن سكينة علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إن الأُلى قد بَغَوْا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا»[3]

ودليل هذه المرتبة قوله: لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فإنها دليل على أن الله هو خالق العباد وأفعالهم ومنها: الهداية، والصدقة، والصلاة[4].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٤٤) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٩٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) القضاء والقدر / المحمود (ص٨١).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢٠) كتاب القدر، ومسلم (١٨٠٣) كتاب الجهاد والسير.

(٤) القضاء والقدر/ عبد الرحمن المحمود (ص ٨٣).



أزمنة المقادير



أزمنة المقادير

۞ إن الإيمان بكتابة المقادير يدخل فيه خمسة مقادير:

(١) التقدير الأزلي:

وكان ذلك قبل خلق السماوات والأرض عندما خلق الله تعالى القلم.

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (٣).

وقال رسول الله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشُهُ على الماء**» (٤).

۞ أى أن كل شيء واقع فى هذا الكون مكتوب فى اللوح المحفوظ.

ويقول الإمام النووى: المراد بعدد السنين المذكور هو تحديد وقت الكتابة فى اللوح المحفوظ أو غيره، لا أصل التقدير، فإن ذلك أزلى لا أول له. اهـ.

وفى الصحيحين عن أبى هُرَيرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى** عليهما السلام **عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِى خَلَقَكَ**

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٥١).

(٢) سورة الحديد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٣) سورة النمل: الآية: (٧٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم، (٢٦٥٣) كتاب القدر.

اللهُ بيدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[١].

۞ وَعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يا بُنَى إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يا بُنَى إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيرِ هَذَا فَلَيسَ مِنِّى»[٢].

يعنى: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيرِ»: أن الله قد كتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة فليس منى.

۞ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[٣].

فالزبور هنا جميع الكتب المُنزَّلة من السماء لا تختص بزبور داود والذِّكر أُم الكتاب الذى عند الله ... والأرض الدنيا وعباده الصالحون أمة

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٠٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم، (٢٦٥٢) كتاب القدر.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧-٢٠١٨).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (١٠٥).

محمد ﷺ ... هذا أصح الأقوال فى هذه الآية.

۞ وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[١].

فهذه الآية جمع الله فيها بين الكتابين الكتاب السابق لأعمال العباد قبل أن يوجدوا، والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر تعالى أنه يحييهم بعد موتهم للبعث، ويجازيهم على أعمالهم، ونبههم بكتابته لها على ذلك والمقصود من الآية قوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ وهو أم الكتاب وهو الذكر الذى كتب الله فيه كل شىء، بما فى ذلك أعمال العباد قبل أن يعملوها، وإحصاؤه تعالى لها يتضمن علمه بها وحفظه لها وإحاطته بعددها وإثباتها فى اللوح المحفوظ.

۞ وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[٢] وقد اختُلف فى الكتاب ههنا.. هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ على قولين: فقالت طائفة: المراد به القرآن وهذا من العام المراد به الخاص أى ما فرطنا فيه من شىء يحتاجون إلى ذكره وبيانه كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[٣] وقالت طائفة: المراد بالكتاب فى الآية: اللوح المحفوظ الذى يكتب الله فيه كل شىء.

۞ وقال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[٤] وأم الكتاب هو أصل الكتاب، والقرآن كتبه الله فى اللوح المحفوظ قبل خلق

---

(١) سورة يس: الآية: (١٢).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٣٨).

(٣) سورة النحل: الآية: (٨٩).

(٤) سورة الزخرف: الآيات: (١-٤).

السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[١] وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب فى أم الكتاب وقد دَلَّ القرآن على أن الرب تعالى كتب فى أم الكتاب ما يفعله وما يقوله فكتب فى اللوح أفعاله وكلامه[٢].

(٢) تقدير يوم الميثاق:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣].

وهو ميثاق الفطرة الأول، وفيه أخذ الله تعالى من ظهر آدم ذريته، وهم كأمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ فجبلهم على حبه وتوحيده وتعظيمه وأقرهم على ذلك بالقوة فصارت النفوس تُقر بخالقها، وتميل إلى توحيده وبقيت تلك الفطرة فى قلوبهم حُجة عليهم[٤].

إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[٥].

وَعَنْ أُبَى بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فِى قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ

---

(١) سورة البروج: الآيتان: (٢١-٢٢).

(٢) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية / د. أحمد فريد (٢١٣-٢١٤).

(٣) سورة الأعراف: الآيات: (١٧٢-١٧٤).

(٤) القضاء والقدر عند السلف/ الشيخ على السيد الوصيفى (ص٥٦).

(٥) سورة الروم: الآية: (٣٠).

مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

قَالَ: جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فَاسْتَنْطَقَهُمْ فتكَلَّمُوا، ثُمَّ أَخذَ عَلَيهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالَ: فَإِنِّى أُشْهِدُ عَلَيكُمُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، وَأُشْهِدُ عَلَيكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ أَنْ تَقُولُوا يوْمَ الْقِيامَةِ: لَمْ نَعْلَمْ بِهذَا، اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيرِى، وَلَا رَبَّ غَيرِى فَلَا تُشْرِكُوا بِى شَيئًا، وَإِنِّى سَأُرْسِلُ إِلَيكُمْ رُسُلِى يُذَكِّرُونكُمْ عَهْدِى وَمِيثَاقِى، وَأُنْزِلُ عَلَيكُمْ كُتُبِى، قَالُوا: شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيرُكَ، وَلَا إِلَهَ لَنَا غَيرُكَ فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ [١].

۞ وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ، قَالَ: قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ أَعُلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: فَقَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: قِيلَ: فَفِيمَ يعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ: «**كُلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» [٢].

۞ وَعَنْ **أَبِى الْأَسْوَدِ الدؤلى**، قَالَ: قَالَ لِى عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَينِ، أَرَأَيتَ مَا يعْمَلُ النَّاسُ الْيوْمَ وَيكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَىءٌ قُضِى عَلَيهِمْ وَمَضَى عَلَيهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَىءٌ قُضِى عَلَيهِمْ، وَمَضَى عَلَيهِمْ، قَالَ: فَقَالَ: أَفَلَا يكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَىءٍ خَلْقُ اللهِ

(١) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائده على المسند (٥/ ١٣٥)، والحاكم (٢/ ٣٢٣)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٩٦) كتاب القدر، ومسلم (٢٦٤٩) كتاب القدر.

وَمِلْكُ يدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يفعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقَالَ لِي: يرْحَمُكَ اللهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عقْلَكَ - أي: لأختبرك - إِنَّ رَجُلَينِ مِنْ مُزَينَةَ أَتيا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَا: يا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيتَ مَا يعْمَلُ النَّاسُ الْيوْمَ، وَيكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيءٌ قُضِي عَلَيهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيهِمْ؟ فَقَالَ: «**لا، بَلْ شَيءٌ قُضِي عَلَيهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾**[1]»[2].

۞ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَبِيدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟**» فَقَالُوا: لَا، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ لِلْأَيمَنِ: «**هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يزْدَادُ فِيهِمْ شَيئًا، وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهُمْ أَحَدٌ**» وَقَالَ لِلَّذِي بِيدِهِ الْيسْرَى: «**هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا**» فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِي ﷺ: فَلِأَي شَيءٍ نَعْمَلُ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَي عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَي عَمَلٍ**» ثُمَّ قَبَضَ فِي يدَيهِ فَقَالَ: «**قَدْ فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ**» وَقَالَ بِيدِهِ الْيمْنَى: «**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ**» وَبِيدِهِ الْيسْرَى: «**وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**»[3].

---

(١) سورة الشمس: الآيتان: (٧-٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٠) كتاب القدر.

(٣) صحيح: رواه الترمذى (٢١٤١) وأحمد (٢ / ١٦٧)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٤٨).

❁ وَعَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِى ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ، فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَةً بَيضَاءَ كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمِ، فَقَالَ لِلَّتِى فِى يمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِى، وَقَالَ لِلَّتِى فِى يسَارِهِ: إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِى»(١).

فقد توافرت الأدلة من الكتاب والسنة على أن الله عَزَّ وَجَلَّ وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة خلق للجنة أهلها وخلق للنار أهلها، والعباد كلهم ملكٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، فيجب الإيمان بذلك واعتقاده مع الاعتقاد أيضًا بأن الله عَزَّ وَجَلَّ أحكم الحاكمين وأعدل العادلين لا يظلم مثقال ذرة وليس علينا إلا التسليم.

قال الطحاوى رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: « وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التسليم والاستسلام، فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خالص التوحيد وصافى المعرفة وصحيح الإيمان»، وقال أيضًا: «وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللهِ تَعَالَى فِى خَلْقِهِ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِى مُرْسَلٌ وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِى ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٤٤١)، وابنه فى زوائد المسند، وابن عساكر فى تاريخ دمشق» (ج١٥/ ١٣٦/ ١)، وقال الألبانى: وإسناده صحيح - الصحيحة (٤٩)، قال الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى التعليق: قد يتوهم آخرون أن الأمر فوضى أو حظ فمن وقع فى القبضة اليمنى كان من أهل السعادة، ومن كان من القبضة الأخرى كان من أهل الشقاوة، فيجب أن يعلم هؤلاء جميعًا أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا فى ذاته ولا فى صفاته، فإذا قبض قبضة فهى بعلمه وعدله وحكمته، فهو تعالى قبض باليمنى على مَن علم أنه سيطيعه حين يُؤمر بطاعته، وقبض بالأخرى على من سبق فى علمه تعالى أنه سيعصيه حين يؤمر بطاعته، ويستحيل على عدل الله تعالى أن يقبض باليمنى على من هو مستحق أن يكون من أهل القبضة الأخرى، والعكس بالعكس، كيف والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

وَدَرَجَةُ الطُّغْيانِ فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ كَمَا قَال الله تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1]. فَمَنْ سَأَلَ لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الكتاب كان من الكافرين».

وقال أيضًا: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا وأحضر للنظر فيه قَلْبًا سَقِيمًا لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيبِ سِرًّا كَتِيمًا وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أفاكًا أثيمًا».

وقد زلَّ في هذا الباب خَلْقٌ كثيرون؛ لأنهم أساؤوا الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، وأحسنوا الظنَّ بأنفسهم، وكان الواجب عليهم إحسان الظنّ بالله عَزَّوَجَلَّ وتنزيهه عن الظلم والعبث، فالله عَزَّوَجَلَّ يتصرف في خلقه كيف شاء، وهذا من تمام ربوبيته،... وتصرُّفه هذا عن علمٍ تام وحكمة بالغة، وهذا مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا، قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[2][3].

(٣) التقدير العمري:

ويكون ذلك في الرحم عندما تبلغ النطفة مائة وعشرين يومًا، فيرسل الله تعالى لها ملكًا فيصورها، وينفخ فيها الروح، ويكتب عمل الإنسان وأجله ورزقه، وشقيًّا أم سعيدًا، وذكرًا أم أنثى، وسويًّا أم غير سوى.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٖ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

(٢) سورة هود: الآية: (٥٦).

(٣) بتصرف من (الثمرات الزكية في العقائد السلفية).

تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ (٤) وغيرها من الآيات (٥).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ فى بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يُرْسَلُ المَلَك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيدٌ، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه

(١) سورة الحج: الآية: (٥).

(٢) سورة فاطر: الآية: (١١).

(٣) سورة غافر: الآية: (٦٧).

(٤) سورة النجم: الآية: (٣٢).

(٥) معارج القبول (٣/ ٩٣٥).

وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[١]، وفي رواية أخرى: «إذا مَرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أَذَكرٌ أم أنثى، فيقضي ربك ما يشاء ويكتب المَلَك، ثم يقول: يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص»[٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: « وَكَّلَ اللهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيقُولُ: أَي رَبِّ نُطْفَةٌ، أَي رَبِّ عَلَقَةٌ، أَي رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يقْضِي خَلْقَهَا، قَالَ: أَي رَبِّ، أَذكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ، فَمَا الأَجَلُ، فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ »[٣].

وَعَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يقُولُ: الشَّقِي مَنْ شَقِي فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيرِهِ، فَأَتَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يقَالُ لَهُ: حُذَيفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِي، فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: وَكَيفَ يشْقَى رَجُلٌ بِغَيرِ عَمَلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يقُولُ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٥) كتاب القدر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٩٥) كتاب القدر، ومسلم (٢٦٤٦) كتاب القدر.

وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يقُولُ: يا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يقُولُ: يا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يدِهِ، فَلَا يزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ»[1].

(٤) التقدير الحولي في ليلة القدر:

ويكون ذلك مرة كل عام، فى ليلة القدر، فتُقضى الأعمال، أو تُنسخ وكل ذلك من تفصيل التقدير الأزلى الأول.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2]. قال مجاهد: ليلة القدر: ليلةُ الحُكمِ.

۞ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحُجَّاج يقال: يحج فلان وفلان.

۞ وقال الحسن البصرى: والله الذى لا إله إلا هو إنها لفى رمضان، وإنها لليلة القدر، يُفرَق فيها كل أمرٍ حكيم، فيها يقضى الله - تعالى - كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها.

۞ وعن ابن عمر ومجاهد وأبى مالك: فى ليلة القدر يُفصَل من اللوح المحفوظ إلى الكَتَبة أمر السَّنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها[3].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٥) كتاب القدر.

(٢) سورة الدخان: الآيات: (٣-٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٠).

۞ وذُكر عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قوله: إنك لترى الرجل يمشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى[١].

ومعنى يُفرق: أنه يُكتب ويُفصَّل كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة، فيقضى أمر السنة كلها من معايش الناس ومصائبهم وموتهم وحياتهم إلى مثلها من السنة الأخرى.

۞ وعن مجاهد قال فى ليلة القدر: كل أمر يكون فى السَّنة إلى السَّنة الحياة والموت يقدر فيها المعايش والمصائب كلها.

(٥) التقدير اليومي:

وهو سَوْقُ الْمَقَادِيرِ إِلَى الْمَوَاقِيتِ الَّتِى قُدِّرَتْ لَهَا فِيمَا سَبَقَ.

قَالَ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[٢] قَالَ الأعمشُ عن مجاهد عن عُبيد بن عُمير: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يجِيبَ دَاعِيًا. أَوْ يعْطِى سَائِلًا أَوْ يفُكَّ عَانِيًا أَوْ يشْفِى سَقِيمًا.

۞ روى ابن جرير بسندٍ حسن عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدى عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال ﷺ: «**أن يغفر ذنبًا، ويُفرِّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين**»[٣].

---

(١) انظر هذه الأقوال فى شفاء العليل (ص: ٥٩).

(٢) سورة الرحمن: الآية: (٢٩).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه (٢٠٢)، وصححه الألبانى فى ظلال الجنة (٣٠١).

۞ قال ابن كثير رحمه الله تعالى[1]:

قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ يُجِيبُ دَاعِيًا وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُجِيبُ مُضْطَرًّا وَيَغْفِرُ ذَنْبًا.

۞ وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يَسْتَغْنِي عنه أهل السماوات وَالْأَرْضِ يُحْيِي حَيًّا وَيُمِيتُ مَيِّتًا، وَيُرَبِّي صَغِيرًا وَيَفُكُّ أَسِيرًا، وَهُوَ مُنْتَهَى حَاجَاتِ الصَّالِحِينَ وَصَرِيخِهِمْ، وَمُنْتَهَى شَكْوَاهُمْ. اهـ[2].

۞ وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ فَضْلٍ: هُوَ سَوقُ الْمَقَادِيرِ إِلَى الْمَوَاقِيتِ. وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ: كُلَّ يوْمٍ لَهُ المواقيت إِلَى الْعَبِيدِ بِرٌّ جَدِيد.

۞ وقال البغوى فى تفسيره: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْيِي وَيمِيتَ وَيخْلُقَ وَيرْزُقَ وَيُعِزَّ قَوْمًا وَيُذِلَّ قَوْمًا وَيشْفِي مَرِيضًا وَيفُكَّ عَانِيًا وَيفَرِّجَ مَكْرُوبًا وَيجِيبَ دَاعِيًا وَيُعْطِي سَائِلًا وَيغْفِرَ ذَنْبًا إِلَى مَا لَا يحْصَى مِنْ أَفْعَالِهِ وَإِحْدَاثِهِ فِي خَلْقِهِ مَا يشَاءُ[3].

۞ وقال البخارى فى كتاب تفسير القرآن: قال أبو الدرداء: « ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا وَيرْفَعَ قَوْمًا وَيضَعَ آخَرِينَ».

۞ وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ: أَنَّ التَّقْدِيرَ الْيوْمِي هُوَ تَأْوِيلُ الْمَقْدُورِ عَلَى الْعَبْدِ وَإِنْفَاذُهُ فِيهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي سَبَقَ أَنَّهُ ينَالُهُ فِيهِ، لَا يتَقَدَّمُهُ وَلَا يتَأَخَّرُهُ.

ثُمَّ هَذَا التَّقْدِيرُ الْيوْمِي تَفْصِيلٌ مِنَ التَّقْدِيرِ الْحَوْلِي وَالْحَوْلِي تَفْصِيلٌ مِنَ التَّقْدِيرِ الْعُمْرِي عِنْدَ تَخْلِيقِ النُّطْفَةِ، وَالْعُمْرِي تَفْصِيلٌ مِنَ التَّقْدِيرِ الْعُمْرِي

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٥)، ومعارج القبول (٢/ ٧٩٨).

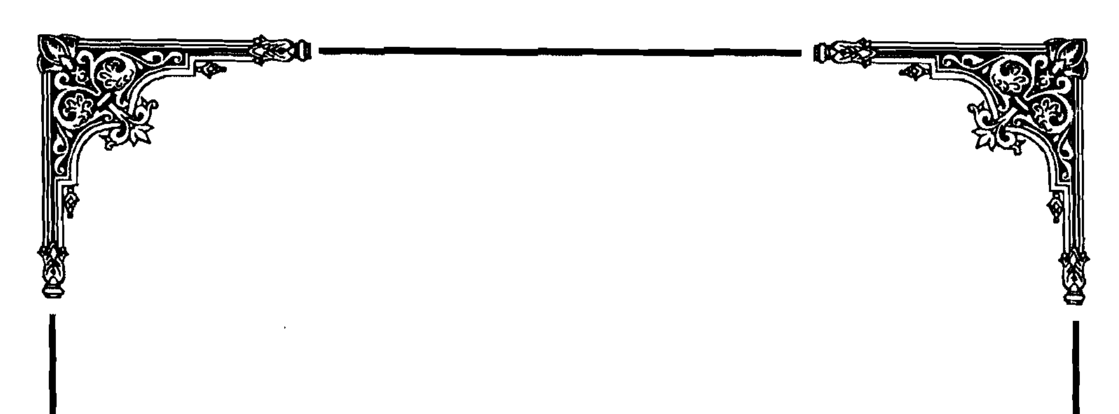
(٣) تفسير الخازن والبغوى (٦/ ٨٠، ٨١).

الْأَوَّلِ يوْمَ الْمِيثَاقِ، وَهُوَ تَفْصِيلٌ مِنَ التَّقْدِيرِ الْأَزَلِى الَّذِى خَطَّهُ الْقَلَمُ فِى الْإِمَامِ الْمُبِينِ؛ وَالْإِمَامُ الْمُبِينُ هُوَ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَذَلِكَ مُنْتَهَى الْمَقَادِيرِ فِى آخِرِيتِهَا إِلَى عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[1]، فَانْتَهَتِ الْأَوَائِلُ إِلَى أَوَّلِيتِهِ وَانْتَهَتِ الْأَوَاخِرُ إِلَى آخِرِيتِهِ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[2][3].

(١) معارج القبول (٣/ ٩٣٩).

(٢) سورة النجم: الآية: (٤٢).

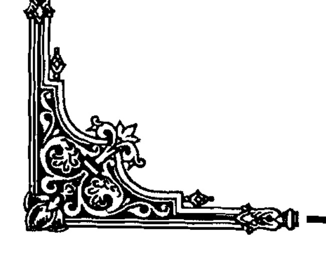
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٩٤٠).



* نظرة في تاريخ القدر:

* مذاهب الناس في القضاء والقدر:

* أسباب الضلال في القدر:





نظرة في تاريخ القدر

۞ الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان، وقد بيَّن الكتاب والسنة مفهوم القدر، وبيَّن الرسول ﷺ أن العمل والأخذ بالأسباب هو من القدر ولا ينافيه ولا يناقضه، وحذر أمته من الذين يكذبون بالقدر، أو يعارضون به الشرع.

وغضب الرسول ﷺ غضبًا شديدًا عندما خرج على أصحابه يومًا وهم يتنازعون فى القدر، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقِئ فى وجنتيه الرمان، فقال: « **أبهذا أُمرتم، أم بهذا أُرسلت إليكم؟ إنما هلك مَن كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه** »[1].

واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم لعزيمة نبيهم وتوجيهه، فلم يُعرَف عن أحدٍ منهم أنه نازع فى القدر فى حياة الرسول ﷺ أو بعد وفاته.

ولم يَرِدْ إلينا أن واحدًا من المسلمين نازع فى القدر فى عهد الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان، وكل ما ورد إلينا أن أبا عبيدة عامر بن الجراح اعترض على رجوع عمر بالناس عن دخول الشام عندما انتشر بها الطاعون، وقال لعمر بن الخطاب: « يا أمير المؤمنين أفرارًا من قدر الله »؟

فقال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إن كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله»[2].

---

(١) حسن: رواه الترمذى (٢١٣٣)، وحسنه الألبانى فى المشكاة (٩٨، ٩٩).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٧٢٩، ٥٧٣٠).

۞ وروى اللالكائى أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية (من أرض الشام) فقال فى خطبته: « من يضلل الله فلا هادى له ». وكان الجثاليق[١] بين يديه، فقال: إن الله لا يُضل أحدًا، ... وعندما كررها عمر بن الخطاب نفض الجثاليق ثوبه ينكر قول عمر.

فقال له عمر بعد أن تُرجم له كلامه: « كذبت يا عدو الله بل الله خلقك، والله يُضلك، ثم يُميتك، فيُدخلك النار إن شاء الله ... إن الله خلق الخلق، وقال: حين خلق آدم نثر ذريته فى يده، وكتب أهل الجنة وما هم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون، ثم قال: هؤلاء لهذه، وهؤلاء لهذه فتفرق الناس وما يختلف فى القدر اثنان »[٢] .

۞ وأول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة كان يعمل بَقَّالًا يُقال له: سَنْسَويه ...قال الأوزاعى: «أول من نطق فى القدر رجل من العراق يقال له: سوسن، كان نصرانيًّا فأسلم، ثم تنصَّر، فأخذ عنه معبد الجُهنى، وأخذ غيلان عن معبد »[٣] .

وقال يونس بن عبيد: « أدركت البصرة وما بها قدرى إلا سَنْسَويه ومعبد الجهنى، وآخر ملعون فى بنى عوافة »[٤] .

وروى مسلم فى صحيحه عن بُرَيدة بن يحيى بن يعمر قال: «كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجُهنى» وذكر بريدة فى حديثه أن معبدًا ومن

(١) جثاليق النصارى: رأسهم ومقدمتهم.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائى: (٣/ ٦٥٩).

(٣) شرح أصول الاعتقاد: (٣/ ٧٥٠)، وانظر الشريعة للآجرى: (ص ٢٤٢).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: (٣/ ٧٤٩).

معه يزعمون « أن لا قدر، وأن الأمر أُنُف»[١].

وقد أثار الصحابة الأحياء فى ذلك الوقت كعبد الله بن عمر وابن عباس وواثلة بن الأسقع، وجابر بن عبد الله، وأبى هريرة، وأنس بن مالك حربًا على أصحاب هذه المقالة [٢]. ثم أخذ هذا المذهب عن (معبدٍ) رؤوس الاعتزال وأئمته كواصل بن عطاء، وعمرو بن عُبيد، وغيلان الدمشقى.

فأما واصل بن عطاء رأس الاعتزال، فقد زعم أن الشر لا يجوز إضافته إلى الله، لأن الله حكيم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر، ويُحتم عليهم شيئًا، ثم يجازيهم عليه.

وقرر فى مقالته: أن العبد هو الفاعل للخير والشر، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وهو المُجازَى على فعله، والربُّ تعالى أقدره على ذلك كله [٣].

وذهب النظام من المعتزلة إلى أن الله لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى، وليست هى مقدورة لله [٤].

وهذه الفرقة هى التى أطلق عليها علماؤنا: اسم القدرية. «وسُمُّوا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه، وهؤلاء مع ضلالتهم يضيفون هذا الاسم إلى مخالفيهم من أهل الهدى، فيقولون: أنتم القدرية حين تجعلون

---

(١) شرح النووى على مسلم: (١/ ١٥٠) - الأمر أُنُف: أى: مُستأنف لم يسبق به علم الله.

(٢)راجع: الفرق بين الفرق: (ص١٩).

(٣) المِلل والنِّحل للشهرستانى: (١/ ٤٧).

(٤) الملل والنحل: (١/ ٥٤).

الأشياء جارية بقدرٍ من الله، وإنكم أَولَى بهذا الاسم منا »[١] .

وقد ذكر النووى فى شرحه على صحيح مسلم: « أن بعض القدرية قال: لسنا بقدرية، بل أنتم القدرية، لاعتقادكم إثبات القدر.

قال ابن قتيبة والإمام (يريد الإمام الجوينى) : « هذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهته وتواقح، فإن أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويضيفون القدر والأفعال إلى الله سبحانه وتعالى.. وهؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم، ومُدَّعى الشىء لنفسه، ومُضيفه إليها أَولَى بأن يُنسب إليه ممن يعتقده لغيره، وينفيه عن نفسه »[٢] .

وقد صَحَّ أن الرسول ﷺ سمى القدرية مجوس هذه الأمة، والحديث أخرجه أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه على الصحيحين، وقال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبى حازم من ابن عمر[٣] .

والسبب فى تسمية هذه الفرقة بمجوس هذه الأمة «مضاهاة مذهبهم المجوس فى قولهم بالأصلين: النور والظُّلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثَنَوِية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى، والشر إلى غيره، والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعًا، لا يكون شىء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقًا وإيجادًا، وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلًا واكتسابًا»[٤] .

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير: (١٠/ ١٢٨).

(٢) شرح النووى على مسلم: (١/ ١٥٤).

(٣) شرح النووى على مسلم: (١/ ١٥٤).

(٤) نقل هذا الكلام النووى فى شرحه على مسلم: (١/ ١٥٤) عن الخطابى. وانظر جامع الأصول: (١٠/ ١٢٨).

ونشأ في آخر عهد بني أمية أقوام يزعمون أن العبد مجبور على فعله، ليس له خيار فيما يأخذ أو يدع، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، وأول من ظهر عنه هذا القول هو الجهم بن صفوان، وتفرع عن هذه البدعة أقوال شنيعة، وضلال كبير [1].

وقد انتشر هذا القول في الأمة الإسلامية وتقلده كثير من العُبَّاد والزُّهَّاد والمتصوفة،... وإذا كان الفريق الأول أشبه المجوس فإن هذا الفريق أشبه المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [2].

وهذا الفريق شرٌّ من الفريق الأول، لأن الأولين عظَّموا الأمر والنهى، وأخرجوا أفعال العباد عن أن تكون خلقًا لله، وهذا الفريق أثبت القدر، واحتج به على إبطال الأمر والنهى [3].

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ٤٦٠)، والملل والنحل للشهرستاني: (١/ ٨٥).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٤٨).

(٣) عقيدة السفاريني: (١/ ٣٠٦)- نقلًا عن (القضاء والقدر) د. عمر الأشقر.

مَنِ القدرية؟

القدرى: هو الذى يزعم أنه خالق لعمله وكسبه، وأنه يقدر لنفسه، وأن الله تعالى لا يقدر له عمله، ولا يخلقه له، ولا يعلم عنه شيئًا إلا بعد أن يقع منه.

ولا يزال القدرى يهرف فى الضلالة حتى يقول: إن مشيئة الكافر فى كفره غلبت مشيئة الله تعالى، كما أن مشيئة الشيطان فى إضلاله غلبت مشيئة الله تعالى.

❁ قال ابن أبى العز الحنفى رحمه الله تعالى[١]:

روى عمرو بْنُ الْهَيثَم قَالَ: خَرَجْنَا فِى سَفِينَةٍ، وَصَحِبَنَا فِيهَا قَدَرِى وَمَجُوسِى، فَقَالَ الْقَدَرِى لِلْمَجُوسِى: أَسْلِمْ، قَالَ الْمَجُوسِى: حَتَّى يرِيدَ اللهُ فَقَالَ الْقَدَرِى: إِنَّ اللهَ يرِيدُ وَلَكِنَّ الشَّيطَانَ لا يرِيدُ! قَالَ الْمَجُوسِى: أَرَادَ اللهُ وَأَرَادَ الشَّيطَانُ، فَكَانَ مَا أَرَادَ الشَّيطَانُ! هَذَا شَيطَانٌ قَوِى!! وَفِى رِوَايةٍ أَنَّهُ قَالَ: فَأَنَا مَعَ أَقْوَاهُمَا!!. اهـ.

قلت: وهذا هو الشأن فى عُباد الشيطان، الذين تظاهروا بمعاصيهم - خاصة فى هذه الأزمان - وقالوا: نحن نعبد الشيطان ونصالحه؛ لنتقى أذاه، وقد نسوا أن سلطان الشيطان لا يقع كرهًا عن الله، وأنه إذا وقع فلا يقع إلا على الذين يتولونه، أما أهل الإيمان فقد حفظهم الله تعالى من سطوته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾[٢] .

---

(١) شرح الطحاوية (ص١٩١).

(٢) سورة النحل: الآيتان: (٩٩، ١٠٠).

فالقدرى هو الذى ينفى عن الله تعالى العلم والكتابة والمشيئة والخلق، وأول القدرية كانوا ينفون العلم ثم تطور الأمر إلى نفى كل ما يخص القدر ومراتبه.

۞ قال اللالكائى: قال إدريس بن عبد الكريم، أرسل رجل من أهل خُراسان بكتاب يسأل أبا ثور فأجاب، سألتم رحمكم الله عن القدرية مَن هم؟ فالقدرية من قالوا: إن الله لم يخلق أفاعيل العباد وإن المعاصى لم يقدرها على العباد، ولم يخلقها، فهؤلاء قدرية لا يُصلَّى خلفهم، ولا يُعاد مريضهم، ولا تُشهد جنائزهم، ويُستتابون من هذه المقالة، فإن تابوا وإلا ضُربت أعناقهم، وذلك أن الله خالق كل شىء، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[١] فمن زعم أن شيئًا ليس بمخلوق من أفاعيل العباد كان ذلك ضالًّا، وذلك يزعم أنه يخلق فعله. والأشياء على معنيين: إما عَرَض وإما جسم، فمن زعم أنه يخلق جسمًا أو عرضًا فقد كفر.

۞ قال أبو بكر الخلال: أخبرنى مُحَمَّدُ ابْنُ أَبِى هَارُونَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، أَنَّ أَبَا الْحَارِثَ حَدَّثَهُمْ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَسُئِلَ عَنِ الْقَدَرِ، قِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ يقُولُونَ: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يُضِلَّ أَحَدًا هُوَ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُضِلَّ أَحَدًا، ثُمَّ يعَذِّبُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: أَلَيس قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٢]، فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ قَدَّرَ الطَّاعَةَ وَالْمَعَاصِى، وَقَدَّرَ الْخيرَ[٣]. اهـ.

۞ قَالَ زَيدُ بْنُ أَسْلَمَ: وَاللهِ مَا قَالَتِ الْقَدَرِيةُ كَمَا قَالَ اللهُ، وَلا كَمَا قَالَتِ

---

(١) سورة القمر: الآية: (٤٩).

(٢) سورة المدثر: الآية: (٣١).

(٣) إسناده صحيح: ذكره الخلال فى كتاب السُّنَّة (٣/ ٥٣٧، ٥٣٨).

الْمَلائِكَةُ، وَلا كَمَا قَالَ النَّبِيونَ، وَلا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَلا النَّارِ، وَلا كَمَا قَالَ أَخُوهُمْ إِبْلِيسُ،... قَالَ اللهُ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، وَقَالَتِ الْمَلائِكَةُ: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾[2]، وَقَالَ شُعَيبٌ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾[3]، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[4]، وَقَالَ أَهْلُ النَّارِ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾[5]، وَقَالَ أَخُوهُمْ إِبْلِيسُ: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾[6]، والحق أنه لا جَبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين، وخير الأمور أوساطها فتقديره تعالى لا يُخرج العبد من حيز الاضطرار ولا يسلب عنه الاختيار[7].

---

(١) سورة الإنسان: الآية: (٣٠).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (٤٣).

(٥) سورة المؤمنون: الآية: (١٠٦).

(٦) سورة الأعراف: الآية: (١٦).

(٧) انظر طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ١٢٠) - نقلًا عن (القضاء والقدر عند السلف).

مَنِ الجبرية؟

الجبرية: قوم لا يُثبتون للعبد فعلًا ولا كسبًا. بل يجعلون كل شيء من فعل الله تعالى، ويجعلون حركات العبد الاختيارية كحركاته الاضطرارية، فهى عندهم كورقة فى مهب الريح أو كحركة المرتعش لا إرادة له ولا تصرُّف.

فهم يرون أنهم قد كُلِّفوا ما لا طاقة لهم به ولا قدرة لهم عليه، كتكليف طفل أن يصعد نخلة وليس بصاعد، أو تكليف سابح أن يسبح مكتوف الأيدى والأرجل وليس بسابح .. وزعيمهم فى ذلك الجهم بن صفوان المعطِّل، وقولهم هذا مناقضٌ للعقول الصريحة والفِطَر السوية.

۞ قال الشهرستانى[1]:

الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف:

فالجبرية الخالصة: هى التى لا تُثبت للعبد فعلًا ولا قدرةً على الفعل أصلًا.

والجبرية المتوسطة: هى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلًا، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرًا ما فى الفعل، وسمى ذلك كسبًا، فليس بجبرى. اهـ.

۞ يقول ابن القيم فى النونية:

فالجبر يشهدك الذُّنُوب جَمِيعهَا مثل ارتعاش الشَّيخ ذِى الرجفانِ

(١) الملل والنحل (١/ ٨٥).

لَا فَاعِــل أبــدًا وَلَا هُــوَ قَــادر　　كالميــت أُدرج دَاخــل الأكفــانِ
وَالْأمــر وَالنَّهْــى اللَّــذَان توجهــا　　فهمــا كــأمر العَبْــد بــالطيرانِ
وكــأمره الْأَعْمَــى بــنقط مــصاحفٍ　　أَو شــكلها حــذرًا مــن الألحــانِ

❁ يقول أحمد بن إبراهيم: وَهَذِه جِيم الْجَبْر لِأَن عِنْد الجبرية أَنَّ الْعباد مَجْبُورُونَ على أفعالهم وَأَنَّهَا مثل ارتعاش المرتعش أَو كالميت يُدرج فِي الأكفان وكأمر الْأَعْمَى بنقط الْمَصَاحِف أَو شكلها[١]. وقد بالغ الجبرية فى الضلال حتى جعلوا كل شىء فى الوجود محبوبًا لله تعالى، يستوى فى ذلك الخير مع الشر، والهدى مع الضلال، وهذا يؤدى بالتلازم إلى نقض مبدأ الثواب والعقاب، وهذا ضلال فى الاعتقاد والتشريع والمعاملات.

❁ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإذا ارْتَفَعــت دُريجــة أُخْــرَى　　رَأَيــت الكــل طاعــاتٍ بِــلَا عــصيانِ
إِذا قيــل قــد خَالَفــت أَمــر الــشَّرْع　　قُــل لَكِــن أَطَعْــت إِرَادَة الــرَّحْمَنِ
ومطيــع أَمــر الله مثــل مُطِيــع　　مَــا يقْــضِى بِــهِ وَكِلَاهُمَــا عَبْــدَانِ
عبــد الْأَوَامِــر مثــل عبــد مَــشِيئَة　　عِنْــد الْمُحَقــق لَيــسَ يفترقــانِ
فَــانْظُر إِلَــى مَــا قــدمت الْجِيــم الَّتِــى　　للجبــر مــن كفــرٍ وَمــن بهتــانِ

❁ قال أحمد بن إبراهيم: أَى إِذا ارْتَفع الجبرى دَرَجَة أُخْرَى رأى الْكل طاعات وَفِى هَذِه الْحَال يقُول قَائِلهمْ:

أَصــبَحت مــنفعلًا لمــا تختــاره　　منــى ففعلــى كُلــه طاعــات[٢]

---

(١) شرح النونية (٢/ ١١٦).

(٢) شرح النونية (٢/ ١١٦).

ويُبطل ذلك كله أن الله تعالى أرسل الأنبياء والرسل إلى الناس؛ ليهتدوا إلى ما يحبه الله تعالى ويتركوا مَغاضبه ومَحارمه، وقد ارتفع العذر عن الخلائق لأجل البيان والبلاغ، فمن بُلِّغ فلا عذر له.

فليس إذن كل منفعل بما خلق الله تعالى يفعل ما يحبه الله ويرضاه كما يزعم هؤلاء، وإنما يكون رضا الله تعالى فيما أرسل من أجله الرسل وأنزل من أجله الكتب. قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢].

وروى مسلم عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيدِهِ لا يسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يهُودِى وَلا نَصْرَانِى ثُمَّ يمُوتُ وَلَمْ يؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** »[٣].

وعلى ذلك فلو لم يكن للعباد قدرة على الفعل والترك كما يزعم الجبرية لصار إرسال الرسل هباءً منثورًا، ولبطل العقاب والثواب المترتب على المخالفة والاتباع، ولسوَّى الله تعالى بين المؤمن الصالح والفاجر الطالح، وهذا لم يكن فى أى شريعة من الشرائع، فقد فرَّق الله تعالى بينهما فى المقام والحساب.

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٢٠).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٩٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٥٣) كتاب الإيمان.

(٤) سورة القلم: الآيتان: (٣٥، ٣٦).

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[1].

ذلك أن الله تعالى جعل للعباد كسبًا اختياريا مخلوقًا وفعلًا ذاتيًّا مؤثرًا يُنسب إليهم ويُحاسَبون عليه، ... قال تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3]، والقول بخلاف ذلك تكذيب للقرآن.

وقد فطر الله تعالى الخلائق جميعًا على قبول العذر من العاجز دون المفرط، وقد أقرت الشريعة ذلك،... قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[4].

أما جعل الجبرية الحركات الاضطرارية التى لا قدرة للمرء على ردها كالحركات الاختيارية التى يفعلها متى شاء. فهذا رأى ساقط، وسقوطه يُغنى عن إسقاطه[5].

---

(١) سورة ص: الآية: (٢٨).

(٢) سورة الصافات: الآية: (٢٩).

(٣) سورة المدثر: الآية: (٣٨).

(٤) سورة النور: الآية: (٦١).

(٥) القضاء والقدر عند السلف (ص ١١٠-١١٣).

آثار الإيمان بمذهب القدرية والجبرية

أما مذهب القدرية:

وهو إثبات القدر للعبد دون الله تعالى فهو يقتضى استغناء أصحابه عن الله تعالى، فلا يدعونه ولا يسألونه ولا يستغفرونه، ولا يتذللون بين يديه ولا يتوكلون عليه، ولا يثبتون له الصفات ولا الأفعال التى يُسأل بها ويُدعَى بها، وذلك لأنهم يرون أنهم خالقوا أعمالهم، وأنهم يفعلون ما يريدون، وأن الله تعالى لا يَمُنّ ولا يهدى، ويكون فى ملكه ما لا يريد.

وهذا من أكبر دوافع الحقد والحسد، بل من أعظم أبنية الغرور، بل هو حقيقة الشرك والكفر، وذلك لأنه يقتضى أن يكون فى الكون خالقون مع الله تعالى، وهذا هو قول المجوس كما تقدم.

والقول بالقدر أيضًا يقتضى أن يكون العبد عالمًا بعمله وبتفاصيله وآثاره، طالما أنه خالق له، فهذا مستلزم لذلك.

وهذا الادعاء ظاهر البُطلان، فمن ذا الذى يحيط بعمله حتى يكون خالقًا له.

ومذهب القدرية يقتضى أن يُحاسَب المرء على ما لا دافع له من الحركات الاضطرارية التى يقع بها الخطأ، أو يعقب وجودها الخلل والتقصير، وذلك لأن القدرى يرى أنه خالقها.

وبُناءً على ما تقدم فمذهب القدرية يقتضى تعطيل الصانع عن مصنوعه، أو بمعنى آخر يقتضى تعطيل أفعال الله تعالى وصفاته وأسمائه عن ثبوت حقيقتها وآثارها ونسبة ذلك إلى المخلوقين.

۞ **أما مذهب الجبرية:**

فهو يقتضى نسبة الشر والكفر إلى الله تعالى، واعتبار كل ما فى الكون من الشر فعل الله تعالى المتصف به وليس من مفعولاته [تعالى الله عما يقولون]، وهم بذلك ينكرون أفعال العباد وإراداتهم وكسبهم.

ولذلك فهم أكثر الناس احتجاجًا بالقدر لأنفسهم، وإلا فلا يُعقل أن يحتجوا به لغيرهم إذا تعلقت معاصيهم بهم، فلن يتركوا السارق منهم ولا القاتل منهم، دون حدٍّ أو ردٍّ إذا احتج عليهم بالقدر إلا إذا كان من أكابر الغلاة المتعمقين فى الجبر.

۞ ومقتضى قول الجبرية عدة أمور منها:

(١) نسبة النقائص والقبائح إلى الله تعالى وجعلها من صفاته.

(٢) إبطال قاعدة الثواب والعقاب.

(٣) التسوية بين المتناقضات والمتضادات، واعتبارها عملًا مرضيًّا، فالمؤمن كالكافر والمفسد كالمصلح سواءً بسواءٍ.

(٤) وحاصل ذلك أنهم يرون أنهم كُلِّفوا ما لا طاقة لهم به، وأن أمر الله تعالى محض مشيئة لا حكمة فيه ولا رحمة [تعالى الله عما يقولون].

۞ **تطور القول:**

وكما يتطور القول بالقدر حتى يُخرج صاحبه من دائرة الإنابة والتوكل، ويحصره فى دائرة الكبر والغرور. فإن القول بالجبر الذى يرى فيه صاحبه أن المعاصى قربات وطاعات ينقلب عليه بالآفات والسيئات، التى تلازمه ولا تنفك عنه، حتى يصير بلا إرادة وإن كانت له إرادة، وبلا اختيار وإن كان له اختيار، والجزاء من جنس العمل،... وتفسير ذلك أن المعاصى

والسيئات إن لم ينقطع ضررها فى وقت الاختيار تطورت آثارها فى النفس، فى مراحل مختلفة من السوء والشر، من خاطرة إلى فكرة، إلى شهوة وإرادة تقوى فى وقت الاضطرار، حتى تصير عزيمة وهمة، ثم تصير فعلًا لازمًا، ثم تصير عادة أو صفة يصعب على المرء الخروج منها كما يصعب عليه الخروج من صفاته الذاتية، حتى يُرهَق إرهاقًا، قد يدفعه إلى الجنون أو الكفر بالله العظيم.

وأمثال هؤلاء تجدهم يندفعون إلى فعل المعصية بعجلة بالغة، وهمة عظيمة دون أناة أو رَوِيَّة، فيجدون أنفسهم فى سرعة بالغة فى موضع يتطلب الاعتذار منه، والتأسُّف عليه؛ لما فيه من غلبة الحمق والجهالة والظلم. ولا تكاد تجد لأحدهم احتياطًا من الوقوع فى المحرمات أو حذرًا منها؛ وذلك بسبب غلبة المعاصى والسيئات. أعاذنا الله من ذلك[1].

۞ حكم مُنكر القدر:

كان أوائل القدرية ينكرون علم الله تعالى الأزلى، وينكرون أيضًا كتابة ذلك فى اللوح المحفوظ، وكانوا يقولون: «أن لا قدر وأن الأمر أُنُف». ولذلك اجتمع الصحابة على تكفيرهم؛ لأن هذا هو أول ما ظهر منهم. وهذا الذى عليه الأئمة ...

قال القاضى عياض رَحِمَهُ اللهُ: «والقائل بهذا القول كافر بلا خلاف»، ذلك لأن العلم أعم فمن أنكره فقد أنكر ما بعده.

وعلم الله تعالى الأزلى بكل ما كان وما يكون ثابت قبل أن يخلق الله تعالى الأشياء - فالأزلى هو الذى لا يسبقه عدم.

---

(١) بتصرف من (القضاء والقدر عند السلف).

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١]، ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[٢]، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾[٣]، ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[٤] ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾[٥].

وقد تطور معتقد القدرية حتى نفوا عن الله تعالى صراحة القدرة على خلق الأفعال، وأنكروا المشيئة وقالوا: هى الأمر فمشيئته أمره، وهذا التأويل يُبطل الشريعة من جذرها، ويُسوِّى بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وهذا كله جحود لمقتضيات العلم من جهة، وردٌّ للنصوص الشرعية القطعية المحكمة، التى تثبت ذلك من جهة أخرى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما **قال**: ما غلا أحد فى القدر إلا خرج من الإسلام[٦].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما **ليحيى بن يعمر**: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّى بَرِىءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّى، وَالَّذِى يحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يؤْمِنَ بِالْقَدْرِ.. إلخ. الحديث[٧].

وعند اللالكائى[٨]: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يا أَبَا

(١) سورة الدخان: الآية: (٣٢).

(٢) سورة الجاثية: الآية: (٢٣).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٥١).

(٤) سورة الأنعام: الآية: (١٢٤).

(٥) سورة الأنبياء: الآية: (٨١).

(٦) اللالكائى (٤/ ٦٣٢).

(٧) صحيح: رواه مسلم (٨) كتاب الإيمان.

(٨) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٦٩٨).

عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّ قَوْمًا يتكَلَّمُونَ فِى الْقَدَرِ بِشَىءٍ، فَقَالَ: أُولَئِكَ يصِيرُونَ إِلَى أَنْ يكُونُوا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مَعَ اللهِ قَاضِيًا، أَوْ قَادِرًا، أَوْ رَازِقًا، أَوْ يمْلِكُ لِنَفْسِهِ خَيرًا، أَوْ نَفْعًا، أَوْ مَوْتًا، أَوْ حَياةً، أَوْ نُشُورًا لَعَنَهُ اللهُ، وَأَخْرَسَ لِسَانَهُ، وَأَعْمَى بَصَرَهُ، وَجَعَلَ صَلَاتَهُ وَصِيامَهُ هَبَاءً مَنْثُورًا، وَقَطَعَ بِهِ الْأَسْبَابَ وَكَبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِى النَّارِ ... انتهى.

ما علامات السخط على القدر؟

علامات السخط على القدر ثلاث:

الأولى: إما بالسخط عليه من ناحية أنه قضاء، فيتهم الله تعالى فى حكمته.

الثانية: أن يظن أنه كان من الممكن أن يحذره ويفوته، ويقول: لو كان كذا لكان كذا.

الثالثة: أن يجحد وينسى نعم الله تعالى السابغة عليه وعلى الناس؛ فيشكو الله تعالى إلى الناس،... وكثير من الناس كذلك إذا أنعم الله تعالى عليهم بالنعم ستروها وأخفوها، وإذا ابتلاهم الله تعالى بالمصائب حكى كُلٌّ منهم ما أصابه من سوء إلى من يعرف ومن لا يعرف، ولو استدعى الأمر أن يحكى إلى جدار بيته أو ناقته لفعل،... وترى كثيرًا من هؤلاء يمشى فى الطرقات يكلم نفسه فيما أصابه من مصائب، وليس به جنون، وهذا واقع محسوس بين كثير من الناس فى هذا الزمان.

ومن الناس من يتعدى فى الشكوى فيبطش بيده، ويسب بلسانه، وقد سبق منه السخط بالقلب، وهؤلاء ليسوا على هدى النبى ﷺ وذلك لما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود، وشَقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[1].

وهذا كثير فى المصائب، ومن الناس من يسخط بلطم الخدود، ودعاوى الجاهلية من قبيل المكافأة وجلب الرضا، وأداء الواجب، وإظهارًا لعِظَم المصيبة، كما يفعله كثير من النساء فى مجالس العزاء، وعند

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣٢) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان.

اشتداد المصيبة، وعند خروج الجنائز، وهناك من يفعل ذلك لأجل حاجته إلى الصدقة، وهذا مهما تنوعت الدوافع فهو من الكبائر والمحرمات، وهؤلاء مع فرط جهلهم وضعف دينهم قد غابت عنهم مشاهد الحق وأوصاف العبادة الحقيقية الواجبة عليهم فى تلك الحال، ولو أنهم تمثلوا بها ووقفوا عليها لكان ذلك خيرًا لهم من الانشغال بفوات الحظوظ وضياع المغانم والنواح على الموت وفقدان الأحباب.

۞ مشاهد الصابرين:

قال ابن القيم فى الفوائد (ص ٣٠):

إذا جرى على العبد مقدورٌ يكرهُهُ؛ فله فيه ستةُ مشاهد:

أحدُها: مشهدُ التوحيد، وأنَّ الله هو الذى قدَّرهُ وشاءهُ وخلقهُ، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثانى: مشهدُ العدل، وأنه ماضٍ فيه حُكْمُهُ، عدلٌ فيه قضاؤُهُ.

الثالث: مشهد الرحمة، وأنَّ رحمته فى هذا المقدور غالبةٌ لغضبِهِ وانتقامِهِ، ورحمتُهُ حشوُهُ.

الرابع: مشهدُ الحكمة، وأنَّ حكمتَهُ سبحانه اقتضتْ ذلك، لم يُقدِّرْهُ سُدًى ولا قضاه عبثًا.

الخامس: مشهدُ الحمدِ، وأنَّ له سبحانه الحمد التامَّ على ذلك من جميع وجوهِهِ.

السادس: مشهدُ العبودية، وأنه عبدٌ محضٌ من كلِّ وجه، تجرى عليه أحكامُ سيدِهِ وأقضيتُهُ بحكم كونه ملكه وعبدهُ، فيُصَرِّفُه تحت أحكامه القدرية كما يُصرِّفُهُ تحت أحكامه الدينية؛ فهو محلٌّ لجَرَيانِ هذه الأحكام عليه. اهـ[1].

---

(١) القضاء والقدر عند السلف (ص ٢٣١-٢٣٢).

ما دور الرسل مع المكذبين بالقدر؟

۞ قال ابن القيم فى روضة المحبين (ص ٦٣):

بعث الله الرسل بالأمر وأمرهم أن يحاربوا به أهل القدر وشرع لهم من أمره سُفنًا وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعهم فى بحر القدر وخَصَّ بالنجاة مَن ركبها كما خص بالنجاة أصحاب السفينة وجعل ذلك آية للعالمين فأصحاب الأمر حربٌ لأصحاب القدر حتى يردوهم إلى الأمر وأصحاب القدر يحاربون أصحاب الأمر حتى يُخرجوهم منه ... فالرسل دينهم الأمر مع إيمانهم بالقدر وتحكيم الأمر عليه وإبليس وأتباعه دينهم القدر ودفع الأمر به. اهـ.

۞ هل كان السلف يُكفرون من ينكر جميع مراتب القدر دون تفصيل؟

۞ قال أحمد بن إبراهيم فى شرح النونية (٢/ ٤٠٨):

قَالَ الإمام مَالك وَالشَّافِعِي وَأحمد فِي القدرى: إِن جحد علم الله كفر. وَلَفظ بَعضهم: ناظروا الْقَدَرِية بِالْعلمِ فإن أقرُّوا بِهِ خصموا وَإِن جحدوه كفرُوا... وَسُئِلَ الإِمَام أَحْمد عَن القدرى هَل يَكْفُر؟ فَقَالَ: إِن جحد الْعلم كفر حِينَئِذٍ، فجاحده من جنس الْجَهْمِية، وَأما قتل الداعية للبدع فقد يُقتل لكفِّ ضَرَره عن النَّاس كَمَا يُقتل الْمُحَارب، وَإِن لم يكن فِي نفس الْأَمر كَافِرًا، فَلَيسَ كل من أَمر الشَّرْع بقتْله يكون قَتله لردته؛ وعَلى هَذَا يكون قتل غيلَان القدرى وَغَيره من أهل الْبدع قد يكون على هَذَا الْوَجْه. انْتهى.

۞ وقال الشيخ سليمان بن عبد الله فى شرح كتاب التوحيد (ص ٦٣٠):

إذا كان جاحدًا للعلم القديم فهو كافر، كما قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوا كفروا.

يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسَّمهم قبل خلقهم إلىِ شقى وسعيد، وكتب ذلك عنده فى كتابٍ حفيظ، فقد كذب القرآن، فيكفر بذلك، كما نص عليه الشافعى وأحمد وغيرهما، وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد، وشاءها وأرادها بينهم إرادة كونية قدرية، فقد خصموا، لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه. وفى تكفير هؤلاء نزاعٌ مشهور، وبالجملة فهم أهل بدعة شنيعة، والرسول ﷺ برىء منهم، كما هو برىء من الأولين. اهـ.

مذاهب الناس في القضاء والقدر[1]

(١) مذهبُ المُكَذِّبين بالقدر:

ذهب بعض الضالين فى هذا الباب إلى نفى القدر، وزعموا أن الله - تعالى عمَّا يقولون - لا يعلم بالأشياء قبل حصولها، ولم يتقدم علمه بها، وقالوا: إنما يعلم الله بالموجودات بعد خلقها وإيجادها.

وزعم هؤلاء كذبًا وزورًا أن الله إذا أمر العباد ونهاهم لا يعلم من يطيعه منهم ممن يعصيه، ولا يعلم من يدخل الجنة ممن يدخل النار، حتى إذا استجاب العباد لشرعه أو رفضوا - علم السعداء منهم والأشقياء، ويرفض هؤلاء الضُّلَّال الإيمان بعلم الله المتقدم، كما يُكذبون بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض، كما ثبت فى الكتاب والسنة.

وقد نشأ القول بهذا فى آخر عهد الصحابة، فأول من قال به معبد الجُهنى، ثم تقلد عنه هذا المذهب الفاسد رؤوس المعتزلة وأئمتهم كواصل بن عطاء الغزَّال، وعمرو بين عبيد، ورُويت عنهم فى هذا أقوال شنيعة فيها تكذيب لله ولرسوله فى أن الله علم الأشياء وكتبها قبل خلقها[2].

وقد خشى الرسول ﷺ على أمته هذا الضلال الذى وقعت فيه هذه الفرقة،... ففى الحديث الصحيح الذى يرويه ابن عساكر عن أبى محجن وابن عبد البر فى «الجامع» أن رسول الله ﷺ قال: «**أخاف على أمتى من**

---

(١) من كتاب (القضاء والقدر) / د. عمر الأشقر رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) راجع: عقيدة السفارينى (١/ ٣٠٠)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/ ٥٩).

بعدى ثلاثًا: حَيف الأئمة، وإيمانًا بالنجوم، وتكذيبًا بالقدر » [١] .

وروى أبو يعلى فى مسنده والخطيب فى التاريخ وابن عَدِى فى الكامل بإسناد صحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « **أخاف على أمتى من بعدى خصلتين: تكذيبًا بالقدر، وتصديقًا بالنجوم** » [٢] .

وحذر الرسول ﷺ أمته من هذا الضلال، ففى الحديث الذى يرويه الطبرانى فى معجمه الأوسط، والحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « **أُخِّر الكلام فى القدر لشرار أمتى فى آخر الزَّمان**» [٣] .

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أمر هذه الأمة لا يزال مقاربًا حتى يتكلموا فى الولدان وفى القدر** » [٤] .

وسَمَّى الرسول ﷺ هذا الفريق بمجوس هذه الأمة، لأن المجوس يقولون بوجود خالقين اثنين: النور والظُّلمة، وهذا الفريق يقولون بوجود خَالِقين، بل يزعمون أن كلَّ واحد خالق من دون الله، وقد أمر الرسول ﷺ بهجران هذا الفريق، فلا يُزارون ولا يُعادون، ... ففى الحديث الذى يرويه أحمد فى مسنده بإسناد حسن عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «**لكل أمة مجوس، ومجوس أمتى الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم** »[٥] .

---

(١) صحيح: رواه ابن عساكر فى تاريخه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٤)

(٢) صحيح: رواه أبو يعلى فى «مسنده» (١٠٢٣) وابن عدى (١٩٦/ ١)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٥).

(٣) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٦).

(٤) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، والبزار، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٠٣).

(٥) حسن: رواه أحمد وابن ماجه (٩٢)، وحسنه الألبانى فى المشكاة (١٠٧)، الظلال (٣٢٨).

وقد صاح الصحابة بأصحاب هذه الضلالة من كل ناحية، وأنكروا عليهم ما جاؤوا به من الضلال والباطل، ونهوا الناس عن مخالطة هؤلاء ومجالستهم، وأوردوا عليهم النصوص الفاضحة لباطلهم، المقررة للحق فى باب القدر.

ففى سنن الترمذى عن نافع أنَّ ابن عمر جاءَه رجل فقال: إنَّ فلانًا يقرأ عليك السلام، فقال له: بلغنى أنّه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تُقرئه منى السلام، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **يكون فى هذه الأمة أو فى أمتى خسف أو مسخ أو قذف فى أهل القدر** »[1].

وفى الترمذى عن ابن عمر أيضًا يرفعه: « **يكون فى أمتى خسف ومسخ وذلك فى المكذبين فى القدر** »[2].

وفى سنن الترمذى أيضًا عن عبد الواحد بن سليم قال: قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبى رباح فقلت له: يا أبا محمد، إن أهل البصرة يقولون: لا قدر. قال يا بنى، أتقرأ القرآن؟

قلت: نعم.

قال: فاقرأ الزخرف.

قال: فقرأت: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3].

---

(١) حسن: أخرجه الترمذى (٢١٥٢)، وابن ماجه (٤٠٦١)، وحسنه الألبانى فى المشكاة (١١٦).

(٢) حسن: رواه الترمذى، حسنه الألبانى فى المشكاة: ١٠٦، وفى الصحيحة تحت حديث: (١٧٨٧).

(٣) سورة الزخرف: الآيات: (١-٤).

قال: أتدرى ما أم الكتاب؟ قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه كتاب كتبه قبل أن يخلق السماوات والأرض، فيه أن فرعون من أهل النار، وفيه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [(١)].

قال عطاء: فلقيت الوليد بن عُبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فسألته ما كانت وصية أبيك عند الموت؟

قال: دعانى أبى فقال لى: يا بنى، اتق الله، واعلم أنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، فإن مت على غير هذا أُدخلت النار، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إن أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان، وما هو كائن إلى الأبد** » [(٢)].

وقد نَصَّ الأئمة على كفر هذه الطائفة التى لم تقر بعلم الله، وممن نَصَّ على كفرهم الأئمة مالك والشافعى وأحمد [(٣)].

وقد تلاشت هذه الطائفة التى تُكذب بعلم الله السابق أو كادت.

يقول السفارينى: « قال العلماء: المنكرون لهذا انقرضوا، وهم الذين كفَّرهم عليه الإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد وغيرهم من الأئمة » [(٤)].

« وقال القرطبى: قد انقرض هذا المذهب، فلا نعرف أحدًا يُنسَب إليه من المتأخرين. وقال الحافظ ابن حجر العسقلانى: القدرية اليوم مطبقون

(١) سورة المسد: الآية: (١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧-٢٠١٨).

(٣) راجع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ٢٨٨).

(٤) عقيدة السفارينى: (١/ ٣٠١).

على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف فى زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم، وواقعة منهم على وجه الاستقلال، وهو مع كونه مذهبًا باطلًا أخف من المذهب الأول. قال: والمتأخرون منهم أنكروا تعلُّق الإرادة بأفعال العباد فرارًا من تعلُّق القديم بالمُحدَث »(١) .

وقال النووى: « قال أصحاب المقالات من المتكلمين: انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبقَ أحدٌ من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية فى الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله، والشر من غيره ... تعالى الله عن قولهم »(٢) .

« والقدرية يعترفون بأن الله خلق الإنسان مُريدًا، لكن يجعلونه مُريدًا بالقوة والقبول، أى قابلًا لأن يريد هذا ويريد هذا، وأمّا كونه مريدًا لهذا المُعَيَّنِ، وهذا المُعَيَّنِ، فهذا عندهم ليس مخلوقًا »(٣) .

« فهؤلاء فى الحقيقة مجوس ثَنَوِية، بل أعظم منهم، فإن الثَنويةَ أثبتوا خالِقَين للكون كله، وهؤلاء أثبتوا خالقين لكل فرد من الأفراد، ولكل فعل من الأفعال، بل جعلوا المخلوقين كلهم خالقين، ولولا تناقضهم لكانوا أكفر من المجوس.

وطَردُ قولهم ولازِمهُ وحاصله هو إخراج أفعال العباد عن خلق الله عَزَّوَجَلَّ ومُلكه، وأنها ليست داخلة فى ربوبيته عَزَّوَجَلَّ ، وأنه يكون فى ملكه ما لا يريد، ويريد ما لا يكون، وأنهم أغنياء عن الله عَزَّوَجَلَّ ، فلا يستعينون على طاعته ولا

---

(١) عقيدة السفارينى: (١/ ٣٠١).

(٢) شرح النووى على مسلم: (١٥/ ١٥٤).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ٢٠٦).

ترك معصيته، ولا يعوذون بالله من شرور أنفسهم ولا سيئات أعمالهم ولا يستهدونه الصراط المستقيم »[١].

والقدرية بزعمهم أرادوا تنزيه الله وتقديسه عندما زعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكنَّ الكافر هو الذى شاء الكفر، وحجتهم فى ذلك أن هذا يؤدى إلى الظلم، إذ كيف يشاء الله الكفر من الكافر ثم يعذبه عليه.

ولكنهم - كما يقول شارح الطحاوية -: « صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإنهم هربوا من شىء فوقعوا فيما هو شرٌّ منه فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه - على قولهم - والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى، وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل »[٢].

ومشيئة الله الكفر من الكافر ليس ظلمًا له كما يدَّعى أهل الظلم من القدرية؛ فلله الحجة البالغة، وله فى عباده من الحِكَمِ ما لا يعلمه إلا هو تبارك وتعالى.

(٢) محاورة أهل السُّنة للقدرية:

ولم يستطع منطق المعتزلة أن يقف فى مجال الحِجاج مع عوام أهل السنة فضلًا عن علمائهم وأهل الرأى فيهم.

يذكر أهل العلم أن أعرابيًّا أتى عمرو بن عبيد، فقال له: إن ناقتى سُرقت، فادعُ الله أن يردها علىَّ.

قال عمرو بن عبيد: اللهم إن ناقة هذا الفقير سُرقت، ولم تُرِدْ سرقتها،

---

(١) معارج القبول: (٢/ ٢٥٣).

(٢) شرح الطحاوية: (ص ٢٧٧).

اللهمّارددها عليه.

فقال الأعرابى: الآن ذهبت ناقتى، وأيست منها.

قال: كيف؟

قال: لأنه إذا أراد أن لا تُسرق فسُرِقت، لم آمَن أن يريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده منصرفًا [(١)].

(٣) إجابة أبى عصام القسطلاني لقدري:

وقال رجل لأبى عصام القسطلانى: أرأيت إن منعنى الهدى، وأوردنى الضلال ثم عذبنى أيكون منصفًا؟

فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئًا هو له، فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء [(٢)].

(٤) محاورة عبد الجبار الهمداني وأبي إسحاق الإسفراييني:

ودخل عبد الجبار الهمدانى - أحد شيوخ المعتزلة - على الصاحب ابن عبَّاد، وعنده أبو إسحاق الإسفرايينى أحد أئمة السنة، فلما رأى الأستاذ قال: سبحان مَن تنزَّه عن الفحشاء.

فقال الأستاذ فورًا: سبحان من لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء.

فقال القاضى: أيشاء ربنا أن يُعْصَى؟

فقال الأستاذ: أيُعْصَى ربنا قهرًا؟

فقال القاضى: أرأيت إن منعنى الهدى، وقضى عَلىَّ بالرَّدَى، أحسنَ إلىَّ أم أساء؟

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: (ص٧٤٠).

(٢) شرح الطحاوية: (ص٢٧٨).

فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء. فبُهت القاضى.

وفى تاريخ الطبرى أن غيلان قال لميمون بن مهران بحضرة هشام بن عبد الملك الذى أتى به ليناقشه: أشاء الله أن يُعصَى؟

فقال له ميمون: أفَعُصى كارهًا؟[1].

(٥) بيْنَ عمر بن عبد العزيز وغَيْلان الدمشقي:

وحاور عمر بن عبد العزيز غيلان الدمشقى أحد رؤوس الاعتزال، فقال له عمر: يا غيلان بلغنى أنك تتكلم فى القدر.

فقال: يَكْذِبون علىَّ يا أمير المؤمنين.

قال: اقرأ علىَّ سورة « يس ».

قال: فقرأ عليه: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[2].

قال غيلان: لا والله لكأنى يا أمير المؤمنين لم أقرأها قط إلا اليوم. أشهد يا أمير المؤمنين أنى تائب من قولى بالقدر.

فقال عمر: اللهم إن كان صادقًا فتُب عليه، وإن كان كاذبًا فاجعله آية

---

(١) انظر هاتين القصتين فى تعليق محقق شرح الطحاوية (ص٢٧٨) وانظر فتح البارى: (١٣/ ٤٥١).

(٢) سورة يس: الآيات: (١-٩).

للمؤمنين [١].

۞ قال معاذ بن معاذ: حدثني صاحب لي قال:

« مرَّ التيمي بمنزل ابن عون فحدثه بهذا الحديث، قال ابن عون: أنا رأيته مصلوبًا بدمشق » [٢].

۞ والقدرية النفاة حُرموا الاستعانة بالله الواحد الأحد، لأنهم زعموا أن الله لا يقدر على أفعال العباد، وأن العبد هو الخالق لفعله، فكيف يستعينون بالله على مالا يقدر عليه.

وهؤلاء يعتمدون فيما يفعلون على حولهم وقوتهم وعملهم، وهم يطلبون الجزاء والأجر من الله كما يطلب الأجير أجره من مستأجره... والله ليس محتاجًا إلى العباد وأعمالهم، بل نَفعُ ذلك عائد إلى العباد أنفسهم، ومع كون العباد هم المحتاجين إلى الأعمال، فلا غنى لهم عن الاستعانة بالله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٣]. ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [٤].

---

(١) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: هذه الرواية رواها الآجرى في الشريعة (ص ٢٢٩) وابن بطة في الإبانة (٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٢) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: رواه عبد الله بن أحمد - بدون واسطة بين معاذ وابن عون - في السنة (ص ١٢٨) وابن بطة - وفيه أن القائل: أنا رأيته ... هو ابن عوف. الإبانة (٢/ ٣٢٧) قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٧).

(٣) سورة الفاتحة: الآية: (٥).

(٤) سورة هود: الآية: (١٢٣).

مذهب أهل السنة في القدر

۞ وها هى نبذة يسيرة عن مذهب أهل السنة فى القدر:

أولاً: شيخ الإسلام ابن تيمية يُلخِّص مذهب أهل السنة

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وأجزل له المثوبة: «مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِى هَذَا الْبَابِ وَغَيرِهِ مَا دَلَّ عَلَيهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَكَانَ عَلَيهِ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ: وَهُوَ أَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَىءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَقَدْ دَخَلَ فِى ذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْيَانِ الْقَائِمَةُ بِأَنْفُسِهَا وَصِفَاتِهَا الْقَائِمَةِ بِهَا مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيرِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ.

وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يشَأْ لَمْ يكُنْ؛ فَلَا يكُونُ شَىءٌ إلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ لَا يمْتَنِعُ عَلَيهِ شَىءٌ شَاءَهُ؛ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَىءٍ وَلَا يشَاءُ شَيئًا إلَّا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيهِ.

وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يكُونُ وَمَا لَمْ يكُنْ لَوْ كَانَ كَيفَ يكُونُ وَقَدْ دَخَلَ فِى ذَلِكَ أَفْعَالُ الْعِبَادِ وَغَيرُهَا وَقَدْ قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يخْلُقَهُمْ ... قَدَّرَ آجَالَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَكَتَبَ ذَلِكَ وَكَتَبَ مَا يصِيرُونَ إلَيهِ مِنْ سَعَادَةٍ وَشَقَاوَةٍ.

فَهُمْ يؤْمِنُونَ بِخَلْقِهِ لِكُلِّ شَىءٍ وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَىءٍ وَمَشِيئَتِهِ لِكُلِّ مَا كَانَ وَعِلْمِهِ بِالْأَشْياءِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ وَتَقْدِيرِهِ لَهَا وَكِتَابَتِهِ إياهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ[1].

وَسَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَ مَأْمُورُونَ بِمَا أَمَرَهُمْ اللهُ بِهِ مَنْهِيونَ عَمَّا نَهَاهُمْ اللهُ عَنْهُ وَمُتَّفِقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ الَّذِى نَطَقَ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/ ٤٤٩).

بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

وَمُتَّفِقُونَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ عَلَى اللهِ فِي وَاجِبٍ تَرَكَهُ وَلَا مُحَرَّمٍ فَعَلَهُ بَلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى عِبَادِهِ[(١)].

وَمِمَّا اتَّفَقَ عَلَيهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا إِيمَانُهُمْ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَأَنَّ الْعِبَادَ لَهُمْ مَشِيئَةٌ وَقُدْرَةٌ يَفْعَلُونَ بِمَشِيئَتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ مَا أَقْدَرَهُمْ اللهُ عَلَيهِ مَعَ قَوْلِهِمْ إِنَّ الْعِبَادَ لَا يَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ»[(٢)].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/ ٤٥٢).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/ ٤٥٩).

ثانيًا: عقيدة الإمام أبي بكر محمد الحسين الآجري في القدر

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مذهبنا فى القدر أن نقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الجنة وخلق النار، ولكل واحدة منهما أهل، وأقسم بعزته أنه يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين.

ثم خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واستخرج من ظهره كل ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة. ثم جعلهم فريقين: فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

وخلق إبليس، وأمره بالسجود لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد علم أنه لا يسجد للمقدور، الذى قد جرى عليه من الشقوة التى سبقت فى العلم من الله عَزَّوَجَلَّ، لا معارض لله الكريم فى حكمه، يفعل فى خلقه ما يريد، عدلًا من ربنا قضاؤه وقدره.

وخلق آدم وحواء عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ، للأرض خلقهما، وأسكنهما الجنة، وأمرهما أن يأكلا منها رغدًا ما شَاءَا، ونهاهما عن شجرة واحدة أن لا يقرباها، وقد جرى مقدوره أنهما سيعصيانه بأكلهما من الشجرة. فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فى الظاهر ينهاهما، وفى الباطن من علمه: قد قدر عليهما أنهما يأكلان منها: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1]. لم يكن لهما بُدٌّ من أكلهما، سببًا للمعصية، وسببًا لخروجهما من الجنة، إذ كانا للأرض خُلِقا، وأنه سيغفر لهما بعد المعصية..كل ذلك سابقٌ فى علمه لا يجوز أن يكون شيء يحدث فى جميع خلقه، إلا وقد جرى مقدوره به، وأحاط به علمًا قبل كونه أنه سيكون.

خلق الخلق، كما شاء لما شاء، فجعلهم شقيًّا وسعيدًا قبل أن يُخرجهم

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

إلى الدنيا، وهم فى بطون أمهاتهم، وكتب آجالهم، وكتب أرزاقهم، وكتب أعمالهم، ثم أخرجهم إلى الدنيا، وكل إنسان يسعى فيما كُتِبَ له وعليه.

ثم بَعث رُسله، وأنزل عليهم وحيه، وأمرهم بالبلاغ لخلقه، فبلَّغوا رسالات ربهم، ونصحوا قومهم، فمن جرى فى مقدور الله عَزَّوَجَلَّ أن يُؤمن آمن، ومن جرى فى مقدوره أن يَكْفُر كَفَر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [1] أَحَبَّ مَن أراد من عباده، فشرح صدره للإيمان والإسلام، ومقت آخرين، فختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلن يهتدوا أبدًا... يُضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [2].

الخلق كلهم له، يفعل فى خلقه ما يريد، غير ظالم لهم، جَلَّ ذِكره عن أن يُنسَب ربنا إلى الظلم، إنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك، وأما ربنا عَزَّوَجَلَّ فله ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما، وما تحت الثَّرى، وله الدنيا والآخرة، جَلَّ ذِكره، وتقدست أسماؤه، أَحَبَّ الطاعة من عباده، وأمر بها، فجَرتْ ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونهى عن المعاصى، وأراد كونها من غير محبةٍ منه لها، ولا للأمر بها، تعالى الله عَزَّوَجَلَّ أن يأمر بالفحشاء، أو يحبها، وجل ربنا وعز أن يجرى فى مُلكه ما لم يُرد أن يجرى، أو شىء لم يُحط به علمه قبل كونه،... قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وبعد أن يخلقهم، قبل أن يعملوا قضاءً وقدرًا.

وقد جرى القلم بأمره عَزَّوَجَلَّ فى اللوح المحفوظ بما يكون، من بِرٍّ أو

(١) سورة التغابن: الآية: (٢).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

فجور،... يُثنى على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، لولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [١] وكذا ذمَّ قومًا عملوا بمعصيته، وتوعَّدهم على العمل بها، وأضاف العمل إليهم بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، يُضل من يشاء، ويهدى من يشاء.

قال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: هذا مذهبنا فى القدر [٢].

(١) سورة الحديد: الآية: (٢١).

(٢) الشريعة للآجرى (١٥٠-١٥٢).

ثالثًا: عقيدة الطحاوي في القدر

۞ **يقول الطحاوى** رَحِمَهُ اللهُ **فى القدر**: «خَلَقَ الخَلْقَ بعِلْمِهِ وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَارًا، وضرب لهم آجالًا، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيهِ شَيءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته.

وَكُلُّ شَيءٍ يجْرِى بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، ... وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ وَمَا لَمْ يشَأْ لم يكن، يهْدِى مَنْ يشَاءُ وَيعْصِمُ وَيعَافِى فَضْلًا وَيُضِلُّ من يشاء ويخذل ويبتلى عدلًا.

وَكُلُّهُمْ مُتَقَلِّبُونَ فِى مَشِيئَتِهِ بَينَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ.

وهو مُتعالٍ عن الأضداد والأنداد، لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا غالب لأمره، آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَيقَنَّا أَنَّ كُلًّا مِنْ عنده»[١].

وَقَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى فِيمَا لَمْ يزَلْ عَدَدَ مَنْ يدْخُلُ الْجَنَّةَ وَعَدَدَ مَنْ يدْخُلُ النَّارَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فَلَا يُزَادُ فِى ذَلِكَ العدد ولا يُنقَص منه.

وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يفْعَلُوهُ وَكُلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللهِ وَالشَّقِى مَنْ شقى بقضاء الله.

وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللهِ تَعَالَى فِى خَلْقِهِ لَمْ يطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِى مُرْسَلٌ ... وَالتَّعَمُّقُ فِى ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ وَدَرَجَةُ الطُّغْيانِ فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ كَمَا قال الله تَعَالَى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٢]. فَمَنْ سَأَلَ لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ وَمَنْ

---

(١) العقيدة الطحاوية / شرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألبانى (ص: ٢١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

رَدَّ حُكْمَ الكتاب كان من الكافرين.

فَهَذَا جُمْلَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِياءِ اللهِ تَعَالَى وَهِى دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِى الْعِلْمِ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِى الْخَلْقِ مَوْجُودٌ وَعِلْمٌ فِى الْخَلْقِ مَفْقُودٌ فَإِنْكَارُ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ كُفْرٌ وَادِّعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ وَلَا يَثْبُتُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود.

وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ، وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ قُدِّرَ، فَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيءٍ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ كَائِنٌ لِيجْعَلُوهُ غيرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عليهِ وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ لِيجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يقْدِرُوا عَلَيهِ جَفَّ الْقَلَمُ بما هو كائن إلى يوم القيامة،... وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يكُنْ لِيصِيبَهُ وَمَا أصابه لم يكن ليخطئه.

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يعْلَمَ أَنَّ اللهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِى كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا لَيس فِيهِ نَاقِضٌ وَلَا مُعَقِّبٌ وَلَا مُزِيلٌ وَلَا مُغَيِّرٌ وَلَا نَاقِصٌ وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِى سماواته وأرضه وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ وَأُصُولِ الْمَعْرِفَةِ وَالِاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِى كِتَابِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[2].

فويلٌ لمن صار فى القدر لله خصيمًا وأحضر للنظر فيه قَلْبًا سَقِيمًا لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِى فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا وَعَادَ بِمَا قَالَ أَفَّاكًا أثيمًا[3].

---

(١) سورة الفرقان: الآية: (٢).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٣٨).

(٣) العقيدة الطحاوية (٣١).

شُبهات وردود(١)

۞ وهذه بعض الشبهات التى أثارها بعضهم ... وها نحن نورد الرد على تلك الشبهات:

(١) معنى المحو والإثبات في الصحف، وزيادة الأجل ونُقصانه:

قد يشكل على بعض الناس مواضع فى كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ، فيقول بعضهم: إذا كان الله عَلِمَ كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده فى كتاب فما معنى قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾(٢).

وإذا كانت الأرزاق والأعمار والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله ﷺ: «**من سرَّه أن يُبسَط له فى رزقه، ويُنسَأ له فى أثره فليَصِل رحمه**».

وكيف تفسرون قول نوح لقومه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٣).

وما قولكم فى الحديث الذى فيه أن الله جعل عمر داود عليه السلام مائة سنة بعد أن كان أربعين سنة.

۞ والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر وكُتب فى أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته فهذا هو الذى يزيد وينقص، ولذلك قال الله تعالى:

---

(١) بتصرف من (القضاء والقدر) - د. عمر الأشقر.

(٢) سورة الرعد: الآية: (٣٩).

(٣) سورة نوح: الآيتان: (٣، ٤).

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذى قدر الله فيه الأمور على ما هى عليه.

ففى كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقًا وأجلًا، فإذا وصل رَحِمَه زيد له فى الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما [1].

« والأجل أجلان: أَجَلٌ مُطلَق يعلمه الله، وأجلٌ مُقيَّد، فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلًا، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيد فى أجله ورزقه. والملك لا يعلم أَيُزاد له فى ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر » [2].

يقول ابن حجر العسقلانى: « الذى سبق فى علم الله لا يتغير ولا يتبدل، والذى يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما فى علم الحفظة والموكلين بالآدمى، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة فى العمر والنقص، وأما ما فى علم الله فلا محو فيه ولا إثبات ... والعلم عند الله » [3].

(٢) التوفيق بين الأقدار وبين « كل مولود يولد على الفطرة »:

وقد يقول بعض الناس كيف يكون الله قدر كل شىء مع أنه صَحَّ عن رسولنا ﷺ أن كل مولود يولد على الفطرة؟

فالجواب أنه لا تناقُض ولا تعارض بين النصوص المبينة أن كل شىء

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ٥٤٠).

(٢) راجع المصدر السابق: (٨/ ٥١٧).

(٣) فتح البارى: (١١/ ٤٨٨).

بقدر، والنصوص المخبرة بأن كل مولود يولد على الفطرة.

فالله فطر عباده على السلامة من الاعتقادات الباطلة كما فطرهم على قبول العقائد الصحيحة، ثم إذا وُلدوا أحاطت بهم شياطين الإنس والجن، فأفسدت فطرهم وغيَّرتها، وثبَّت الله من شاء الله هدايته على الحق.

والله يعلم من يثبت على الفطرة السوية السليمة، ومن تتغير فطرته.

علم ذلك في الأزل وكتبه، فلا منافاة بين هذه النصوص ولا تعارض بينها.

ففى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله: «**إنى خلقت عبادى حُنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أُنزل به سلطانًا**»[١].

والله يعلم من الذى تجتالهُ الشياطين وتُغرر به، ويعلم مَن يثبت على الحق، ويهدى للصواب.

وإذا عرفت هذا الذى بيَّناه علمت كيف تُوَجِّه قوله ﷺ: «**خلق الله يحيى ابن زكريا فى بطن أمه مؤمنًا، وخلق فرعون فى بطن أمه كافرًا**»[٢].

(٣) إذا كانت الأمور مقدرة فما معنى قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾:

وقد يحتج بعض الناس للقدرية النفاة بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٣].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) حسن: رواه ابن عدى فى الكامل، والطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٣٧).

(٣) سورة النساء: الآية: (٧٩).

ويظنـون أن المـراد بالحـسنات والـسيئات فى هـذه الآيـة الطاعـات والمعاصى.

وهؤلاء أخطؤوا الفهم، فالمراد بالحسنات هنا النعم، والمراد بالسيئات المصائب،... يدلنا على صحة هذا الفهم سياق النص. قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾[١].

فالله يحكى عن المنافقين أنهم كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل الرزق والنصر والعافية، قالوا: هذه من الله، وإذا أصابتهم سيئة - مثل ضَرْبٍ ومرض وخوف من عدو - قالوا: هذه من عندك يا محمد. أنت الذى جئت بهذا الدين الذى عادانا الناس لأجله، وابتُلينا لأجله بهذه المصائب.

فالحسنات هنا النعم، والسيئات المصائب ... وهذه كقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ ﴾[٢].

وقوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٣].

ثم قرر الحق أن المصائب والنعم لا تخرج عن قدر الله ومشيئته ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[٤].

---

(١) سورة النساء الآيتان: (٧٨، ٧٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٢٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٦٨).

(٤) سورة النساء: الآية: (٧٨).

ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن السيئات التى هى المصائب ليس لها سبب إذا أذنب العبد إلا من نفسه، وأما ما يصيب العبد من الخير فلا تنحصر أسبابه، لأنه من فضل الله، يحصل بعمل العبد وبغير عمله من إنعام الله عليه، فالواجب على العباد أن يشكروا ربهم ويحمدوه على ما أنعم به عليهم، كما يجب أن يُكثروا من التوبة والأوبة والاستغفار مما اقترفوه من ذنوب سببت لهم المصائب والبلايا.

وإذا أنت تأملت فى قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ..﴾ ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾[(١)] علمت أن الحسنة والسيئة هى فعل الله بالعباد التى هى المصائب والنعم، أما قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أى بسبب ذنوب العبد وخطاياه، وهذا وإن كان مُقدرًا إلا أن الله قدر أن تكون المصيبة بسبب الذنب.

أما الحسنات والسيئات التى هى أفعال العباد فلا يقال فيها: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ وإنما يقول: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٢)]. وإنما قال هنا: ﴿جَآءَ﴾ لأن الحسنة فعل الجائى، ولذلك صرح بهذا فى جانب الذنوب والمعاصى: ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٣)] [(٤)].

(٤) كيف يخلق الله الشر ويقدره؟

وقد يشاغب بعض القدرية فيقولون: إنَّ الله مُقدَّسٌ عن فعل الشر، وإن

---

(١) سورة النساء: الآية: (٧٩).

(٢) سورة القصص: الآية: (٨٤).

(٣) سورة القصص: الآية: (٨٤).

(٤) راجع فى هذا المبحث: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/ ١١٠، ٢٢٤).

الواجب على العباد أن يُنزهوا ربهم عن الشر وفعله،... وهؤلاء خلطوا حقًّا بباطل فالتبست عليهم الأمور

وجواب هذه الشبهة: أن الله تعالى لا يخلق الشرَّ المحض الذى لا خير فيه، ولا منفعة فيه لأحد، وليس له فيه حِكْمَة ولا رحمة، ولا يعذب الناس بلا ذنب،... وقد بيَّن العلماء أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما ما فى خلق إبليس والحشرات والكواسر من الحكمة والرحمة.

فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبارٍ خيرًا، وباعتبارٍ آخر شرًّا، فالله خلق إبليس يبتلى به عباده، فمنهم من يمقته، ويحاربه ويحارب منهجه، ويعاديه ويعادى أولياءَه، ويوالى الرحمن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته.

أسباب الضلال في القدر

۞ والسبب فى ضلال كُلٍّ من القدرية النُّفاة والقدرية المُجبِرة فى هذا الباب أن كل واحد من الفريقين رأى جزءًا من الحقيقة وعمى عن جزءٍ منها، فكان مثله مثل الأعور الذى يرى أحد جانبى الشىء، ولا يرى الجانب الآخر، ... فالقدرية النُّفاة الذين نَفَوا القدر قالوا: إن الله لا يريد الكفر والذنوب والمعاصى ولا يحبها ولا يرضاها، فكيف نقول إنه خلق أفعال العباد وفيها الكفر والذنوب والمعاصى.

والقدرية المُجبرة آمنوا بأن الله خالق كل شىء، وزعموا أن كل شىء خلقه وأوجده فقد أحَبّه ورضيه.

وأهل السنة والجماعة أبصروا الحقيقة كلها، فآمنوا بالحق الذى عند كل واحدٍ من الفرقين، ونَفَوا الباطل الذى تلبَّس به كل واحدٍ منها.

فهم يقولون: «إن الله وإن كان يريد المعاصى قدرًا، فهو لا يحبها، ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها وينهى عنها ».

وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجبًا أو مُستَحبًّا.

ولو قال: إنْ أحبَّ الله، حنث إن كان واجبًا أو مستحبًّا.

۞والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة فى كتاب الله نوعان:

إرادة قدرية خلقية، وإرادة دينية شرعية.

فالإرادة الشرعية هى المتضمنة المحبة والرضا، والكونية هى المشيئة

الشاملة لجميع الموجودات.

فالإرادة الشرعية كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾[٢] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[٣] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٤].

فهذا النوع من الإرادة لا تستلزم وقوع المراد، إلا إذا تعلق به النوع الثانى من الإرادة، وهذه الإرادة تدل دلالة واضحة على أنه لا يحب الذنوب والمعاصى والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءَها خلقًا وإيجادًا.

وأنه يحب ما يتعلق بالأمور الدينية ويرضاها ويُثيب عليها أصحابها، ويُدخلهم الجنة، وينصرهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين[٥].

وهذه الإرادة تتناول جميع الطاعات حَدَثَتْ أو لم تَحْدُث[٦].

(١) سورة البقرة: الآية: (١٨٥).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٦).

(٣) سورة النساء: الآيات: (٢٦-٢٨).

(٤) سورة الأحزاب: الآية: (٣٣).

(٥) راجع شرح الطحاوية: (ص١١٦). ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ١٨٨، ٥٨).

(٦) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/ ١٩٨).

والإرادة الكونية القدرية هى الإرادة الشاملة لجميع الموجودات، التى يُقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾(١). وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾(٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٣).

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾(٤).

وهذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات، فكل الحوادث الكونية داخلة فى مراد الله ومشيئته هذه، وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر والبرُّ والفاجر، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه، ويصلى عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم اللاعنون(٥).

وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصى دون ما لم يحدث منها(٦).

۞ والمخلوقات مع كُلٍّ من الإرادتين أربعة أقسام:

الأول: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع فى الوجود من الأعمال

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٢٥).

(٢) سورة هود: الآية: (٣٤).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٣).

(٤) سورة الكهف: الآية: (٣٩).

(٥) راجع: شرح الطحاوية: (ص ١١٦) ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨ / ١٩٨، ٥٨).

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ١٩٨).

الصالحة، فإن الله أراده إرادة دينًا وشرعًا، فأَمَرَهُ وأحبَّه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

والثانى: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكُفارُ والفُجَّارُ، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها وقعت أم لم تقع.

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها كالمباحات والمعاصى، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يُحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وُجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصى [(١)].

والسعيد من عباد الله مَن أراد الله منه تقديرًا ما أراد الله به تشريعًا، والعبد الشقى من أراد الله به تقديرًا ما لم يُرد به تشريعًا، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أنَّ أحكام الله فى خلقه تجرى على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيرًا، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعور، مثل قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [(٢)].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ١٨٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٤٨).

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[1] [2].

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٤٨).

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٨/ ١٩٨).

سنة الله

في الأخذ بالأسباب



سنة الله في الأخذ بالأسباب

۞ إن قدر الله حق وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التى أقام الله عليها نظام الكون من خلال الأسباب التى خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، ... فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط [(١)].

إن سنن الله فى كونه وشرعه تُحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيمانًا بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله ﷺ.

لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصى بالجهاد وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن، والعجز والكسل، وتعاطَى أسباب الأكل والشرب، وادَّخر لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السماء، وقال للذى سأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**»[(٢)].

وقال: «**وفِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد**» [(٣)]، وما غزواته المظفرة ﷺ إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التى تجرى حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعدَّ الجيوش، وبعث الطلائع والعيون وظاهَر بين درعين، ولبس المِغفر على رأسه، وأقعد الرُّماة على فم الشِّعب، وخندق حول المدينة، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيطة فى هجرته،... أعد الرواحل التى يمتطيها والدليل الذى

(١) الإيمان بالقدر / د. يوسف القرضاوى (ص ٥١).

(٢) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٦٨).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥/ ٥٣٨٠) كتاب الطب.

يصحبه وغيَّر ذلك الطريق، واختبأ فى الغار [١]، وكان إذا سافر فى جهاد أو عمرة حمل الزاد والمزاد وهو سيد المتوكلين.

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعنى ترك الأخذ بالأسباب ولهذا أنكر (عمر) على أبى عبيدة رضي الله عنهما ربطه القدر بعدم الأخذ بالأسباب، كما ورد فى قصة طاعون عمواس الشهير، فحين هَمَّ عمر بالرجوع إلى المدينة فى حدود الشام، قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فدُهش عمر لهذا الاعتراض وقال لأبى عبيدة: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة: نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، ثم أردف قائلًا: أرأيت لو كان إبل هبطت واديًا له عدوتان إحداهما خصيبة والأخرى جديبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجديبة رعيتها بقدر الله [٢].

فعمر وأبو عبيدة يعلمان أنّ القدر علم الله السابق بما يحدث غير أن عمر كان يرى أنّ قدر الله لا دخل له فى موضوع ربط الأسباب بالمسببات، فالذهاب إلى الشام مع وجود الطاعون يتسبب عنه الموت والرجوع أخذٌ بالأسباب للنجاة من الطاعون، ولهذا أنكر عمر على أبى عبيدة أن يعترض عليه قائلًا له: لو غيرك يا أباعبيدة، ولم يكتفِ بذلك، بل شرح رأيه بأن الذهاب إلى الشام ذهاب بقدر الله، والرجوع إلى المدينة رجوع بقدر الله، أى يعلم الله، مما يدل على أن القدر لا يصح أن يُربَط بالإقدام على الأعمال أو الإحجام عنها، ولا يصح أن يُتْرَك الأخذ بالأسباب بحجة القدر [٣].

(١) عقيدة التوحيد / سعاد ميبر (ص ٢١٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٧٢٩) كتاب الطب.

(٣) العقيدة الإسلامية/ د. أحمد جلى (ص ٣٩١).

۞إن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدَّرة أيضًا كالمسببات، فمن زعم أن الله تعالى قدّر النتائج و المسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذُهل عن حقيقة القدر، وأعظم على الله الفِرية، فالأسباب مقدّرة كالمسببات [١]، وقد قال رسول الله ﷺ لمن سأله عن الرُّقَى، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»[٢]، وحياة الرسول ﷺ وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كل الوسائل والتدابير وأسباب العمل [٣].

ولهذا ذهب الإمام ابن القيم إلى أن الدين هو إثبات الأسباب والوقوف معها والنظر إليها، وأنه لا دين إلا بذلك كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشريعة مبناهما على إثباتها «أي الأسباب» لا على محوها، ولا ننكر الوقوف معها، فإن الوقوف معها فرضٌ على كل مسلم، لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك «الإيمان»، وبالأسباب عُرف الله وبها عُبد الله، وبها أُطيع الله وبها تقرب إليه المتقربون، وبه نال أولياؤه رضاه، وجواره في جنته، وبها نُصر حزبه ودينه، وأقاموا دعوته، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي، ومهتدٍ وغوي، ... فالوقوف معها، والالتفاف إليها، والنظر إليها، هو الواجب شرعًا، كما هو الواقع قدرًا [٤].

---

(١) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة (١/ ٤٢٨).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي، وابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٧٤٩).

(٣) العقيدة الإسلامية / د. أحمد جلي (ص ٣٩١).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٠٧، ٤٠٨).

أولاً: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم

القرآن الكريم حافل بالآيات التى توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب فى شتَّى مناحى الحياة والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، خاصة فى تلك المواقف الصعبة التى تواجه الأمم والأفراد،... ومن النماذج القرآنية فى هذا الصدد (١).

(١) قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾(٢).

إن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها،... ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتمامًا كبيرًا بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقه الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل.

وقد قال الأصوليون: وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب (٣).

وفى قوله: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ قال ابن كثير: أى مهما أمكنكم ... وهذا التعبير القرآنى يشير إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا يقعد المسلمون عن سبب من أسباب القوة يدخل فى طاقاتها (٤)،... والمراد بالقوة هنا: ما يكون سببًا لحصول القوة ولهذا قال أصحاب المعانى: الأولى أن يُقال: هذا عام

---

(١) السنن الإلهية فى الأمم والأفراد / د. مجدى عاشور (ص ٦١).

(٢) سورة الأنفال: الآية: (٦٠).

(٣) فى ظلال القرآن (٢/ ٩١٩).

(٤) فقه النصر والتمكين للصلّابى (ص ٢٢١).

فى كل ما تتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ... وورد أن النبى ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: «**ألا إن القوة الرمى**» قالها ثلاثًا[١]. وهذا لا ينفى كون غير الرمى معتبرًا كما قوله: «**الحج عرفة**»[٢]. وقوله: «**الدين النصيحة**»[٣]. لا ينفى اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود وكذا هنا[٤].

إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وترقى فى مصاعد المجد، أن تجاهد بمالها ونفسها الجهاد الذى أمرها الله به فى القرآن الكريم مرارًا عديدة، ... فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذى يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمتْ هذا العلم وعملتْ به دانت لها سائر العلوم والمعارف[٥].

إن إعداد القوة يستدعى إنفاقًا، وقد تكفل الله للمنفقين فى سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه، ... قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٦]، وقد جاء التحذير من عدم الإنفاق فى سبيل الله، مع بيان أن ذلك سبب للإهلاك والمذلة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٧]، أى: إذا لم

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٧)، كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٧٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٥)، كتاب الإيمان.

(٤) تفسير المنار (٥/ ٥٣).

(٥) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ شكيب أرسلان (ص ١٦٤).

(٦) سورة الأنفال: الآية: (٦٠).

(٧) سورة البقرة: الآية: (١٩٥).

تبذلوا فى سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم، ففى الآية: النهى عن ترك الإنفاق فى سبيل الله لأنه سبب الهلاك[١]، وقد بيَّن أبو أيوب الأنصارى رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية، فعن أسلم بن عمران قال: كنا بمدينة الروم «القسطنطينية» فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجل من المسلمين على صفٍّ للروم حتى دخل فيه فصاح الناس وقالوا: سبحان الله، يُلقى بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصارى فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل: وإنما أُنزلت فينا معاشر الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام وكثُر ناصروه قال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢]، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتَرْكِنا الغزو[٣].

وعموم الآية يقتضى الإنفاق فى سبيل الله فى سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال فى قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم ...والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده[٤].

إن من أهم السنن الربانية التى ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين،

(١) الكشاف للزمخشرى (١/ ٣٤٣).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٩٥).

(٣) سنن الترمذى (٥/ ٢١٢) حسن صحيح غريب.

(٤) السنن الإلهية / د. مجدى عاشور (ص ١٦٤).

سنة الأخذ بالأسباب ولذلك يجب على أفراد الأمة وقادتها العاملين للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع.

إن الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا بالإعداد الشامل في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1]، وإعداد القوة في حقيقته: الأخذ بالأسباب الشاملة، كقوة العقيدة والإيمان، وقوة الصف والتلاحم، وقوة السلاح والساعد، ... إن الآية الكريمة تضع إذهان المسلمين على الإعداد الشامل المعنوي والمادي، والعلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات وتدخل في طياتها الإعداد التربوي، والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي والسياسي والأمني والعسكري[2].

(٢) قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٦٠).

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (ص ٢١٤).

حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾[1].

فقد وازن ذو القرنين بين الأسباب التى أتاحها الله له واتبعها واستقصاها، حتى إن القرآن يُلح على ذلك ويبينه ويكرر التزامه فى العمل بالأسباب، وذلك فى مواضع ثلاثة من الآيات التى أشرنا إليها حيث يقول ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ وبعدها يكرر: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ، وقرن ذو القرنين بما انطوى عليه من أسباب معنوية، وما كان عليه من إيمان وتقوى وعمل صالح فى قوله: ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾، فاجتمعت له الأسباب الظاهرة والباطنة فكان له التمكين والغلبة ونفع الناس وإعانتهم[2][3].

---

(١) سورة الكهف: الآيات: (٨٣-٩٨).

(٢) السنن الإلهية د. مجدى عاشور (ص ١٦٧).

(٣) الإيمان بالقدر (ص ٦٠١-٦٠٥) بتصرف - د. على الصلابى.

ثانيًا: الأسباب والتوكل

۞ التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عَزَّوَجَلَّ في استجلاب المصالح ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة، وكِلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه[١].

وقال **الجرجاني**: التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس[٢].

وقال **أبو تراب النخشبي**: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية؛ فإن أُعطي شكر، وإن مُنع صبر. فجعله مركبًا من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلى قضائه وقدره، وطمأنينته وكفايته له، وشكره إذا أُعطي، وصبره إذا مُنع.

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب. فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته.

۞ **وقال سعيد بن جبير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ جماع الإيمان».

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص ٤٠٩).

(٢) التعريفات (ص ٧٤).

۞ ففي جانب الأسباب يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾[1].

- وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾[2].

- وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وفي جانب التوكل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[4].

- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[5].

- وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[6].

الأخذ بالأسباب لا يقدح في التوكل

۞ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه. والتوكل متعلق بربوبيته

---

(١) سورة النساء: الآية: (٧١).

(٢) سورة الأنفال: الآية: (٦٠).

(٣) سورة الجمعة: الآية: (١٠).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٢٢).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (١٥٩).

(٦) سورة المائدة: الآية: (٢٣).

وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية[١].

النبى ﷺ يُعلم الأمة نعمة التوكل

وها هو الحبيب ﷺ يُعلم الأمة نعمة التوكل على الخالق (جل وعلا).

۞ **عن عمر** رضي الله عنه **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو[٢] خماصًا[٣] وتروح[٤] بطانًا[٥]**»[٦].

معناه: تذهب أول النهار خماصًا: أى ضامرة البطون من الجوع، وترجع آخر النهار بطانًا: أى ممتلئة البطون.

۞ بل ويأتيه رجل ومعه ناقة فيقول له: يا رسول الله أعقلها[٧] وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**»[٨].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).

(٢) الغدوة: الخروج أول النهار.

(٣) الخمص: الجوع.

(٤) ترجع آخر النهار.

(٥) شبعانة.

(٦) صحيح: رواه الترمذى (٢٣٤٤) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤١٦٤) كتاب الزهد، وأحمد (٢٠٥، ٣٧٢) مسند العشرة المبشرين بالجنة، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٣١٠)، وصحيح الجامع (٥٢٥٤).

(٧) العقال: الحبل الذى تربط به الدابة.

(٨) حسن: رواه الترمذى (٢٥١٧) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٠٦٨).

۞ ويعلمنا الحبيب ﷺ نعمة التوكل على الله فى كل شىء حتى فى أمر الرزق الذى ضمنه الله لنا فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (١).

۞ **عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من نزلت به فاقة** (٢) **فأنزلها بالناس** (٣) **لم تُسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله** (٤) **فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ**» (٥).

۞ **وقال ﷺ: «لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت»** (٦).

القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهلٌ بالدين

إن القول بالتنافى بين التوكل والأخذ بالأسباب جهلٌ بالدين، وهذا من قلة العلم بسنة الله فى خلقه وأمره، فإن الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسبابًا ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه فى الدنيا والآخرة، فمن ظن أنه بمجرد توكُّله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه، وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التى جعلها الله أسبابًا لها فهو غالط (٧).

---

(١) سورة الذاريات: الآية: (٢٢).

(٢) الفاقة: الحاجة والفقر.

(٣) أى: طلب إزالتها من الناس بطريق الشكوى والسؤال.

(٤) أى: إزالتها من الله بالدعاء والتوكل.

(٥) **صحيح**: رواه أبو داود (١٦٤٥) كتاب الزكاة، والترمذى (٢٣٢٦) كتاب الزهد، وأحمد (٣٦٨٨)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٥٦٦)، والسلسلة الصحيحة (٢٧٨٧).

(٦) **حسن**: رواه أبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠)، عن جابر رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٩٥٢)، وصحيح الجامع (٥٢٤٠).

(٧) فتاوى ابن تيمية (٨/ ٥٢٩، ٥٣٠).

التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب

۞الأصل أن يستعمل العبد الأسباب التى بيَّنها الله تعالى لعباده وأَذِن فيها وهو يعتقد أن المسبب هو الله ﷻ وما يصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة مع استعماله السبب فتكون ثقته بالله واعتماده عليه فى إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب [١].

وبالتتبع لما قاله العلماء فى التوازن بين المقامين نجد أن جمهورهم يُقررون أن التوكل يحصل بأن يثق المؤمن بوعد الله، ويوقن بأن قضاءه واقع ولا يترك اتباع السنة فى ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرُّز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعًا ولا تدفع ضرًّا، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى سببٍ قدح فى توكله [٢] ...وفى القصص القرآنى ما يُجلّى هذا التوازن أيما تجلية، ويبين كيف مفهوم هذين المقامين وتطبيقهما على أرض الواقع وعلى الوجه الذى تقتضيه العقيدة الصحيحة مثل:

(أ) **قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبنائه:** عند وصيته لهم قبل دخولهم مصر لجلب ما يحتاجونه من طعام ومواد غذائية حين أصاب بلدهم الجدب والقحط، فقد وصّاهم: كما أخبر الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ

---

(١) شُعب الإيمان للبيهقى (٢/ ٧٩).

(٢) السنن الإلهية / د. مجدى محمد عاشور (ص٢١٥).

إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1].

فيعقوب عليه السلام ضرب لنا المثل فى كيفية الأخذ بالأسباب فى نطاق التوكل على الله، إذ فى قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ تدبير وتشبُّث بالأسباب العادية التى لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، ولكنه استدرك ذلك مبينًا لهم أن الأخذ بالأسباب هنا ليس هو بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى وهربٌ منه إليه[2].

فقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[3] أى: لا يكون ما أمرتكم به مُغنيا غناءً مبتدئًا من عند الله، بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله، فإن صادف ما قدّره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدّره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط[4].

وقد أراد يعقوب عليه السلام بهذا أن يُعلّم أبناءه الاعتماد على توفيق الله ولُطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة، تأدُّبًا مع واضح الأسباب ومقدّر الألطاف فى رعاية الحالين لأنَّا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله فى الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعى لها، وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليها قول النبى ﷺ: «**اعملوا فكل مُيَسَّرٌ لما خُلق له**»[5].

وبهذا يثبت أن الأسباب لابد لها من سياج قوى من التوكل، تدور فى

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٦٧).

(٢) روح المعانى للألوسى (١٣/ ١٩).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٦٧).

(٤) تفسير التحرير والتنوير / للطاهر بن عاشور (١٣/ ١٢).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٩٦) كتاب القدر، ومسلم (٢٦٤٩) كتاب القدر.

فلكه ولا تخرج عن حقيقته، ليكون ذلك أدعى لتحقيق المراد، وأجدر لامتثال أمر الله.

لقد مدح الله تعالى هنا يعقوب عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[١]، لأنه عمل بالأسباب واجتهد فى توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم رَدَّ الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد فقال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾، فأثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين[٢].

(ب) **قصة مريم** عليها السلام: وهى كما وردت فى القرآن الكريم تبين لنا بوضوح بالغ أنه لا اختلاف ولا تباين بين مقامى الأخذ بالأسباب والتوكل، إذ كلٌّ له ملابساته وظروفه التى ترجع مقامًا على آخر فى بعض الأوقات والأحوال.

كانت مريم فى بداية حياتها يأتيها رزقها من غير تكسُّب كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[٣]، فلما ولدت أُمرت بهزّ الجذع، ... قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغًا فرغ الله جارحتها عن النَّصَب، فلما ولدت عيسى عليه السلام وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها وردَّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب فى عباده[٤].

(ج) **السنة النبوية**: فعلى مستوى السنة الفعلية ثبت أنه ﷺ ظاهر فى الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المِغفر، وأقعد الرُّماة فى الشِّعب،

(١) سورة يوسف: الآية: (٦٨).

(٢) تفسير الثعالبى (٢/ ٢٤٧)، السنن الإلهية (ص ٢١٧) د. مجدى محمد عاشور.

(٣) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

(٤) تفسير القرطبى (١١/ ٩٥، ٩٦)، السنن الإلهية / د. مجدى (ص ٢١٧).

وخندق حول المدينة، وأَذِن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو وتعاطى أسباب الأكل والشرب وادَّخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، ومع كل ذلك لا يُظَن برسول الله ﷺ أنه مال إلى شيء من الاسباب غفلة مقدار طرفة عين[١].

والمثال النبوى الفعلى لهذا التوازن على وجه التفصيل حادث الهجرة الذى اصطحب فيه أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقد استوفيا هما الاثنان فى هذه الهجرة الأسباب المتاحة جميعها، لم يغفلا واحدًا منها[٢].

إن رسول الله ﷺ أعدَّ كل الأسباب، واتخذ كل الوسائل، ولكنه فى الوقت نفسه مع الله، يدعوه ويستنصره أن يُكلل سعيه بالنجاح.

وهنا يُستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار وتسيخ فرس سراقة فى الأرض ويُكلِّل العمل بالنجاح[٣].

وأما على مستوى السنة القولية فى هذا الصدد نجد أن النبى ﷺ قال: «**فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد**»[٤]، فى الوقت الذى ثبت فيه أن النبى ﷺ أكل مع المجذوم[٥]. وظاهر الحديثين يدل على التنافى بين التوكل والأخذ بالأسباب، إلا أنه عند التحقيق نجد أنه ﷺ أكل مع المجذوم ليبين أن الله هو الذى يُمرض ويشفى، وأنه لا شيء يُعدى بطبعه، نفيًا لما كانت

---

(١) فتح البارى لابن حجر (١٠/ ٢١٢).

(٢) السنن الإلهية / د. مجدى عاشور (ص ٢١٧) – نقلًا عن (الإيمان بالقدر) د. على الصلابى.

(٣) السيرة النبوية للصلابى (١/ ٤٨٠).

(٤) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٣٩)، ورواه في الصحيح معلقًا (٥٣٨٠)، وأحمد (٩٧٢٠) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٥٣٠)، والصَّحِيحَة (٧٨٣).

(٥) سنن الترمذى (٤/ ٢٦٦)، صحيح الإسناد.

الجاهلية تعتقده من أن الأمراض تعدى بطبعها بدون تقدير من الله، فأبطل النبى ﷺ اعتقادهم ذلك، فى حين نهى النبى ﷺ عن الاقتراب من المجذوم، ليبين أن هذا من الأسباب التى أجرى الله تعالى العادة بأنها تقتضى إلى مسبباتها، ففى نهيه إثبات الأسباب، وفى فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، بل الله هو الذى إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئًا، وإن شاء أبقاها فأثرت، وفى ذلك فُسحة لمقام التوكل [1] على الله، وهذا يبين أن لكل حالة مقامها التى شرعها الله عَزَّوَجَلَّ لها... ومن ذلك ما ورد أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرَّ بقوم فقال: من أنتم؟ قالوا: المتوكلون. قال: أنتم المتواكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبة فى بطن الأرض وتوكل على ربه عَزَّوَجَلَّ [2].

---

(١) فتح البارى (١٠/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٨١)، السنن / د. مجدى (ص٢١٩).

ثالثًا: الأسباب والمسببات

إن قدر الله تعالى وقضاءه غير معلومين لنا، إلا بعد الوقوع فنحن مأمورون بالسعى فيما عساه أن يكون كاشفًا عن موافقة قدر الله لمأمولنا، فإن استفرغنا جهودنا وحُرمنا المأمول علمنا أن قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا، فأما ترك الأسباب فليس من شأننا، وهو مخالف لما أراد الله منا، وإعراض عما أقامنا الله فيه فى هذا العالم، وهو تحريف لمعنى القدر [١].

وإن الله تعالى قدَّر الأشياء بأسبابها، ... فالقدر يتعلق تعلُّقًا واحدًا بالسبب وبالمسبب معًا، أى أن هذا المسبب سيقع بهذا السبب، ...

ومن الأدلة على ذلك قول النبى ﷺ: إن الله خلق للجنة أهلًا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم، وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنار أهلًا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم، وهم بعمل أهل النار يعملون [٢].

وفى المضمار نفسه أخبر النبى ﷺ صحابته بأن الله كتب المقادير، فقالوا: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال ﷺ: «**من كان من أهل السعادة فسيُسير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيُسير إلى عمل أهل الشقاوة، اعملوا فكل مُيسَّرٌ، أما أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [٣][٤]».

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤/ ١٣٨).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٥٠).

(٣) سورة الليل: الآيات: (٥-١٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٤٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر.

وفى هذا الحديث النهى عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التى ورد الشرع بها، وكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له لا يقدر على غيره [١].

فالنبى ﷺ أرشد الأمة فى هذا الحديث فى شأن القدر إلى أمرين هما سبب السعادة: الإيمان بالأقدار، إذ هو نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التى توصل إلى غيره وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر [٢].

فلا منافاة بين الأخذ بالأسباب والإيمان بالقضاء والقدر، فمن القضاء رَدّ البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لردِّ البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [٣]، وأن لا يسقى الأرض بعد بث البذور، فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذى هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذى قدَّر الخير قدره بسببه، والذى قدر الشر قدر لدفعه سببًا، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته [٤].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٩٦).

(٢) شفاء العليل لابن القيم (ص٥٣).

(٣) سورة النساء: الآية: (٧١).

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٠٢)، الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٦٩ ٧٠).

ويؤيد ذلك من السنة النبوية ما ورد أنه قيل للنبى ﷺ: أرأيت أدوية نتداوى بها ورُقى نسترقى بها وتقاة نتقيها، هل تَرُدّ من قدر الله شيئًا؟ فقال ﷺ: «**هى من قدر الله**»[١]، وذلك لأن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هى عليه، وكذلك يكتبها، فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل وغيره، وقضى أنها تكون كذلك وقدر ذلك لم يَجُز أن يُظَن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التى جعلها الله أسبابًا، وهذا عام فى جميع الحوادث[٢].

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه (٧٤٩).

(٢) مجموع الحوادث (٨/ ٢٧٥).

رابعًا: الدعاء والقدر

الدعاء مثل سائر الأسباب، كالتوكل والصدقة ... سبب لجلب المنافع ودفع المضار، ... ثم الدعاء مع ثبوت كونه سببًا داخل فى القضاء، ولا خرج عن القضاء، فإن الدعاء من جملة ما سبق به القضاء.

فالدعاء سبب لجلب النفع، كما أنه سبب لدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويُضعفه، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ فى حصول المطلوب، ولهذا أمر ﷺ عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة والدعاء والذكر، والاستغفار والتوبة، والإحسان بالصدقة والعتاقة، فإن هذه الأعمال الصالحة تعارض الشر الذى انعقد سببه، كما فى الحديث: «**إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان**[1]»، وهذا كما لو جاء عدو فإنه يُدفع بالدعاء وفعل الخير وبالجهاد له، وإذا هجم البرد يُدفع باتخاذ الدفء، فكذلك الأعمال الصالحة والدعاء[2]. ويدل على دفاع العدو بالدعاء مع الجهاد قوله ﷺ لسعد بن أبى وقاص: «**هل تُنصَرون إلا بضعفائكم**»، ولفظ النسائى: «**إنما نصر الله هذه الأمة بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم**[3]»، والحاصل إن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء، فالدعاء داخل تحت القضاء وليس خارجًا عنه[4].

---

(١) حسن: رواه الحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٣٩).

(٢) الدعاء ومنزلته من العقيدة / جيلان العروسى (١/ ٣٥٦).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٨٩٦)، والنسائى (٦/ ٣٧) رقم الباب (٣٧).

(٤) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٥٧).

(١) دلالة القرآن الكريم على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٢].

وقد وردت آيات كثيرة جدًّا، ذكر الله فيها ما وقع لأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين من المحن والبلايا والشدائد العظام، فاستغاثوا بربهم وتضرعوا له، وابتهلوا إليه، فاستجاب الله لهم، وكشف عنهم تلك المحن، بعد دعائهم، وقد حكى الله لنا ألفاظ دعواتهم وصيغ ابتهالاتهم لنقتدى بها، ونأخذ العِبَر والدروس،... ومن تلك الدروس التى نأخذها تأثير الدعاء وفائدته العظيمة فى جلب المنافع ودفع المضار، وأنه سمة العبودية، وأنه الغذاء الروحى لاسيما عند نزول الشدائد المدلهمة[٣]، ومن ذلك:

أ- ما حكى الله لنا عن نوح عليه السلام مما يدل على تأثير الدعاء:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾[٤]، ما أصرحها فى تأثير الدعاء وأوضحها وأبينها من حُجة قاطعة، وما أبلغها من برهانٍ ساطع، ومثلها قوله تعالى فى قصة نوح أيضًا: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة غافر: الآية: (٦٠).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٨٦).

(٣) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٦٠).

(٤) سورة الصافات: الآية: (٧٥).

(٥) سورة الأنبياء: الآيتان: (٧٦، ٧٧).

ب- دعاء أيوب عليه السلام :

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[١]، تدل الآيتان على المقصود من عدة أوجه، منها العطف بالفاء السببية فى الموضعين: فاستجبنا، فكشفنا، ودلالة فاستجبنا وكشفنا اللغوية ودلالة السياق هذه الدلالات الواضحة على تأثير الدعاء[٢].

ج- دعاء يونس عليه السلام :

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

فدلَّت الآيتان على أن الدعاء هو السبب فى نجاته من عدة أوجه، منها إلغاء السببية، ومنها كلمتا: استجبنا ونجينا كما دلَّت على أن هذا ليس خاصًّا به بل المؤمنون عامة إذا وقعوا فى شدة واستغاثوا بربهم فهو ينجيهم، كما دلت أيضًا على أنه لولا الدعاء لما نجا من هذا الكرب العظيم ولبقى فى بطن الحوت، وقد صرحت بذلك آية أخرى ... قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٣، ٨٤).

(٢) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٦٢).

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٧، ٨٨).

(٤) سورة الصافات: الآيتان: (١٤٣، ١٤٤).

فكلمة لولا فى مثل هذا الموضع تدل على امتناع الجملة الثانية لوجود الأولى [١]، وهذا صريح قاطع فى أن الدعاء هو السبب فى نجاته ولو لم يحصل الدعاء لما نجا ولبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة [٢].

د- دعاء زكريا عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [٣].

ففى هذا ترتيب للاستجابة على النداء، كما أن فيه تعليلًا للاستجابة بكونهم مسارعين فى الخيرات، وداعين الله رغبة ورهبة [٤].

هـ- في قصة موسى وهارون في استغاثتهما بالله:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [٥].

فصرحت الآيتان بإجابة دعوتهما واستغاثتهما بالله تعالى وأن ذلك عقب ابتهالهما إلى الله تعالى فدَلَّ هذا على ترتيب الإجابة على الدعاء ترتب المسبب على السبب [٦]....وفى قوله تعالى فى قصة تضرُّع موسى

---

(١) الدعاء ومنزلته فى العقيدة (١/ ٣٦٢).

(٢)الدعاء ومنزلته فى العقيدة (١/ ٣٦٢).

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٩، ٩٠).

(٤) الدعاء ومنزلته فى العقيدة (١/ ٣٦٣).

(٥) سورة يونس: الآيتان: (٨٨، ٨٩).

(٦) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٦٤).

وابتهاله إلى الله قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾[١] إلى أن أجابه الله بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[٢]، ما أوضحها في الدلالة على تأثير الدعاء في الإجابة[٣].

و- دعاء المؤمنين من الأمم السابقة:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾[٤].

وقال أيضًا: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٥].

(٢) دلالة الفطرة على تأثير الدعاء بإذن الله:

قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٦].

فالآية صريحة الدلالة على أن دعاء المضطر هو السبب في إجابة سؤاله وكشف السوء عنه وهذا من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانيته وتفرُّده بالربوبية والألوهية ولهذا أعقبه بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٧]

(١) سورة طه: الآيتان: (٢٥، ٢٦).

(٢) سورة طه: الآية: (٣٦).

(٣) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٦٤).

(٤) سورة البقرة: الآيتان: (٢٥٠، ٢٥١).

(٥) سورة آل عمران: الآيتان: (١٤٧، ١٤٨).

(٦) سورة النمل: الآية: (٦٢).

(٧) المصدر نفسه (١/ ٣٥٩).

الإنسان من طبيعته إذا وقع فى شدة وضيق عليه تحركت فطرته ومشاعره، واتجه إلى الله ونسي ما كان يدعو من قبل وهنا يوقن أنه لا مُنقذ إلا الله، وتنكشف عنه الحُجُب، ويزول الرين، وتذهب الغشاوة وينطرح بين يدى الله منكسرًا متواضعًا مبتهلًا متضرعًا باكيًا ويجأر إلى الله كاشف السوء مجيب المضطرين غياث المستغيثين مُنقذ الهالكين، وجابر المنكسرين ومنقذ الغرقى، وسامع النجوى،... فكم من مُلحدٍ نزلت به ضائقة آب إلى الله[1]، وكم من شاردٍ فاسق وقع فى مأزق تاب إلى الله ورجع إلى طاعته، فالفطرة خير شاهد وأقوى دليل وأنصع برهان، وأوضح حجة لأنها لا تحتاج إلى تركيب مقدمة وإقامة أدلة جدلية واستنتاج ... ودليلها لا يمكن مقاومته، ولا دفعه بالشبهات والوساوس،... ألا ترى الإنسان إذا ما وقع فى معصية يتجه مباشرة إلى السماء ويرفع يديه قائلًا: يا رب يا رب وهذه الحالة تهجم عليه وتسيطر على تفكيره وشعوره وتجعله يشعر أنه لا مُنقذ ولا مُنجى ولا مغيث إلا الله سبحانه وتعالى، فلو لم تدل الفطرة على تأثير الدعاء لما اتجهت إلى الدعاء ولكانت تلجأ إلى وسائل أخرى للاستغاثة والاستعانة[2].

۞ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان هذه فى عدة آيات منها:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً

(١) العقيدة فى الله / د. عمر الأشقر (ص ٦٧)، الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٦٨).

(٢) الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية (١/ ٣٦٨).

(٣) سورة يونس: الآية: (١٢).

مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾[3].

فالإنسان فى مثل هذه الشدائد ينسى تلك الأشياء التى كان يتعلق بها ويرجع إلى ربه، فتحصل له معرفة قوية من أقوى مايكون المعارف.

فإن المعارف التى تحصل فى النفس بالأسباب الاضطرارية أثبت وأرسخ من المعارف التى ينتجها مجرد النظر القياسى الذى ينزاح عن النفوس فى مثل هذه الحال[4].

(٣) دلالة السنة النبوية على تأثير الدعاء:

وأما السنة الدالة على تأثير الدعاء، فأكثر من أن تُحصَر ... فقد تواتر عنه ﷺ أمران: فعله للدعاء والثانى: حثه ﷺ وترغيبه فى الدعاء[5].

ومن الأدلة ما يلى:

(أ) حديث أنس بن مالك: قال: بينما النبى ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله هلك الكراع وهلك الشاء، وفى رواية: وجاع العيال، وفى رواية أخرى: هلكت الأموال وانقطعت السُّبل فادعُ الله أن

---

(١) سورة الزمر: الآية: (٨).

(٢) سورة فصلت: الآية: (٥١).

(٣) سورة الإسراء: الآية: (٦٧).

(٤) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٦٩).

(٥) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٦٦).

يسقينا فمدَّ يديه ودعا،... وفى رواية وما نرى فى السماء قزعة، فوالذى نفسى بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ، فمُطرنا من الجمعة إلى الجمعة، ثم جاء ذلك الرجل أو غيره فى الجمعة المقبلة فقال: تهدمت البيوت وانقطعت السُّبل فادعُ الله أن يُمسكها، فرفع يديه فقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا**»، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت [(١)].

(ب) حديث النزول، وهو حديث مشهور متواتر، ومن طرقه، ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعونى فأستجب له؟ ومن يسألنى فأُعطيه؟ ومن يستغفرنى فأغفر له؟**»[(٢)].

إن المشاهدة لتأثير الدعاء لمن أكبر الأدلة وأصدقها برهانًا وأقواها حُجة، فنحن رأينا وشاهدنا فى أنفسنا ومن حولنا تأثير الدعاء، فمن منا لا يقع فى شدة وكربٍ وضيق ثم يستغيث بربه فلا يرى أثر ذلك؟ فنحن نشاهد فى حياتنا وأيامنا القصيرة وقائع لنا ولغيرنا يحصل فيها إجابة الدعاء بعد يأسٍ وقنوط من المخلوقات، وبعد انقطاع السُّبل والحِيَل ... فهذا يكفى وحده للدلالة. والحق الذى لا مرية فيه أن الدعاء سبب من الأسباب وأن له تأثيرًا فى جلب المنافع ودفع المضار، كسائر الأسباب المُقدرة والمشروعة، وأنه لا منافاة بين القدر والدعاء، فالدعاء من جملة ما سبق به القدر وتضمنه القدر السابق [(٣)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩٣٣) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٩٧) كتاب صلاة الاستسقاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٥) كتاب الجمعة، ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٧٤).

ولا شك أن الله ﷻ هو الذى حرك العبد إلى الدعاء ويسَّره له وهو الذى قذف فى قلب العبد الحركة إلى الدعاء وألهمه التضرع والابتهال والانطراح بين يديه ووفقه لذلك وصرف عنه الموانع من استكبار، وكسل وغير ذلك، فهذا الخير منه ولولا الله لما دعا العبد.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنى لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا أُلهمت الدعاء فإن الإجابة معه [1].

فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا ألهمه دعاءه والاستعانة به وجعل استعانته ودعاءه سببًا للخير الذى قضاه له [2].

❊ ❊ ❊

(١) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٧٥).

(٢) الدعاء ومنزلته من العقيدة (١/ ٣٧٥)- نقلًا عن (الإيمان بالقدر) د. على الصلابى.

القدر والعمل الصالح

۞ ومن فروع الوهم السابق ما دخل على أذهان كثير من الناس: أن الإيمان بالقدر ينافى السعى فى الطاعات وعمل الصالحات، فما علمه الله فى الأزل، وسبقت به المقادير وخَطَّه القلم فى الكتاب المكنون، لا بد أن يحدث ولا مفر من وقوعه وإلا انقلب العلم جهلًا.

فإذا كان فى علم الله أن زيدًا من الناس، من أهل الشقاوة ومن أصحاب النار فلن يستحيل هذا الشقى إلى سعيد، ويصبح يومًا من أهل الجنة.

وإذا كان فى سابق العلم الإلهى أن عمرًا من الخلق من أهل السعادة، ومن أهل الجنة، فهو لا محالة من أهلها، ولن يصير يومًا من أهل الشقاوة، ومن أهل النار.

ولهذا قيل: السعيد مَن سَعِد فى بطن أمه، والشقى مَن شَقِى فى بطن أمه، والسعيد لا يشقى كما أن الشقى لا يسعد، فلا فائدة إذن من العمل وتعب النفس والقدر نافذ والمكتوب واقع لا محالة.

۞ وهذا يدل على جهلٍ شديدٍ، وضلالٍ بعيدٍ، من وجهين:

أولًا: أن علم الله سبحانه يتعلق بالأشياء على ما هى عليه فى الواقع، وكذلك يكتبها ويقدرها على ما هى عليه، فإن العلم يطابق المعلوم، وهو سبحانه قد علم وقدر أن المكونات تكون بأسبابها؛ لأن ذلك هو الواقع، فمن زعم أن الله يعلم أو يقدر النتائج بدون مقدماتها، والمسببات بدون أسبابها، فقد قال على الله الباطل.

إن الله يعلم ويكتب فى لوحه المحفوظ: أن فلانًا يؤمن ويعمل صالحًا

فيدخل الجنة مع السعداء، وأن فلانًا يعصى ويفسق فيدخل النار مع الأشقياء، كما علم وكتب: أن فلانًا يتزوج فلانة ويدخل بها فيأتيه ولد، وأن فلانًا يأكل فيشبع، ويشرب فيرتوى، وأن آخر يغرس شجرة فيجتنى منها ثمرة.

فمن قال من الناس: إن كان قد سبق لى أنى من أهل الجنة، فأنا أدخلها ولو بلا عمل ... كان هذا مناقضًا لما علمه الله وقدره.

ومثال ذلك من يقول: إن كان الله قد قضى لى بولد، فسيأتينى ولو لم أتزوج وأدخل بالمرأة التى قدر الله أن تكون أم الولد.

فقائل ذلك لا ريب أنه جاهل أحمق، فإن الله إذا كان قدر له أن يُرزَق بولد، فقد قدره بسببه ... فانتظار المسبب المقدر المكتوب، بدون السبب المقدر المكتوب معه، لا يكون إلا حُمقًا وضلالًا بعيدًا.

ثانيًا: أن الشىء إذا عُلم وكُتب، وأخبر عنه بذلك، لا يكفى ذلك فى وجوده، ولا يوجب الاستغناء عما به يكون من الأسباب والعلل التى لا يتم إلا بها، كالفاعل وقدرته ومشيئته وآلاته.

ذلك أن العلم ليس سببًا موجبًا بنفسه لوجود المعلوم، بل هو مطابق له على ما هو عليه، ولا يكسبه صفة، ولا يكتسب منه صفة.

والعلم بالمستقبل والخبر عنه كالعلم بالماضى والخبر عنه، وذلك كعلمنا بالأمور التى كانت قبلنا وإخبارنا عنها، كالموجودات التى كانت قبل وجودنا، كعلمنا بالسموات والأرض. بل كعلمنا بالله تعالى وأسمائه وصفاته، فإن هذا العلم ليس له تأثير فى وجود المعلوم بالإجماع بل بالضرورة.

وبهذا نتبين: أن القول بأن السعيد لا يَشقى، والشقى لا يَسعد كلام صحيح، لكن مَن قدَّر الله سعادته، يكون سعيدًا بالأعمال التى جعلها الله أسباب السعادة وربطها بها، والشقى لا يكون شقيًّا إلا بالأعمال التى جعلها الله من أسباب الشقاوة ومن جملتها الاتكال على القدر السابق، وترك العمل الواجب.

وفى الصحيحين واللفظ للبخارى عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: «كُنَّا فِى جَنَازَةٍ فِى بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِى ﷺ فقعَدَ وقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ فَجَعَلَ ينْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيةً أَوْ سَعِيدَةً» فَقَالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَييَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَييَسَّرُونَ إِلَى عَمَلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1][2].

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ رضي الله عنه قَالَ: قيل: يا رَسُولَ اللهِ، أَعُلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَفِيمَ يعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ فَقَالَ: «كُلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[3].

---

(١) سورة الليل: الآيات: (٥-١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٤٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٥١) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٤٩) كتاب القدر.

وفى بعض روايات البخارى: «كُلّ يعمل لما خُلق له، أو لما يُسِّر له».
فدلَّت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر سابق، لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتّكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد؛ ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: «ما أنا أشد اجتهادًا منى الآن»: وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة رضي الله عنهم، فإن النبى ﷺ أخبرهم بالقدر السابق، وجريانه على الخلق بالأسباب، فإنَّ العبد ينال ما قدر له بالسبب الذى أُقدر عليه، ومُكِّن منه، وهُيئ له، فإذا عمل بالسبب، أوصله إلى القدر الذى سبق له فى أمِّ الكتاب.

إن المكتوب فى القِدَم: هو سعادة السعيد بما يُسِّر له من العمل الصالح، وشقاوة الشقى بما يُسِّر له من العمل السيئ ليس المكتوب أحدهما دون الآخر.

فما أُمر به المُكلَّف من واجبات، أو ما نُهى عنه من محظورات، هو من الأسباب التى ينال بها السعادة، والمقدر المكتوب هو مجموع السعادة والعمل الذى تُنال به السعادة.

وإذا ترك المكلف ما أُمر به، مُتكلاً على الكتاب السابق، كان ذلك من المكتوب المقدر الذى يصير به شقيًّا، وكان قوله ذلك بمنزلة من يقول: أنا لا آكل ولا أشرب، فإن الله قدر لى الشبع والرى، فسأشبع وأرتوى، أو يقول: لا أتزوج ولا أقرب النساء، فإن قُدر لى ولد فسيكون![1]

---

(١) الإيمان بالقدر (ص ٤٨-٥٠).

القدر والأرزاق

ومن مضامين القدر التى حدث فيها الخلط وسوء الفهم: ما يتعلق بـ(الأرزاق).

والمراد بالرزق: حظ الإنسان من طيبات الحياة من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمال والزوجة والولد، وسائر ما يحرص الناس عليه من متاع الحياة فكلها داخل فى مفهوم (الرزق).

وهذا الرزق مقدر مقسوم للإنسان من الله تعالى، فمنهم من قُدِّر له السعة فى رزقه، ومن قُدر عليه الضيق، ومنهم الوسط... ورازق الجميع هو الله تعالى، كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[(١)].

وهو الذى تكفل بتهيئة الرزق للجميع، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[(٢)].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(٣)]

وكثير من الناس يفهمون من قولنا: أن الرزق مُقدَّر مقسوم من الله تعالى: أنه لا فائدة فى السعى لطلب الرزق، وأن من قدر الله له الغنى سيغتنى وإن قعد فى بيته، ومن قدر عليه الفقر سيفتقر، وإن كان من أذكى الناس وأنشطهم، وأكثرهم سعيًا وكدحًا.

فالحق أن الله تعالى قدر الرزق مقرونًا بسببه، فإن الأسباب مقدرة، كما

---

(١) سورة الذاريات: الآية: (٥٨).

(٢) سورة هود: الآية: (٦).

(٣) سورة العنكبوت: الآية: (٦٠).

أن مسبباتها مقدرة. فالله تعالى قدَّر أن فلانًا يُعمل عقله وذكاءه، ويُجهد جسمه وأعضاءه فى الكدِّ والاجتهاد فى طلب المعايش، فيوسَّع عليه فى الرزق، وآخر يَخْلُد إلى الكسل، ويرضى بالدون، وبالعيش الهون فيُضيق عليه فى الرزق.

ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[١]، ومعنى الآية: أن من اجتهد وسعى ومشى فى مناكب الأرض والتمس الرزق فى خباياها، أكل من رزق الله، ومن تقاعس ولم يمشِ فى مناكب الأرض، لم يستحق أن يأكل من رزق الله تعالى.

وضمان الله تعالى لرزق الأحياء، وأن عليه رزق كل دابة فى الأرض: يعنى أنه هيأ لها أسباب الرزق فى هذه الأرض برَّها وبحرها. فالله تعالى حين خلق الأرض ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾[٢].

وقبل أن يخلق الله تعالى البشر، ومكَّنهم فى الأرض وجعل لهم فيها معايش كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٣]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾[٤]، فدَلَّ القرآن على أن تهيئة المعايش والأرزاق للناس قد تمت قبل أن يخلقهم.

ولكن سُنة الله تعالى: ألا يُنال الرزق إلا بسعى وعمل، وهذا ما أمر به الشرع أيضًا. فسُنن الله فى خلقه، وأوامره فى شرعه، توجب على الإنسان أن

---

(١) سورة الملك: الآية: (١٥).

(٢) سورة فصلت: الآية: (١٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٠).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (١١).

يعمل لكسب رزقه. فمن قعد عن الكسب فقد خالف السنن الكونية، والأحكام الشرعية معًا.

وعندما رأى عمر رضي الله عنه جماعة يقعدون فى المسجد بعد صلاة الجمعة وقد انتشرت الناس، سألهم: من أنتم؟ قالوا: متوكلون! قال: بل أنتم متواكلون! لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة! وإنما يرزق الله تعالى بعضهم من بعض. أما قرأتم قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[1].

هذا هو منطق الصحابة فى فهم الرزق. السعى والانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله، وليس القعود والتواكل بدعوى التوكل، والاعتماد على أن الرزق مقسوم، وما كان لك سوف يأتيك. فهذه دعاوى غير مُسلَّمة على علتها. ولذا نرفض قول الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيَّان التحرك والسكون!

جنونٌ منك أن تسعى لرزقٍ ... ويُرزق فى غشاوته الجنين!

فإنَّ ما قاله هذا الشاعر هو الجنون، فإنَّ الشارع قد أمرنا أن نسعى لكسب أرزاقنا، زارعين وصانعين ومحترفين، وصائدين وتاجرين، وعاملين فى شتَّى مجالات الحياة، متعبدين لله تعالى بذلك، حتى سمَّى الله طلب الرزق: الابتغاء من فضل الله، وهى تسمية توحى بالرضا والقبول،... وتحدَّث القرآن عن عُمَّار المساجد، فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2].

---

(١) سورة الجمعة: الآية: (١٠).

(٢) سورة النور: الآية: (٣٧).

فليسوا دراويش متبطلين، إنما هم (رجال أعمال) كما نقول فى عصرنا.

واعتبار الشاعر السعى للرزق جنونًا؛ لأن الجنين يُرزَق فى غشاوته: مردود عليه؛ لأن الجنين لا يملك أن يسعى، فكان من سُنة الله أن يُرزَق فى غشاوته. فأين الإنسان المُكلَّف من الجنين فى بطن أمه؟

صحيح أن من الناس الأذكياء، من يكدح ويجتهد ويصل الليل بالنهار، ولا يناله من الرزق إلا القليل، ومنهم من يبذل من الجهد القليل ويأتيه الرزق الكثير، ومنهم من يأتيه الرزق بغير جهد ولا كلل، وهذا يكون لعدة أسباب:

(١) أن يكون هناك خلل فى الأوضاع وعِوَج فى الأنظمة، فيأتى توزيع الثروة غير عادل، وهذا لا يجوز أن يستمر، ويجب أن يُصلَّح ويُعدَّل.

(٢) أو تكون الأوضاع الطبيعية غير متكافئة، فمن يعمل فى بيئة خصبة مساعدة، غير من يعمل فى بيئة قاحلة تعوقه، ولا يتوقع أن تكون فرصة من يعمل فى أمريكا مثل من يعمل فى صحراء أفريقيا.

(٣) أو تكون هناك أقدار لا يعرف الإنسان سرَّها، يسمِّيها بعض الناس الحظ أو البخت، أو الطالع أو نحو ذلك، ويسميها المؤمنون (حكم القدر). فقد نجد تاجرين متجاورين يبيعان سلعة واحدة بأسعار واحدة، وأحدهما لا يكاد يدخل عليه أحد، والآخر على محله زحام دائم.

ونجد من الناس عاملًا متقنًا، وصانعًا متقنًا، ولكنه لا حظَّ له، وهو الذى يقول عنه المثل العامى: سبع صنائع، والبخت ضائع!

وآخر ليس له هذه الموهبة، ولكنه سعيد الحظ، لا يكاد يضع يده فى شىء إلا ربح، وتنهال عليه المكاسب دون أن يدبر لها أمرًا.

وقد يرزق الله الإنسان من فضله. الإنسان بلا جهد منه، كمريم عليها السلام: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

هنا ينفع الإيمان بما قدر الله، والرضا بما قسم، ففيه راحة وسكينة للنفس، كما جاء فى الحديث: «**ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»(٢)، وهذا هو (غنى النفس) الذى جاء فى الحديث الصحيح: «**وليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس**»(٣).

ولا ريب أن التفاضل فى الأرزاق من سنن الله فى الوجود كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾(٤).

ولكن مما لا ريب فيه أيضًا: أن بعض هذا التفاضل من ظلم الناس بعضهم لبعض، ومن سوء توزيع الثروة بين أهل الوطن الواحد، فلا ينبغى أن يُحمَل هذا على كاهل القدر، وأن يؤدى هذا إلى التشكيك فى عدل الله تعالى وحكمته فى خلقه حتى قال بعضهم:

كم عالم عالم تلقاه مفتقرًا ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقًا

هذا الذى ترك الألباب حائرة ... وصيَّر العالم النحرير زنديقًا

وقد علق ذلك الإمام الراغب الأصفهانى فى باب سبب إخفاق العاقل، وإنجاح الجاهل فقال: «الحكمة تقتضى أن يكون العاقل فى أكثر الأحوال

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

(٢) حسن: رواه أحمد والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة.

(٤) سورة النحل: الآية: (٧١).

مُقلًّا، وذلك أنه لا يأخذ المال إلَّا كما يجب من الوجه الذى يجب، وفى الوقت الذى يجب، ثم إذا أخذه وتناوله لم يدخره عن مَكْرُمة تعنّ له.

والجاهل أسهل عليه الجمع من حيث لا يبالى فيما يتناوله بارتكاب محظور واستباحة محجور ... واستنزال الناس عما فى أيديهم بالمكر، ومساعدتهم على ارتكاب الشر طمعًا فى نفعهم له، وكثيرًا ما ترى مَن هم فى جملة الموصوفين بقوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[1] وذلك لحرصهم على ارتكاب المقابح، ولجهلهم بما يقيض الله لعباده من المصالح.

وقول الشاعر:

هذا الذى ترك الألباب حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

فالذى يصير بذلك زنديقًا فبأن يسمى الجاهل الشرير أولى من أن يسمى العالم النحرير[2].

❊ ❊ ❊

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٠٠).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة بتحقيق دكتور أبى الزبير العجمى - نقلًا عن الإيمان بالقدر / د. يوسف القرضاوى.

القدر والآجال

۞ وكما قدَّر الله تعالى الأرزاق، قدر الآجال والأعمار، فالعمر محدود ومعلوم سيق بتحديده القدر، فكل امرئ معلوم أنه سيعيش كذا وكذا سنة، عشرين أو سبعين أو مائة أو أكثر، وسُجِّل ذلك فى كتاب عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وإذا جاء أجله لا يُؤخَّر ولو لحظة واحدة. وهذا ما نطق به القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

والمراد بالساعة هنا: اللحظة من الزمن، وليست الساعة الفلكية التى هى ستون دقيقة.

ولما قُتل فى غزوة أُحد من المسلمين مَن قُتل، وأخذ المنافقون من ذلك قضية يلونها بألسنتهم، ويلوون المسلمين على خروجهم لقتال المشركين، وإن إخوانهم الذين قُتلوا، لو كانوا عندهم، ولم يخرجوا للقتال، ما ماتوا وما قُتلوا، فردَّ عليهم القرآن أبلغ الرد، مُندِّدًا بهم وبموقفهم، فقال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[3].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى

(١) سورة المنافقون: الآية: (١١).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٣٤).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٥٤).

ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1]، والمُعمَّر: مَن يعيش عمرًا طويلًا فى العادة، ومَن يُنقَص من عمره: من يعيش عمرًا قصيرًا، قدره بعضهم بما قبل الستين. الضمير فى (عمره) عائد على الجنس لا على العين؛ لأن الطويل العمر فى الكتاب، وفى علم الله تعالى لا يُنقص من عمره، .... قال ابن جرير: وهذا كقولهم: عندى ثوب ونصفه، أى: ونصف ثوب آخر. وقولهم لا يثيب الله مكلفًا ولا يعاقبه إلا بحق، والمعاقب غير المثاب، ولكن المراد: الجنس.

وجاء عن ابن عباس فى تفسير الآية: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة، إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له.

فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يُزاد عليه. وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة، ببالغ العمر (أى: الطويل) ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يقول: كل ذلك فى كتاب عنده.

وبعضهم فسَّر ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بمعنى ذهاب العمر قليلًا قليلًا: سنة بعد سنة، وشهرًا بعد شهر، وجمعةً بعد جمعة، ويومًا بعد يوم، وساعةً بعد ساعة، ... الجميع مكتوب عند الله فى كتابه[2].

ومنهم مَن فسَّر نقص العمر بقلة البركة فيه، والزيادة فى العمر ببقاء البركة فيه، كما قال ابن عطاء الله: رُبَّ عُمرٍ قَصُرت آماده، واتسعت إمداده. وجاء فى ذلك الحديث الشريف: **«مَن سَرَّه أن يُبسط له فى رزقه، أو يُنسأ فى أثره (أى فى أجله) فليَصِل رَحِمه»**[3].

(١) سورة فاطر: الآية: (١١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (ج٢/ ٥٥٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٦٧) كتاب البيوع، ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.

ونعود هنا إلى بيان معنى تقدير الآجال، قصيرة أو طويلة، لنبين أنها مُقدَّرة مع أسبابها، وليست منفصلة عنها، كما يتوهم عوام الناس.

فمن قُدر له طول الأجل، قُدر له أنه سيتهيأ له من الأسباب، من توافر الغذاء الصحى، وطيب الهواء النقى، وممارسة العمل البدنى أو الرياضى، والابتعاد عما يضر بالبدن تناوُله، ... من المسكرات أو المخدرات أو الأشياء الضارة كالتدخين، أو طول السهر، أو ارتكاب المحرمات .. فهو بهذه الأسباب يطول عمره، وهذه الأسباب مقدرة كمسبباتها.

ومن قدر له قصر العمر، قدر له: إنه سيُبتلى بسوء التغذية أو سوء التهوية، أو الإصابة بعدوى، أو تناول ما يضره ويؤذيه، أو يصيبه حادث فى طريق، أو يموت فى كارثة عامة كالزلزال، أو يقتله قاتل عمدًا أو خطأً، فيموت وينتهى أجله بواحد من هذه الأسباب أو غيرها. ولكنه مات فى وقته المقدر له، وفى (أجله المسمى) عند الله.

فلا انفصال فى الأقدار بين المسببات وأسبابها بحال،... وخطأ الناس هنا دائمًا يتمثل فى تصورهم تقدير المسببات كالموت والقتل والحوادث والأمراض بمعزل عن الأسباب،... والنبى ﷺ قد فصل فى ذلك حين سُئل عن الأدوية: هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال: «**هى من قدر الله**»[١] فما أحكمه وأبلغه وأوجزه من جواب![٢].

---

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه (٧٤٩) .

(٢) الإيمان بالقدر (ص ٥٥-٥٧).

الإيمان بالقدر ... إيمان يقتضي الكمال الإلهي

۞ إن الإيمان بالقدر الذى جاء به الإسلام، ليس إيمانًا بالحظ (البَخْت) أو الصدفة... كلا، الإيمان بالقدر على النحو الذى ذكرناه، إنما هو إيمان بمقتضى الكمال الإلهى الذى تميزت به عقيدة الإسلام، وصححت به أوهام الفلسفات وانحراف الديانات فى شأن الألوهية ... فليس الإله فى الإسلام إلهًا معزولًا عما يجرى فى الكون، لا يعلمه ولا يتدخل فيه بتدبير ولا تصريف، كـ(إله أرسطو) الذى لا يعرف إلا ذاته، ولا يعلم عن هذا الكون شيئًا، ولا يدبر فيه أمرًا، أو (إله أفلاطون) الذى لا يعلم ذاته نفسها!

وليس كـ(إله المجوس) الذى له نصف الكون يدبره ويتصرف فيه، وهو ما يتعلق بالخير والنور، أما النصف الآخر وهو ما يتصل بالشر والظُّلمة، فذلك من شأن إلهٍ آخر، فهما إلهان إذن: أحدهما إله الخير والنور، والآخر إله الشر والظلمة. والحرب بينهما سجال، حتى ينتصر إله الخير فى النهاية.

وليس هو كـ(آلهة اليونان) التى تخبط فى تصرفاتها خبط عشواء، والتى تعيش فى حربٍ مع البشر، حتى إن رواياتهم عن القدر وضرباته للناس تمثله هازئًا بهم، متحديًا لهم، يطاردهم ويتجنى عليهم.

ولهذا كثر الحديث فى أدبهم عن قسوة القدر، وعن القدر الأعمى، والقدر الغاشم، ونحو ذلك.

وليس كـ(إله بنى إسرائيل) الذى تصوره توراتهم المُحرفة، وكتبهم وأساطيرهم، غيورًا منتقمًا مدمرًا، متعصبًا لشعب إسرائيل دون العالمين،

خائفًا من الإنسان أن يأكل من شجرة الحياة، فيصبح كواحدٍ من الآلهة! نادمًا على ما يفعله فى بعض الأحيان، عاجزًا عن مقاومة الإنسان، حتى إن إسرائيل ليصارعه فيصرعه!!

ليس هذا الذى تتصوره أو تصوره الديانات والفلسفات هو إله الإسلام، إنما الإله فى الإسلام هو مالك الملك، وصاحب الخَلق والأمر، رب العالمين، هو خالق كل شىء، ومدبر كل أمر، بيده ملكوت كل شىء، وإليه يُرجع الأمر كله. لا يخرج شىء عن قبضة قهره، ولا حى أو جماد عن دائرة سلطانه، يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

وهو مع هذا بَرٌّ كريمٌ، عدلٌ رحيمٌ، عليمٌ حكيمٌ، لا يظلم أحدًا، ولا يأخذ مخلوقًا بذنب غيره، ولا يبخسه أجر سعيه، فلا يخاف أحدٌ عنده ظُلمًا ولا هَضمًا، ... والظلم: أن يعاقبه بما لم يعمل، والهضم: أن يُضيع أجر ما قد عمل... والله سبحانه لا يعاقب بغير سيئة، ولا يضيع أجر حسنة، بل يضاعفها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[1].

هذا هو الإله الذى يجرى كل شىء فى الكون بتقديره وتدبيره بعلمه ومشيئته ومقتضى حكمته. وعلى هذا الأساس كان إيمان السلف بالقدر من الصحابة، ومَن تبعهم بإحسان. فليس الإيمان بالقدر إيمانًا بالبَخت والمصادفات، والعشوائية فى الكون، كهؤلاء الذين ينقلون إلى العربية التغييرات اليونانية والغربية عن القدر فتراهم يقولون: «القدر الأعمى،

(١) سورة النساء: الآية: (٤٠).

والقدر الأحمق، والقدر الغاشم، وعبث الأقدار» ونحوها. وهى ألفاظ وتعبيرات يبرأ منها الإسلام والمسلمون.

إنما هو إيمان بإحاطة علم الله، وعموم مشيئته، وشمول قدرته، وربوبيته لكل ما فى الكون، وإن كل ما يحدث فى الوجود، إنما يتمّ بناءً على ترتيب أو تصميم سابق، وتدبير قديم، وتقدير عزيز عليم[1].

(١) الإيمان بالقدر / د. يوسف القرضاوى (ص ٩-١٠).

هل يُدفع القدر

يتصور بعض الناس أن القدر لا يُدفع.

فمن قدر الله عليه الفقر فهو فقير.

ومن قدر الله له الغنى فهو غنى.

ومن قدر له العافية فهو مُعافَى لا محالة.

ومن قدر عليه المرض فسيمرض ولابد.

ومن أجل هذا يقول هؤلاء: إن الدعاء لا ثمرة له ولا فائدة فيه: لأنه لا يغير من المقدور شيئًا. لأن ما قُضى كائن، وما قُدر نافذ، بالدعاء أو بعدمه، والدعاء لا يغير من الواقع المقدور شيئًا.

۞ ونقول لهؤلاء:

۞ ما أمر به الله من أقدار قد غَيَّب علمه عنا، واختص به نفسه، لحكمة بالغة ونحن لا نعرف أن الأمر مُقدَّر لنا أو علينا إلا بعد وقوعه. أما قبل ذلك فكل الممكنات مستوية الوقْوع وعدمه بالنسبة إلينا.

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمينا

ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حينًا بعد حينا

ومن هنا يجب علينا أن نَقْدُم على قول الحق أو عمل الخير، وكأنه ليس هناك قدر سابق، أو ليس علينا أن ننظر إلى ما قدر الله، بل إلى ما شرع الله. فهذا هو الذى فى استطاعتنا، وهو الأنفع لنا.

وهذا يوجب علينا أن نعتصم بالدعاء إلى الله، لأنه أمرٌ ندب إليه الشرع،

وجعله سببًا من أسباب الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة، كما يدفع الله به الشر والشقاء فى الآخرة والأولى.

وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر**»، ومعنى أنه يرد القدر: أنه يدفعه كما تدفع كل الأسباب مسبباتها.

وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية عن الصوفى المُربِّى الشهير الشيخ عبد القادر الجيلانى أنه قال:

«كثيرٌ من الرِّجالِ إذا وصلوا القضاءَ وَالْقدر أَمْسكُوا، وأَنا انفتحت لى فِيهِ روزنة (كُوَّة) فنازعت أقدار الْحق بِالْحَقِّ، وَالرجل من يكون منازعًا للقدر بِالقَدَرِ لَا من يكون مُوَافقًا له».

❁ وعقَّب ابن تيمية على ذلك بقوله: وَهُوَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يُعَظِّمُ الْأَمْرَ وَالنَّهْى وَيُوصِى بِاتِّبَاعِ ذَلِكَ وَيَنْهَى عَنْ الِاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ وَكَذَلِكَ شَيْخُهُ حَمَّادٌ الدباسى وَذَلِكَ لِمَا رَأَوْهُ فِى كَثِيرٍ مِنَ السَّالِكِينَ مِنَ الْوُقُوفِ عِنْدَ الْقَدَرِ الْمُعَارِضِ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْى ... وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُجَاهِدَ فِى سَبِيلِ اللهِ، وَيدْفَعَ مَا قَدَرَ مِنَ الْمَعَاصِى بِمَا يَقْدِرُ مِنَ الطَّاعَةِ فَهُوَ مُنَازِعٌ لِلْمَقْدُورِ الْمَحْظُورِ بِالْمَقْدُورِ الْمَأْمُورِ لِلَّهِ تَعَالَى وَهَذَا هُوَ دِينُ اللهِ الَّذِى بَعَثَ بِهِ الْأَوَّلِينَ والآخرين مِنَ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِمْ أَجْمَعِينَ -.

❁ **وقد رَدَّ الإمام ابن القيم على من سأل عن فائدة الدعاء، وقال:**

إِن المدعوّ بِهِ إِنْ كَانَ قَدْ قُدِّرَ، لم يكن بُدّ من وقوعه دعا به العبد أو لم يدعُ. وإن لم يكن قد قُدِّر لم يقع، سَوَاءٌ سَأَلَهُ الْعَبْدُ أَوْ لَمْ يسْأَلْهُ.

وذكر أنه يمكن أن يُقال لأحد هؤلاء: إِنْ كَانَ الشِّبَعُ وَالرِّى قَدْ قُدِّرَا لَكَ

فَلَابُدَّ مِنْ وُقُوعِهِمَا، أَكَلْتَ أَوْ لَمْ تَأْكُلْ، وَإِنْ لَمْ يقَدَّرَا لَمْ يقَعَا أَكَلْتَ أَوْ لَمْ تَأْكُلْ.

وهكذا فى كل الأمور.

فَهَل يقُولُ هَذَا عَاقِلٌ أَوْ آدَمِى؟

بَلِ الْحَيوَانُ الْبَهِيمُ مَفْطُورٌ عَلَى مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِى بِهَا قِوَامُهُ وَحَياتُهُ، فَالْحيوَانَاتُ أَعْقَلُ وَأَفْهَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

إنَّ هَذَا الْمَقْدُورَ قُدِّرَ بِأَسْبَابِهِ، وَمِنْ أَسْبَابِهِ الدُّعَاءُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ مُجَرَّدًا عَنْ سَبَبِهِ، وَلَكِنْ قُدِّرَ بِسَبَبِهِ، فَمَتَى أَتَى الْعَبْدُ بِالسَّبَبِ، وَقَعَ الْمَقْدُورُ، وَمَتَى لَمْ يأْتِ بِالسَّبَبِ انْتَفَى الْمَقْدُورُ.

وَهَذَا كَمَا قُدِّرَ الشِّبَعُ وَالرِّى بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَقُدِّرَ الْوَلَدُ بِالْوَطْءِ، وَقُدِّرَ حُصُولُ الزَّرْعِ بِالْبَذْرِ....

وَحِينَئِذٍ فَالدُّعَاءُ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ، فَإِذَا قُدِّرَ وُقُوعُ الْمَدْعُوِّ بِهِ بِالدُّعَاءِ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ: لَا فَائِدَةَ فِى الدُّعَاءِ، كَمَا لَا يُقَالُ: لَا فَائِدَةَ فِى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَجَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَعْمَالِ، وَلَيسَ شَىءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ أَنْفَعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَلَا أَبْلَغَ فِى حُصُولِ الْمَطْلُوبِ[١].

❁ وقال الإمام ابن القيم:

الْفَقِيهُ كُلَّ الْفِقِيهِ الَّذِى يَرُدُّ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ، وَيدْفَعُ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ، وَيُعَارِضُ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ، بَلْ لَا يُمْكِنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يعِيشَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ وَالْبَرْدَ وَأَنْوَاعَ الْمَخَاوِفِ وَالْمَحَاذِيرِ هِى مِنَ الْقَدَرِ.

---

(١) الجواب الكافى (ص ١٧، ١٨).

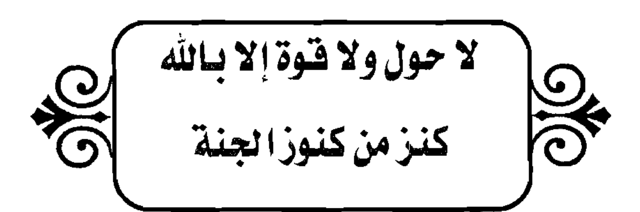
وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ سَاهُونَ فِي دَفْعِ هَذَا الْقَدَرِ بِالْقَدَرِ، وَهَكَذَا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ يَدْفَعُ قَدَرَ الْعُقُوبَةِ الْأُخْرَوِيَةِ بِقَدَرِ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَهَذَا وِزَانُ الْقَدَرِ الْمُخَوِّفِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يُضَادُّهُ سَوَاءٌ.

فَرَبُّ الدَّارَيْنِ وَاحِدٌ وَحِكْمَتُهُ وَاحِدَةٌ لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُبْطِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا[1][2].

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٢).

(٢) الإيمان بالقدر (ص ٦٥-٦٧).



إن كلمة الحوقلة «لا حول ولا قوة إلا بالله» هى من الأذكار العظيمة القدر، الرفيعة المنزلة، العالية المرتبة، ولها من الفضائل والفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، وقد كان النبى ﷺ يُعلمها أصحابه ويحثهم عليها، وتأتى هذه الكلمة فى الأذكار المطلقة والمقيدة فى مواضع كثيرة [1].

معنى لا حول ولا قوة إلا بالله

الحول الحركة والحيلة ... أى لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى،... وقيل: معناه لا حول فى دفع شر ولا قوة فى تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته وحُكى هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب [2].

وقال الإمام الطحاوى فى تفسيره لمعنى «لا حول ولا قوة إلا بالله»: لا حيل ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شىء يجرى بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبدًا ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[3][4].

(١) المباحث العقدية (٢/ ٨٨٧).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووى (٤/ ٨٧).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

(٤) العقيدة الطحاوية (ص ٤٤٤، ٤٤٥) مع شرحها لابن أبى العز الحنفى.

ولا شك أن معنى لا حول ولا قوة إلا بالله أوسع وأعم مما ذُكر، فلفظ الحول يتناول كل تَحوُّل من حالٍ إلى حال، والقوة هى القدرة على ذلك التحول، فدلَّت هذه الكلمة العظيمة على أنه ليس للعالم العلوى والسفلى حركة وتحوُّل من حال إلى حال ولا قدرة على ذلك إلا بالله،... ومن الناس من يفسر ذلك بمعنى خاص فيقول لا حول من معصيته إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، والذى يدل عليه اللفظ، أن الحول لا يختص بالحول عن المعصية وكذلك القوة لا تختص بالقوة على الطاعة، بل لفظ الحول يعم كل تحول .. وكذلك لفظ القوة...قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[١].

ولفظ القوة لا يُراد به ما كان فى القدرة أكمل من غيره فهو قدرة أرجع من غيرها أو القدرة التامة ... ولفظ القوة قد يعم القوة التى فى الجمادات بخلاف لفظ القدرة فلهذا كان المنفى بلفظ القوة أشمل وأكمل فإذا لم تكن قوة إلا به لم تكن قدرة إلا به بطريق الأولى وهذا باب واسع[٢].

ولكلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله» تأثير فى دفع داء الهم والغم والحزن، بسبب ما فيها من كمال التفويض والتبرؤ من الحول والقوة إلا به وتسليم الأمر كله له وعدم منازعته فى شيء منه وعموم ذلك لكل تَحوُّل من حال إلى حال فى العالم العلوى والسفلى والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله بالله وحده فلا يقوم لهذه الكلمة شيء ... وفى الآثار أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولها تأثير عجيب

(١) سورة الروم: الآية: (٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٧٥).

فى طرد الشيطان والله ... المستعان [١].

ولا حول ولا قوة إلا بالله، دليل على إثبات القدر [٢].

وقد ذكر الإمام البخارى رحمه الله فى صحيحه هذه الكلمة العظيمة فى أبواب عدة من صحيحه، ومن ذلك: كتاب القدر ... ومعروف أن فقه الإمام البخارى كما يُقال فى تراجمه مما يدل على أنه رحمه الله ما وضعها فى كتاب القدر إلا لدلالتها عليه [٣].

إن كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله دخلت من باب القدر لكونها تدل على مرتبة من مراتبه وهى المشيئة، فقد ذكرنا أن مراتب القدر أربع مراتب ومنها: الإيمان بمشيئة الله النافذة فى خلقه وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فعندما يقول العبد «لا حول ولا قوة إلا بالله» يعتقد فى قرارة نفسه أنه لا يستطيع التحوُّل من أمرٍ لآخر إلا إذا شاء الله له ذلك وقدَّره له، فلا ينصرف عن المعصية إلى الطاعة إلا بمشيئة الله تعالى، ولا ينصرف من المرض إلى الصحة إلا إذا كتب الله له الشفاء وشاء له، ولا يتحول من ضعف إلى قوة، ولا من ذُلٍّ إلى عِزٍّ، ومن قلة إلى كثرة، ولا من جوع إلى شبع ولا من فقر إلى غنى، ولا من خوف إلى أمن، ولا من شرٍّ إلى خير إلا بمشيئة الله وإرادته ... فلا يتحول ويتقلب من أى حال مهما كان إلى حال غيره إلا إذا شاء الله له ذلك، كما أنه ليس لعبد فى نيل مطلوب والحصول على مرغوب أو دفع مرهوب إلا إن أعانه الله سبحانه وأمدَّه بقوةٍ منه،

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٤/ ٢٠٤).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٤٧).

(٣) المباحث العقدية (٢/ ٩٠٠).

فالعبد، بقوله لهذه الكلمة يتبرأ من حوله وقوته، ويعتقد أن الحول والقوة بالله وحده فهو سبحانه مالك الملك وخالق، بيده أمور الخلق يتصرف بهم كيف يشاء ويُصرّفهم حيث يشاء ويُقلّب أحوالهم من حالٍ إلى حال على حسب مشيئته وحكمته وإرادته ... لا مانع لما قضى ولا لما أعطى، ولا مُعطى لما منع بيده المُلك وهو على كل شيء قدير [1].

(١) المباحث العقدية (٢/ ٩٠١)- نقلًا عن (الإيمان بالقدر) للدكتور على الصلابى.

فضل: لا حول ولا قوة إلا بالله

۞ وهناك فضائل كثيرة ومنزلة عظيمة لـ(لا حول ولا قوة إلا بالله) وسأذكر بعضها على سبيل الإيجاز:

(١) أنها من أسباب مغفرة الذنوب:

فقد أخبر النبى ﷺ أنها من بين الكلمات التى إذا قالها العبد كانت سببًا فى مغفرة الذنوب.

قال رسول الله ﷺ: «**ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرت عنه خطاياه ولو كانت مثل زَبَد البحر**»[١].

(٢) أنها من الباقيات الصالحات:

۞ ومن فضائلها أنها من الباقيات الصالحات ومن أحب الكلام إلى المولى (جلَّ جلاله) ... قال الله تبارك وتعالى فى محكم التنزيل: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[٢].

فقد ورد فى تفسير هذه الآية عن جَمْعٍ من الصحابة والتابعين أن الباقيات الصالحات هى: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**الباقيات الصالحات[٤]: سبحان الله، والحمد لله،**

---

(١) حسن: رواه أحمد والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٣٦).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٤٦).

(٣) تفسير ابن جرير الطبرى (١٥/ ٢٥٥).

(٤) الباقيات الصالحات: أى: التى تنفع صاحبها بعد موته.

ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

۞ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هى ذكر الله، قول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله والقيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد وأعمال الحسنات وهى الباقيات الصالحات التى تبقى لأهلها فى الجنة[٢]، وقد ورد فى فضلهن... أى الكلمات الباقيات الصالحات أنهن يُكفِّرن الذنوب، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرت عنه خطاياه ولو كانت مثل زَبَد البحر»**[٣].

(٣) من قالها حين يخرج من بيته يُكفَى ويُهدَى:

۞ من فضلها أن من قالها حين يخرج من بيته مع البسملة والتوكل على الله أنه يُوقى ويُكفَى ويُهدَى، ... فعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «**إذا خرج الرَّجُل من بيته فقال بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله فيُقال له: حسبُك قد كُفيت وهُديت ووُقيت فيلقى الشيطان شيطانًا آخر فيقول له: كيف لك برجل قد كُفى وهُدى ووُقى»**[٤].

(٤) أن الله يُصدِّق قائلها:

۞ ومن فضلها أن الله سبحانه يصدق قائلها ... ومَن صَدَّقه الله تعالى

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣٢٦٤).

(٢) المباحث العقدية (٢/ ٨٩٢).

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٣٦).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٩).

على ما يقول فليبشر بالخير بإذن الله[١]،.... فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ قَالَ يَقُولُ اللهُ عز وجل: صَدَقَ عَبْدِي لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي وَإِذَا قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لا شَرِيكَ لَهُ قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلا شَرِيكَ لِي وَإِذَا قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِي الْمُلْكُ وَلِيَ الْحَمْدُ وَإِذَا قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِي مَنْ رُزِقَهُنَّ عِنْدَ مَوْتِهِ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ»[٢].

(٥) أنها غراس الجنة:

۞ ومن فضائل (لا حول ولا قوة إلا بالله) أنها غراس الجنة.

عن أبي أَيوبَ الأَنصارِي: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيلَةَ أُسرِي بِهِ مَرَّ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: «مَنْ مَعَكَ يا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا مُحَمَّدٌ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: مُرْ أُمَّتَكَ فَلْيُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ تُرْبَتَهَا طَيبَةٌ، وَأَرْضَهَا وَاسِعَةٌ قَالَ: وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[٣].

(٦) أنها كنز من كنوز الجنة:

ربما تكون فقيرًا فى الدنيا، ولكن بذكرك لله تكون لك كنوز عظيمة فى الجنة...، عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟**» فقلت: بلى، فقال: «**لا حول ولا قوة إلا**

---

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (٢/ ٨٩١).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١٣).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٥٨٣).

بالله»[١].

وعن النبى ﷺ أنه قال: «**ألا أعلمك، أفلا أدلك على كلمة من كنز الجنة من تحت العرش؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .. فيقول الله: أسلم عبدى واستسلم**»[٢].

۞ وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبى ﷺ: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم**»، قال: وأنا خلفه وأنا أقول: قل، لا حول ولا قوة إلا بالله[٣].

قال النووى رحمه الله: قوله ﷺ: لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة: قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا رادَّ لأمره وأن العبد لا يملك شيئًا عن الأمر ... ومعنى الكنز هنا أنه ثواب مُدَّخَر فى الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم[٤].

والكنز مال مُجتَمع لا يحتاج إلى جمع وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى ... ومعلوم أنه لا يكون شىء إلا بمشيئة الله وقدرته، وأن الخلق ليس منهم شىء إلا ما أحدثه الله فيهم.

وقول «لا حول ولا قوة إلابالله» يوجب الإعانة ولهذا سنَّها النبى ﷺ إذا

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٨٤) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦١٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٩٢) كتاب الجهاد، ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٤) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٢٦).

قال المؤذن: حى على الصلاة، فيقول المجيب: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا قال: حى على الفلاح، قال المجيب «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وقال المؤمن لصاحبه: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[١]، ولهذا يُؤمَر بهذا من يخاف العين على شىء فقوله: ما شاء الله، تقديره: ما شاء الله كان فلا يأمن، بل يؤمن بالقدر ويقول لا قوة إلا بالله[٢].

(لا حول ولا قوة إلا بالله) تضمنت معانٍ عقدية عظيمة

۞ فقد تضمنت (لا حول ولا قوة إلا بالله) معانٍ عقدية عظيمة غير دلالتها على القدر ... وكان من بينها:

(١) **أنها كلمة استعانة بالله العظيم**، ومن استعان بالله جل جلاله، فالله سبحانه يعينه على قضاء حوائجه، وجميع ما يصلحه. والاستعانة بالله من أفضل العبادات وأجلّها ... وتعرف منزلتها وعِظَم شأنها من خلال سورة الفاتحة التى أمر الله سبحانه عباده أن يتعبدوه بتلاوتها يوميًّا مرارًا، وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٣] فهذه الآية فيها إخلاص الاستعانة لله لأنه قدم ما حقه التأخير فأفاد حصر الاستعانة بالله وكذلك لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة تحتوى على الإخلاص لله بالاستعانة فهى تدل على ما دلَّت عليه[٤].

(٢) **الإقرار بأنواع التوحيد الثلاثة**، توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٣٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢١).

(٣) سورة الفاتحة: الآية: (٥).

(٤) المباحث العقدية (٢/ ٩٠٢).

والصفات، وتوحيد الألوهية، ... فقائلها يُقر ويعتقد بأن الله وحده المُدبر لهذا الكون المتصرف بحكمته ومشيئته فلا يقع فيه شىء إلا بإذنه ومشيئته، كما أنه معترف بأن من كان هذا وصفه فهو بالطبع غنىّ عن خلقه قائم بذاته متصف بصفات الكمال من القدرة والعظمة والقوة والعزة، ومن يعتقد هذا فى خالقه كان عليه لزامًا أن يؤلهه ويعبده ويقصده ويلتجئ إليه ولا يرجو أحدًا سواه، ولا يدعو أحدًا إلا هو، لأنه بيده التصرف التام وله الملك وهو على كل شىء قدير [1].

(٣) **التوكل على الله** وتفويض الأمور إليه والاستسلام والإذعان له مع إظهار الذل والافتقار له سبحانه ... فهو الغنى والعبد فقير إليه لا يملك من أمره شيئًا.

ويجدر التنبيه هنا على أمرٍ يخطئ به بعض الناس ألا وهو: استعمالهم هذه الكلمة فى غير موضعها اللائق بها، ونجم ذلك عن عدم معرفة معناها ومحتواها فيجعلونها كلمة استرجاع لا كلمة استعانة بالله [2].

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٩٠٣).

(٢) الحوقلة مفهومها وفضائلها ودلالاتها العقدية / عبد الرزاق العباد (ص٨٣).

الاستخارة

۞ ويستخير العبد ربه فيما خُيِّر فيه من الواجبات والمستحبات وسائر المباحات، أما ما فُرض عليه فعله ولزمه تركه فليس له أن يستخير فيه، بل يمضى فيه بعزيمة وإنابة وحسن توكل على الله تعالى.

۞ قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فى الفتح (١١/ ١٨٨):

وَتَدْخُلُ الِاسْتِخَارَةُ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ فِى الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ الْمُخيرِ وَفِيمَا كَانَ زَمَنُهُ مُوَسَّعًا وَيَتَنَاوَلُ الْعُمُومَ الْعَظِيمَ مِنَ الْأُمُورِ وَالْحَقِيرَ فَرُبَّ حَقِيرٍ يتَرَتَّبُ عَلَيهِ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ. اهـ.

۞ والمسلم يستخير ربه (سبحانه وتعالى) ذكره ويستفتيه لسعة علمه وإحاطته بالأمور كلها، وكذا لكمال غناه وعظيم قدرته، وهذا هو الذى يدفعه إلى أن يستجدى منه المعونة ويستفتيه فى النوائب، وقد عُلم أنه لا قدرة للعبد على جلب نفع إلا بتوفيق الله تعالى ولا قدرة له على صرف شَرٍّ إلا بحول الله تعالى. وهذا هو معنى قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فمن قام بالله تعالى نجا وأفلح، ومن وُكل إلى نفسه خاب وخسر.

۞ صفة دعاء الاستخارة:

يصلى المستخير ركعتين من دون الفريضة، ثم بعد انتهاء الصلاة يدعو دعاء الاستخارة، وصفته كما روى البخارى وغيره عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِى الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يقُولُ: **«إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَينِ مِنْ غَيرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ**

عَلَّامُ الغُيوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيرَ حَيثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ» قَالَ: «وَيسَمِّي حَاجَتَهُ»[١].

۞ الحكمة في تقديم الصلاة على الدعاء:

قَالَ ابن أَبِي جَمْرَةَ: الْحِكْمَةُ فِي تَقْدِيمِ الصَّلَاةِ عَلَى الدُّعَاءِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِخَارَةِ حُصُولُ الْجَمْعِ بَينَ خَيرَي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَيحْتَاجُ إِلَى قَرْعِ بَابِ الْمَلِكِ وَلَا شَيءَ لِذَلِكَ أَنْجَعُ وَلَا أَنْجَحَ مِنَ الصَّلَاةِ لِمَا فِيهَا مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيهِ وَالِافْتِقَارِ إِلَيهِ مَآلًا وَحَالًا[٢].

۞ ماذا يفعل المستخير بعد الدعاء؟:

قَالَ ابن عَبْدِ السَّلَامِ: يفْعَلُ مَا اتَّفَقَ، وَيُسْتَدَلُّ لَهُ بقوله فِي بعض طرق حَدِيث ابن مَسْعُود رضي الله عنه فِي آخِرِهِ: «ثُمَّ يعْزِمُ». وَأَوَّلُ الْحَدِيثِ: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَمْرًا فَلْيَقُلْ»[٣].

وَقَالَ النَّوَوِي فِي الْأَذْكَارِ: يَفْعَلُ بَعْدَ الِاسْتِخَارَةِ مَا يَنْشَرِحُ بِهِ صَدْرُهُ ويستدل لَهُ بِحَدِيث أنس عِنْد ابن السُّنِّي: «إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَاسْتَخِرْ رَبَّكَ سَبْعًا ثُمَّ انْظُرْ إِلَى الَّذِي يسْبِقُ فِي قَلْبِكَ فَإِنَّ الْخَيرَ فِيهِ» وَهَذَا لَوْ ثَبَتَ لَكَانَ هُوَ الْمُعْتَمَدَ لَكِنَّ سَنَدَهُ وَاهٍ جِدًّا، وَالْمُعْتَمَدُ أَنَّهُ لَا يفْعَلُ مَا ينْشَرِحُ بِهِ صَدْرُهُ مِمَّا كَانَ لَهُ فِيهِ هَوًى قَوِي قَبْلَ الِاسْتِخَارَةِ وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ فِي آخِرِ

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٣٨٢) كتاب الدعوات.

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ١٨٩).

(٣) المصدر السابق (١١/ ١٩١).

حَدِيثِ أَبِى سَعِيدٍ: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[١].

۞ **والظاهر**: أن الاستخارة دعاء يقع بين يدى الصلاة، ويتقدم على العمل، والمستخير إذا استجاب الله تعالى دعاءه فهو يخيره للخير ويمضيه فيه. والخير إما أن يتيسر له ما استخار من أجله مما يحب فيمضى فيه، وإما أن يتعسر عليه ما يكره ولا يمضى فيه، أو العكس من ذلك.

فما ينتهى إليه العمل فهو الخير الذى اختاره الله تعالى، وبهذا عنى إجابة الدعاء. فمن استخار ربه فى شىء له فيه هوى أو ليس له فيه هوى فعليه أولًا أن يكون صادقًا فى تسليم أمره إلى الله تعالى، وليمضِ فى العمل المُيَسَّر له، خاصة إذا كان موافقًا لمشورة الصالحين ورضاهم، وظاهره النفع والصلاح، سواء انشرح فيه الصدر أم لم ينشرح، رأى فيه منامًا أم لم يرَ فيه، فإن تيسر أمامه وجاء موافقًا لهواه فهذا التيسير هو اختيار الله تعالى له، وإن تعسَّر فهذا هو مراد الله تعالى فيه وليرجع ولينتهِ.

۞ أمر عجيب!!

ومما يثير العجب فى النفس أن ناسًا يستخيرون الله تعالى فى أمور مباحة، لم يُفرَض عليهم منها شىءٌ، ولم يُلزمهم الله تعالى منها بشىء، ولكنهم يريدون حكمه تعالى فيها، وينتظرون قضاءه. وهذا من أعظم أنواع التعبُّد حيث يدور المرء مع مراد ربه (جلَّ وعلا) حيث دار، بينما ترى هؤلاء لا يستجيبون لله تعالى فى الأمور الشرعية الثابتة المُحكَمة، التى أمر بالاستمساك بها، والقيام عليها، والإذعان لها، وحذر من شؤم مخالفتها والإعراض عنها.

---

(١) المصدر السابق (١١/ ١٩١).

ويزول هذا العجب إذا كان هؤلاء يستخيرون الله (جلَّ وعلا) لا طلبًا لرضاه، ولا رغبة فى القرب منه، وإنما يستخيرون الله تعالى لأجل الدنيا وفقط، هذا هو الذى يُرضيهم، وهذا هو الذى يعيشون من أجله، وهذا هو الذين يطمئنون به،... وفوات ذلك هو الذى يُحزنهم ويؤلمهم. «أعاذنا الله تعالى من شر هؤلاء وشر ما يدينون به»[1].

ما الحكمة في صلاة الكسوف والاستسقاء؟

شرع الله العلى القدير صلاة الكسوف والاستسقاء؛ ليُظهر عظيم قدرته، وقوة سلطانه، وقهره للخلائق جميعها، وأنه مجيب الدعوات، وقاضى الحاجات، الحيى الذى يستحيى أن يرد يدى عبده صِفرًا،... المغيث الذى يغيث من استغاث به المجير الذى يجير من استجار به.

فلا تحول دون إرادته الحواجز، ولا تمنعه الموانع، أمره كلام وفعله كلام وعقوبته بالكلام ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، وعندما يرفع الأتقياء أيديهم إلى الله تعالى، يستسقون أو يسألون زوال تلك الغمة الناتجة عن الكسوف، فإن الله تعالى يزيلها، فتمطر السماء بفضله ورحمته، وتعيد تلك الكواكب التى توقفت على خَطٍّ واحد.

دورانها وسيرها بإذن الله تعالى وحده، فلا السماء تمطر بقدرتها، ولا الكواكب تسير بذاتها، وإنما ذلك كله بمشيئة الله تعالى وإرادته.

وهذا كله يفضح عُبَّاد النجوم والكواكب، الذين يزعمون أنها مؤثرة أو

---

(١) (القضاء والقدر عند السلف) / الشيخ على الوصيفى (ص ١٥٩-١٦٢) بتصرف.

(٢) سورة يس: الآية: (٨٢).

مقدرة فى العالم السفلى، فيشير إليهم أن اسألوها فهل تستجيب لكم؟ واستمطروا بها فهل تمطركم؟ ونادوها فهل تسمعكم؟ عند ذلك فلا يفتح لهم إذا استسقوا بها، ولا تزول غمومهم إذا تطيروا بها.

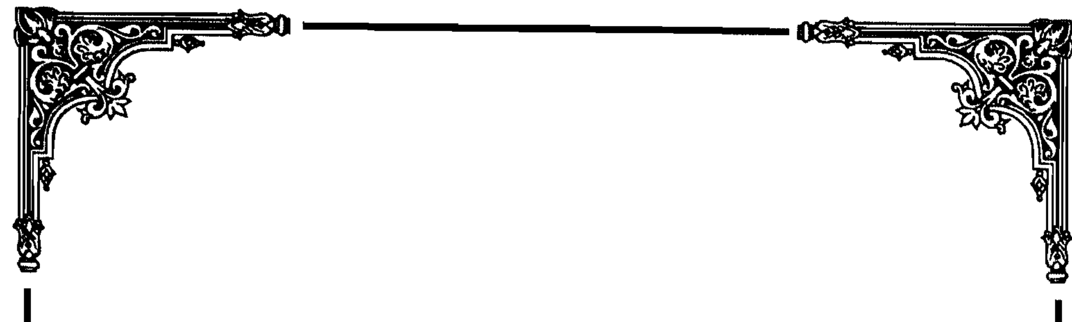
ألا فليستحِ أولئك مما حملت عقولهم من الضلال، وأضمرت نفوسهم من سوء الظن بالله رب العالمين حتى اعتقدوا فيما لا ينفع شيئًا ولا يضر. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾[1][2].

---

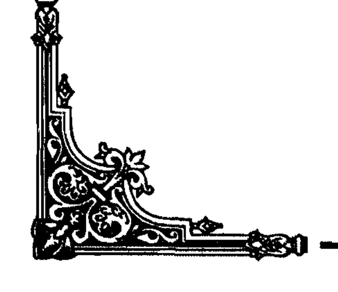
(١) سورة الأحقاف: الآيتان: (٥، ٦).

(٢) القضاء والقدر عند السلف (ص ١٧٦-١٧٧).





العدل الإلهي
وسُنة الله في الجزاء بجنس العمل







العدل الإلهي
وسنة الله في الجزاء بجنس العمل



۞ من أسماء الله الحسنى «العدل» ولم يأتِ هذا الاسم فى القرآن الكريم وقد جاء فى حديث الأسماء الحسنى وأجمعت عليه الأمة.

وقد اتفق أهل الأرض والسماوات على أن الله تعالى «عدل» لا يظلم أحدًا، ... حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مُقرّون له بالعدل، ومُنزِّهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم مُعترفون بعدله، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾[1]. فهو سبحانه قد حرّم الظلم على نفسه وأخبر أنه لا يُهلك ﴿ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[2].

فأفعال الله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جورٍ أصلًا، فهى كلها بين الفضل والرحمة وبين العدل والحكمة، وما يُنزل الله سبحانه بالعصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزى فى الدنيا وما أعده لهم من العذاب المهين فى الآخرة، فإنما فَعَل بهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنب ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة، وأقواله كلها عدل، فهو لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ولا ينهاهم إلا عمّا مضرته خالصة أو راجحة وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ووزنه لأعمالهم لا جور فيه،... كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الملك: الآية: (١١).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٣١).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٤٧).

فهو على صراط مستقيم فى قوله، وفعله وحكمه.

فالله يأمر بالعدل ويفعله وهو أعدل العادلين، فما قضى فى عبده قضاءً إلا هو واقع فى محله الذى لا يليق به غيره، إذ هو الحَكَم العدل الغنى الحميد[١].

فالله وحده المجازى المثيب المعاقب بالعدل..فالشرع والقدر والخلق والأمر والثواب والعقاب قائم بالعدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٢].

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها، وإنه لم يخص شيئًا منها إلا بمخصص اقتضى ذلك وإنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ولا يمنع من يستحق العطاء وإن كان هو الذى جعله مستحقًّا[٣].

والله يفعل ما يريد، وحكمه ماضٍ فى العبيد، على النهج السديد[٤].

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٥]. وهذا الكمال عدل فإن النفى هنا لإثبات كمال الضد[٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾[٨].

---

(١) الجزاء من جنس العمل / د. سيد حسين العفانى (١/ ٣٣، ٣٤).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١١٥).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٧-٤٦٠).

(٤) الجزاء من جنس العمل (١/ ٣٤).

(٥) سورة الكهف: الآية: (٤٩).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٣٤).

(٧) سورة النساء: الآية: (٤٠).

(٨) سورة يونس: الآية: (٤٤).

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليُملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته**»، ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[2].

وقال تعالى فى شأن أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[3].

فالله لا يظلم الناس شيئًا فى دنياهم وإنما يؤاخذهم بظلمهم، ولا يظلمهم فى الآخرة[4].

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5].

وقال تعالى فى آخر آية نزلت قبل موت النبى ﷺ بتسع ليالٍ: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾[6].

وقال ﷺ، فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم مُحرمًا، فلا تظالموا**»[7].

---

(١) سورة هود: الآية: (١٠٢).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٥٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٦٥).

(٤) الجزاء من جنس العمل (١/ ٣٥).

(٥) سورة يس: الآية: (٥٤).

(٦) سورة البقرة: الآية: (٢٨١).

(٧) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

وعلى مستوى المعاملات بين الناس جاء الأمر الإلهى بتحرى العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[١].

فالنصوص التى ذُكرت فى القرآن والسنة للدلالة على تحريم الظلم وتنزيه الله عنه، تقتضى كمال عدله وحكمته وغناه، ووضعه العقوبة والثواب مواضعها[٢].

قال الشاعر:

والعدل من أوصافه فى فعله ومقاله والحكم فى الميزانِ

فعلى الصراط المستقيم إلهنا قولًا وفعلًا ذاك فى القرآنِ[٣]

ومن أكبر مظاهر عدل الله فى خلقه فى الدنيا والآخرة: سنة الجزاء من جنس العمل وقد تكاثرت النصوص لهذا المعنى، وهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه، كله قائم بهذا الأصل[٤].

أولاً: الأصل في العقاب المماثلة:

إن الوعيد والعقاب الإلهى مبنى على العدل الإلهى، بحيث تكون العقوبة مكافئة للذنب الواقع ولذلك يصرّح القرآن بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٥].

---

(١) سورة النحل: الآية: (٩٠).

(٢) القضاء والقدر / د. عبد الرحمن المحمود (ص ٢٨٧).

(٣) الجزاء من جنس العمل (١/ ٣٣).

(٤) السنن الإلهية / د. مجدى عاشور (ص ٢٦٩).

(٥) سورة الشورى: الآية: (٤٠).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[(١)].

بل قد يتجاوز الله بمشيئته عمن أساء ... يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[(٢)]، ويحرّض الله الناس على الصفح عمن ظلمهم أو أساء إليهم، فهو يُسرِّع لهم القصاص والمعاملة بالمثل ولكنه فى نفس الوقت يدعو إلى العفو والصفح ويوكل أجر فاعلهما عليه سبحانه، زيادة فى الإغراء وحثًّا على التسامح، فيقول تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[(٣)].

وأما فى جانب الوعد والثواب فيعامل الله عباده بالفضل والزيادة وإن كانت من جنس العمل الذى فعله العبد،... يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[(٥)]. والقرآن الكريم حافل بالتطبيقات المتنوعة على سنة الجزاء من جنس العمل.

ثانيًا: الجزاء من جنس العمل في الدنيا[(٦)]:

(١) الاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا

---

(١) سورة النحل: الآية: (١٢٦).

(٢) سورة الشورى: الآية: (٣٠).

(٣) سورة الشورى: الآية: (٤٠).

(٤) سورة محمد: الآية: (١٧).

(٥) سورة النساء: الآية: (١٧٣).

(٦) بتصرف من السنن الإلهية / د. مجدى عاشور.

مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢).

هذا من باب المقابلة على سوء ضيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من يسخر منهم انتصارًا للمؤمنين فى الدنيا، وأعد للمنافقين فى الآخرة عذابًا أليمًا؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

(٢) تسليط الظالم على مثله :

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٤).

وفى قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا ﴾ (٥): تدل الآية على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلط عليهم ظالمًا مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم.

(٣) استئصال الله لمن أراد إيذاء رسله وأوليائه :

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ

(١) سورة البقرة: الآيتان: (١٤، ١٥).

(٢) سورة التوبة: الآية: (٧٩).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (١٢٩).

(٤) سورة المائدة: الآية: (٥١).

(٥) سورة الأنعام: الآية: (١٢٩).

كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[1].

وقال تعالى عن ظلم فرعون لبني إسرائيل ومحاولته إخراجهم من أرضهم: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾[2].

ويقرر القرآن الكريم هذه السنة في آيات أُخر... قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[4].

(٤) نصر الله منوط بنصرته للدين والحق:

قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

---

(١) سورة غافر: الآية: (٥).

(٢) سورة الإسراء: الآيتان: (١٠٣، ١٠٤).

(٣) سورة إبراهيم: الآيات: (١٣ - ١٥).

(٤) سورة الأحزاب: الآيات: (٦٠-٦٢).

(٥) سورة المجادلة: الآية: (٢١).

ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وهذا النصر الإلهى مشروط بالإيمان ونصرة دين الله ... وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾[٤].

(٥) سلب النعمة عمَّن منعها مستحقها:

يبين القرآن الكريم أن عقاب الله بالمرصاد لمن منع أحدًا شيئًا يستحقه وأن سنة الله فى هذا أن ينقلب مقصود المانع عليه ويعامله الله بنقيض مقصوده، فيأخذ الله ما بين يديه من نعمة ويسلبه ما كان سببًا فى التجنِّى على خلقه ويتركه فى رماد،... والشاهد على ذلك جليًّا فى قصة أصحاب الجنة التى قَصَّها علينا القرآن للاعتبار والعظة، ... قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾[٥].

فأصحاب الجنة لما عزموا على منع الفقير حقه الذى كفله الله له عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية،... رأس المال

(١) سورة غافر: الآية: (٥١).

(٢) سورة الروم: الآية: (٤٧).

(٣) سورة محمد: الآية: (٧).

(٤) سورة الحج: الآية: (٤٠).

(٥) سورة القلم: الآيات: (١٧-٢٧).

والربح والصدقة، فلم يبقَ لهم شيء ثم بيَّن الله أن حكمه هذا سنة جارية، فى خلقه وقضاء عام لمن وقع فى مثله ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أى: هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوى الحاجات.

وبالمقابل فإن الله قد ضمن لمن تعدى بخيره على غيره أن يرزقه من جنس ما أنفقه ويزيده فيه سواء فى الدنيا أو فى الآخرة،... فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[2].

وفى الحديث القدسى: «**أَنفق أُنفق عليك**»[3].

(٦) تيسير الله لمن يسَّر على عباده:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾[4].

وفى قوله: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ مطلق فى كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة ... واعلم أن هذه الآية دلَّت على أن كل مَن وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة. وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ولا ينبغى للعاقل أن يقيد الآية بالتفسُّح فى المجلس،

(١) سورة سبأ: الآية: (٣٩).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٧٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة.

(٤) سورة المجادلة: الآية: (١١).

بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم وإدخال السرور فى قلبه.

ويؤكد هذا الموضع من الشاهد قول النبى ﷺ: **«من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسَّر على مُعسرٍ يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»**[١].

وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أى: إذا قيل: ارتفعوا وإنما يراد بذلك وإذا قيل: قوموا إلى قتال عدو أو صلاة أو عمل خير أو تفرقوا عن رسول الله فقوموا[٢]، فقد جعل جزاء امتثال أمره فى تلك الآية أن رفع درجة أصحابها بالنّصر وحسن الذكر فى الدنيا وإيوائهم غُرف الجنان فى الآخرة خاصة العلماء منهم الذين جمعوا بين العلم والعمل فإن العلم مع علو درجته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة[٣].

(٧) الجزاء من جنس العمل على مستوى الوسائل:

إن أى تدبير أو فعل من العبد مهما بلغ فى إتقانه ونسجه فإن الله هو القاهر فوق عباده لا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وفى هذه الغاية القصوى فى استشعار العبد بالمراقبة، ومن ثَمَّ الامتثال بالعبودية.

ثالثًا: الجزاء من جنس العمل في الآخرة:

كما أن سنة الجزاء من جنس العمل حاكمة فى معاملة الله خلقه فى الحياة الدنيا، فهى كذلك فى الآخرة، ومن ثم كانت سنة أساسية بين السنن،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب الغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة.

(٢) جامع البيان للطبرى (٢٨/ ٢٥٩).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى (٢/ ٢٢١).

والتطبيقات القرآنية تترى فى هذا المعنى، وتصل إلى حد التواتر، من حيث العدد، وإلى القطع من حيث المعنى والمراد من ذلك.

(١) معاملة أهل الفضل بالفضل:

قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾[1]، أى: هل ثواب خوف مقام الله عَزَّوَجَلَّ لمن خافه فأحسن فى الدنيا عمله، وأطاع ربه إلا أن يُحسن إليه ربه فى الآخرة بأن يجازيه على إحسانه ذلك فى الدنيا ما وصف فى الآيات من قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[2]، إلى قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[3] [4].

وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[5].

قال الحسن البصرى: أخفى قومٌ عملهم وأخفى الله لهم ما لم ترَ عينٌ ولم يخطر على قلب بشر[6].

وفى الحديث القدسى: قال تعالى: «**أعددت لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** ... قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[7].

---

(١) سورة الرحمن: الآية: (٦٠).

(٢) سورة الرحمن: الآية: (٤٦).

(٣) سورة الرحمن: الآية: (٥٨).

(٤) جامع البيان للطبرى (٢٧/ ١٩٨).

(٥) سورة السجدة: الآيتان: (١٦، ١٧).

(٦) تفسير القرآن الكريم (٣/ ٢٦٠) روح المعانى (٢١/ ١٣٢).

(٧) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

(٢) ترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم يتبعه:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[2].

أخبر تعالى أن الضالين فى الدنيا يُحشرون يوم القيامة عُميًا، فإن الجزاء أبدًا من جنس العمل.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[4].

(٣) التهكم بالكفار والمنافقين كما كانوا يتهكمون بالمؤمنين في الدنيا:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ

(١) سورة التغابن: الآية: (١٤).

(٢) سورة طه: الآيات: (١٢٤-١٢٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٥١).

(٤) سورة الجاثية: الآيات: (٣٢-٣٤).

هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾[2].

والشاهد فى الآية قوله: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾، فالظاهر من إسناد ﴿قِيلَ﴾ بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين، وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكُّمًا، إذ لا نور وراءهم، وإنما أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين؛ لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة ... وهذا استهزاء كان جزاءً على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم ، ومما يؤيد أن هذا التخبُّط والحيرة الشديدة التى أصابت المنافقين فى الآخرة هو جزاء لهم من جنس ما كانوا عليه فى الدنيا أنهم كانوا كذلك فى الدنيا فى قلقٍ دائم وحيرة مستمرة، وتخبُّط متواصل لأنهم كانوا ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[3].

رابعًا: الجزاء من جنس العمل بين العباد:

إن سنة الله فى خلقه أن يكون جزاؤهم من جنس ما عملوه، وهذا أمر تكوينى أقام الله عليه الدنيا والآخرة ليكون قانونًا حاكمًا فى المجازاة

---

(١) سورة المطففين: الآيات: (٢٩-٣٦).

(٢) سورة الحديد: الآية: (١٣).

(٣) سورة النساء: الآية: (١٤٣).

والمحاسبة وليس هذا فحسب، وإنما أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون هذا القانون وتلك السنة أمرًا شرعيًا تكليفيًا، وقد أمر الله الناس بالتعامل به فيما بينهم، ليتحقق العدل والأمان فى المجتمع بين الأفراد والجماعات والأمم، فأنزل الآيات التى توجب العمل بهذه القاعدة، وجعلها مستمرة فى أبواب الشرع عامة فى مسائله،.... وبيَّن النبى ﷺ تلك السنة بأحسن بيان وأدق تطبيق.

وبهذا يتبين أن الشرع والقدر قد تظاهرا على تقرير هذه السنة، وتلك القاعدة والتى هى من حكمة الله البالغة فى خلقه.

قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾[3].

۞ ومن الأمثلة فى القرآن الكريم فى هذا الباب ما يلى:

(١) الآيات التي وردت في القصاص:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[4].

(١) سورة الشورى: الآية: (٤٠).

(٢) سورة النحل: الآية: (١٢٦).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٩٤).

(٤) سورة البقرة: الآيتان: (١٧٨، ١٧٩).

وفى هذا المعنى أيضًا يأتى قوله تعالى عن حكم القصاص فى الكتب السماوية السابقة:

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[1].

وقد بيَّنت السنة المطهرة تطبيق حد القصاص على الوجه الأكمل، وبما يحقق القاعدة التى تتحدث عنها، وبهذا يتبين لنا المصالح الجمة التى بُنيت على مشروعية القصاص، وإقامته فى المجتمع، ومن تلك المصالح زجر المُعتدِى ومن يحاول الاعتداء ليرتدع قبل اقترافه عمله، ومنها جبر خاطر المُعتدَى عليه، ومنها التفادى من ترصُّد المُعتدَى عليهم للانتقام من المعتدين أو من أقوامهم، فإبطال الحكم بالقصاص يعطل هذه المصالح ويقوض بنيان المجتمع، ويشيع الفوضى فى الدولة، وينخر فى قواها المتمثلة فى أفرادها وطوائفها.

(٢) حد الحرابة والإفساد:

وبهذا المعنى أيضًا جاء حد الحرابة والإفساد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾[2]، وهى شاهد لما نحن فيه على تفسير ابن عباس فى رواية عطاء، وهو مذهب جمهور العلماء؛ لأن كلمة ﴿أَوْ﴾ هنا ليست للتخيير، بل هى للتقسيم أو بمعنى آخر: لبيان أن الأحكام تختلف

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٤٥).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٣٣).

باختلاف الجنايات، فمن اقتصر على القتل قُتل، ومن قتل وأخذ المال، قُتل وصُلب، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يديه ورجله من خلاف، ومن أخاف السُّبل ولم يأخذ المال نُفى من الأرض[١].

(٣) من تطبيقات ذلك العصر النبوي:

ما علَّمنا إياه رسول الله ﷺ فى كيفية مجازاة الناس بجنس أعمالهم والشاهد الصريح فى ذلك ما قاله ﷺ عن أبى بكر رضي الله عنه: «**ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة**»[٢]، فأبو بكر رضي الله عنه بذل كل ما يملك من مال ونفس وأهل وولد لنصرة النبى ﷺ، وكان عطاؤه بلا حدود، يستحق الجزاء من صاحب النعمة المطلقة، وولى كل منحة وجود..فردَّ النبى ﷺ مكافأته لله عز وجل ليتفضل على أبى بكر بالإنعام والإكرام، وليكون الأصل فى الجزاء أن يكون من جنس العمل.

۞ والمثال الثانى فى عصر النبوة: أنه لما أُسرت ابنة حاتم الطائى فى أيدى المسلمين ورآها رسول الله ﷺ قالت له: كان أبى يفك العانى، ويحمى الذمار، ويقرى الضيف، ويُشبع الجائع، ويُفرج عن المكروب، ويُطعم الطعام، ويُفشى السلام، ولم يرد طالب حاجة. فقال ﷺ: «**خلُّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق**»[٣].

وفى رواية: فخلى سبيلها رسول الله ﷺ قالت: فكسانى رسول الله ﷺ وحملنى، وأعطانى نفقة حتى خرجت إلى أخى عدى بالشام[٤].

---

(١) التفسير الكبير للرازى (٥/ ٦٦٦)، السنن الإلهية ص٢٦٦.

(٢) صحيح: سنن الترمذى (٥/ ٦٠٩)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦١).

(٣) نوارد الأصول للحكيم الترمذى (٢/ ٣١٤)، شعب الإيمان للبيهقى (٦/ ٢٤).

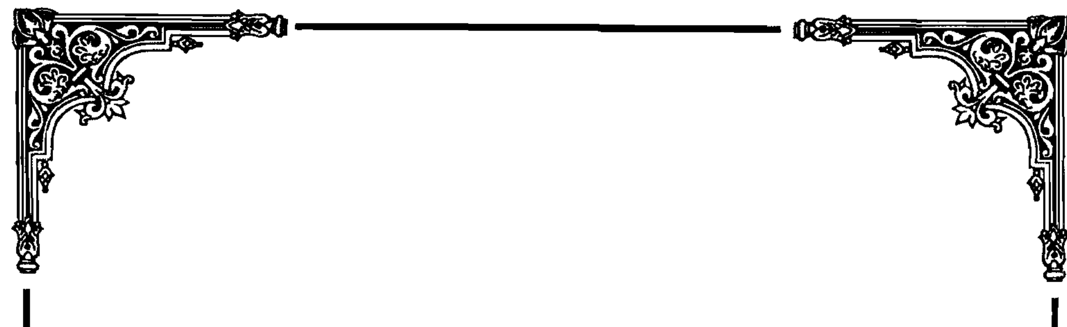
(٤) السيرة النبوية (٥/ ٢٧٧) الطبقات الكبرى (١/ ٣٢٢).

لقد عاملها الرسول ﷺ بجنس ما كان أبوها يعامل الناس رغم كفر أبيها، ليدلنا ذلك، على أن هذه القاعدة عامة ما لم تحرم أصلًا شرعيًّا، أو تعارض دليلًا قطعيًّا[1].

(١) السنن الإلهية (ص٢٧١)- نقلًا عن (الإيمان بالقدر) د. على الصلابى.







الإرادة الكونية
والإرادة الشرعية



الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

۞ وقد يسأل سائل ويقول: كيف يريد الله شيئًا ولا يحبه؟

أو كيف يريد شيئًا فى مُلكه وهو يكرهه؟

۞ وللإجابة على ذلك السؤال لابد من معرفة أن الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية قدرية .. وإرادة دينية شرعية.

۞ وهناك أمر يجب التنبيه عليه والتنبُّه له، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تُعْرِضُ لمن لم يحط به علمًا، وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الخلق والأمر.

وأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: أمر كونى قدرى، وأمر دينى شرعى، فمشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متعلقة بخلقه وأمره الكونى، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الدينى وشرعه الذى شرعه على ألسنة رسله، فما وُجد منه تعلقت به محبته وأمره الدينى ولم تتعلق به مشيئته، وما وُجد من الكفر والفسوق والعصيان تعلقت به مشيئته ولم يتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الدينى، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كونى، ولفظ المحبة دينى شرعى، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هى المشيئة، وإرادة دينية فتكون هى المحبة[١].

۞ وللجواب على السؤال الذى يقول:

كيف يريد الله أمرًا ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه

(١) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية (ص ٢٢٣-٢٢٤).

وكراهته؟

فالمراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره، قد لا يكون مقصودًا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فاجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول له أن فيه شفاؤه، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن فى قطعه بقاء جسده،... وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه[1].

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافى ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سببًا إلى أمر هو أحبُّ إليه من فوته.

ومن ذلك: أنه خلق إبليس الذى هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاء الكثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى ، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه وجودها إليه من عدمها:

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب على خلق المتضادات المتقابلات.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل القهار، المنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع الحساب، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

(١) منهج الإمام ابن أبى العز الحنفى / عبد الله الحافى (ص٣٢٩).

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء، لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله: «**لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ويستغفرون، فيغفر الله لهم**»(١).

ومنها: ظهور أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء فى مواضعها، فلا يضع الشىء فى غير موضعه، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يَصلُح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت كعبودية الجهاد، والصبر، ومخالفة الهوى، وعبودية الاستعاذة، إلى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها(٢)(٣).

۞ ونوضح هذا الجواب ببعض الأمثلة:

(١) إذا أراد الإنسان السفر لقضاء فريضة الحج فإنه ينفق مبالغ من المال وقد يكون الطريق وعرًا ويتعرض للهلاك فى الصحراء أو الغرق فى البحر أو التعرض لقُطاع الطرق ولكن كل ذلك يهون فى مقابل الوصول إلى البيت العتيق؛ لأداء هذه الفريضة، ... فهذه الرحلة محببة إلى العبد من جهة كونها طاعة لله تعالى لها عظيم الأجر...ومكروهة للعبد من جهة نفقة المال

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩)، كتاب التوبة.

(٢) منهج الإمام ابن أبى العز الحنفى (ص٣٣٠).

(٣) الإيمان بالقدر / د. على الصلابى (ص ٥١٢، ٥١٣).

والتعرض للمهالك والمخاطر.

(٢) إنسان مريض وصف له الطبيب نوعًا من الدواء شديد المرارة وله رائحة كريهة، فإنه يتعاطى الدواء، وذلك لأن هذا الدواء مكروه إليه من حيث التألم والتأذِّى من مرارة الدواء، ومُحبَّب إليه من حيث أنه سبب من أسباب الشفاء.

(٣) إذا حدث للإنسان تسمم فى أحد أطرافه بسبب ميكروب أصاب ذلك العضو ووصف له الطبيب قطع ذلك العضو، فإن هذا القطع مكروه للإنسان من حيث أنه يشوه شكل الإنسان وفيه ألم، ومُحبب إليه من حيث أنه بقطعه فيه محافظة على باقى الجسد من التسمم والهلاك.

(٤) أب ليس لديه إلا ولد واحد وباقى الذرية من البنات فإن هذا الولد يكون عزيزًا محببًا إلى قلب أبيه ومع ذلك نجد الأب يضربه إذا صدر عنه خطأ من تعدٍّ أو مخالفة، فإن الضرب مكروه لدى الأب من جهة حبه لولده، ومحبب لديه من حيث أنه سبب لنجاة الولد من سوء الخلق والسير فى الضلال.

۞ مما سبق يتضح لنا أنه يمكن أن يجتمع فى الشيء أمران:

الحب من جهة والكره من جهة أخرى، وليس هناك تنافى بينهما، وهذا فى شأن الإنسان المخلوق فكيف يكون الحال فى شأن الخالق سبحانه وتعالى؟! فإن الله تعالى من أسمائه الحكيم فلا يصدر منه شيء إلا لحكمة بالغة، ومن ذلك يتضح لنا أنه قد يريد الشيء وهو لا يحبه، أو يبغض الشيء ويريده؛ لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية وله الحكمة البالغة سبحانه سبحانه[١].

---

(١) هداية المقتدر (ص ١٣٥، ١٣٦).

۞ وإذا أردنا التفصيل في تلك المسألة فتعالوا بنا لنتعرف بالتفصيل على الإرادة الكونية والإرادة الشرعية:

(١) الإرادة الكونية:

هى المشيئة العامة التى يدخل فيها جميع المخلوقات من بَرٍّ وفاجر وصالح وطالح، وهى إرادة الله تعالى لفعله، سواء إن كان المفعول منه محبوبًا أو غير محبوب، يُرضيه أم لا يرضيه، فالله تعالى يفعل ما يشاء، ولا يشاء شيئًا إلا بعد إرادته له، وكل ما كان منه فليس فيه إلا الجمال والجلال والحسن، أما أفعال العباد فهى منقسمة، ففيها الحسن وفيها القبيح، وليس للعباد أن يفعلوا ما يشاؤون، وإنما يفعلون ما يؤمرون به إمتثالًا وإنتهاءً، وهذا هو الحسن منهم،... وتلك الإرادة متعلقة بالخلق، وهى من لوازم الربوبية، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ... ويدخل فى هذه المشيئة خلق الأقوياء والضعفاء والفقراء والمؤمنين والكفار، والملائكة والشياطين، وخلق الخيرات والفضائل، وخلق السيئات والحسنات، وخلق التوفيق والخذلان، وخلق القوة والعجز، والبلادة والذكاء [١]. وهذه بعض الآيات التى تدل على الإرادة الكونية.

- قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [٢].
- قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [٣].
- وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [٤].

---

(١) القضاء والقدر عند السلف / للوصيفى (ص٦٢).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١١٢).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٣).

(٤) سورة يونس: الآية: (٩٩).

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾(١).

- وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(٢).

- وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾(٣).

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾(٤).

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾(٥).

- وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٦).

- وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٧).

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٨).

وهذه الإرادة وتلك المشيئة هي التي تستلزم وقوع المراد، والمراد إما أن يكون مرادًا لذاته محبوبًا لله تعالى، وذلك لما فيه من الخير، كخلق الأنبياء والصالحين وكذلك كافة الفضائل والخيرات، أو مرادًا لغيره وهذا يُطلَق على الكفر وجميع الشرور والآثام، فإنها ليست مرادة لذاتها وإنما هي

---

(١) سورة النساء: الآية: (٩٠).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٢٥).

(٣) سورة هود: الآية: (٣٤).

(٤) سورة الكهف: الآية: (٣٩).

(٥) سورة السجدة: الآية: (١٣).

(٦) سورة الإنسان: الآية: (٣٠).

(٧) سورة الأنعام: الآية: (٣٩).

(٨) سورة يس: الآية: (٨٢).

مرادة لشيء آخر محبوب إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[1].

وهذا دليل على إثبات الحكمة فى جميع أفعال الله تعالى وأحكامه[2]، والحق أن جميع أفعاله وشرعه لها حكم وغايات، لأجلها شرع وفعل، وإن لم يعملها الخلق على التفعيل، فلا يلزم من عدم علمهم بها إنتفاؤها فى نفسها[3]

وحاصل الإرادة الكونية إثبات مشيئة الله تعالى المطلقة فى إيجاد المخلوقات كلها واختلاف أنواعها وأشكالها، وتفاوت فضائلها وشرورها وجمالها ودمامتها وكيسها وعجزها، وكفرها وإيمانها، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فالله على كل شيء قدير، ولا يقع فى مُلكه إلا ما يريد، ولا يقع فيه شيء كرهًا عنه... قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾[4].

فهو الذى أراد إيمان المؤمنين، وهو الذى أراد كفر الكافرين، وكل ذلك فى علمه السابق، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن علمه، وعلمه يستلزم ثبوت قدرته، وإذا كان قد علم أن أبا لهب سيكفر، فهذا معناه أنه لن يستطيع أن يخرج عن علمه ويؤمن، وهذا دليل أن الله تعالى سيحول بقدرته بينه وبين الإيمان، فلن يقدر عليه، ولن يقدر أبو لهب على خلاف ذلك.

---

(١) سورة الروم: الآية: (٤١).

(٢) القضاء والقدر عند السلف (ص٦٣).

(٣) القضاء والقدر عند السلف (ص٦٤).

(٤) سورة الزمر: الآيتان: (٣٦، ٣٧).

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[(١)].

وهذا ليس من باب تكليف ما لا يطاق، وإنما هذا من باب العقوبة: وهى نوع من الخذلان لمن زاغ عن صراط الله المستقيم.

وأما طاقة الأسباب فهى مقدورة له، ولكن الله تعالى لم يوفقه ولم يقدره على بلوغ غاياتها، فما آمن من آمن إلا بفضل الله تعالى ورحمته، وما كفر من كفر كرهًا عنه إنما كان ذلك بخذلان الله تعالى له: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾[(٢)]، وهو سبحانه وتعالى خالق الخير، كما هو خالق الشر، لا إله غيره ولا رب سواه،... قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[(٤)(٥)].

وفى الإرادة الكونية قد يبغض الله تعالى طاعة العاصى ولا يعينه عليها بعد الإرشاد والنصح والبيان، وذلك لحكمة عظيمة جليلة، كما قال تعالى فى المنافقين الذين تخلفوا مع الخوالف فى بيوتهم، وتركوا الخروج للجهاد مع النبى ﷺ كما فى غزوة تبوك: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾[(٦)].

وقد بيَّن الله تعالى الحكمة فى بغضه لطاعته فقال: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٢٤).

(٢) سورة يونس: الآية: (٩٩).

(٣) سورة الرعد: الآية: (١٦).

(٤) سورة البقرة: الآية: (٢٠٣).

(٥) القضاء والقدر عند السلف (ص٦٤).

(٦) سورة التوبة: الآية: (٤٦).

زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[1].

وهو سبحانه: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[2]، وذلك لأنه يتصرف فى ملكه، وهذا ليس فيه ظلم، إنما الظلم فى الحقيقة يكون من تصرف المتصرف فيما لا يملك، ومنع المستحق ما يستحقه،... والله تعالى لا يجب عليه شيء لأحد حتى يُحاسَب على ما ضيق ومنع، وعلى ما أهان وخذل، وإنما هو حكمة بالغة ورحمة واسعة وعدل قويم[3].

(٢) الإرادة الشرعية:

هى إرادة الله تعالى لأمره الدينى الشرعى، وهى التى أرسل من أجلها الرسل، وأنزل من أجلها الكتب وهى لا تستلزم وقوع المراد مع كونه محبوبًا لله تعالى إلا إذا كان متعلقًا بالإرادة الكونية[4]، والإرادة الشرعية الدينية تدل دلالة واضحة على أنه سبحانه لا يحب الذنوب والمعاصى والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءها خلقًا وتقديرًا وإيجادًا، وأنه سبحانه وتعالى يرضى ويحب كل ما يتعلق بهذه الإرادة الدينية الشرعية ويثيب أصحابها، ويُدخلهم الجنة وينصرهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وينصر بها، أى: الإرادة الدينية الشرعية للعباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين[5].

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٤٧).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

(٣) القضاء القدر عند السلف (ص٦٥).

(٤) القضاء والقدر عند السلف (ص ٦٥).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ١٨٨)، نقلًا عن الإيمان بالقدر. د/ على الصلابى.

❁ ومن الآيات الدالة على الإرادة الشرعية:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾(٦).

❁ ❁ ❁

(١) سورة البقرة: الآية: (١٨٥).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٦).

(٣) سورة النساء: الآية: (٢٧).

(٤) سورة النساء: الآية: (٢٨).

(٥) سورة الأحزاب: الآية: (٣٣).

(٦) سورة الزمر: الآية: (٧).

الفرق بين الإرادتين

(١) **الإرادة الكونية:** لا يمكن أن تتخلف ... فلا بد أن تقع كما أرادها الله تعالى وقدرها ... كفقر الإنسان، أو رفع سلطان، أو إحياء أو إماتة فلا يمكن أن تتأخر.

الإرادة الشرعية: كالإيمان بالله وطاعته فلا يلزم وقوعها، فقد تقع بالفعل وقد لا تقع فهى باختيار العبد ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ولو أنها لا بد أن تقع لأصبح كل الناس مؤمنين مسلمين ولكن هذا لم يحدث.

(٢) **الإرادة الكونية:** قد يحبها الله تعالى ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها.

الإرادة الشرعية: يحبها الله تعالى ويرضاها.

(٣) **الإرادة الكونية:** يمكن أن تكون مقصودة لغيرها لا لذاتها وذلك مثل خلق الشر، وخلق إبليس والمعاصى، وذلك يكون سببًا لأمور كثيرة يحبها الله تعالى مثل التوبة والاستغفار ومجاهدة النفس.

الإرادة الشرعية: مقصودة لذاتها، فإن الله تعالى يريد طاعته ويحبها لذاته سبحانه ولذلك شرعها وأمر عباده بها فهى محل محبته ورضاه سبحانه.

(٤) **الإرادة الكونية:** تتعلق بربوبية الله تعالى فهى عامة شاملة لجميع الخلق، من رزق وإحياء وإماتة وهواء وماء وسماء تُظل جميع الخلق وأرض تنبت بالزرع للمسلم والكافر.

الإرادة الشرعية: تتعلق بألوهية الله تعالى وشرعه الحنيف؛ لأن التوحيد هو مراد الله تعالى ورضاه ولذلك أمر به وأرسل الرسل وأنزل الكتب من

أجل أن يُعبَد سبحانه وحده لا شريك له.

(٥) **الإرادة الكونية:** عامة من جهة تعلُّقها بما يكرهه الله ويبغضه، من الكفر والفسوق والعصيان وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق.

الإرادة الشرعية: عامة من جهة تعلقها بكل ما أمر الله تعالى به سواء وقع بالفعل أو لم يقع بالفعل، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به.

يتضح لنا مما سبق الفرق بين الإرادتين الكونية القدرية والشرعية الدينية، فمن تعرف إلى هذه الفروق سلمه الله تعالى من كثير من الشبهات والزلات والضلال عن سواء السبيل، فلا بد من ملاحظة كلًّا من القدر والشرع فى جميع الأعمال الصادرة من العباد لكى نهتدى إلى الحق [(١)].

۞ كلام حسن للإمام ابن القيم في الكوني والشرعي:

قال الإمام ابن القيم فى شفاء العليل: الباب التاسع والعشرون: فى انقسام القضاء، والحكم، والإرادة، والكتابة، والإذن، والجعل، والكلمات، والبعث، والإرسال، والتحريم، والإنشاء: إلى كونى متعلق بخلقه، وإلى دينى متعلق بأمره وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال، هذا الباب متصل بالباب الذى قبله [(٢)]، فما كان من كونى فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الدينى فهو متعلق بإلاهيته وشرعه، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله، والأمر شرعه

---

(١) هداية المقتدر (ص ١٣٤، ١٣٥).

(٢) من كتاب شفاء العليل - انظر: الجامع الصحيح فى القدر (ص١٢٩).

ودينه، فهو الذى خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدرًا وشرعًا، ولا خروج لأحد عن حكمه الكونى والقدرى.

أما حكمه الدينى الشرعى فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين، فقد يقضى ويُقدِّر ما لا يأمر به ولا شرعه، وقد يُشرِّع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم، وينتفى الأمران عما لم يقع من المعاصى والفسق والكفر، وينفرد القضاء الدينى والحكم الشرعى فى ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور، وينفرد الحكم الكونى فيما وقع من المعاصى إذا عرف ذلك.

۞ فالقضاء فى كتاب الله نوعان:

كونى قدرى: كقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾[١].

وكقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾[٢].

وشرعى دينى: كقوله:﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[٣]. أى: أمر وشرع ولو كان قضاء كونيًّا لما عبد غير الله.

۞ والحكم أيضًا نوعان:

فالكونى: كقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾[٤]. أى: افعل ما تنصر به عبادك، وتخذل به أعداءك.

والدينى: كقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾[٥].

---

(١) سورة سبأ: الآية: (١٤).

(٢) سورة الزمر: الآية: (٦٩).

(٣) سورة الإسراء: الآية: (٢٣).

(٤) سورة الأنبياء: الآية: (١١٢).

(٥) سورة الممتحنة: الآية: (١٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[١].

وقد يريد المعنيين معًا كقوله: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾[٢]، فهذا يتناول حكمه الكونى وحكمه الشرعى.

۞ والإرادة نوعان:

فالكونية: كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[٣].

وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾[٤].

وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾[٥].

والدينية: كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[٦].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾[٧].

فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العُسر لأحدٍ منَّا، ولو وقعت التوبة من جميع المكلفين[٨]، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه فى مسألة الأمر والإرادة، هل متلازمتان أم لا؟

والصواب أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعًا ودينًا، وقد يأمر بما لا يريده كونًا وقدرًا،

---

(١) سورة المائدة: الآية: (١).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٢٦).

(٣) سورة البروج: الآية: (١٦).

(٤) سورة الإسراء: الآية: (١٦).

(٥) سورة هود: الآية: (٣٤).

(٦) سورة البقرة: الآية: (١٨٥).

(٧) سورة النساء: الآية: (٢٧).

(٨) الجامع الصحيح فى القدر (ص ١٣١).

كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان مراد له دينًا لا كونًا، ... وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يُرده كونًا وقدرًا، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يُرد ذلك كونًا وقدرًا، وبين هذين الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق.

فإنه سبحانه لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال، وأن يوطن نفسه عليه، وكذلك أمره محمدًا ﷺ ليلة الإسراء بخمسين صلاة، وأما أمره من علم أنه لا يؤمن بالإيمان ... سبحانه يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يُعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم[1].

❁ وأما الكتابة:

فالكونية: كقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[4].

والشرعية الأمرية: كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[5].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ

---

(١) الجامع الصحيح فى القدر (ص ١٣١).

(٢) سورة المجادلة: الآية: (٢١).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (١٠٥).

(٤) سورة الحج: الآية: (٤).

(٥) سورة البقرة: الآية: (١٨٣).

وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾[1].

وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[2]، فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية كتابة بمعنى الأمر [3].

۞ والأمر الكونى: كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[5].

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾[8].

---

(١) سورة النساء: الآيتان: (٢٣، ٢٤).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٤٥).

(٣) الجامع الصحيح فى القدر/ الشيخ مقبل الوادعى (ص ١٣٢).

(٤) سورة يس: الآية: (٨٢).

(٥) سورة القمر: الآية: (٥٠).

(٦) سورة النساء: الآية: (٤٧).

(٧) سورة مريم: الآية: (٢١).

(٨) سورة الإسراء: الآية: (١٦).

فهذا أمر تقدير كونى، لا أمر دينى شرعى، فإن الله لا يأمر بالفحشاء.

والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه ... وقالت طائفة: بل هو أمر دينى، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا،... والقول الأول أرجح [١].

والأمر الدينى: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[٣]. وهو كثير [٤].

۞ وأما الإذن الكونى: كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[٥]، أى: بمشيئته وقدره.

وأما الدينى، كقوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[٦] أى: بأمره ورضاه.

وقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٍ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾[٧].

وقوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[٨].

۞ وأما الجعل الكونى: كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدًّا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدًّا﴾[٩].

---

(١) الجامع الصحيح في القدر، مقبل الوادعى (ص ١٣٢).
(٢) سورة النحل: الآية: (٩٠).
(٣) سورة النساء: الآية: (٥٨).
(٤) المصدر نفسه (ص ١٣٣) نقلًا عن شفاء العليل لابن القيم.
(٥) سورة البقرة: الآية: (١٠٢).
(٦) سورة الحشر: الآية: (٥).
(٧) سورة يونس: الآية: (٥٩).
(٨) سورة الشورى: الآية: (٢١).
(٩) سورة يس: الآيتان: (٨، ٩).

وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[(١)].

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾[(٢)] وهو كثير.

❁ وأما **الجعل الديني**: كقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾[(٣)] أى: ما شرع ذلك ولا أمر به، وإلا فهو مخلوق له، واقع بقدره ومشيئته، ... وأما قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾[(٤)].

فهذا يتناول الجعلين، فإنها جعلها كذلك بقدره وشرعه وليس هذا استعمالًا للمشترك فى معنييه، بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه فتأمله.[(٥)]

❁ وأما الكلمات الكونية: كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾[(٦)].

وقوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾[(٧)].

وقوله ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شر ما خلق**»[(٨)]. فهذه كلماته الكونية التى يخلق بها ويكون، ولو كانت الكلمات الدينية التى يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

---

(١) سورة يونس: الآية: (١٠٠).

(٢) سورة النحل: الآية: (٧٢).

(٣) سورة المائدة: الآية: (١٠٣).

(٤) سورة المائدة: الآية: (٩٧).

(٥) الجامع الصحيح فى القدر (ص ١٣٤).

(٦) سورة يونس: الآية: (٣٣).

(٧) سورة الأعراف: الآية: (١٣٧).

(٨) الجامع الصحيح فى القدر (ص ١٣٤).

وأما الديني: كقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾(١) والمراد به القرآن ... وقوله ﷺ في النساء: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله»(٢)، أي: إباحته ودينه، وقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾(٣).

وقد اجتمع النوعان في قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾(٤). فكتبه كلماته التي يأمر بها، وينهى ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكون.

۞ وأما البعث الكوني: كقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾(٥).

وقوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٦).

۞ وأما البعث الديني: كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾(٧).

وقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾(٨).

۞ وأما الإرسال الكوني: كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(٩).

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٦).

(٢) الجامع الصحيح في القدر (ص ١٣٤).

(٣) سورة النساء: الآية: (٣).

(٤) سورة التحريم: الآية: (١٢).

(٥) سورة الإسراء: الآية: (٥).

(٦) سورة المائدة: الآية: (٣١).

(٧) سورة الجمعة: الآية: (٢).

(٨) سورة البقرة: الآية: (٢١٣).

(٩) سورة مريم: الآية: (٨٣).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾(١).

۞ وأما الإرسال الديني: كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾(٢).

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾(٣).

۞ أما التحريم الكوني، كقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾(٤).

وقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ﴾(٥).

وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(٦).

۞ وأما التحريم الديني: كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾(٧) و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾(٨)، و﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾(٩)، و﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾(١٠).

۞ وأما الإيتاء الكوني:

كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾(١١).

---

(١) سورة الفرقان: الآية: (٤٨).

(٢) سورة التوبة: الآية: (٣٣).

(٣) سورة المزمل: الآية: (١٥).

(٤) سورة القصص: الآية: (١٢).

(٥) سورة المائدة: الآية: (٢٦).

(٦) سورة الأنبياء: الآية: (٩٥).

(٧) سورة النساء: الآية: (٢٣).

(٨) سورة المائدة: الآية: (٣).

(٩) سورة المائدة: الآية: (٩٦).

(١٠) سورة البقرة: الآية: (٢٧٥).

(١١) سورة البقرة: الآية: (٢٤٧).

وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾[(٢)]. فهذا يتناول النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمرًا ودينًا وتوفيقًا وإلهامًا [(٣)].

وأنبياؤه ورسله وأتباعهم حظهم من هذه الأمور الدينى منها وأعداؤه واقفون مع القدر الكونى، فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر ودين الرسل، واتباعهم دين الأمر فهم يدينون بأمره، ويؤمنون بقدره، وخصماء الله يعصون أمره، ويحتجون بقدره، ويقولون: نحن واقفون مع مراد الله، ... نعم مع مراده الكونى لا الدينى، ولا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكونى، ولا يكون ذلكم عذرًا لكم عنده إذ لو عذر بذلك لم يذم أحدًا من خلقه ولم يعاقبه، ولم يكن فى خلقه عاصٍ ولا كافر [(٤)].

(١) سورة آل عمران: الآية: (٢٦).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٦٩).

(٣) الجامع الصحيح فى القدر (ص ١٣٧).

(٤) الجامع الصحيح فى القدر (ص١٣٧)، نقلًا عن (الإيمان بالقدر) د. على الصلابى.




المخلوقات تنقسم إلى أربعة مع كُلّ من الإرادتين

(أ) ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع فى الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فأمر وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

(ب) ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

(ج) ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها كالمباحات والمعاصى فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وُجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(د) ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصى[1].

والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديرًا ما أراد به تشريعًا.

والعبد الشقى من أراد به تقديرًا ما لم يرد به تشريعًا، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أن أحكام الله فى خلقه تجرى على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيرًا، ومن

---

(١) مجموع الفتاوى ابن تيمية (٨/ ١٨٩)، القضاء والقدر / د. عمر الأشقر (ص ١٠٨).

نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعورًا.

مثل قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[2][3].

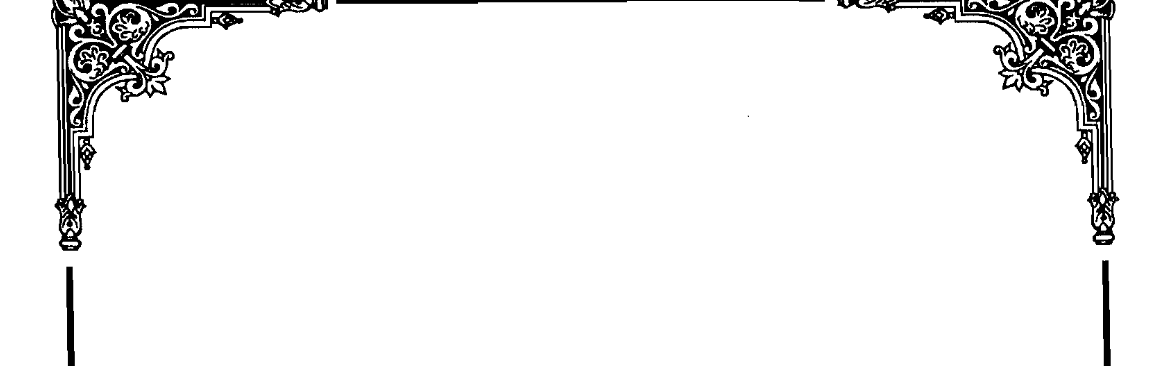
---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٤٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٤٨).

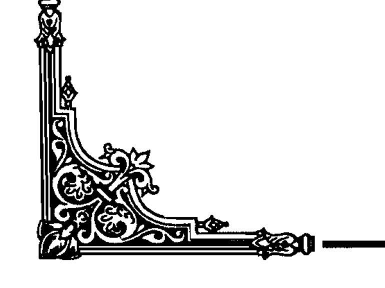
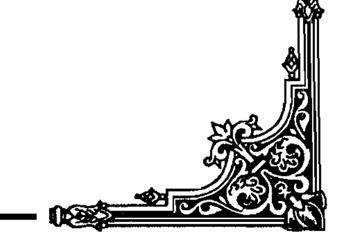
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ١٩٨)، القضاء والقدر للأشقر (ص ١٠٨).





الهداية والضلال

(أسباب الهداية وأسباب الضلال)





الهداية والضلال

۞ إن مسألة هداية الله تعالى للعبد وإضلاله له هى قلب أبواب القدر ومسائله؛ لأن أعظم نعمة هى الهداية، وأعظم مصيبة هى مصيبة الضلال.

أولاً: أقسام الهداية:

(١) الهداية العامة:

وهى هداية كل مخلوق لما يصلح أمور معاشه، وهى أعـمُّ المراتب، وهى شاملة لجميع المخلوقات ... ودليلها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١).

وهذه الهداية تَعُمّ جميع المخلوقات، وتَعُمّ سائر أمور المعاش من نكاح، وطعام وشراب، وجميع السلوك التى يهدى الله تعالى مخلوقاته لعملها من غير تعليم سابق كهداية النمل إلى تنظيم طرق المعاش وخزن الطعام وغير ذلك مما يحار العقل البشرى فيه فسبحان مَن خلق فسوَّى ثم قدَّر فهدى (٢).

۞ وقال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ① ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(٣).

فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق والتسوية والتقدير والهداية وجعل التسوية من تمام الخلق والهداية من تمام التقدير... قال عطاء: خلق فسوى

---

(١) سورة طه: الآية: (٥٠).

(٢) شفاء العليل (ص ١١٧) لابن القيم.

(٣) سورة الأعلى: الآيات: (١-٣).

أحسن ما خلقه ... وشاهِده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (١).

فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسُب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال ... فالخلق الإيجاد والتسوية إتقانه وإحسان خلقه (٢).

۞ فهذه تُسمَّى الهداية العامة لجميع خلق الله تعالى، سواء الإنسان أو الحيوان، أو النبات، وذلك فى حياته ومعاشه، وأمثلة ذلك كثيرة، فمن ذلك حياة الإنسان كيف يكون الاهتمام به منذ الحمل ثم الولادة ثم الرضاع وكيف تصنع أمه به من نظافة ورعاية حتى إذا اعتمد على نفسه يذهب إلى المدارس ثم الجامعة وهكذا تكون نشأة الإنسان، ثم انظر إلى حياة النحل والنمل كم فيها من آيات وحِكَم لله تعالى، وكيف أن هذه الحشرات الصغيرة عبارة عن أمم لها نظام وحياة وهكذا.. (٣).

(٢) هداية الإرشاد والدعوة والبيان للمكلفين:

وهى أخص من التى قبلها حيث إنها مُختصة بالمكلَّفين من الخلق، والمراد بها دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وهى حجة الله على خلقه، فلا يعذب أحدًا إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

- قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾(٤).

---

(١) سورة السجدة: الآية: (٧).

(٢) شفاء العليل (ص ١٦١، ١٦٢) لابن القيم.

(٣) هداية المقتدر (ص ١٦٥، ١٦٦).

(٤) سورة النساء: الآية: (١٦٥).

- وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[١].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٢].

وهذه الهداية هى التى أثبتها الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

ونفى عنه تلك الهداية الموجبة وهى هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٤].

وهى ثابتة من بعده للعلماء، والدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة[٥]، وهى مرتبة عامة يشترك فيها الناس جميعًا، ولكنها لا يلزم عنها هداية التوفيق واتباع الحق، فكثير من الذين أُرسل إليهم الرسل وأُنزلت عليهم الكتب، لم يؤمنوا وآثروا طرق الغواية ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٦] أى جحدوا بالآيات بعد تيقنهم من صحتها ... وهذا النوع من الهداية عام للمؤمن والكافر[٧].

وهذه الهداية هى حجة الله تعالى على خلقه أجمعين بحيث لا يعذب أحدًا على شىء إلا بعد إقامة هذه الحجة عليه كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٨].

(١) سورة البلد: الآية: (١٠).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (١٥).

(٣) سورة الشورى: الآية: (٥٢).

(٤) سورة القصص: الآية: (٥٦).

(٥) أصول الاعتقاد فى سورة يونس / قذلة بنت محمد القحطانى (ص ٥٠٨).

(٦) سورة النمل: الآية: (١٤).

(٧) العقيدة الإسلامية / د. أحمد جلى (ص ٣٨٢).

(٨) سورة الإسراء: الآية: (١٥).

۞ وحجة الله قائمة بهذه الهداية بعدة أمور وهي:

في الآيات السمعية وهي متمثلة فيما يلي:

- إرسال الرسل.

- إنزال الكتب، بما فيها من الحق والبيان.

- البيان بالآيات الكونية والنظر في الآفاق، ... قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

- بيان الصراط المستقيم، وإقامة أسباب الهداية، باطنًا وظاهرًا، ومن لم تكتمل عنده هذه الأسباب لصغر أو لزوال عقل أو نحو ذلك فهؤلاء رفع عنهم التكليف، ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما في وسعهم ... ودليل هذه المرتبة من سورة يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2]، فاشتملت هذه الآية الكريمة على هداية البيان والإرشاد في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[3].

- وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[4] نفيٌّ لهداية التوفيق عنهم لظلمهم، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة يونس: الآية: (١٠١).

(٢) سورة يونس: الآية: (٢٥).

(٣) سورة يونس: الآية: (١٣).

(٤) سورة يونس: الآية: (٧٤).

(٥) سورة فصلت: الآية: (١٧).

فهداهم فى الهداية الأولى هداية البيان والإرشاد فأعرضوا عنها ولم يقبلوها فعاقبهم الله تعالى بالضلال جزاء إعراضهم وردِّهم الحق [١].

(٣) هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل:

۞ وهذه الهداية لا يقدر عليها إلا الله عَزَّوَجَلَّ .. فمن شاء الله هدايته اهتدى، ومن شاء الله ضلاله ضلَّ وغوى.

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه المرتبة أخص من التى قبلها وهى التى ضَلَّ جُهال القدرية بإنكارها وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحى الأرض عصرًا بعد عصر إلى وقتنا هذا.

۞ وهذه المرتبة تستلزم أمرين:

أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى ...والثانى: فعل العبد وهو الاهتداء وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادى والعبد المهتدى.

قال تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ [٢].

ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد ولهذا قال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [٣] وهذا صريح فى أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه ولا إلى أحد غير الله وأن الله سبحانه إذا أضل عبدًا لم يكن لأحدٍ سبيل إلى هدايته كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [٤].

---

(١) أصول الاعتقاد فى سورة يونس، (ص٥١٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٧٨).

(٣) سورة النحل: الآية: (٣٧).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (١٨٦).

وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾(٤).

وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾(٥).

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾(٦).

وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾(٧).

وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ﴾(٨).

ولم يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم بل الهدى كله منه ولولا هدايته لهم لما اهتدوا... وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (٣٩).

(٢) سورة فاطر: الآية: (٨).

(٣) سورة الجاثية: الآية: (٢٣).

(٤) سورة البقرة: الآية: (٢٧٢).

(٥) سورة السجدة: الآية: (١٣).

(٦) سورة الرعد: الآية: (٣١).

(٧) سورة الأنعام: الآية: (١٢٥).

(٨) سورة الأعراف: الآية: (٤٣).

بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾[1].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾[2].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾[5].

وقال: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[6].

وقال: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[7].

---

(١) سورة الزمر: الآيتان: (٣٦، ٣٧).

(٢) سورة إبراهيم: الآية: (٤).

(٣) سورة النحل: الآية: (٣٦).

(٤) سورة إبراهيم: الآية: (٢٧).

(٥) سورة المدثر: الآية: (٣١).

(٦) سورة البقرة: الآية: (٢٦).

(٧) سورة المائدة: الآية: (١٦).

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة فى الصلوات الخمس وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه كما أن الضلال نوعان: ضلال عن الصراط فلا يهتدى إليه وضلال فيه فالأول ضلال عن معرفته والثانى ضلال عن تفاصيله أو بعضها[١].

والواقع أن استقراء النصوص القرآنية يكشف أن هذه الهداية وما يقابلها من الإضلال ليستا فى الإنسان ابتداء خلقه، بل هما نتائج لمقدمات، ومسببات لأسباب، فكما جعل الله تعالى الطعام سببًا فى الغذاء والماء سببًا للرى، والسكين ينتج عنه القطع والنار تسبب الحريق، فكذلك جعل أسبابًا توصل إلى الهداية وأسبابًا تقود إلى الضلال، فالهداية إنما هى ثمار العمل الصالح، والضلال إنما هو نتاج عمل قبيح وإسناد الهداية لله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال والهداية... وهذا المعنى واضح جدًا فى الآيات القرآنية مثل:

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾[٤].

فهداية الله للناس بمعنى لطفه بهم وتوفيقهم للعمل الصالح إنّما هى ثمرة جهاد للنفس، وإنابة إلى الله واستمساك بإرشاده ووحيه[٥].

(١) شفاء العليل (ص ١٩٢-١٩٤).
(٢) سورة الرعد: الآية: (٢٧).
(٣) سورة العنكبوت: الآية: (٦٩).
(٤) سورة محمد: الآية: (١٧).
(٥) العقيدة الإسلامية / د. أحمد جلى (ص ٣٨٣).

وفى الإضلال يقول تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٦).

فسبب الضلال هو الزيغ، والخروج عن تعاليم الله والكبر والجبروت والتعالى على الناس بغير حجة، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يُوصل ووصل ما أمر الله به أن يُقطَع، والإفساد فى الأرض، والكفر واقتراف الآثام، فهذه من الأسباب التى أضلت الناس وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهدى، واستحبوا الظلام على النور، فكان أن كافأهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم، بمقتضى نظامه سبحانه فى ارتباط الأسباب بمسبباتها ... وهذا ونحوه كثير فى كتاب الله ومن ذلك:

(١) سورة البقرة: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٢) سورة إبراهيم: الآية: (٢٧).

(٣) سورة غافر: الآية: (٣٥).

(٤) سورة الصف: الآية: (٥).

(٥) سورة المطففين: الآية: (١٤).

(٦) سورة النساء: الآية: (١٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1][2].

(٤) الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة:

وهذه الهداية تكون يوم القيامة بعد الحساب والجزاء، وذلك بأن يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم فى الجنة فيعرفونها .. ويهدى أهل النار إلى مكانهم فى النار.

قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[5] فهذه هداية بعد قتلهم. فقيل: المعنى سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح بالهم فى الآخرة بإرداء خصومهم وقبول أعمالهم.

وقال ابن عباس: سيهديهم إلى أرشد الأمور ويعصمهم أيام حياتهم فى الدنيا.

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٧٩).

(٢) العقيدة الإسلامية / د. أحمد جلى (ص ٣٨٤) - نقلًا عن (الإيمان بالقدر) للصلابى.

(٣) سورة الصافات: الآية: (٢٢، ٢٣).

(٤) سورة يونس: الآية: (٩).

(٥) سورة محمد: الآيتان: (٤، ٥).

أسباب الهداية[١]

۞ وهناك أسباب كثيرة للهداية سأذكر بعضها على سبيل الإيجاز .. لأن التفصيل فى أسباب الهداية قد يحتاج إلى مصنفٍ آخر ... فمن بين أسباب الهداية:

(١) الاعتصام بالله:

۞ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

فقد بيَّن سبحانه وتعالى أن الاعتصام بالله من التمسك بدينه والتوكل هو العمدة فى الهداية إلى الصراط المستقيم والعمدة فى مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد.

۞ قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

ومن بين الأسباب التى رتَّب الله سبحانه وتعالى عليها الهداية لعباده، حسب سُنته تعالى فى الهداية والإضلال: الاعتصام بالله وهو الامتناع بالله والالتجاء والفزع إليه والتوكل عليه فى دفع شرور الكفار التى تؤدى بالمؤمنين إلى الضلال الذى يريده الكفار من المؤمنين عامّة فى قوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾[٣] واليهود خاصة كما ورد فى قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

---

(١) بتصرف من كتاب (الإيمان بالقدر) - د. على الصلابى (حفظه الله).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٠١).

(٣) سورة النساء: الآية: (٨٩).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (٩٩).

(٢) المحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صالحة:

الفطرة الإنسانية مفطورة على الإقرار بالله وإفراده بالربوبية والألوهية، فالنفس بفطرتها إذا تُركت كانت مُقرة لله بالألوهية مُحبة له، متعبدة، لا تشرك به شيئًا [١].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكون أنتم تجدعونها**»، «ثم يقول أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [٤][٥].

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين**

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٢٠٥).

(٢) سورة الروم: الآيتان: (٣٠، ٣١).

(٣) سورة الأعراف: الآيات: (١٧٢-١٧٤).

(٤) سورة الروم: الآية: (٣٠).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٩٩) كتاب القدر، ومسلم (٢٦٥٨) كتاب القدر.

فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أُنزل به سلطانًا»[١].

وهذا صريح فى أنه سبحانه خلقهم على الحنيفية وأن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك [٢].

فلا شك أن الإيمان والاهتداء هو الأصل، وأن الكفر والضلال هو الطارئ الذى يطرأ على النفس لسبب من أسباب الضلال.

وقد أشارت الآيات والأحاديث التى أوردتها إلى بعض هذه الأسباب، فأشارت الآية الأولى أن الذى يصرف الفطرة عن الإيمان هو عدم العلم، فأشارت الآية الثانية إلى الغفلة والتقليد، وأنهما يصرفان الفطرة عن الإيمان بالله ورسوله بعدما أقام عليه الحجة بالفطرة والرسالة:

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[٣].

وأشار الحديث الأول إلى أثر التربية والعادة، وأن من لا يستخدم عقله ويهتدى بالدين الحق الذى يرشده إليه العقل والعلم، بل يطيع والديه، وإن أمراه بالضلال [٤].

وأشار الحديث الثانى إلى أثر الشياطين فى تزيين الباطل فى نفوس الناس وإضلالهم بذلك [٥].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) شفاء العليل (ص ٥٩٥).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان: (١٧٢، ١٧٣).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٧٣).

(٥) السنن الإلهية فى الحياة الإنسانية (١/ ٢١١).

(٣) العلم:

۞ فالعلم من أعظم أسباب الهداية.

وحسبُنا أن نعلم أن أول آية نزلت من القرآن الكريم هى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[١].

- وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٢].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

- وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤] فأمر بالعمل بعد العلم[٥].

۞ وما أمر الله نبيه ﷺ أن يطلب المزيد من شىء إلا العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٦].

قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا أن العلماء هم الذين ينتفعون بالآيات المبثوثة فى الكون، وهم الذين يستشعرون عظمة الله وقدرته، فيخشونه فيهديهم الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

---

(١) سورة العلق: الآية: (١).

(٢) سورة المجادلة: الآية: (١١).

(٣) سورة الزمر: الآية: (٩).

(٤) سورة محمد: الآية: (١٩).

(٥) السنن الإلهية فى الحياة الإجتماعية (١/ ٢٢٧).

(٦) سورة طه: الآية: (١١٤).

ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[١].

فالذين يستفيدون من اختلاف ألوان الثمار والجبال والناس هم العلماء، وهم الذين يخشونه حق خشيته، لأنهم العارفون به وبصفاته جَلَّ جلاله، وكلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت هدايتهم كذلك أتم وأكمل[٢].

والعلماء هم أكثر استفادة وإدراكًا واتعاظًا واعتبارًا، بالأمثال التى يضربها الله عَزَّوَجَلَّ فى كتابه العزيز، ولأن امتلاكهم الأداة التى يعرفون بها عظمة وصدق هذه الأمثال،... قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[٣] الذين يعقلون عن الله عَزَّوَجَلَّ وأما مُغلَقى القلوب فيتخذونها مادة للسخرية والتهكُّم[٤].

وقد جاء القرآن الكريم يكشف لنا بوضوح عن تلك العلاقة الوثيقة بين العلم والهداية فى آياتٍ كثيرة، وذلك بحديثه عن العلماء واستعدادهم بما لهم من علم لخشية الله وحسن النظر فى آياته والاعتبار بها وإدراك ما فصله الله منزلًا على رسوله وشهود وحدانيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كما أن العلماء هم أكثر تأثُّرًا بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأسرع استجابة له وأعظم خشوعًا وإخباتًا لعظمته، وجلاله، وأعظم إدراكًا لمُحكَمِه ومتشابهه مما

---

(١) سورة فاطر: الآيتان: (٢٧، ٢٨).

(٢) السنن الإلهية فى الحياة الإجتماعية (١/ ٣٢٨).

(٣) سورة العنكبوت: الآية: (٤٣).

(٤) السنن الإلهية فى الحياة الإجتماعية (١/ ٣٢٩)، زاد المسير لابن الجوزى (٦/ ٢٧٣).

يجعلهم أكثر تسليمًا وإذعانًا لما يتضمنه من عقائد وأحكام.

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[١].

والعلماء هم الأبعد عن إلقاءات الشيطان ونزغاته، ووسوسته وذلك لعلمهم بمداخِله وأحابيله، فلا تزيدهم وسوسته إلا إيمانًا ويقينًا وتسليمًا بخلاف الجهلة الذين ينقادون لوسوسته وهم يَحسبون أنهم يُحسنون.

قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[٣].

ولا تدل هذه الآية الكريمة على مجرد تشريف الله سبحانه لأهل العلم حيث جمع شهادته بالتوحيد إلى شهادة ملائكته وشهادتهم بذلك، ولكنها تدل كذلك على أن علمهم هو الذى يؤهلهم إلى شهود وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وإنفراده بالملك والتدبير، فالعلم من أول أسباب الهداية إلى معرفة طريق الله، والاستزادة منه سبيل إلى المزيد من هداه[٤].

---

(١) سورة الإسراء: الآيات: (١٠٧-١٠٩).

(٢) سورة الحج: الآيتان: (٥٣، ٥٤).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٨).

(٤) السنن الإلهية فى الحياة الإنسانية (١/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٤) **الدعاء:**

إن من أسباب الهداية حسب سُنته سبحانه وتعالى أن يسأل العبد ربه ذلك لأن ما يستطيعه العبد هو فعل الأسباب، وأما ما تحقق النتيجة وهى الهداية إلى الصراط المستقيم، والإعانة والإلهام والتوفيق والتثبيت على الحق، فهى من شأن الله وفعله، لا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه وتعالى ،... فالعبد إذا فعل الأسباب التى يقدر عليها سأل الله ما لا يقدر عليه وهو الهداية، كمن يتعاطى العلاج للشفاء من المرض، ثم يسألَ الله عز وجل الشفاء لأنه هو الشافى والدواء إنما هو مجرد سبب والأسباب لا تؤدى إلى نتائجها إلا بمشيئة الله ووفق قدر خاص لكل شيء منه سبحانه[1].

إن سؤال العبد لله سبحانه وتعالى بالهداية هو من الدعاء الذى وعد عليه بالاستجابة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3].

ولما كان سؤال الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم من أجلِّ المطالب، ونيله أشرف المواهب، فقد علَّم سبحانه وتعالى عباده فى سورة الفاتحة كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم، وتوحيدهم، هاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسُّل إليه بأسمائه وصفاته وتوسُّل إليه بعبوديتهم، وهاتان الوسيلتان لا يُرد معهما الدعاء[4].

---

(١) السنن الإلهية (١/ ٢٤١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٨٦).

(٣) سورة غافر: الآية: (٦٠).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٣). للإمام ابن القيم رحمه الله.

وهذا الدعاء يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهى بيده إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها،... والهداية هى معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عالمًا بالحق عاملًا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه وتعالى المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التى لا يتخلف عنها وهو جعل العبد مريدًا للهدى، مُحبًّا له، مُؤْثِرًا له، عاملًا به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا إلى نبى مُرسَل[1].

(٥) الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[4].

إن فى كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وفى كل كائن من الكائنات لآية باعثة على الهدى وإن فى ذلك التنسيق البديع والتوافق بين سائر الكائنات لتوائم حياة الإنسان وسعادته فوق الأرض لآيات وآيات كثيرة تبعث على الاهتداء إلى الحق وإن فى القرآن الكريم وما حوى من دلائل وبينات وما جاء فيه من موعظة وآيات تُحيى القلب وتشفى الصدور وتهدى إلى الحق

---

(١) شفاء العليل (ص١١٦).

(٢) سورة التغابن: الآية: (١١).

(٣) سورة يونس: الآية: (٩).

(٤) سورة إبراهيم: الآية: (٢٧).

والصراط المستقيم ولكن هذه الآيات وتلك لا تتضح ولا ينتفع بها إلا القلب المؤمن ... فالكفر حجاب وحاجز كثيف يمنع من دخول نور القرآن فى القلب ويمنع كذلك من الانتفاع بالآية الهادية فى هذا الكون فإذا زال هذا الحجاب وانكشف ذلك الحاجز انتفع الإنسان بتلك الآيات الكونية، وانفتحت أمامه أيضًا كنوز القرآن من الهدى والمعرفة وقد جاءت آيات كثيرة تبين أن المؤمن هو الذى ينتفع ويستفيد من الذكرى ومن هدى القرآن، ومن الآيات الباعثة على الهدى فى هذا الكون.

قال تعالى: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾[2].

وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[4].

وقد أشارت هذه الآيات وغيرها من الآيات فى هذا المعنى إلى معنيين رئيسيين هما:

الأول: وهو أن القرآن الكريم فيه بيان وإرشاد لطرق الهداية، وإنه زاجر

---

(١) سورة النمل: الآيتان: (١، ٢).

(٢) سورة يونس: الآية: (٥٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٢٠٣).

(٤) سورة النحل: الآية: (١٠٢).

بما فيه من الترغيب والترهيب، وارتكاب المعاصى، وإنه شافٍ لما فى الصدور من الأمراض المُفضية إلى الهلاك والشك والشرك والنفاق والضلال وأنه هدى من الضلالة إلى الرشد والحق، وأنه يزيد المهتدى هدى، وأنه تثبيتٌ أيضًا للمهتدين على الهدى، وهو أنه رحمة للناس بكل ما حوى من أوامر ونواهٍ واعتقادات وعبادات وأنه نجاة لمن آمن به من عذاب الله وسبب فى فوزه ودخوله الجنة[١].

الثانى: أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بهدى القرآن ويستفيدون مما حوى فيهتدون بهديه ويسيرون وفق هداه، فيهتدون إلى صراطٍ مستقيم دون غيرهم من الجاحدين والكافرين به الذى هو عليهم عمى وضلالة وندم وخزى، وفى الآخرة جزاؤهم على الكفر به الخلود فى لظى[٢]، وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى فى آيات منها:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

---

(١) تفسير الطبرى (٩/ ١٦٢)، تفسير الألوسى (١١/ ١٣٩)، زاد المسير (٣/ ٣١٢)، تفسير القرطبى (٥/ ٣٧٩٣).

(٢) تفسير الطبرى (١١/ ١٢٤)، أضواء البيان (١/ ١٠٧).

(٣) سورة فصلت: الآية: (٤٤).

(٤) سورة الإسراء: الآية: (٨٢).

مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[(١)].

هذا بخصوص هداية القرآن وأن المؤمنين هم المنتفعون بهديه، وما حوى من آيات، وأما عن الآيات الكونية وأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بها ويهتدون بما ترشد إليه من التوحيد، ومن إضافة صفات الكمال لله سبحانه وتعالى، فقد جاء في مثل قوله سبحانه:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)].

إن مشهد الطير وهي تحلق في جو السماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ مشهد عجيب بديع ذهب ما به من عجب: الإلفة والتكرار، ولكن قلب المؤمن هو الذي يشعر بإبداع الخلق والتكوين، ويدرك ما فيه من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر، ويدرك قدرة الله وإبداعه وحكمته فيما أودع فطرة الطير من سُنن تُمكنها من الطيران، وما أودع الكون من حولها من سُنن مناسبة لهذا الطيران[(٣)].

ومثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٤)].

ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجدانًا دينيًا يجنح إلى الاتصال بالله الذي يقلب الليل والنهار،

---

(١) سورة التوبة: الآيتان: (١٢٤، ١٢٥).

(٢) سورة النحل: الآية: (٧٩).

(٣) في ظلال القران (٤/ ٢١٨٦).

(٤) سورة النمل: الآية: (٨٦).

وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان [(١)].

وقال تَعَالَى مُبينًا إنتفاع المؤمنين بما فى السماوات والأرض من آيات، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [(٢)].

(٦) الإنابة:

فمن أسباب الهداية التى جعلها الله سببًا فى زيادة الهدى لأصحابها، إنابة العبد إلى الله،... إنابة عبودية ومحبة وهى تتضمن أربعة أمور: محبته والخضوع له، والاقبال عليه والإعراض عما سواه [(٣)].

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [(٥)].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [(٦)].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا

---

(١) فى ظلال القرآن (٥/ ٢٦٦٨).

(٢) سورة الجاثية: الآية: (٣).

(٣) السنن الإلهية (١/ ٢٥٨).

(٤) سورة الرعد: الآية: (٢٧).

(٥) سورة الزمر: الآيتان: (١٧، ١٨).

(٦) سورة الشورى: الآية: (١٣).

يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[(٢)].

وفى قوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[(٣)] دلالة على الإنابة سبب فى الاعتبار لكل من تحققت فيه هذه الصفة، وأن هذه الصفة لتؤهلهم لثواب الله فى الدنيا والآخرة فكما يثيب الله عَزَّوَجَلَّ عباده المنيبين إليه بالجنة فى الآخرة فإنه سبحانه يثيبهم أيضًا بالهداية فى الدنيا حسب سنته فى الهداية والإضلال فيهديهم ويوفقهم إلى الرشاد وإصابة الحق، ويخلصهم لعبادته، والعمل بطاعته واجتناب ما حرمه ويوفقهم إلى تصديق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وإتباعه فيما جاء به[(٤)] وفى تقرير ذلك.

وأما جزاء المنيبين فى الآخرة فقد قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[(٥)].

ولذلك فقد أمر الله سبحانه عباده بالإنابة كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

---

(١) سورة غافر: الآية: (١٣).

(٢) سورة ق: الآيات: (٦-٨).

(٣) سورة ق: الآية: (٨).

(٤) السنن الإلهية فى الحياة الإجتماعية (١/ ٢٦١).

(٥) سورة ق: الآيات: (٣١-٣٣).

﴿ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[(١)].

(٧) الاهتداء:

من أسباب الهداية المؤدية بالعبد إلى مزيد الهدى والتثبيت على الصراط المستقيم: اهتداؤه إلى الإيمان، والإتيان بأسبابه، فإذا فعل العبد ذلك، هداه الله بأن خلق فيه المشيئة المستلزمة للفعل، وألهمه ووفقه للطاعات وزاده هدى وتوفيقًا، وأعانه وهو ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، كما يزيد الذين ظلموا زيادة ضلال[(٢)].

وقد جاءت بعض آيات القرآن الكريم مقررة لهذه الحقيقة زيادة الهدى لمن اهتدى وفق سنته سبحانه وتعالى فى هداية من سلك سبيل الهدى وقَصَده[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[(٤)].

إن ترتيب الوقائع فى الآية يستوقف النظر، والذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، والتقوى حالة فى القلب تجعله أبدًا واجفًا من هيبة الله، شاعرًا برقابته، خائفًا من غضبه، متطلعًا إلى رضاه، متحرجًا من أن يراه على هيئة أو فى حالة لا يرضاها،... هذه الحساسية المرهفة هى التقوى، وهى مكافأة يؤتيها من يشاء من عباده حين يهتدون هم، ويرغبون فى الوصول إلى رضى الله[(٥)].

---

(١) سورة الزمر: الآيتان: (٥٣، ٥٤).

(٢) شفاء العليل للإمام ابن القيم (ص٧٤).

(٣) السنن الإلهية فى الحياة الاجتماعية (١/ ٢٣٩).

(٤) سورة محمد: الآية: (١٧).

(٥) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٢٩٤).

وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[١].

وإن إيراد هداية الله مرة بصيغة الماضى، ومرة بصيغة المضارع، يفيد أن هداية الله لعباده بسبب اهتدائهم أمرٌ مُحقَّق، وسُنة جارية ماضية فى الذين من قبل، وهى مستمرة ودائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(٨) الاتباع والطاعة:

ومن أسباب الهدى حسب سنته سبحانه وتعالى فى الهداية والضلال: الاتباع، وهو السير وفق الشرع ومقتضاه، وإطراح كل شىء يخالف هدى الله سبحانه وتعالى.

وطاعة الله فى طاعة رسول الله ﷺ، فهو المُبلِّغ عن الله سبحانه وتعالى، وبهذا فإن الاتباع يشمل الالتزام بما ورد فى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، من عقائد وأحكام وأوامر ونواهٍ وآداب وأخلاق، وكل ما يرشد إليه كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ،... فالاتباع ليس مجرد شعار يُرفَع، وإنما هو تحقيق معناه فى قلب المسلم وجوارحه وأفكاره[٢].

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ

---

(١) سورة مريم: الآية: (٧٦).

(٢) السنن الإلهية فى الحياة الإجتماعية (١/ ٣٢٤٨).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٨).

مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١].

بيَّن سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة أن من اتبع كتاب الله وهو ما رضيه لعباده، فإن الله عز وجل يكافئه على ذلك بثلاثة أمور:

أولها: فهو يهدى من اتبعه سبل السلام ... الطرق التى يَسلم بها فى الدنيا والآخرة من كل ما يُرديه ويُشقيه[٢]، فاتباع هذا القرآن يسكب السلام فى الحياة كلها،... سلام الفرد سلام الجماعة، سلام العالم، سلام الضمير، سلام العقل، سلام الجوارح، سلام البيت، سلام الأسرة، سلام المجتمع، سلام البشر والإنسانية ..السلام مع الحياة ومع الكون، والسلام مع الله رب الكون والحياة والسلام الذى تجده البشرية ولم تجده إلا فى هذا الدين وإلا فى منهجه ونظامه وشريعته ومجتمعه الذى يقوم على عقيدته وشريعته ... حقًّا إن الله يهدى بهذا الدين الذى رضيه طُرق السلام كلها [٣].

الثاني: أنه يُخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، أى يُخرجهم من الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وهدايته لهم [٤]، لأن الجاهلية كلها ظلمات، ظلمة شبهات وخرافات، وحيرة وقلق وانقطاع عن الهدى، ووحشة واضطراب قيم.

الثالث: الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين فى أقرب وقت، لأنه طريق لا عوج فيه ولا انحراف، فيبطئ

(١) سورة المائدة: الآيتان: (١٥، ١٦).

(٢) تفسير المنار / محمد رشيد رضا (٦/ ٣٥٠).

(٣) فى ظلال القرآن (٢/ ٨٦٣).

(٤) السنن الإلهية فى الحياة الإجتماعية (١/ ٢٥٠).

سالكه أو يضل فى سيره، ... وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ اتباع رسوله فيما جاء به سواء كان مُبينًا لمجمل القرآن، أو مقيدًا لمطلقه، أو مخصصًا لعامه أو مُنشئًا لأحكامٍ جديدة لم تَرِد فى القرآن جعل ذلك سببًا من أسباب الهداية [1].

وأخبر النبى ﷺ أن التمسك بسنته عصمة من الزيغ والضلال والفتن، فقال: «**فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور، فإن كل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[2].

(٩) الخشية:

ومن أسباب الهداية حسب سُنته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خشية الله عَزَّوَجَلَّ والخوف منه، فإن خشيته عَزَّوَجَلَّ تجعل صاحبها أكثر من غيره استعدادًا للتذكُّر إذا وُعظ وذُكِّر، وللاعتبار بما يرى من آيات الله فى الكون والحياة وما تجرى به سنته فى أحداث التاريخ، وللانتفاع بالإنذار بعذاب الله فى الدنيا والآخرة، والاهتداء إلى الحق إذا هُدى إليه ... وآيات القرآن الكريم توضح هذه الحقائق أكمل توضيح، حتى أنها لتصور لنا ما يعترى الخائفين من الله إذا سمع آيات الهدى تُتلى عليهم:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[3].

وقال تعالى بعد أن ساق قصة فرعون وما آل إليه أمره من النكال

---

(١) السنن الإلهية فى الحياة الإجتماعية (١/ ٢٥٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٣) سورة الزمر: الآية: (٢٣).

والهلاك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[(١)] فالذى يعرف ربه ويخشاه هو الذى يدرك ما فى حادث فرعون من العبرة لسواه ... أما الذى لا يخشى ربه فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب[(٢)].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ عن تأثير خشيته فى قبول التذكرة: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[(٥)].

فالذى يخشى يتذكر حين يُذكَّر، ويتقى ربه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، خشية عقاب الله ووعيده[(٦)]، وهذه ألوان من الهداية يؤتيه الله سبحانه من يخشاه،... وقد جاء التصريح بترتيب الهداية على خشية الله دون من سواه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٧)].

فالهدى إنما يكون نتيجة لخشية الله وحده دون مَن سواه، لأن ذلك يدفع من يخشى الله إلى اتباع أوامره واجتناب نواهيه، دون النظر إلى إنكار

---

(١) سورة النازعات: الآية: (٢٦).

(٢) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٨١٦).

(٣) سورة طه: الآيات: (١-٣).

(٤) سورة ق: الآية: (٤٥).

(٥) سورة الأنعام: الآية: (٥١).

(٦) فى ظلال القرآن (٥/ ٢٣٢٧)، تفسير الطبرى (١٦/ ١٣٧).

(٧) سورة البقرة: الآية: (١٥٠).

غيره ممن لا يخشاهم من البشر ... فطريق الهدى هو خشية الله وعدم الخشية ممن سواه [١].

(١٠) استعمال السمع والبصر والعقل:

إن الله عَزَّوَجَلَّ وهب الإنسان من القوة والملكات ما جعله طريقًا إلى هدايته إذا أحسن استخدامه، فاستعمال السمع والبصر والفؤاد فى النظر فى آيات الله، والتفكُّر فى دلالاتها من أول سُبل الهداية إلى معرفة الله وصفاته، وإلى الإيمان بصدق رسله، وإلى مزيد من ذلك الهدى بعد الإيمان [٢].

۞ وذكر الحق (جلَّ وعلا) فى آياتٍ كثيرةٍ من القرآن أن الذين ينتفعون بالنظر إلى ما فى الكون من بديع مخلوقات الله هم الذين يُمعنون النظر والتفكير والتدبُّر بعقولهم:

- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٤].

---

(١) تفسير المراغى (٢/ ١٨).

(٢) السنن الإلهية فى الحياة الإنسانية (١/ ٢٢٦).

(٣) سورة آل عمران: الآيتان: (١٩٠، ١٩١).

(٤) سورة البقرة: الآية: (١٦٤).

وقد مضت سنة الله أن الإنسان إذا أحسن استخدام مواهبه من حواسٍّ ومشاعر ومدارك، ووجَّهها إلى إدراك دلائل الهدى فى الكون والنفس، وما يجىء به الرسل من آيات وبينات، فإنه يؤمن ويهتدى بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص [1].

(١١) الجهاد:

ومن أسباب الهداية: الجهاد فى سبيل الله، فقد رتب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهداية على الجهاد، وجعله سببًا من أسباب زيادة الهدى،... قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2]. علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، ومراتب الجهاد أربع:

أ- جهاد النفس:

إحداها: أن يجاهد على تعلُّم الهدى، ودين الحق الذى لا فلاح لها، ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا بها، ومتى فاتها علمه، شقيت فى الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق ويتحمل كل ذلك لله.

---

(١) فى ظلال القرآن / أ. سيد قطب (٢/ ١٨٢١).

(٢) سورة العنكبوت: الآية: (٦٩).

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مُجمعون على أن العالِم لا يستحق أن يُسمَّى «ربانيًّا» حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويُعلمه، فمن علم وعمل وعلَّم فذاك الذى يُدعَى عظيمًا فى ملكوت السماوات(١).

ب - جهاد الشيطان مرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يأتى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة فى الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات.

فالجهاد الأول: يكون بعدة اليقين، والثانى: يكون بعدة الصبر.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٢)، فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

ج - جهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب:

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، ... وجهاد الكفار أخصُّ باليد، وجهاد المنافقين أخصُّ باللسان.

د- جهاد الظلمة والفسّاق ثلاث مراتب:

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب:

الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد «**ومن مات ولم يغزُ، ولم يُحدِّث**

---

(١) فقه الجهاد للشيخ القرضاوى (١/ ١٤٠).

(٢) سورة السجدة: الآية: (٢٤).

نفسه بالغزو، مات على شُعبة من النفاق»[١]، ولا يتمُّ الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والرّاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة ... قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٢].

وكما أن الإيمان فرض على كلِّ أحد، ففرض عليه هجرتان فى كل وقت: هجرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد، والإخلاص والإنابة والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة. وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إمرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣]، وفرض عليه جهاد نفسه فى ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين، لا يتوب فيه أحدٌ عن أحدٍ، وأما جهاد الكفار المنافقين، فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد[٤].

(١٢) البراء من الكافرين:

ومن الطاعات التى خصص الله تَبَارَكَوَتَعَالَى ذكرها وجعلها سببًا فى زيادة هدى أصحابها: البراءة من الكافرين بالبعد عنهم والخلاص منهم والعداوة لهم وعدم موالاتهم بالتقرب إليهم أو إظهار الود لهم بالأقوال أو الأفعال أو النوايا،... قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمٗا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٠) كتاب الإمارة.

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢١٨).

(٣) فقه الجهاد للقرضاوى (١/ ٤١) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ١٢٠٥).

(٤) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ١٢٠٥).

حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١].

وليس البراء من الكافرين هو مجرد البراء من أشخاصهم، بل هو أيضًا البراء من أفعالهم وبُغضها، وما ذلك إلا لأن ولاءهم هو سبيل الضلال أو الضلال بعينه كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٣].

والبراء من الكافرين يُجنب صاحبه الوقوع فى أعمال المعصية والضلال التى يقترفونها، ويُجنبه التشبه بأعمالهم التى تؤدى به إلى الضلال، ثم إن البراء منهم تجنبه محاولتهم ثنيه عن إيمانه وهداه،... قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ ﴾[٤][٥].

---

(١) سورة المجادلة: الآية: (٢٢).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٥١).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٢٤).

(٤) سورة النساء: الآية: (٨٩).

(٥) السنن الإلهية فى الحياة الاجتماعية (١/ ٢٦٤).

ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى(١)

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(٢).

قال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة.

وقال الفراء: التقدير: فهدى وأضل فاكتفى من ذكر أحدهما بالآخر.

۞ **قال الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: الآية أعمُّ من هذا كله، إذ المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته وهو نظير قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٣).

فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه ... وما ذكر مجاهد فهو تمثيل منه لا تفسير مطابق للآية فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه طيره ودوابه فصيحه وأعجمه.

۞ وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميرًا ومديرًا وهو اليعسوب وهو أكبر جسمًا من جميع النحل وأحسن لونًا وشكلًا وإناث النحل تلد في إقبال الربيع وأكثر أولادها يَكُنَّ إناثًا وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها بل إما أن تطرده وإما أن تقتله إلا طائفة يسيرة منها تكون حول

---

(١) بتصرف من كتاب (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) سورة الأعلى: الآيات: (١-٣).

(٣) سورة طه: الآية: (٥٠).

الملك وذلك أن الذكور منها لا تعمل شيئًا ولا تكسب ثم تجمع الأمهات وفراخها عند الملك فيخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين والمراتع فى أقصر الطرق وأقربها فتجتنى منها كفايتها فيرجع بها الملك فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها ولم يَدَعْ ذكرًا ولا نحلة غريبة تدخلها فإذا تكامل دخولها دخل بعدها وتواجدت النحل على مقاعدها وأماكنها فيبتدئ الملك بالعمل كأنه يُعلمها إياه فيأخذ النحل فى العمل ويتسارع إليه ويترك الملك العمل ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل فيأخذ النحل فى إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار ثم تقتسم النحل فرقًا فمنها فرقه تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب وهم حاشية الملك من الذكورة ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه والشمع هو ثقل العسل وفيه حلاوة كحلاوة التين وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل فينظفه النحل ويصفيه ويُخلِّصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها وفرقة تبنى البيوت وفرقة تسقى الماء وتحمله على متونها وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال وتعديهن ببطالتها ومهانتها.

وأول ما يُبنى فى الخلية مقعد الملك وبيته فيبنى له بيتًا مربعًا يشبه السرير والتخت فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه ويجعل النحل بين يديه شىء يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعامًا للملك وخواصه ثم يأخذن فى ابتناء البيوت على خطوط متساوية وكأنها سكك ومحال وتبنى بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع كأنها قرأت

كتاب إقليدس حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلًا مستديرًا كاستدارة الرحى ولا يبقى فيه فروج ولا خلل ويشد بعضه بعضًا حتى يصير طبقًا واحدًا مُحكَمًا لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الذى ألهمها أن تبنى بيوتها هذا البناء المحكم الذى يعجز البشر عن صنع مثله.

فإذا فرغت من بناء البيوت: خرجت خماصًا تسيح سهلًا وجبلًا فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار فترجع بطانًا وجعل سبحانه فى أفواهها حرارة مُنضجة تُنضج ما جنته فتعيده حلاوة ونضجًا ثم تَمُجَّه فى البيوت حتى إذا امتلأت ختمتها وسدَّت رؤوسها بالشمع المُصفى فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتًا وفعلت كما فعلت فى البيوت الأولى فإذا برد الهواء وأخلف المرعى وحيل بينها وبين الكسب لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل وهى فى أيام الكسب والسعى تخرج بكرة وتسيح فى المراتع وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل فإذا أمست رجعت إلى بيوتها فإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بواب منها ومعه أعوان فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها فإن وجد منها رائحة منكرة أو رأى بها لطخة من قذر منعها من الدخول وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن ويكشف أحوالهن مرة ثانية فمن وجده قد وقع على شىء مُنتن أو نجس قَدَّه نصفين ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية.

هذا دأب البواب كل عشية وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرًا إذا اشتهى التنزُّه فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم فيطوف فى المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره: أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها ويتبعه جميع النحل وتبقى الخلية خالية؛ فإذا رأى صاحبها ذلك وخاف أن يأخذ النحل ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه فيتعرف موضعه الذى صار إليه النحل فيعرفه باجتماع النحل إليه فإنها لا تفارقه وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودًا وهو إذا خرج غضبًا جلس على مكان مرتفع من الشجرة وطافت به النحل وانضمت إليه حتى يصير كالكرة فيأخذ صاحب النحل رمحًا أو قصبة طويلة ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف ويُدنيه إلى محل الملك.

فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك فإذا رضى وزال غضبه طفر ووقع على الضغث وتبعه خدمه وسائر النحل فيحمله صاحبه إلى الخلية فينزل ويدخلها هو وجنوده ... ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها: أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة ولا تدين لطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هى العسالة وهى تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتلها خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته ... ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم وبينها وبين العسالة حرب فهى تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها وتقصد هلاكها والعسالة شديدة

التيقظ والتحفظ منها فإذا هجمت عليها فى بيوتها حاورتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل فلا تقدر على الطيران ولا يفلت منها إلاَّ كل طويل العمر فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى فحملتها وألقتها خارج الخلية ... وقد ذكرنا أن الملك لا يخرج إلا فى الأحايين وإذا خرج خرج فى جموع من الفراخ والشبان، وإذا عزم على الخروج ظل قبل ذلك اليوم يومًا أو يومين يُعلم الفراخ ويُنزلها منازلها ويرتبها فيخرج ويخرجن معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يتطلبن الملك فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ ولا يقتل ملكٌ منها ملكًا آخر لما فى ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرُّقها، وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت فى الخلية وخاف من تفرُّق النحل بسببهم احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحدًا ويحبس الباقى عنده فى إناء ويَدَعْ عندهم من العسل ما يكفيهم حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث: مرض أو موت أو كان مفسدًا فقتلته النحل أخذ من هؤلاء المحبوسين واحدًا وجعله مكانه لئلا يبقى النحل بلا ملك فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها: أن الملك إذا خرج متنزهًا ومعه الأمراء والجنود ربما لحقه إعياء فتحمله الفراخ، وفى النحل كرامٌ عمال لها سعى وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مُؤْثِرة للبطالة فالكرام دائمًا تطردها وتنفيها عن الخلية ولا تساكنها خشية أن تعدى كرامها وتفسدها.

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه؛ ولذلك لا تلقى زبلها إلا حين تطير وتكره النتن والروائح الخبيثة وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادًا من الكبار وأقل لسعًا وأجود عسلًا، ولسعها إذا لسعت أقل ضررًا من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه فقد خُصَّت من وحى الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذى يضىء فى الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان أعداءها، وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة وهذه سنة الله فى خلقه وهو العزيز الحكيم.

۞ وهذه النمل من أهدى الحيوانات، ... وهدايتها من أعجب شىء فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته فى طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط فى غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها فى وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما يَنبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بَلَلٌ وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يومًا ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها ... ويكفى فى هداية النمل ما حكاه الله سبحانه فى القرآن عن النملة التى سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

فاستفتحت خطابها بالنداء الذى يسمعه مَن خاطبته ثم أتت بالاسم المُبهم ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنوا من العسكر ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم مضرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده ثم

(١) سورة النمل: الآية: (١٨).

اعتذرت عن نبى الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية ... وتأمل كيف عظَّم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1].

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾.

فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادى ودَلَّ على أن ذلك الوادى معروفٌ بالنمل كوادى السباع ونحوه، ثم أخبر بما دَلَّ على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم فقد عرفت هى والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾. فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم؛ ولذلك تبسم نبى الله ضاحكًا من قولها وإنه لموضع تعجُّب وتبسُّم.

ومن عجيب هدايتها: أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد من حديث أبى هريرة يرفعه قال: «**خرج نبى من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مُستلقية على ظهرها فقال ارجعوا فقد كُفيتم - أو سقيتم - بغيركم**»[2]؛ ولهذا الأثر عدة طرق.

---

(١) سورة النمل: الآية: (١٧).

(٢) ضعيف: أخرجه الحاكم (١/ ٤٧٣) وقال: صحيح الإسناد. وأبو الشيخ فى العظمة (٥/ ١٧٥٣)، والخطيب (١٢/ ٦٥)، وابن عساكر (٢٢/ ٢٨٨)، والدارقطنى (٢/ ٦٦)، وضعفه العلامة الألبانى رحمه الله فى ضعيف الجامع (٢٨٢٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن زيد العمى عن أبى الصديق الناجى قال: خرج سليمان بن داود يستسقى فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء، وهى تقول: اللهم إنَّا خلقٌ من خلقك ليس بنا غنًى عن سُقياك ورزقك فإما أن تسقينا وترزقنا وإما أن تُهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سُقيتم بدعوة غيركم[1]، ولقد حدثنى أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها قال: فرفعت ذلك من الأرض فطافت فى مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها قال فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعتُه فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مرارًا فلما كان فى المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها فى وسطها وقطعوها عضوًا عضوًا.

قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

والنمل من أحرص الحيوان، ويُضرب بحرصه المثل ... ويُذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها فى قارورة وسَدَّ فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٦/ ٦٢)، وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ١٠١)، وضعفه العلامة الألبانى رحمه الله فى الإرواء (٦٧٠).

قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولًا بمصالح أبناء جنسك حسبت الذى بقى من عمرى فوجدته أكثر من المدة المضروبة فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاءً لنفسى، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية.

ومن حرصها أنها تَكِدُّ طوال الصيف وتجمع للشتاء علمًا منها بإعواز الطلب فى الشتاء وتعذُّر الكسب فيه، وهى على ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كُزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصفٍّ من النمل يحملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه، فهى تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتى من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقى فيه فتات من الخبز أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيطٍ أسود يتبع بعضهم بعضًا حتى يتساعدوا على حمله ونقله. وهى تأتى إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا فلا.

ولها صدق الشم وبُعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل: إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة

تجتهد فى صلاح العامة منها غير مختلسة من الحَب شيئًا لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط فى عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماءً، أو يتخذ إناءً كبيرًا ويملأه ماءً ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتى الذى يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق فى الحائط ويمشى على السقف إلى أن يحاذى ذلك الشيء فتُلقى نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك. وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه فى الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزًا له وهو أبعد مكان من المحيط.

۞ وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره.

ومن هدايته ما حكاه الله عنه فى كتابه أن قال لنبى الله سليمان عليه السلام وقد فقده وتوعَّده فلما جاءه بَدَره بالعذر قبل أن يُنذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابًا هيَّجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[1].

وفى ضمن هذا أنى أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن؛ فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[2].

﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[3].

---

(١) سورة النمل: الآية: (٢٢).

(٢) سورة النمل: الآية: (٢٢).

(٣) سورة النمل: الآية: (٢٣).

ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجلِّ الملوك بحيث أُوتيت من كل شيء يصلح أن تُؤتاه الملوك، ثم زاد فى تعظيم شأنها بذكر عرشها الذى تجلس عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبر بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم فى عُقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1].

ثم أخبر عن المغوى لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدَّهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده.

ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذى لا ينبغى السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء فى السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفى ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خَصَّه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: وفى إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام مَن يُخرج الخبء فى السماوات والأرض جلَّت قدرته ولطف علمه. ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعةٍ أو فنٍّ من العلم فى روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمى عملًا إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

۞ وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية حتى قال الشافعى: أعقل

(١) سورة النمل: الآية: (٢٤).

الطير... وبُرد الحمام هى التى تحمل الرسائل والكتب،... ربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرض الذى يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها. وتنهى الأخبار والأغراض والمقاصد التى تتعلق بها مهمات الممالك والدول.

والحمام موصوف باليُمن والإلف للناس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه ويعود إليه، من مسافات بعيدة، وربما صُدَّ فترك وطنه عشر حِجج وهو ثابت على الوفاء حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه.

ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس؛ لئلا يعرض لها من يصدها. ولا تَرِد مياههم بل ترد المياه التى لا يَرِدُها الناس؛ ومن هدايتها أيضًا أنه إذا رأى الناس فى الهواء عرف أى صنفٍ يريده وأى نوع من الأنواع ضده فيخالف فعله ليَسلم منه. ومن هدايته أنه فى أول نهوضه يغفل ويمر بين النسر والعقاب، وبين الرخم والبازى، وبين الغراب والصقر، فيعرف مَن يقصده ومَن لا يقصده. وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع، وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب، والحمار عند مشاهدة الأسد.

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، وجلب القوت والرزق على الذكر، فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأم هى التى تحبل وتلد وترضع.

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ أن رجلًا كان له زوج حمام مقصوص وزوج طيار، وللطيار فرخان، قال: ففتحت لهما فى أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما، قال: فحبسنى السلطان فجأة فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام، ولم أشك فى موتهما؛ لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة وليس عندهما ما يأكلان ويشربان، قال: فلما خلى سبيلى لم يكن لى هم غيرهما ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت ووجدت المقصوص على أحسن حال، فعجبت، فما لبثت أن جاء الزوج الطيار فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقَّاهما... فانظر إلى هذه الهداية فإن المقصوصين لما شاهدا تلطُّف الفراخ للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش فعلا كفعل الفرخين فأدركتهما رحمة الطيارين فزقَّاهما كما يزقان فرخيهما... ونظير ذلك ما ذكره الجاحظ وغيره..قال الجاحظ:وهو أمرٌ مشهور عندنا بالبصرة... أنه لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبقَ منهم أحد فعمدوا إلى باب الدار فسدُّوه، وكان قد بقى صبىٌّ صغير يرضع ولم يفطنوا له فلما كان بعد ذلك بمدة تحوَّل إليها بعض ورثة القوم ففتح الباب، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبى يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار فلما رآها الصبى حبا إليها فأمكنته من أطبائها فمصَّها.

وذلك أن الصبى لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطباء الكلبة حبا إليها فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت له ذلك وأدام هو الطلب ولا يستبعد هذا وما هو أعجب منه، فإن الذى هدى المولود إلى مَصِّ

إبهامه ساعة يولد ثم هداه إلى التقام حلمة ثدى لم يتقدم له به عادة كأنه قد قيل له: هذه خزانة طعامك وشرابك التى كأنك لم تزل بها عارفًا.

۞ وفى هدايته للحيوان إلى مصالحه ما هو أعجب من ذلك. ومن ذلك أن الديك الشاب إذا لقى حَبًّا لم يأكله حتى يُفرقه فإذا هرم وشاخ أكله من غير تفريق،... كما قال المدائنى: إن إياس بن معاوية مَرَّ بديك ينقر حَبًّا ولا يفرقه فقال: ينبغى أن يكون هرمًا فإن الديك الشاب يُفرق الحَبَّ ليجتمع الدجاج حوله فتصيب منه، والهرم قد فنيت رغبته فليس له همة إلا نفسه.

قال إياس: والديك يأخذ الحبة فهو يريها الدجاجة حتى يلقيها فى فيه، والهرم يبتلعها ولا يُلقيها للدجاجة.

۞ وذكر ابن الأعرابى قال: أكلتْ حية بيض مكاء فجعل المكاء يصوت ويطير على رأسها ويدنو منها حتى إذا فتحت فاها وهمَّت به ألقى حسكة (شوكة) فأخذت بحلقها حتى ماتت.

وأنشد أبو عمرو الشيبانى فى ذلك قول الأسدى:

إن كنت أبصرتنى عيلًا ومصطلمًا فربما قتل المكاء ثعبانا

۞ وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر حدث عنه ولا حرج.

ومن عجيب هدايتها أن الثعلب إذا امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه ثم عمد إلى ماء رقيق فنزل فيه قليلًا حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة فيلقيها فى الماء ومن ثم يخرج،... ومن عجيب أمره (أى: الثعلب) أن ذئبًا أكل أولاده وكان للذئب أولاد وهناك زبية فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها وحفر فيها سردابًا يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم وجلس

ناحية ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قُدامه وهو يتبعه فألقى نفسه فى الزبية ثم خرج من السرداب فألقى الذئب نفسه وراءه فلم يجده ولم يطق الخروج فقتله أهل الناحية، ... ومن عجيب أمره أن رجلًا كان معه دجاجتان فاختفى له وخطف إحداهما، وفَرَّ ثم أعمل فكره فى أخذ الأخرى فتراءى لصاحبها من بعيد وفى فمه شىء شبيه بالطائر، وأطمعه فى استعادتها بأن تركه وفَرَّ فظن الرجل أنها الدجاجة فأسرع نحوها وخالفه الثعلب إلى أختها فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئًا؟! فلم يطق، فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه فى مجرى الماء الذى نحو الطير ففزع منه، فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها فعاد لذلك مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى تواظب الطير على ذلك وأَلِفته، فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك فدخل فيها وعبر إلى الطير فلم يَشُك الطير أنه من جنس ما قبله فلم تنفر منه فوثب على طائر منها وعدا به.

۞ ومن عجيب أمر القرد ما ذكره البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودى قال: رأيت فى الجاهلية قردًا وقردة زَنَيا فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم.

۞ وهذه البقر يُضرَب ببلادتها المثل. وقد أخبر النبى ﷺ أن رجلًا بينا هو يسوق بقرة إذ ركبها فقالت: لم أُخلق لهذا، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم، فقال: **«فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما»** ثم قال: **«وبينا رجل يرعى غنمًا له إذ عدا الذئب على شاة منها فاستنقذها منه فقال الذئب:**

هذه استنقذتها منى فمن لها يوم السبع[(١)] **يوم لا راعى لها غيرى**»، فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «**إنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هُمَا ثَمَّ**»[(٢)].

۞ ومن هداية الحمار الذى هو من أبلد الحيوان أن الرجل يسير به ويأتى به إلى منزله من البُعد فى ليلة مظلمة فيعرف المنزل فإذا خلا جاء إليه، ويفرق بين الصوت الذى يستوقف به والصوت الذى يحث به على السير.

۞ ومن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربت من الزيت الذى فى أعلى الجرة فنقص وعَزَّ عليها الوصول إليه ذهبت وحملت فى أفواهها ماءً وصبَّته فى الجَرة حتى يرتفع الزيت فتشربه .... وهذا الثعلب إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمى بنفسه فى الصحراء كأنه جيفة فتتداوله الطير فلا يُظهر حركة ولا نَفَسًا فلا تشك أنه ميت حتى إذا نقر بمنقاره وثب عليها فضمَّها ضمة الموت.

۞ وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعى والحيات عمدا إلى الصعتر النهرى فأكلاه كالترياق لذلك ومن عجيب أمر الثعلب أنه إذا أصاب القنفذ قَلَبه لظهره لأجل شوكه فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكَّيه، فإذا أصابه البول اعتراه الأسر فانبسط فيسلخه الثعلب من بطنه ويأكل مسلوخه.

۞ وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البُهم أمورًا تنفعه فى معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره ... وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ

---

(١) السبع: المفترس من الحيوان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٨٨) كتاب فضائل الصحابة.

إِلَّا كَٱلْأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ... ﴾[(١)].

۞ قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلًا منها... فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه فى الهواء أيامًا تهرب به من الذر والنمل؛ لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهى تخاف عليه الذر والنمل؛ فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد.

۞ وقال ابن الأعرابى: قيل لشيخ من قريش: مَن علَّمك هذا كله وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسُّب؟ قال: علمنى الله ما علم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطى الوجهين جميعًا نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد. وقيل لآخر: مَن علَّمك اللجاج فى الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: من علم الخنفساء إذا صعدت فى الحائط تسقط ثم تصعد ثم تسقط مرارًا عديدة حتى تستمر صاعدة... وقيل لآخر: من علمك البكور فى حوائجك أول النهار لا تخل به؟ قال: مَن علَّم الطير تغدو خماصًا كل بكرة فى طلب أقواتها على قربها وبُعدها لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها فى الجو والأرض ... وقيل لآخر: مَن علَّمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟ فقال: الذى علم الهرة أن ترصد جحر الفأرة فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة، حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد. وقيل لآخر: من علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون؟ قال: من علم أبا أيوب[(٢)] صبره

---

(١) سورة الفرقان: الآية: (٤٤).

(٢) أبو أيوب: كناية عن الجمل.

على الأثقال والأعمال الثقيلة والمشى والتعب وغلظة الجَمَّال وضربه، فالثقل والكل على ظهره ومرارة الجوع والعطش فى كبده وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه ولا يعدل به ذلك عن الصبر، ... وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: من علم الديك يصادف الحبة فى الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها بل يستدعى الدجاج ويطلبهن طلبًا حثيثًا حتى تجىء الواحدة منهن فتلقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وُضع له الحب الكثير فرَّقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج لأن طبعه قد أَلِفَ البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام. وقيل لآخر: من علمك هذا التحيل فى طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال: من علم الثعلب تلك الحيل التى يعجز العقلاء عن علمها، وعملها وهى أكثر من أن تُذكر،... ومن علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب عفى أثر مشيته بذَنَبِه، ومن علمه أن يأتى إلى شبله فى اليوم الثالث من وضعه فينفخ فى منخريه؛ لأن اللبؤة تضعه جروًا كالميت فلا تزال تحرسه حتى يأتى أبوه فيفعل به ذلك، ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مَرَّ بفريسة غيره لم يَدْنُ منها ولو جهده الجوع، ومن علَّم الدب إذا أصابه كَلْم (جُرح) أن يأتى إلى نبتٍ قد عرفه وجهله صاحب الحشائش فيتداوى به فيبرأ، ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتى إلى الماء فتلد فيه؟ لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة؛ لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهى عالية فتخاف أن تُسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق فتأتى ماءً وسطًا تضعه فيه؛ فيكون كالفراش اللين، والوطاء الناعم، ومن علم الذباب إذا سقط فى مائع أن يتقى بالجناح الذى فيه الداء دون الآخر؟ ومن علم الكلب إذا عاين الظباء أن

يعرف المعتل من غيره والذكر من الأنثى فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشد وأبعد وثبة، ويدع الأنثى على نقصان عدوها؟ لأنه قد علم أن الذَّكر إذا عدا شوطًا أو شوطين حُقِنَ ببوله، وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن، وإذا حُقِنَ الذَّكر لم يستطع البول مع شدة العَدْو فيقل عَدْوُه فيدركه الكلب، وأما الأنثى فتحذف بولها لسِعَة القُبل وسهولة المخرج فيدوم عَدْوُها، ومن علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذى قد انخسف فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها علمًا منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق.

ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوبًا بين عينيه فينام بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة حتى قال بعض العرب:

ينام بإحدى مُقلتيه ويتقى … بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومن علم العصفور إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجىء فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويُحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم؟

قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط فأومئ بيدى كأنى أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأنى أتناول شيئًا فلا يتحرك، فإن مسست بيدى أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدى.

ومن علم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هى والأب فى بناء العش، وأن يقيما له حروفًا تشبه الحائط، ثم يُسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى، ثم يقلبا البيض فى الأيام، ومن قسم بينهما الحضانة والكد؟ فأكثر ساعات الحضانة

على الأنثى وأكثر ساعات جلب القوت على الأب، وإذا خرج الفرخ علما ضيق حوصلته عن الطعام، فنفخا فيه نفخًا متداركًا حتى تتسع حوصلته ثم يزقانه اللعاب أو شيئًا قبل الطعام، ثم يعلمان احتياج الحوصلة إلى دباغ فيزقانه من أصل الحيطان من شيء بين الملح والتراب تندبغ به الحوصلة فإذا اندبغت زقَّاه الحَبَّ، فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزق على التدريج، فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة ضرباه.

ومن علَّم اللبب وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ويجمع نفسه فيُرى الذبابة أنه لاهٍ عنها ثم يثب عليها وثوب الفهد.

ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المُحكَمة وتجعل فى أعلاها خيطًا ثم تتعلق به فإذا تعرقلت البعوضة فى الشبكة تدلَّت إليها فاصطادتها؟ ومَن علَّم الظبى أنه لا يدخل كناسه إلا مستدبرًا ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخشفه. ومن علم السنَّور إذا رأى فأرة فى السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود، ثم يشير إليها بالرجوع، وإنما يريد أن يُدهشها فتزلق فتسقط... ومن علم اليربوع أن يحفر بيته فى سفح الوادى حيث يرتفع عن مجرى السيل ليَسلم من مدق الحافر ومجرى الماء، ويُعمقه ثم يتخذ فى زواياه أبوابًا عديدة ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزًا رقيقًا، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه.

ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ثم يظهر.

ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى؛ لأن سلاحه قد ذهب فيسمن لذلك فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العَدْو.

وهذا باب واسع جدًّا يكفى فيه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

۞ وقال سفيان بن عُيينة: ما فى الأرض آدمى إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عَدْو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التى لو أُلقى إليها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه، فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها وإن أخطأ رجل تروَّاه وحفظه.

قال الخطابى: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة؛ وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، ومنعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفًا إلى المماثلة فى الطباع والأخلاق.

وإذا كان الأمر كذلك فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك. انتهى كلامه.

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان: (٣٨، ٣٩).

والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كَسوبًا محتالًا وبعضها متوكلًا غير محتال، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له فى كل يوم قدر كفايته رزقًا مضمونًا وأمرًا مقطوعًا، وبعضها يدخر وبعضها لا تكسُّب له، وبعض الذكورة يعول ولده وبعضها لا يعرف ولده ألبتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه ... وجعل بعض الحيوانات يُتْمها من قِبَل أمهاتها، وبعضها يُتْمها من قِبَل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم فى طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره، وبعضها ليس ذلك عنده شيئًا، وبعضها يُؤْثِر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفى أُمةً من جنسه ولم يدع أحدًا يدنو منه، وبعضها يحب السفاد (الجماع) ويُكثر منه وبعضها لا يفعله فى السنة مرة، وبعضها يقتصر على أُنثاه وبعضها لا يقف على أنثى ولو كانت أمه أو أخته، وبعضها لا تُمكِّن غير زوجها من نفسها، وبعضها لا تَرُد يد لامس، وبعضها يألف بنى آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار، وبعضها لا يأكل إلا الطيب وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعضها لا يؤذى إلا من بالغ فى أذاها، وبعضها يؤذى من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا تنسى الإساءة، وبعضها لا يذكرها ألبتة، وبعضها لا يغضب وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يُسترضى حتى يرضى، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدى إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشىء من ذلك ألبتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده، وبعضها يقبل التعليم

بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال.

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه وعلى إتقان صنعه وعجيب تدبيره ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحيل وحسن التدبير والتأنِّي لما تريده ما يستنطق الأفواه بالتسبيح ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يُخلَق عبثًا ولم يُتْرَكْ سُدى، وأن له سبحانه في كل مخلوق حكمة باهرة وآية ظاهرة وبرهانًا قاطعًا يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

الضلال .. أنواعه ومراتبه وأسبابه

۞ أما عن أنواع الضلال فنوعين:

(١) ضلال عن الحق:

وذلك بألا يتبع الحق ولا يسلك طريقه ويظل على الشرك والكفر ولا يدخل فى دين الإسلام الذى ارتضاه الله للبشرية كلها.

فقد قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾(١).

(٢) ضلال في الحق:

وذلك بأن يعرف طريق الحق ويتبعه ابتداءً ويدخل فى الإسلام ثم ينحرف فى المنهج ويُفسد عقيدته بأن يتبع أى فرقة من فرق الضلال التى أخبر عنها النبى ﷺ.

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٣).

هل الإنسان مُسيَّر أم مُخيَّر؟

۞ اضطرب أهل الأهواء في فهم هذه المسألة اضطرابًا عظيمًا، فمن قائل: إن الإنسان مُخير ولا إرادة لله عليه، فهو خالق لعمله ومُدبر لأمره، والحياة عنده محسوبة على المقدمات والنتائج.

وهذا ولا شك يتناقض مع ربوبية الله تعالى، وقيامه الدائم على خلقه. وقد انتشر هذا المذهب قديمًا عن طريق القدرية وفلاسفة الرومان - الذين يقدسون الأسباب ويعطلونها عن صانعها، ويجعلونها قائمة بذاتها، ولا إرادة لله تعالى فيها - وحديثًا عن طريق ملاحدة الشيوعية.

۞ ومن قائل إن الإنسان مُسيَّر ولا إرادة له في عمله، فهو يتحرك في أعماله الاختيارية كحركة المرتعش، أو كورقة في مهب الريح تحركها كيف تشاء وكما يقول قائلهم: قيَّدني وألقاني في اليم، وقال لي: اسبح، وأعماني وقال لي: اقرأ.

حتى اتهموا الله تعالى بالظلم في فعله وأمره، ونسبوا إليه كل شر، وجردوا صفاته وأفعاله من الحكمة.

ومعاذ الله أن يكلف الإنسان ما لا يطيق فعله، فهذا نوع من السلب، والسلب جبرٌ وقهر،... وجبر المكلفين لا يليق بالله تعالى ولا بصفاته، وذلك لأن الله على كل شيء قدير، لا يُعجزه أن يخلق القدرات الاختيارية في النفس، وهذا هو الذي يتوافق مع الفعل والترك، بخلاف الجبر الذي لا يجعل للإنسان خيارًا في ذلك.

فالجبر في ذاته ناقض للتكاليف والشرائع، مُبطل للرسالات والكتب،

بل هو حقيقة إبطالها، وذلك لاستواء النقيضين الأمر والنهى فى الأخذ والترك وخروجهما عن نطاق الاستطاعة الذاتية[1].

۞ **فالجبرية:** يقولون إن الإنسان مُسير أو مجبور، بحيث ينفون الفعل عن العبد، ويقولون أن الرب يُجبر العباد على أعمالهم، والعباد مجبورون على أفعالهم،... ويقولون أن العبد لا حرية له ولا فعل، كالريشة فى مهب الريح، وإنما تُسند الأفعال إلى العبد مجازًا، فيقال: صلَّى وصام، وقتل، وسرق كما يقال: طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر.

فهم بذلك يتَّهمون الربَّ سبحانه بالظلم، وبأنه يكلف العباد بما لا قدرة لهم عليه، ويجازيهم على ما ليس من فعلهم، بل اتَّهموه بعدم الحكمة فى أوامره ونواهيه، بل والعبث بتكليف العباد، بل جعلوا فرعون وموسى عليه السلام سواءً، فكلاهما مطيع لله تعالى، وإبليس وآدم عليه السلام سواء كلاهما مطيع ....، تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوًّا كبيرًا.

وكلمة الجبر بمعنى الإعضال والإغلاق كلمة مُحْدَثة، لا أصل لها فى الكتاب ولا فى السُّنة ولا فى كلام الصَّحابة؛ لأنها تعنى أن شيئًا ما يصعب على الله تعالى خلقه، أو يتعاظم عليه فعله؛ فأعضله وقيده وأكرهه على خلافه، وهو من هذه الجهة باطل،... فالله تعالى لا يُعجزه شيء، فهو يخلق ويقدر ويرزق ويَجْبُل النفوس على ما يشاء كى تختار ما تحب، وتَدَعْ ما تكره، فأفعال العباد على ذلك خلق وجبلة وليست جبرًا وقهرًا.

قال النبى ﷺ لأشجّ عبد القيس: **«إِنَّ فِيكَ خَلَّتَينِ يحِبُّهُمَا اللهُ، الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ»** قَالَ: يا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَتخَلَّقُ بِهِمَا أَم اللهُ جَبَلَنِى عَلَيهِمَا؟ قَالَ: **«بَلِ اللهُ**

---

(١) القضاء والقدر عند السلف (ص ١٢٤-١٢٥).

جَبَلَكَ عَلَيهِمَا» قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَبَلَنِى عَلَى خَلَّتَينِ يحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ[١].

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِى ﷺ، قَالَ: « **إِذَا أَفَادَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً، أَوْ خَادِمًا، أَوْ دَابَّةً، فَلْيأْخُذْ بِنَاصِيتِهَا، وَلْيقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ مِنْ خَيرِهَا، وَخَيرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا جُبِلَتْ عَلَيهِ** »[٢].

۞ فالمعنى الصحيح أن تقول:

إن الله تعالى جَبَل العباد بمعنى خلقهم على صفة معينة، وهذا هو الثابت فى السُّنة، وعليه بنى الذين أنكروا لفظ الجبر بالكلية.

۞ قال ابن أبى العز الحنفى:

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِى جَعَلَ الْعَبْدَ فَاعِلًا مُخْتَارًا، وَهُوَ الَّذِى يقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَلِهَذَا أَنْكَرَ السَّلَفُ الْجَبْرَ، فَإِنَّ الْجَبْرَ لَا يكُونُ إِلَّا مِنْ عَاجِزٍ، فَلَا يكُونُ إِلَّا مَعَ الْإِكْرَاهِ... يقَالُ: لِلْأَبِ وِلَايةُ إِجْبَارِ الْبِكْرِ الصَّغِيرَةِ عَلَى النِّكَاحِ، وَلَيسَ لَهُ إِجْبَارُ الثَّيبِ الْبَالِغِ، أَى: لَيسَ لَهُ أَنْ يزَوِّجَهَا مُكْرَهَةً.

وَاللهُ تَعَالَى لَا يوصَفُ بِالْإِجْبَارِ بِهَذَا الاعتبار، لأنه سبحانه خالق الإرادة وَالْمُرَادِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يجْعَلَهُ مُخْتَارًا بِخِلَافِ غَيرِهِ. وَلِهَذَا جَاءَ فِى أَلْفَاظِ الشَّارِعِ: «الْجَبْلُ» دُونَ «الْجَبْرِ»، كَمَا قَالَ ﷺ. اهـ[٣].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه الحاكم، والبيهقى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٠).

(٣) شرح الطحاوية (ص ٥٠١).

۞ أما الجبر على التكاليف:

فهو منفى عن الله تعالى، بل هو نقص لا يليق بالله تعالى، ذلك لأن الله تعالى قادر على أن يخلق فى العباد القدرة على الاختيار، وقادر على أن يوفقهم إلى اختيار ما يحبون، دون أن يكون فى ذلك جبر منه بينما المخلوقون لا يقدرون على خلق ذلك أو فعله فى النفوس، وهذا يُلجئهم إلى أن يجبر بعضهم بعضًا. وقد أمر الله تعالى العباد بما ينفعهم وما يُصلحهم لا لحاجة إليهم، ولا ليستفيد كمالًا منهم، فهو غنى عنهم جميعًا.

۞ فكيف ولماذا يجبرهم على فعل ما لا يحبون أو ترك ما يشتهون؟

فالله تعالى فطر العباد على قبول العذر من المُكرَه، فكيف بعد ذلك يؤاخذهم على خلاف ما فطرهم؟ وكيف يُجبرهم ثم يحاسبهم، وقد عذرهم فيما بينهم على مثل ذلك؟ ... إن الجبر لا يليق بالله تعالى لكماله المقدس وسعة علمه، وإنما يليق ذلك بالمخلوقين لعجزهم وفقرهم.

أما اسم الجبار: فهو الذى لا تناله الأيدى، وهو الذى لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء، ولا يقع شىء فى الكون كرهًا عنه، وهذا هو المعنى العام الذى لا يمكن إنكاره. ولهذا كان الأوزاعى رحمه الله تعالى يمنع إطلاق هذا اللفظ ولا ينفيه بالكلية لاحتمال اشتماله على معنى صحيح.

قال الأوزاعى: مَا أعرف للجبر أصلا من الْقُرْآن وَلَا السّنة فأهاب أن أَقُول ذَلِك وَلَكِن الْقَضَاء وَالْقدر والخلق والجبل فَهَذَا يُعرف فِى الْقُرْآن والْحَدِيث عَن رَسُول الله ﷺ وَإِنَّمَا وضعت هَذَا مَخَافَة أَن يرتاب رجل من أهل الْجَمَاعَة والتصديق[1] .

---

(١) شرح النونية لأحمد بن إبراهيم (٢/ ١٣٦).

وعليه فالجبار اسم من أسماء الله تعالى، والجبر من صفاته، وهو ثابت له غير منفى عنه، وهو بمعانٍ ثلاثة: جبر الضعيف المنكسر إليه، وجبر القهر والعز لكل مخلوق، والثالث: الذى قدمنا له وهو العلى الذى لا تناله الأيدى[1].

۞ قال ابن القيم فى النونية:

وَكَذَلِكَ الْجَبَّار من أَوْصَافه	والجبر فِى أَوْصَافه قِسْمَانِ
جبر الضَّعِيف وكل قلب قد غَدا	ذَا كسرة فالجبر مِنْهُ دَانِ
وَالثَّانِى جبر الْقَهْر بالعز الَّذِى	لَا ينْبَغِى لسواه من انسانِ
وَله مُسَمّى ثَالِث وَهُوَ الْعُلُوّ	فَلَيسَ يدنو مِنْهُ من انسانِ
من قَوْلهم جبارَة للنخلة الْعليا	الَّتِى فَاتَت لكل بنانِ

۞ قال الدكتور محمد عبد المنعم القيعى لما سُئل عن ذلك:

أن ما كُلِّف به مُخير فيه: كالصلاة، وترك السرقة، وما لم يكلف به مُسير فيه كنبضات القلب وضيق التنفس من عدم استنشاق الهواء، فلا حجة لأحدٍ على الله بل لله الحجة القائمة على كل أحد. اهـ[2].

يتضح لنا من هذا الكلام أن الإنسان بين التسيير والاختيار ولذلك نوضح الآتى:

أولاً: أمور... الإنسان مسير فيها (مجبور):

أبو الإنسان وأمه ويوم مولده وطوله وقِصَره وجماله وقُبحه، وذكاؤه أو غباؤه، وحركات الرئتين والمعدة، وعمل الكبد والكليتين، وفصيلة الدم،

(١) القضاء والقدر عند السلف (ص ١٢٥-١٢٧).

(٢) عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة.

وهدوء الطباع وعنفها، وإخوة الإنسان من أبيه وأمه، وأعمام الإنسان وعماته، وأخواله وخالاته، والصحة والمرض، والحياة والموت، وسعة الرزق وضيقه، وكونه ذكرًا أم أنثى، ... كل ذلك لا دخل للعبد فيه ولا اختيار له فى ذلك، فالكل سواء فى ذلك مجبور مجبول على ذلك، وهذه الأشياء ليست مما يُسأل عنها العبد يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2].

والإيمان بهذا النوع من القدر واجب على كل إنسان، بل إن أدلة الشرع والعقل متظاهرة عليه، ولابد أن يؤمن الإنسان بأن هذه أمور لا دخل للعبد فيها وقد جَفَّ القلم بها فلا رادَّ لها ولا مُغير لها.

ثانيًا: أمور... الإنسان مُخير فيها (مختار):

بعد ذكر الأمور الجبلية أو الجبرية يتضح لنا أن ما دون ذلك فالإنسان مخير فيه يعيش حياته كيفما شاء، فهو حُرٌّ فى اختيار طريق الهداية أو طريق الضَّلال، يأكل ما يشاء ويشرب، يؤمن أو يكفر، يلبس هذا ويدع ذاك، يتزوج أو لا يتزوج، يختار من النساء هذه ويترك تلك، ... ينفق ماله حسبما أراد، وهكذا.

والقرآن الكريم يوضح لنا ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ

(١) سورة آل عمران: الآية: (٥).

(٢) سورة القصص: الآيات: (٦٨-٧٠).

فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٣].

۞ وبذلك يتضح لنا الأمر جليًا وهو أن الإنسان مُسير ومُخير فالحق وسط بين ضلالتين، فالإنسان مُسير فى الأمور التى هو غير مسؤول عنها ولا مُكلف بها، ومُخير فى الأشياء التى كُلف بها من طاعةٍ لله تعالى وتركٍ للكفر والعصيان، وهكذا يكون العبد بين هذا وذاك.

۞ **القدرية:** يقولون: أن العبد مستقلٌّ بعمله فى الإرادة والقدرة، وليس لله تعالى ولا مشيئته ولا قدرته تأثير على قدرة العبد وأفعاله الاختيارية، ويقولون: أن أفعال العباد الاختيارية ليست مخلوقة لله تعالى، بل إن العبد هو الذى يخلق أفعاله الاختيارية، وأن الذنوب التى تصدر من العبد ليست واقعة بمشيئة الله تعالى،... بل إن الغُلاة منهم يقولون: إن الله تعالى لا يعلم الأفعال التى تصدر من العبد إلا بعد وقوعها، فهم بذلك جعلوا خالقين غير الله تعالى، بل كل إنسان عندهم خالق لأفعاله.

ولذلك أُطلق عليهم مجوس هذه الأمة؛ لأنهم شابهوا المجوس الذين يقولون إن للنور إله وللظلام إله، فالأول للخير والثانى للشر ... تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوًّا كبيرًا.

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٢٩).

(٢) سورة يونس: الآية: (١٠٨).

(٣) سورة فصلت: الآية: (٤٠).

۞ إذن فبدعة القدرية تتلخص فى أمرين:

(١) إنكار علم الله تعالى السابق للحوادث.

(٢) أن العبد هو الذى أوجد أفعاله.

۞ الرد على القدرية: اقتصر على جوابين:

(١) إذا كنت تريد بناء عمارة سكنية، فإنَّك تذهب إلى المهندس المعمارى لكى يصمم لك هذه العمارة، ويحسب لكل كميات الأسمنت والحديد والرمال بدقة كاملة، ويصنع لك نموذجًا صغيرًا لشكل العمارة يُسمَّى (ماكيت) بحيث لو نظرت إليه تجده طبق الأصل مثل العمارة التى سوف تبنيها، ثم يشرع المهندس فى تنفيذ هذه العمارة، فإذا بها بعد عدة أشهر صورة طبق الأصل من «الماكيت» الذى صممه المهندس فى مكتبه بالفعل لا يختلف عنه سوى فى الحجم، فهذا النموذج يوضع على المكتب، وهذه العمارة مبنية على مساحة كبيرة من الأرض.

فإذا كان هذا العمل يفعله الإنسان مع ضعفه وعجزه ولا نستغرب منه هذا الفعل ولا نستبعده بل نشكره على ذلك!! ولله المثل الأعلى.

فكيف نستغرب من الله (جل وعلا) العالم العليم العلام القادر المقتدر ذو القوة المتين الفعَّال لما يريد أن يُقدر مقادير الخلائق بكلِّ دِقَّة وإتقان قبل أن يخلق هذا العالم ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1]، فمن كانت هذه صفاته من كمال فى كل شىء، فإنَّ ذلك يكون عليه هين ... لا شريك له فى ملكه ولا إله غيره.

(٢) التقى الإمام أبو حنيفة النعمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأحد المنكرين للقدر فقال له

(١) سورة النمل: الآية: (٨٨).

الإمام: أنتم تزعمون أن الإنسان يخلق أفعاله؟ فقال القدرى: نعم، فقال الإمام: إن حرف (الحاء) يخرج من الحلق، وحرف (الباء) يخرج من الشفة، فإذا كنت خالقًا لأفعالك فاجعل حرف (الباء) يخرج من الحلق بدلًا من الشفة؟؟ فبُهت القدرى الضال المضل[(١)].

۞ الشاهد:

أن الحق وسط بين طرفين مذمومين، وأهل السُّنة هم الوسط؛ لأنه لو قلنا: إن الإنسان مُخير على منهج القدرية لجعلناه خالقًا مع الله تعالى، وهذا متناقض مع الفطر السليمة، والسُّنة الصحيحة، وما كان عليه سلفنا الصالح.

ولو قلنا: إن الإنسان مسير على منهج الجبرية لأبطلنا الرسالات الإلهية والجزاء والعقاب، ولنسبنا النقص إلى الله تعالى، وهذا ينكره كل عاقل فضلًا عن غيره... وقد عُرض هذا الأمر -أى: أمر التخيير والتسيير- بين يدى النبى ﷺ ففصل فيه القول، وبيَّن ما للعباد وما عليهم أحق بيان.

فقال ﷺ فيما رواه مسلم عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ قَالَ: يا رَسُولَ اللهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ، فِيمَ الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: **«لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ»** قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ: **«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»**[(٢)].

وهذا الحديث حُجَّة على القدرية والجبرية، وهو صريح فى إبطال

---

(١) هداية المقتدر (ص ٢٥٣-٢٥٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٨) كتاب القدر.

مذهبهما فى آنٍ واحدٍ، فهو يرد على الذين يزعمون الاستقلال بالقدر لأنفسهم عن الله تعالى، ويثبت العلم الأزلى، ويرد على الذين ينفون أعمال العباد وكسبهم.

وعلى ذلك فالأمر فى جملة مفيدة وصريحة بعيدًا عن قول هاتين الفرقتين المنحرفتين أن الإنسان مخير ومسير فى آنٍ واحدٍ، بمعنى أن الأعمال كلها مخلوقة لله تعالى، والله تعالى يفعل فى ملكه ما يشاء، فهو يهدى ويضل، وهو على كل شيء قدير، ويخلق ما يشاء، ويجبل النفوس على ما يشاء، وهذا هو الذى يطلقون عليه جانب التسخير، والتسخير هنا ليس بمعنى الجبر كما تقدم، إنما بمعنى الخلق والجبل والإنشاء.

ومن جهة أخرى فهو مخير ومعنى أنه مخير أى: لديه قدرة على الكسب أى: على الفعل والترك والاختيار، ولذلك قال النبى ﷺ : «**اعملوا**».

ففعل العبد سواء كان محبوبًا أو مكروهًا فقد جاء منه باختياره ورغبته، ومن قال بخلاف ذلك فقد خالف العقول الصريحة والفطر السليمة، وقد تبين لك الفارق فانتبه، ... واللفظ النبوى الذى جاء به الحديث: «مُيسَّر» يُخرجنا من هذا الإشكال، فالخلق فِعل الرب (جل وعلا)، والكسب فِعل العبد، وأهل السُّنة يثبتون فى المقادير فعل الرب وفعل العبد ... ولا منافاة بين أفعال الربوبية وكون العبد فاعلًا لفعله مكتسبًا له.

وأهل البدع من الجبرية يثبتون فعل الرب وينفون فعل العبد، والقدرية يثبتون فعل العبد وينفون فعل الرب وأهل السنة وسط بينهما.

وفى فتوى اللجنة الدائمة التى كان يرأسها العلامة شيخ الإسلام ابن باز

رحمه الله تعالى برقم (٤٠١٣) قالوا: الإنسان مخير ومسير، أما كونه مُخيرًا فلأن الله سبحانه أعطاه عقلًا وسمعًا وبصرًا وإرادة فهو يعرف بذلك الخير من الشر والنافع من الضار ويختار ما يناسبه، وبذلك تعلقت به التكاليف من الأمر والنهى واستحق الثواب على طاعة الله ورسوله والعقاب على معصية الله ورسوله وأما كونه مُسيرًا فلأنه لا يخرج بأفعاله وأقواله عن قدر الله ومشيئته، كما قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [1] وقال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [2].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [3] الآية،...

وفى الباب آيات كثيرة وأحاديث صحيحة، كلها تدل على ما ذكرنا لمن تأمل الكتاب والسنة. (انتهى) (٣/ ٣٧٦).

ولقد كان الأئمة يضربون الأمثال فى هذا الأمر، ويريدون من ذلك أن تتسع أفهام الناس لتلك المسألة اتساعًا جيدًا، ويريدون من ذلك أيضًا تنزيه الله تعالى عن النقائص، وإثبات الكمال والحكمة والعدل له من كل وجه، ويريدون من ذلك أيضًا إبطال ما زعمته الفرق الضَّالة المغايرة لمنهج أهل السُّنة فى معتقداتهم من قولهم: إن العبد خالق لفعله، وأن لله تعالى جبر الخلق على الأفعال، ولم يجعل لهم إرادة ولا فعلًا ولا مشيئةً ولا اختيارًا.

وأثبتوا أن العبد كله مخلوق لله تعالى، وقد أمره الله تعالى بما هو فى

(١) سورة الحديد: الآية: (٢٢).

(٢) سورة التكوير: الآيتان: (٢٨، ٢٩).

(٣) سورة يونس: الآية: (٢٢).

مقدوره واختياره ورتب على ذلك الاختيار الثواب والعقاب، وكل مخلوق وقعت مشيئته فى الفعل والترك بمشيئة الله تعالى، فلا يمكن أن تكون مشيئته مع الله تعالى فيجعل نفسه شريكًا مع الله، ولا يمكن أن تكون مشيئته دون الله تعالى فيكون منفردًا بالربوبية كما بيَّن الأوزاعى فى مناظرته مع غيلان الدمشقى. بل إن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى، فمن شاء الله تعالى أعانه على ما دلَّه عليه من الحق، ومن شاء الله تعالى خذله عمَّا أمره به.

وكُل ذلك بحكمة بالغة.

فالله تعالى يأمر، وعلى العبد الاختيار، فمن اختار هواه فهو لله .. إن شاء حفظه ومنعه، وإن شاء أمدَّه بالضلال، وعند ذلك فلا يلومن إلا نفسه[1].

۞ ولما سُئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: هل الإنسان مُخير أو مُسير فأجاب بقوله:

على السائل أن يسأل نفسه: هل أجبره أحد على أن يسأل هذا السؤال، وهل هو يختار نوع السيارة التى يقتنيها؟ إلى أمثال ذلك من الأسئلة، وسيتبين له الجواب هل هو مسير أو مخير.

ثم يسأل نفسه هل يصيبه الحادث باختياره؟

هل يصيبه المرض باختياره؟

هل يموت باختياره؟

إلى أمثال ذلك من الأسئلة، وسيتبين له الجواب هل هو مسير أو مخير.

(١) القضاء والقدر عند السلف (ص ١٢٧-١٣٠)

والجواب: أن الأمور التى يفعلها الإنسان العاقل يفعلها باختياره بلا ريب، واسمع إلى قول الله - تعالى -: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[١]، وإلى قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾[٢]، وإلى قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٣]، وإلى قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ﴾[٤]، حيث خيَّر الفادى فيما يفدى به.

ولكن العبد إذا أراد شيئًا وفعله علمنا أن الله تعالى قد أراده لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٥].

فلكمال ربوبيته لا يقع شىء فى السماوات والأرض إلا بمشيئته - تعالى -.

وأما الأمور التى تقع على العبد، أو منه بغير اختياره، كالمرض، والموت، والحوادث فهى بمحض القدر، وليس للعبد اختيار فيها ولا إرادة. والله الموفق[٦].

---

(١) سورة النبأ: الآية: (٣٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٥٢).

(٣) سورة الإسراء: الآية: (١٩).

(٤) سورة البقرة: الآية: (١٩٦).

(٥) سورة التكوير: الآيتان: (٢٨، ٢٩).

(٦) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٩٠-٩١).

كيف يكون التوفيق بين مشيئة الله ومشيئة العبد للهدى والضلال؟

أسند الله عَزَّوَجَلَّ الهداية والإضلال إلى مشيئته سبحانه فى كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ﴾[(٣)].

والواقع أن هذه وأمثالها نصوص عامة ولابد أن تُحمَل على النصوص المقيدة، فليست مشيئة الله للهداية والإضلال تسير جُزافًا بدون حكمة، أو بدون سنة ماضية فى هذا الشأن وذلك لأنه توجد هناك إلى جانب هذه الآيات العامة آيات أخرى تقيد مشيئة الله فى الهداية والإضلال بأحوال خاصة وأسباب معينة وهذه الآيات المقيدة تبين لنا من يشاء الله تعالى هدايته ومن يشاء إضلاله وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل.

لقد ربط الله عَزَّوَجَلَّ فى كثير من الآيات بين مشيئة العبد للهدى، والضلال ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهما،.. والله سبحانه لا يشاء إلا العدل والرحمة وهذا الذى عرفه رسل الله عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٤)].

---

(١) سورة النحل: الآية: (٩٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية: (٤).

(٣) سورة الزمر: الآيتان: (٣٦، ٣٧).

(٤) سورة هود: الآية: (٥٦).

فأخبر عن عموم قدرة الله ونفوذ مشيئته وتصرُّفه فى خلقه كيف يشاء، ثم أخبر أن هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم ... أى: أنه سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما يشاء فإنه لا يشاء إلا العدل [1].

فهداية الله سبحانه لعباده أو إضلالهم إنما تقوم على أساس ترتيب المسببات على أسبابها والنتائج على مقدماتها، كما دَلَّ على ذلك كثير من الآيات ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[3].

بيَّن سبحانه وتعالى فى الآية الأولى أن سبب إضلاله لبعض عباده هو الظلم، وبيَّن فى الآية الثانية أن سبب هدايته لبعض عباده هو إنابتهم إليه [4].

ومَن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله من خلق الكفر والمعاصى يجعله جزاءً لذلك العمل كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[6].

---

(١) السنن الإلهية (١/ ١٠٥).

(٢) سورة إبراهيم: الآية: (٢٧).

(٣) سورة الشورى: الآية: (١٣).

(٤) السنن الإلهية (١/ ١٠٦).

(٥) سورة الأنعام: الآية: (١٢٥).

(٦) سورة الصف: الآية: (٥).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1].

وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالاً عاقبهم الله بها على فعل محظور وترك مأمور، وتلك الأمور إنما خُلقت لكونهم لم يفعلوا ما خُلقوا له، ولابد لهم من حركة وإرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حُركوا بالسيئات عدلاً من الله، حيث وضع ذلك فى محله القابل له، وهو القلب الذى لا يكون إلا عاملاً فإذا لم يعمل الحسنة استُعمل فى السيئة ... نفسك إن لم تشغلها شغلتك[2].

---

(١) سورة الليل: الآيات: (٨-١٠).

(٢) الحسنة والسيئة لابن تيمية (ص ٩٤، ٩٥).

أسباب الضلال

۞ إن الضلال له أسباب كثيرة .. وقد تكون تلك الأسباب فكرية أو أخلاقية أو قد تكون لها علاقة بالبيئة التى يعيش فيها الإنسان أو النشأة التى نشأ فيها.

۞ وها أنا أذكر لحضراتكم بعض أسباب الضلال .. أعاذنا الله وإيَّاكم من الضلال .. ورزقنا الله وإياكم الهداية والإيمان.

(١) الكفر:

۞ لقد بيَّن الحق (جلَّ وعلا) فى غير ما آية أن سُنته فى الكافرين هى أن يعاقبهم بالإضلال وعدم الهداية، وقد جاء التعبير عن كفرهم هذا بالظلم تارة، وبالفسق تارة أخرى، وبالتكذيب ثالثة، وبالإجرام رابعة، ليضيف كل لفظ من هذه الألفاظ معنى آخر، بالإضافة إلى معنى الكفر.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

ومن الآيات التى بيَّنت سُنة الله فى إضلال هذا الصنف من الناس والذى يجمع بينهم الكفر قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

---

(١) سورة النور: الآية: (٥٥).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٦).

وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[١] .

المعنى: قد مضت سنة الله تعالى فى القوم الفاسقين المارقين من الدين بعد معرفتهم، كالمنافقين أن يكونوا محرومين من الهداية الفطرية التى يعرفها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، فلا يعرفون ما فيه مصلحتهم وسعادتهم من اتباعه فيُؤْثِرون حُب القرابة والمنفعة العارضة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد المفروض فى سبيله[٢] .

وقال سبحانه وتعالى فى حق المنافقين وهم كافرون على الحقيقة: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٣] .

أى جَرَتْ سُنة الله فى الراسخين فى فسوقهم وتمرُّدهم، المُصرين على نفاقهم الذين أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للهداية، والله عزوجل لذلك لا يهديهم، عقوبة منه لأنهم لا يستحقونها[٤] .

۞ وأما ترتيب عدم الهداية بسبب الظلم: فقد ورد فى آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٥] .

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٢٤).

(٢) تفسير المنار (١٠/ ٢٣٦).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٨٠).

(٤) تفسير المنار (١٠/ ٥٦٧)، السنن الإلهية (١/ ١٨٢).

(٥) سورة الأحقاف: الآية: (١٠).

فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله ضَلَّ [١].

۞ ومن الآيات التي جاءت تبين أن الكفر سبب في الإضلال:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [٤].

وقال سبحانه وتعالى مبينًا أن التكذيب بآيات الله سبب في الضلال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ [٥].

وقال سبحانه وتعالى مبينًا أن الإجرام سبب في الضلال، وسبب في حلول سنة الله فيمن هذه صفته ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١ كَذَٰلِكَ

(١) فتح القدير (٥/ ١٦)، السنن الإلهية (١/ ١٨٢).
(٢) سورة التوبة: الآية: (٣٧).
(٣) سورة المائدة: الآية: (٦٧).
(٤) سورة الزمر: الآية: (٣).
(٥) سورة يونس: الآيتان: (٩٥، ٩٦).

نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾(١).

(٢) **الجحود:**

والجحود هو الإنكار مع العلم.. وهذا من أسباب الوقوع فى الضلال.

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٣).

﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾: بمنزلة التعليل لسلبه إياهم ما أنعم عليهم به من السمع والبصر والعقل، حتى وقعوا فى الضلال (٤).

وقال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

(١) سورة الحجر: الآيات: (١١-١٣).

(٢) سورة هود: الآية: (٥٩).

(٣) سورة الأحقاف: الآية: (٢٦).

(٤) السنن الإلهية (١/ ١٥١).

(٥) سورة النمل: الآيات: (١٢-١٤).

(٦) سورة الأنعام: الآية: (٣٣).

يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾(٣).

والختَّار: الذى هو فى غاية الغدر، ... والكَفور: الذى لا يشكر نعمة الله، بل يجحدها(٤).

وإذا كان مصير الجاحدين بآيات الله فى الدنيا الضلال والغواية فإن مصيرهم فى الآخرة الحسرة والندم، إذ يكونون من أصحاب النار(٥).

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(٦).

(٣) الشك والريبة:

وهذا هو مرض المنافقين ... فمرض المنافقين هو الشكّ وهو مرضٌ

---

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٤٧).

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان: (٤٨، ٤٩).

(٣) سورة لقمان: الآية: (٣٢).

(٤) تفسير القرطبى (٦/ ٥١٦٢، ٥١٦٣).

(٥) السنن الإلهية فى الحياة الاجتماعية (١/ ١٥٧).

(٦) سورة الأعراف: الآيتان: (٥٠، ٥١).

يُخرج القلب عن صحته .. لأن صحة القلب أن يكون عارفًا بالله مُحبًّا له مُؤْثِرًا له على ما سواه.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[(٣)].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك سببًا فى زيادة المرض فى قلوبهم، وعدم إيمانهم، فالمرض يُنشئ المرض، والإنحراف يبدأ يسيرًا ثم تنفرج الزاوية فى كل خطوة، سُنة لا تتخلف[(٤)].

وبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فى آية أخرى أنه يعاقب المنافقين الذين لا يوفون بعهودهم مع الله عَزَّوَجَلَّ بنفاقٍ مستمر فى قلوبهم إلى يوم لقائهم، وهذا حسب سنته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فى تأثير الأعمال على النفوس، وأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكِّن النفاق ويقويه فى القلب[(٥)].

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ

(١) سورة البقرة: الآية: (١٠).

(٢) سورة التوبة: الآيتان: (١٢٤، ١٢٥).

(٣) سورة غافر: الآية: (٣٤).

(٤) فى ظلال القرآن (١/ ٤٣) السنن الإلهية (١/ ٤٣).

(٥) روح المعانى (١٠/ ١٤٤)، تفسير المنار (١٠/ ٦٤٨).

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[1].

ثم قال ﷻ مبينًا أنه لا يهدى هؤلاء المنافقين، لأن سنته ﷻ جرت فى الممعنين فى فسوقهم، وتمردهم المصرين على نفاقهم الذين أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان والهداية[2].

قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[3].

(٤) الكبر:

۞ فالكبر من أعظم أسباب البعد عن طريق الهداية والوقوع فى طريق الضلال.

قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[4].

وقال النووى: الكبر هو الارتفاع عن الناس واحتقارهم ودفع الحق[5].

وقد وردت الآيات فى ذم الكبر والمتكبرين وهو سبب الضلال والإضلال.

۞ وتأمل معى كيف كان حال قوم نوح عليه السلام كما وصفهم نبيهم نوح عليه السلام.

---

(١) سورة التوبة: الآيات: (٧٥-٧٧).

(٢) تفسير المنار (١٠/ ٦٥٧)، السنن الإلهية (١/ ١٥٠).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٨٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى (٢/ ٩١).

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾(١)، فقوله: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا صوتى ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أى: غطوا بها وجوههم لئلا يرونى، وقيل جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامى فيكون استغشاء الثياب على هذا النحو زيادة فى سد الآذان(٢).

وقال عن ضلال اليهود بسبب كبرهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(٣).

وقال سبحانه وتعالى عن الكفار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(٤)، أى: يتعظمون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون.

وقال تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾(٥).

وقال عن كبر كفار قريش وامتناعهم لذلك عن الإيمان، كسابقيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾(٧).

---

(١) سورة نوح: الآية: (٧).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٩٧)، السنن الإلهية (١/ ١٦٤).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٨٧).

(٤) سورة الصافات: الآية: (٣٥).

(٥) سورة النحل: الآية: (٢٢).

(٦) سورة الفرقان: الآية: (٢١).

(٧) سورة لقمان: الآية: (٧).

وقال تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٢].

وإذا كان المتكبر يدفعه كبره ألا يسمع آيات الله، وإذا سمعها فلا ينظر فيها ولا يتدبرها، ولا ينقاد إلى ما تدعو إليه من الهدى، فإن ذلك يستتبع نتائجه فى عقله وغيبه، وذلك بصرف الله إياه عن الانتفاع بآياته سواء الكونية أو السمعية[٣].

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[٤].

ويعاقبه كذلك بالطبع على قلبه حتى يصير ذلك سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارقه ويغطى على قلبه ويستوثق منه فلا يدخله شيء من الهدى[٥]،... قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٦].

(٥) التأبِّي والعناد والتعنت:

۞ فمن الناس من ينطلق بقلبه وجوارحه فى طريق الإيمان والتوحيد،

---

(١) سورة الجاثية: الآية: (٨).

(٢) سورة المنافقون: الآية: (٥).

(٣) روح المعانى (٩/ ٦٠).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (١٤٦).

(٥) شفاء العليل (ص١٩٨، ١٩٩)، السنن الإلهية (١/ ١٦٥).

(٦) سورة غافر: الآية: (٣٥).

ومنهم من يأبى ويعاند ويتعنت.

۞ فمن أَبَى أن يسير فى طريق الإيمان فسوف يكون عُرضة للوقوع فى الضلال؛ لأنه ليس هناك طريق ثالث: إما كفر أو إيمان.

۞ فالتأبِّى عن الإيمان والوقوع فى معصية الله ومخالفة أوامره يؤديان بصاحبهما إلى الوقوع فى الضلال.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾[(١)].

ولذا قال ﷺ: «**كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى**»[(٢)].

وأما العناد فحالة نفسية تدفع بصاحبها إلى التأبى عن الانصياع للحق على سبيل المكابرة دون أن تكون لديه مبررات بذلك، حتى ولو كانت مبررات زائفة أو باطلة[(٣)].

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مبينًا أن العناد مانع عن الهدى وسبب فى الضلال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾[(٤)].

وقال مُبينًا الضلال ومصورًا شدة عناد الضالين.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) سورة طه: الآية: (٥٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٢٨٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٣) السنن الإلهية فى الحياة الاجتماعية (١/ ١٥٧).

(٤) سورة المدثر: الآية: (١٦).

(٥) سورة الحجر: الآيتان: (١٤، ١٥).

وقال سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1] ، وقد بلغ العناد من كفر قريش غايته، حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

وأما مثال التعنت ما كان من كفار قريش عندما طلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بآية من ست آيات اقترحوها، ولو عقلوا لأدركوا أن فى القرآن وفى الكون أضعافًا مضاعفة عن هذا العدد أو هذه الآيات التى طلبوها[3]، قال تعالى حاكيا قول كفار قريش: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[4].

(٦) الجهل واتباع الظن:

فمن أسباب الضلال: الجهل واتباع الظن.

۞ فأما اتباع الظن والذى هو مجرد حدس وخرص وأوهام والذى لا ينبنى على علم، فإنه ولا شك سبب من أسباب الضلال حسب سنته سبحانه وتعالى، فقد سجل القرآن الكريم فى كثير من الآيات على كفار قريش ضلالهم

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (٧).

(٢) سورة الأنفال: الآية: (٣٢).

(٣) تفسير الطبرى (١٥/ ١٥٩).

(٤) سورة الإسراء: الآيات: (٩٠-٩٣).

بسبب اتباعهم الظن كسابقيهم من الكافرين وذلك بجعل الأصنام شركاء لله، وبعبادتهم لها وزعمهم أنهم مجبورون فى ضلالهم هذا وغيهم[1].

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾[4] [5].

وقال تعالى مبينًا ضلال قوم ثمود: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[6].

وقال تعالى مبينًا ضلال من اتبع جهله، ونسب إليه سبحانه الولد.

قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾[7].

---

(١) روح المعانى (٨/ ٥١)، فى ظلال القرآن (٣/ ١٢٢٧).

(٢) سورة يونس: الآية: (٦٦).

(٣) سورة يونس: الآية: (٣٦).

(٤) سورةالجاثية: الآية: (٣٢).

(٥) السنن الإلهية فى الحياة الاجتماعية (١/ ١٣٢).

(٦) سورة الأحقاف: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٧) سورة الكهف: الآيتان: (٤، ٥).

وقال تعالى مُبينًا جهل كفار قريش بدعوتهم رسول الله ﷺ إلى عبادة ما يعبدون من الأصنام والأحجار والآلهة المزيفة المدعاة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[1].

(٧) الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين:

۞ ولعلَّ من أشهر ما ورد فى ذلك ما كان فى غزوة تبوك.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[2].

۞ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِى غَزْوَةِ تَبُوكَ فِى مَجْلِسٍ يومًا: مَا رَأَينا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ، لَا أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ!! فَقَالَ رَجُلٌ فِى الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِى ﷺ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾»[3].

۞ وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ مَخْشِى بْنُ حِمْيرٍ: لَوَدِدْتُ أَنِّى أُقَاضَى

---

(١) سورة الزمر: الآيات: (٦٢-٦٤).

(٢) سورة التوبة: الآيتان: (٦٥، ٦٦).

(٣) أخرجه الطبرى فى «جامع البيان» (١٠/ ١١٩)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩، ١٨٣٠).

عَلَى أَنْ يضْرَبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِائَةً عَلَى أَنْ ينْجُوَ مِنْ أَنْ ينْزِلَ فِينَا قُرْآنٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَمَّارِ بْنِ ياسِرٍ: «**أَدْرِكِ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا، فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ هُمْ أَنْكَرُوا وَكَتَمُوا، فَقُلْ: بَلَى، قَدْ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا**»، فَأَدْرَكَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فَجَاءُوا يعْتَذِرُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ فَكَانَ الَّذِى عَفَا اللهُ عَنْهُ: مَخْشِى بْنُ حِمْيرٍ، فَتَسَمَّى: عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يقْتَلَ شَهِيدًا لَا يعْلَمُ بِمَقْتَلِهِ فَقُتِلَ بِالْيمَامَةِ لَا يعْلَمُ مَقْتَلَهِ، وَلا مَنْ قَتَلَهُ وَلا يرَى لَهُ أَثَرٌ وَلا عَينٌ(١).

۞ وقال تعالى موضحًا عاقبة الاستهزاء:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾(٤).

وهكذا فإن الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين، يشغل صاحبه عن التدبر والتفكر فى دلائل الإيمان التى فى الوجود، وفى دلائل صدق رسول

---

(١) أخرجه ابن إسحاق فى «المغازى»؛ كما فى «الدر المنثور» (٤/ ٢٣١)- ومن طريقه ابن أبى حاتم فى «التفسير» (٦/ ١٨٣١).

(٢) سورة الكهف: الآية: (١٠٦).

(٣) سورة الفرقان: الآية: (٤١).

(٤) سورة المؤمنون: الآيتان: (١٠٩-١١٠).

الله ﷺ، ويشغله أيضًا عن الاعتبار بما أثَّر الإيمان فى نفوس أصحابه وحالهم وسلوكهم وأن ذلك الاستهزاء أيضًا يباعد بينه وبين صاحبه عن كل الدلائل والبينات ولا شك أن ذلك كله يُسلمه إلى الضلال والغى (١).

(٨) اتباع الشيطان :

۞ واتباع الشيطان من أعظم أسباب الضلال.

۞ وتخيل معى لو أن إنسانًا مارس عملًا معينًا خمسين عامًا - مثلًا - لأصبح فيه مُحنَّكًا بمداخله وطرق خفاياه.

۞ من حيل الشيطان :

فهذا إبليس - عليه لعنة الله - من يوم طرده من الجنة، حتى الآن ليس له عمل إلا إضلال الخلق وإغوائهم، فهذه المدة الطويلة، وتلك الخبرة المديدة، جعلته يخترع أفانين فى الإغواء والإضلال، فمن هذه الحيل:

۞ تزيين الباطل :

هذا هو السبيل الذى كان الشيطان، ولا يزال، يسلكه لإضلال العباد، فهو يُظهر الباطل فى صورة الحق، والحق فى صورة الباطل، ولا يزال بالإنسان يُحسِّن له الباطل، ويُكرهه فى الحق، حتى يندفع إلى فعل المنكرات، ويعرض عن الحق، كما قال اللعين لرب العزة: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٢).

۞ تسمية المعاصى بأسماء مُحببة :

ومن صور هذا التزيين تسمية الفواحش والمعاصى بأسماء مُحببة إلى

---

(١) السنن الإلهية (١/ ١٧٨)، فى ظلال القرآن (٤/ ٢٤٨٢).

(٢) سورة الحجر: الآيتان: (٣٩، ٤٠).

النفوس لكى يخفى خُبثها وفُحشها، فهو الذى سمى الشجرة بشجرة الخلد ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[(١)].

۞ تسمية الطاعات بأسماء مُنفرة:

هو الذى أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بتسمية رسول الله ﷺ بالساحر، والكاهن، والشاعر، والمسحور، والمجنون، وغيرها من الأسماء المنفرة.

وهو الذى أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بتسمية أتباع النبى بالصابئين، وما زال الشيطان يسير فى نفس الخطة وبتلك الوسائل حتى زماننا هذا.

فهو الذى أوحى إلى أوليائه بتسمية المتمسكين بهدى النبى ﷺ، والمستنين بسنته ظاهرًا وباطنًا بالمتطرفين والمتعصبين.

كما يسمون البعد عن المعاصى ودور الفسق والفجور انغلاقًا، ويسمون الحجاب الشرعى خيمة، ويسمون المرأة التى التزمت بأمر ربها وجلست فى بيتها رجعية ومتخلفة، كل ذلك من وحى الشيطان إليهم[(٢)].

۞ تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل:

وله فى ذلك أساليب وطرق، ففى الصحيحين عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم** -القافية: مؤخر الرأس- **إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله، انحلَّت عقدة، فإن توضأ، انحلت عقدة، فإن صلى، انحلت**

---

(١) سورة طه: الآية: (١٢٠).

(٢) وقاية الإنسان (١٤٧-١٤٨) بتصرف.

عقدة، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[١].

الوعد والتمنية:

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة، ويعللهم بالأمانى المعسولة؛ كى يوقعهم فى وهدة الضلال.

قال تعالى حاكيا عن قول الشيطان أنه قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٢] أى ولأضلنهم عن الحق ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أى: أزين لهم ترك التوبة وأعدهم الأمانى وآمرهم بالتسويف والتأخير، وأغرهم من أنفسهم ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

قال عدد من العلماء: يعنى تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبَحيرة والسائبة والوصيلة[٣]، وأما تغيير خلق الله: فهو دين الله، ومعنى تغيير الدين تحليل الحرام وتحريم الحلال[٤].

ومن الوعود الباطلة التى يعدها الشيطان لأتباعه: أنهم إذا أنفقوا فى سبيل الله فسيحل بهم الفقر[٥].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٢) كتاب الجمعة، ومسلم (٧٧٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) سورة النساء: الآيتان: (١١٩، ١٢٠).

(٣) صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٥).

(٤) السنن الإلهية فى الحياة الاجتماعية (١/ ١٢٢).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٢)، السنن الإلهية (١/ ١٢٦).

قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ ﴾(١).

وقد فسر ابن كثير: الفحشاء بالأمر بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخالق (٢).

۞ إظهار النُّصح للإنسان:

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية، يزعم أنه ينصح له ويريد خيره، وقد أقسم لأبينا على أنه ناصح له: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(٣).

۞ إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه:

ومن ذلك ما فعله بآدم، فما زال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربه: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾(٤)، وقال صاحب موسى لموسى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ ﴾(٥).

وإذا تمكن الشيطان من الإنسان تمكّنًا كُليًّا، فإنه يُنسيه الله بالكلية: ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾(٦)، وهؤلاء هم المنافقون.... وسبيل التذكر هو ذكر الله؛ لأنه يطرد الشيطان: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٢١).

(٤) سورة طه: الآية: (١١٥).

(٥) سورة الكهف: الآية: (٦٣).

(٦) سورة المجادلة: الآية: (١٩).

(٧) سورة الكهف: الآية: (٢٤).

۞ دخوله إلى النفس من الباب الذى تحبه وتهواه:

يقول ابن القيم فى هذا الموضوع: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، حتى يصادف نفسه ويخالطها ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس، إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره، فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود»[(١)].

۞ إلقاء الشبهات:

ومن أساليبه فى إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات، وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التى يلقيها، ففى حديث البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتهِ»[(٢)].

۞ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[(٣)].

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ١٣٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٧٦) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٣٤) كتاب الإيمان.

(٣) سورة المائدة: الآيتان: (٩٠- ٩١).

❁ **السحر:**

ومما يضل به الشيطان أبناء آدم (السحر)، فهم يعلمونهم هذا العلم، الذى يضر ولا ينفع ويكون هذا العلم سبيلًا للتفريق بين المرء وزوجه، والتفريق بين الزوجين: يَعدُّه الشيطان من أعظم الأعمال التى يقوم بها جنوده.

❁ وقد أخبر الحق (جل وعلا) أن من بنى آدم من يصل إلى درجة من الضَّلال فيستولى عليه الشيطان ويصبح العبد مواليًا له حتى يستحوذ عليه الشيطان فيصبح ذلك العبد من حزب الشيطان.

❁ **وها أنا أذكر لكم تلك الصور الثلاثة:**

(أ) **الاستهواء:**

ومن الناس من يضله الشيطان بعد أن كان قد عرف الإيمان وذاقه، وقد صور الله حالة هذا الذى استهواه الشيطان بعد أن كان مؤمنًا.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١].

فالذى استهوته الشياطين هو الذى استغوته وزيَّنت له هواه ودعته إليه، يقال: هوى يهوى إلى الشيء أسرع فيه، بعد أن كان مؤمنًا[٢].

ولفظ الاستهواء لفظ مصور ويا ليته يتبع هذا الاستهواء فى اتجاهه فيكون فى اتجاه واحد، وهو الضلال، ولكن هناك من الجانب الآخر أصحاب يدعونه إلى الهدى يقولون: ائتنا فلا يجيبهم ولا يهتدى بهديهم، وهو بين هذا الدعاء وهذا الاستهواء فى حيرة واضطراب وضلالٍ وتيه[٣].

(١) سورة الأنعام: الآية: (٧١).

(٢) تفسير القرطبى (٣/ ٢٤٥٤).

(٣) فتح القدير للشوكانى (٢/ ١٣٠) فى ظلال القرآن (٢/ ١١٣٢).

(ب) الموالاة:

ومن الناس من يتخذ الشيطان وليًّا ونصيرًا ومُعينًا من دون الله، يلتجئ إليه ويدعوه،... قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

وقد قضى الله عَزَّوَجَلَّ فيمن تولى الشيطان أن يضله عن الصراط المستقيم ويهديه إلى عذاب الجحيم[2].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3]

(ج) الاستحواذ:

ويبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فريقًا من الذين يضلهم الشيطان وهؤلاء الذين يستولى عليهم استيلاء تامًّا، ويغلب على عقولهم وقلوبهم بوسوسته، وتزيينه حتى يتبعوه فى كل ما يأمرهم به، ويصبحون أداة طيِّعة للشيطان، فيُنسيهم ذكر الله بقلوبهم وألسنتهم[4].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٨ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾[5].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٣٠).

(٢) السنن الإلهية (١/ ١٢٨).

(٣) سورة الحج: الآيتان: (٣، ٤).

(٤) السنن الإلهية (١/ ١٢٨).

(٥) سورة المجادلة: الآيتان: (١٨، ١٩).

عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1].

(٩) اتباع الهوى:

فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يُدبَّر الكون كله فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض ولا تتخلف سُنته لرغبة طارئة، ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى والحب والبغض والرغبة والرهبة والنشاط والخمول وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات،... وبناء الكون - وبما فيه الإنسان - يحتاج إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد[2].

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) سورة يس: الآيات: (٦٠-٦٢).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٧٥).

(٣) سورة ص: الآية: (٢٦).

(٤) سورة الجاثية: الآية: (٢٣).

يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾[(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾[(٢)].

وهذه السنة ... سنة الله فى إضلال من اتبع هواه تحققت فى أقوام سابقة وستمضى دائمًا فى كل قوم يتبعون أهوائهم ويحيدون عن الحق.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[(٤)].

ومن المواطن التى حذر الله عَزَّوَجَلَّ عباده من اتباع الهوى فيها ما جاء فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[(٥)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٦)].

---

(١) سورة القصص: الآية: (٥٠).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١١٩).

(٣) سورة القصص: الآية: (٥٠).

(٤) سورة النازعات: الآيتان: (٤٠، ٤١).

(٥) سورة النساء: الآية: (١٣٥).

(٦) سورة المائدة: الآية: (٧٧).

وقد حذر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يُؤْثِر هواه فى قضائه بين الناس على الحق والعدل فيه فيكون نتيجة ذلك ميله عن طريق الله الذى جعله الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الإيمان به فيكون من الهالكين بضلاله عن سبيل الله قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

وقال تعالى محذرًا خاتم الأنبياء والمرسلين من طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه المتقلب وآثره على الحق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

وقال تعالى مبينًا عدم اتباع الرسول ﷺ للهوى تجنُّبًا لما يستتبعه الهوى من الضلال: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

وهكذا يتبين لنا بجلاء أهمية الهوى، وإن الوقوع فى ذلك وقوع فى الضلال وبالتالى الوقوع فى الفساد الشامل للسماء والأرض ومن فيهم كما

---

(١) سورة ص : الآية: (٢٦).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٢٨).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (٥٦).

(٤) سورة الأعراف: الآيتان: (١٧٥-١٧٦).

قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[١].

(١٠) **عدم التفكر في آيات الله (جلَّ وعلا):**

فإنَّ التفكُّر فى آيات الله يفتح القلوب لنعمة الهداية ... والإعراض عن التفكُّر فى آيات الله قد يكون عونًا على عدم قبول الهدى.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾[٢]. فهم قد نفروا عن الهدى الذى فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحُمُر عما يُهلكها، ويعقرها وهم فى جهلهم هذا كالحمر التى لا تعقل شيئًا.

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[٣].

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[٤]. فبيَّن سبحانه عدم انتفاعهم بآيات الهدى.

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[٥].

فشبَّه أكثر الناس بالأنعام ... والجامع بين النوعين التساوى فى عدم قبول الهدى والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام، لأن

---

(١) سورة المؤمنون: الآية: (٧١).

(٢) سورة المدثر: الآيات: (٤٩-٥١).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (١٩٨).

(٥) سورة الفرقان: الآية: (٤٤).

البهيمة يهديها سائقها فتهتدى وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون، ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتُؤْثِره، ... والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة، والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدى إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالًا ممن لا يهتدى حيث لا دليل معه[1].

(١١) الابتداع في الدين:

إنهما طريقان لا ثالث لهما .. إما طريق الهداية أو طريق الضلالة... إما طريق السُّنة أو طريق البدعة.

والبدعة طريقة فى الدين مُختَرَعة تضاهى الشرعية يُقصَد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية[2].

قال ﷺ: «**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور مُحدثاتها وكل بدعة ضلالة**»[3]، فقوله: «**كل بدعة ضلالة**»: هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شىء، وهو أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله ﷺ: «**من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[4] فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو

(١) أعلام الموقعين لابن القيم (١/ ١٥٩).

(٢) الاعتصام للشاطبى (١/ ٣٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٦٧) كتاب الجمعة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

ضلالة، والدين برىء منه، وسواء فى ذلك الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة [(١)]... وعن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن أُمِّر عليكم عبدٌ حبشيٌّ، فإنه مَن يَعِش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا وعضوا عليه بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»[(٢)].

۞ وفى رواية: «**إياكم ومُحدثات الأمور فإنَّها ضلالة**».

۞ ولذلك قال تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[(٣)].

۞ قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فى تفسيره لهذه الآية:

«قوله: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** ..﴾.

أى: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قُبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان، أى: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطنًا وظاهرًا ﴿**أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾.

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٢٣٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٣) سورة النور: الآية: (٦٣).

أى: فى قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أى: فى الدنيا بقتل أو حَدٍّ أو حبس أو نحو ذلك»[١]. اهـ.

۞ ولقد جاء التحذير من البدع فى أحاديث كثيرة منها:

۞ عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٢].

ولفظ مسلم: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٣].

۞ ولا بُدَّ أن نعلم أن المُبتدع يُحرَم من الشرب من حوض النبى ﷺ.

قال ﷺ: «**إنى فرطكم على الحوض، مَن مرَّ بى شرب، ومَن شرب لم يظمأ أبدًا، وليَرِدنَّ علىَّ أقوام أعرفهم ويعرفونى، ثم يُحال بينى وبينهم، فأقول: إنهم منى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقًا سُحقًا لمن بدَّل بعدى**»[٤].

- وفى رواية لمسلم قال ﷺ: «**ترد علىَّ أمتى الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله**»، قالوا: يا نبى الله تعرفنا؟ قال: «**نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون علىّ غُرًّا مُحجلين من آثار الوضوء، وليصدنَّ عنى طائفة منكم، فلا يصلون، فأقول: يا رب هؤلاء من أصحابى! فيجيبنى ملك فيقول: وهل تدرى ما أحدثوا بعدك**»[٥].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٧٥٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٩٧) الصلح، ومسلم (١٧١٨) الأقضية.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧١٨) الأقضية، ورواه البخارى تعليقًا فى الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٨٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩١) كتاب الفضائل.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٤٧) كتاب الطهارة.

(١٢) صحبة السوء والبيئة الفاسدة:

۞ فكم من صاحب أردى صاحبه وأخذه بيديه إلى طريق الضلال والهلاك .... وكم من كافر حجبه صاحبه عن الإسلام .. وكم من عاصٍ حجبه صاحبه عن التوبة والعودة إلى الله (جلَّ وعلا).

۞ وها هو عقبة بن أبى مُعيط الذى كاد أن يُسلم لولا صاحبه أُبى بن خلف الذى حجبه عن نور الهداية.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

۞ عَنْ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ أَبَا معيط كَانَ يجلس مَعَ النَّبِى ﷺ بِمَكَّة لَا يؤْذِيه، وَكَانَ رَجُلًا حَلِيمًا، وَكَانَ بَقِية قُرَيش إِذا جَلَسُوا مَعَه آذوه، وَكَانَ لأبى معيط خَلِيلٌ غَائِب عَنهُ بِالشَّام، فَقَالَت قُرَيش: صبا أَبُو مُعَيطٍ، وَقدِم خَلِيله من الشَّام لَيلًا، فَقَالَ لامْرَأَته: مَا فعل مُحَمَّد مِمَّا كَانَ عَلَيهِ؟ فَقَالَت: أَشد مِمَّا كَانَ أمرًا. قَالَ: مَا فَعَلَ خَلِيلِى أَبُو معيط؟ فَقَالَتْ: صَبَأَ. فَبَاتَ بِلَيلَةِ سُوءٍ! فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَاهُ أَبُو مُعَيطٍ فَحَياهُ، فَلم يرد عَلَيهِ التَّحِية، فَقَالَ: مَالك لَا ترد على تحيتى؟ فَقَالَ: كَيفَ أرد عَلَيك تحيتك وَقد صَبَوْتَ؟ فَقَالَ: أَوَقد فعلتها قُرَيش؟ قَالَ: نعم. قَالَ: فَمَا يبْرِّئُ صُدُورهمْ إِن أَنا فعلت؟ قَالَ: تَأْتِيهِ فِى مَجْلِسِهِ وَتَبْزُقُ فِى وَجهه، وَتَشْتُمُه بأخبث مَا تعلمه من الشتم. فَفعل، فَلم يزدْ النَّبِى ﷺ أَن مسح وَجهه من البُزَاق، ثمَّ الْتفت إِلَيهِ فَقَالَ: «**إِن وَجَدْتُك خَارِجًا من جبال مَكَّة أَضْرب عُنُقك صبرًا**»، فَلَمَّا كَانَ يوْم بدر

---

(١) سورة الفرقان: الآيات: (٢٧-٢٩).

وَخرج أَصْحَابه أَبى أَن يخرج، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابه: اخْرُج مَعنا، قَالَ: قد وَعَدَنى هَذَا الرجل إِن وجدنى خَارِجًا من جبال مَكَّة أَن يضْرب عنقِى صبرًا، فَقَالُوا: لَك جَمَلٌ أَحْمَر لَا يدْرَك، فَلَو كَانَت الْهَزِيمَة طرت عَلَيهِ فَخرج مَعَهم، فَلَمَّا هزم الله الْمُشْركين وَحل[1] بِهِ جمله فِى جدد من الأَرْض، فَأَخذه رَسُول الله ﷺ أَسِيرًا فِى سبعين من قُرَيش، وَقدم إِلَيهِ أَبُو معيط، فَقَالَ: تقتلنى من بَين هَؤُلَاءِ قَالَ: «**نعم، بِمَا بزَقت فِى وَجْهى**» فَأنْزل الله فِى أبى معيط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[2].

ويصور القرآن الكريم جانبًا من وسوسة صاحب السوء لصاحبه بقوله: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[3] على سبيل الاستهجان والاستبعاد للبعث والحساب، ثم يبين أنه لولا فضل الله على ذلك الصاحب وعدم استجابته له لكان هو وإياه فى سواء الجحيم[4].

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى

---

(١) الوحل: الطين الرقيق - ووحل الرجل، أى: وقع فى الوحل. اهـ «مختار الصحاح» باختصار.

(٢) قال الشيخ مقبل بن هادى الوادعى رحمه الله فى الصحيح المسند من أسباب النزول (ص: ١٧٤- ١٧٥): الحديث لم يتيسر لى الوقوف على سنده، لكن فى «مصنف عبد الرزاق» (ج٥ ص: ٣٥٥، ٣٥٦) و«تفسير ابن جرير» قصة تشبهها وهى مرسلة، لكن بدل عقبة بن أبى معيط، أُبى بن خلف.

وفى تفسير عبد الرزاق (ج١ ص: ٦٨) من طريق مقسم، عن ابن عباس، متصلة، لكن فى الإسناد عثمان الجزرى، لا يرتقى حديثه إلى الحُجِّية. ونحن الآن متوقفون من الحكم عليه، لأن السيوطى رحمه الله متساهل.

(٣) سورة الصافات: الآيتان: (٥٢، ٥٣).

(٤) فى ظلال القرآن (٥/ ٢٩٨٧، ٢٩٨٨).

قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[١]، فمخالطة أهل السوء ومصاحبتهم ضلال، أو سبيل إليه، ومقاربة منه[٢].

(١٣) الذنوب والمعاصي:

فما نزل بلاء إلا بذنب ولا رُفع إلا بتوبة.

❁ فالذنوب سببٌ فى مرض القلب .. وهى سببٌ فى تغليف القلب بالران الذى يمنع من دخول الإيمان فى قلب صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[٣]. أى ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين،... بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الران الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا[٤].

❁ بل إن الذنوب تكون سببًا فى الطبع على القلب فلا يدخله الإيمان.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[٥].

---

(١) سورة الصافات: الآيات: (٥٠-٥٧).

(٢) السنن الإلهية (١/ ٢٠٠).

(٣) سورة المطففين: الآيات: (١٢-١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٥)، فتح القدير (٤/ ٤٠٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية: (١٠٠).

(١٤) حب الدنيا والاغترار بها واتخاذها لهواً :

فالترف الزائد فى متاع الدنيا يجعل القلب متعلقًا بالدنيا ناسيا للآخرة بعيدًا عن طريق الهداية، قريبًا من طريق الضلالة.

ولذا قال تعالى موضحًا أن المُترفين هم أكثر الناس صدودًا وإعراضًا عن دعوة المرسلين.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٢].

۞ فحب الدنيا والانغماس الزائد فى متاعها الزائل يجعل العبد منغمسًا فى الشهوات التى تُفسد القلب وتُفسد الفطرة وتسد منافذ الهداية.

ولذا قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[٥].

---

(١) سورة هود: الآية: (١١٦).

(٢) سورة سبأ: الآية: (٣٤).

(٣) سورة النجم: الآية: (٢٩).

(٤) سورة القيامة: الآيتان: (٢٠، ٢١).

(٥) سورة إبراهيم: الآية: (٢، ٣).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى مسجلًا على الكافرين بسبب غرورهم بالدنيا: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾[2].

(١٥) الجدال في الله وآياته بغير علم:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[5].

---

(١) سورة يونس: الآية: (٨٨).

(٢) سورة الجاثية: الآية: (٣٥).

(٣) سورة الحج: الآيتان: (٨، ٩).

(٤) سورة غافر: الآية: (٥٦).

(٥) سورة غافر: الآيتان: (٣٤، ٣٥).

فمن أعظم أسباب الضلال: الجدال في توحيد الله وصفاته، وشرعه، وقدره، وكتابه، واليوم الآخر بغير علم، يدفعهم لذلك الكبر، والجهل، والحسد والتعصب، ويزعمون للناس ولأنفسهم أنهم إنما يناقشون ويجادلون، لأنهم لم يقتنعوا بالحق، وأنهم غير مستيقنين فيه[١].

(١٦) التشبه بالضالين:

۞ فإن التشبه في الظاهر بأهل الضلال يقتضي أن يكون القلب قد امتلأ بمحبتهم .. ومن ثَمَّ فإنَّ العبد إذا أحب أهل الضلال وتشبه بهم فإنه بلا شك سيسلك طريق الضلال، وسينغمس معهم في شهواتهم وملذاتهم الدنيوية الفانية.

بل ويكون الخطر الأعظم بأن يُحشر معهم يوم القيامة.

قال ﷺ: «**من تشبه بقومٍ فهو منهم**»[٢].

وفي رواية: «**من تشبه بقومٍ حُشر معهم**».

(١٧) التقليد:

۞ إن التقليد شيء جميل إذا كنت تُقلد رجلًا مؤمنًا في إيمانه وطاعته لله .. أو أن تُقلد عالمًا، وذلك بأن تسير على خُطاه في طلب العلم والدعوة إلى الله (جلَّ وعلا).

۞ أما التقليد المذموم فهو تقليد الكافرين في كفرهم، أو تقليد الآباء إذا كانوا على باطل .. أما إن كانوا على الحق فما أجمل أن تقلدهم وتسير خلفهم على طريق الحق.

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٨٩). السنن الإلهية (١/ ١٣٢).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٩).

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٩) قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[2].

لقد كانت حجة الكافرين بالله المعرضين عن الانتفاع بالآيات التى جاءهم بها الأنبياء، قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾[3]، وهى مقولة تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة ... إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبُّر ولا تفكُّر ولا حجة ولا دليل، وهى صورة مزرية تشبه صورة القطيع حيث هو منساق ولا يسأل أين يمضى ولا يعرف معالم الطريق[4]. إنها: طبيعة الجمود العقلى الذى تطبعه الوثنيات فى العقول، لا يفكر أصحابها فيما يعبد آباؤهم ما قيمته؟ وما حقيقته؟ وماذا يساوى فى معرض النقد والتفكير[5]؟

ومن الأقوام التى حدثنا القرآن الكريم عنها، وكان من أسباب ضلالها

---

(١) سورة الزخرف: الآية: (٢٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآيتان: (٩-١٠).

(٣) سورة الزخرف: الآية: (٢٢).

(٤) فى ظلال القرآن (٥/ ٣١٨٢).

(٥) المصدر نفسه (٤/ ٢٠٩١)، السنن الإلهية فى الحياة الإجتماعية (١/ ١٤١).

تقليد الآباء ... قوم نوح عليه السلام الذين قابلوا دعوة نبيهم بالرفض والجحود بدون دليل أو سند سوى أنهم لم يسمعوا بمثل دعوته فى آبائهم الأولين وكأن الحجة والدليل هو ما سمعوه من آبائهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] .

وقوم عاد يَعجبون مما ليس منه عجب، وينكرون على نبيهم أن يأتيهم بعبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الآلهة المتفرقة التى كان يعبدها آباؤهم الأولون فيسألون منكرين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾[2] .

وبنفس العلة والحجة رفضت ثمود دعوة أخيهم ونبيهم صالح عليه السلام وجعلوا ما عليه الآباء والأجداد سواء أكانوا سابقين أو حاضرين حُجة تمنعهم من الإيمان[3] .

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[4] .

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان: (٢٣، ٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٧٠).

(٣) السنن الإلهية (١/ ١٤٣).

(٤) سورة هود: الآيتان: (٦١، ٦٢).

وكذلك نجد قوم إبراهيم يصرون على عبادة التماثيل التى لا تضر ولا تنفع ولا يجدون جوابًا لسؤال نبيهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[1] إلا أن قالوا: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[2]، هذا هو الجواب.

وهو جواب يدل على التحجر العقلى والنفسى داخل قوالب التقليد، فى مقابلة حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية،... فالإيمان بالله يحرر الإنسان من القدسات الوهمية التقليدية والوراثات المتحجرة التى لا تقوم على دليل[3].

وقوم شعيب يقولون لنبيهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[4].

وقابل فرعون وملؤه دعوة موسى عليه السلام بالتقليد الأعمى المزرى الذى يسيطر على العقول فيجعلها لا تفكر، وعلى البصائر فيقفلها فلا يجعلها تنظر أو تعتبر: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾[5].

وأما كفار قريش فقد قال تعالى حاكيًا أقوالهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٥٢).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٥٣).

(٣) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٣٨٥).

(٤) سورة هود: الآية: (٨٧).

(٥) سورة يونس: الآية: (٧٨).

(٦) سورة المائدة: الآية: (١٠٤).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾[2].

والقرآن الكريم وهو يدعو إلى هذا التحرر والتفكير يسوق الأدلة والآيات والحجج والبراهين التى تبرهن وتثبت أنه دين الله الذى فيه نجاة البشر جميعًا من الظلمات إلى النور [3].

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[5].

فمن تدبرها وعقلها وصل إلى الحق واهتدى ... ومن هنا فقد كان سبيل المؤمنين المهتدين هو الاتباع عن بصيرة وبتدبر وتعقُّل[6]، كما قال موسى عليه السلام عندما سأله فرعون ... قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان: (٢١، ٢٢).

(٢) سورة سبأ: الآية: (٤٣).

(٣) تفسير المنار (٢/ ٢٧)، السنن الإلهية (١/ ١٤٧).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (٢٠٣).

(٥) سورة البقرة: الآية: (١٥١).

(٦) السنن الإلهية فى الحياة الاجتماعية (١/ ١٤٧).

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ (١) .

وكما قال يوسف عليه السلام متبعًا ملة آبائه ولكن عن بصيرة ويقين (٢).

قال تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣).

وهكذا أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم عليه السلام... قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥).

فاتباع الآباء واقتفاء آثار السابقين من الذين هداهم الله عن بينة ودليل هو سبيل الهداية، كما قال تعالى بعد أن ذكر أنبياء الله الذين هداهم من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس، ولوطًا ومن آبائهم وذرياتهم.

(١) سورة طه: الآيات: (٤٩-٥٤).

(٢) تفسير المراغي (١٢/ ١٧٤).

(٣) سورة يوسف: الآيات: (٣٧-٣٩).

(٤) سورة الأنعام: الآيات: (١٦١-١٦٤).

(٥) سورة النحل: الآية: (١٢٣).

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾[١].

وأما اتباع الأبناء للآباء والأجداد وتقليدهم والتمسك بآرائهم، ومحاكاتهم فى كل أقوالهم وأعمالهم من غير بينة ولا حجة ظنًّا منهم أنَّهم على الحق، دون النظر فى أدلة من يدعوهم إلى الهدى، ويقيم الدلائل والبينات على صحة ما يدعوا إليه وهو الضلال، وهو سبيل الكافرين، وعلة الإعراض عن الإيمان بالله والسير على طريق الهدى الذى ارتضاه للناس[٢].

(١٨) التعصب:

فإنَّ التعصب يُعمى العين والقلب عن رؤية الحق فضلًا عن الإيمان به.

قال تعالى مبينًا تعصب كل من طائفتى اليهود والنصارى لنفسها وزعم كل طائفة منهما أنها على الحق دون غيرها،... فكفر اليهود بعيسى عليه السلام رغم أنه منهم، وقد كانوا ينتظرونه لإعادة مجدهم وعزهم تعصُّبًا.

وقالت النصارى: أن اليهود ليسوا على شىء حقيقى من الدين لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم[٣].

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (٩٠).

(٢) السنن الإلهية (١/ ١٤٩).

(٣) تفسير المنار (١/ ٤٢٩).

عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[١].

۞ وقال تعالى موضحًا أثر التعصب الممقوت فى ضلال اليهود وعدم إيمانهم ورفضهم اتباع الرسول ﷺ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢].

(١٩) الغلو في الصالحين:

إن الإفراط والغلو فى تعظيم الأنبياء والصالحين بالقول والاعتقاد والفعل وتجاوز الحد والحق فى منزلتهم التى أنزلهم الله إياها من ادِّعاء الألوهية لهم أو صرف شىء من العبادة لا تنبغى إلا لله لهم مثل التشريع والذبح والتضرع والدعاء إلى غير ذلك من أنواع العبادات سبب فى الضلال[٣].

فأما عن ضلال اليهود والنصارى بسبب غلوهم، فقد قال تعالى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة: الآيات: (١١١-١١٣).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٩١).

(٣) السنن الإلهية (١/ ١٩٥).

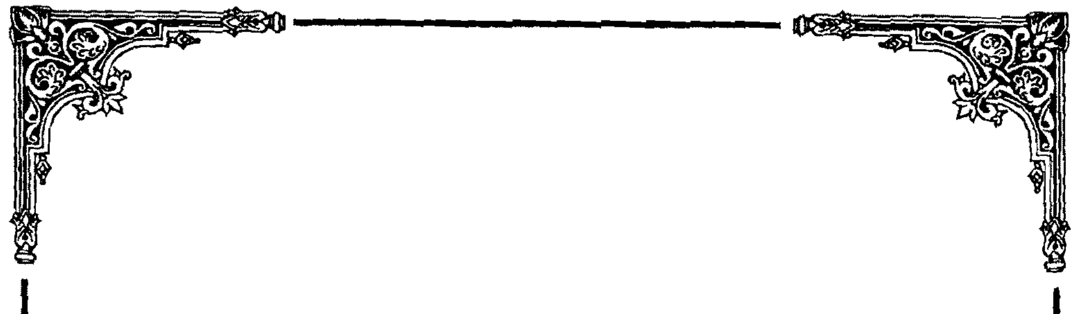
(٤) سورة التوبة: الآيتان: (٣٠، ٣١).

وقال سبحانه وتعالى عن غلو النصارى فى عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[(١)].

---

(١) سورة النساء: الآية: (١٧١).

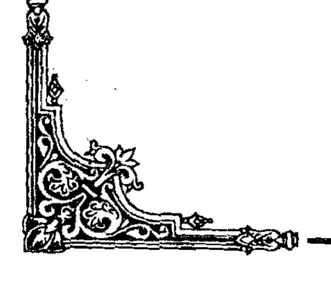




۞ الحكمة والتحسين والتقبيح.

۞ وتكليف ما لا يُطاق.

۞ وقدرة الله عز وجل.







الحكمة والتحسين والتقبيح وتكليف ما لا يُطاق ... وقدرة الله عَزَّوَجَلَّ



أولاً: الحكمة في أفعال الله وشرعه:

(١) الله الحكيم الحكم الحاكم:

من أسماء ربنا (جلَّ وعلا) التى عرَّف بها نفسه إلى عباده، وذكرها فى كتابه، وعلى ألسنة رسله وأنبيائه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وقد ورد هذا الاسم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أربعًا وتسعين مرة فى القرآن الكريم، كما فى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١)، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢)، ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٣)، ﴿وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾(٥).

فهذا دليل على أن اسمه أيضًا «الحكم»، وقد جاء فى خمسة مواضع بصيغة الجميع منها: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(٦)، و﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(٧)، و ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(٨).

و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الذى يحكم الأشياء ويتقنها ويضعها فى موضعها.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٢).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٢٩).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (١٨).

(٤) سورة النساء: الآية: (١٣٠).

(٥) سورة الأنعام: الآية: (١١٤).

(٦) سورة الأعراف: الآية: (٨٧).

(٧) سورة هود: الآية: (٤٥).

(٨) سورة التين: الآية: (٨).

كما قال سبحانه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[١] ....، و«الحكيم» هو الذى يضع الشىء فى موضعه بقدره، فلا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص، مع ما له فى ذلك من الحكم البالغة العظيمة التى لا يأتى عليها الوصف، ولا يدركها الوهم[٢].

فالحكيم الذى لا يدخل تدبيره ولا شرعه خَلل ولا زَلل، وأفعاله وأقواله تقع فى مواضعها بحكمة وعدل وسداد، فلا يفعل إلا الصواب ولا يقول إلا الحق[٣].

وأما «الحكم» فهو مَن له الحكم والسلطان والقدر، فلا يقع شىء إلا بإذنه وهو المدبر والمتصرِّف ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[٤].

و«الحكم» أيضًا مَن له التشريع والتحليل والتحريم،... فالحكم ما شرع الله، والدين ما أمر ونهى، لا معقب لحُكمه ولا راد لقضائه، فاجتمع فى الاسم «القدر» و«الشرع» ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٥].

وحين يقول: ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ و﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فإن ذلك تأكيد على عدله ورحمته ووضعه الأشياء فى موضعها، فليس فى قَدَرِه ظُلم ولا تعسُّف، وليس فى شرعه محاباة ولا تحيُّز، بل هو حفظ للحقوق، حقوق الحاكم والمحكوم، والرجل والمرأة، والبَرِّ والفاجر، والمسلم والكافر، والقوى والضعيف، وفى كل الأحوال حربًا وسِلمًا، وعلى كل أحد دون

---

(١) سورة النمل: الآية: (٨٨).

(٢) مع الله / د. سلمان العودة (ص١٨٣).

(٣) المصدر نفسه (ص١٨٥، ١٨٦).

(٤) سورة الرحمن: الآية: (٢٩).

(٥) سورة الأعراف: الآية: (٥٤).

استثناء، ولذا وجب على كل مسلم تحكيم كتابه وسنة نبيه ﷺ في دقيق أموره وجلِّها على الصعيد الفردى والجماعى، والأُسرى، الخاص والعام، والسياسة والاقتصاد والاجتماع والإعلام، وكل شيء من حكمه وحكمته: أنه عدل لا يظلم أحدًا، ولا يُحمِّل هذا وزر ذاك، ولا يجازى العبد بأكثر من ذنبه، ولا يَدَعْ مُحسنًا إلا أثابه على إحسانه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[1][2].

(٢) **المراد بالحكمة:** الغايات المحمودة المقصودة بفعل الله وشرعه، وهى مُقدمة في العلم والإرادة، متأخرة في الوجود والحصول، أى أنها تترتب على الأحوال والأفعال وتحصل بعدها [3].

❁ **والحكمة تتضمن شيئين:** أحدهما: حكمة تعود إلى الله يحبها ويرضاها، فهى صفة له تقوم به، لأن الله لا يوصف إلا بما قام به، وهى ليست مطلق الإرادة، وإلا لكان كل مريد حكيمًا ... ولا قائل به.

ثانيهما: حكمة تعود إلى عباده،... هى نعمة يفرحون ويلتذون بها فى المأمورات والمخلوقات والحكمة لا يحيط بها علمًا إلا الله تعالى، وبعضها معلوم للخلق وبعضها مما يخفى عليهم.

❁ **والحكمة فى أفعال الله تعالى نوعان** [4] **:**

- حكمة مطلوبة لذاتها، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٣٠).

(٢) مع الله / د. سلمان العودة (ص١٨٧، ١٨٨).

(٣) منهاج السنة (١/ ١٤١) أعلام الموقعين (١/ ١٩٧ - ٢٠١).

(٤) شفاء العليل لابن القيم (ص٣٢٢)، مسائل أصول الدين المبحوثة فى علم أصول الفقه / د. خالد محمد نور عبد الله (١/ ٤٥٣).

إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[(١)].

- وقوله (جل وعلا): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾[(٢)].

فبيَّن الله أن الحكمة من خلقه الجن والإنس ليعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئًا، وهذا أمر محبوب لله تعالى ومطلوب له،... وكذلك بيَّن أن من حكمة خلقه السماوات والأرض وتدبيره لهما علم العباد بقدرة الله وعلمه سبحانه.

- حكمة مطلوبة لغيرها وتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه ويوضحها قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[(٣)]، فاللام فى قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ ﴾ دالَّة على الحكمة من قوله المذكور وهو امتحان بعض خلقه ببعض.

فكبراء القوم يأنفوم ويستكبرون عن قبول الحق عند رؤيتهم ضعفاء قد أسلموا فيقولون عند ذلك: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ ﴾، فهذا القول بعض الحكمة المطلوبة بهذا الامتحان، وهى وسيلة إلى مطلوب لنفسه، فامتحان الله لهؤلاء يترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء، وذلك يوجب آثار مطلوبة للفاعل من إظهار عدله، وحكمته وعزته، وقهره وسلطانه، وعطائه من يستحق عطاءه ويحسن وضعه عنده ومنعه من يستحق المنع، ولا يليق به غيره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الذاريات: الآية: (٥٦).

(٢) سورة الطلاق: الآية: (١٢).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (٥٣).

(٤) مسائل أصول الدين المبحوثة فى علم أصول الفقه (١/ ٤٥٢).

(٣) الحكمة الحاصلة من الشرائع:

وأما الحكمة الحاصلة من الشرائع فثلاثة أنواع:

۞ **النوع الأول**: حكمة حاصلة من الأمر بفعلٍ مشتمل على مصلحة معلومة بأصل الفطرة والعقل، كالعدل والإحسانً، والصدق، أو حاصلة من النهى عن فعلٍ مشتمل على مفسدة معلومة بأصل الفطرة والعقل، كالظلم والكذب،... فالعدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم يشتمل على فسادهم، والشرع فى أمره بالعدل ونهيه عن الظلم ولم يثبت للفعل صفة لم تكن ولكن لا يلزم من حصول القبح فى الفعل بالعقل أن يكون فاعله مُعاقبًا فى الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك.

۞ **النوع الثانى**: حكمة حاصلة من الأمر بفعل، أو النهى عن فعل بحسب اشتماله على المصلحة والمفسدة التى لا تعرف بخطاب الشرع، فيكون الفعل قد اكتسب صفة الحُسن والقُبح بخطاب الشرع، كالتجرد فى الإحرام والتطهر بالتراب، والسعى بين الصفا والمروة، ورمى الجمار، ونحو ذلك.

۞ **النوع الثالث**: حكمة يكون منشؤها من الأمر لا من المأمور به، فيكون المراد من الأمر الابتلاء والامتحان ولا يكون المراد فعل المأمور به ومثاله: أمر الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذبح ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأراد الله ابتلاء خليله إبراهيم بعد أن رزقه الولد حتى يكون قلبه كله لله، ولم يكن تحقق ذبح ولده مُرادًا لله، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾[١] فلما تحقق ما أراده الله نسخ الأمر وهو لم يكن مريدًا وقوع ذبح ابنه.

۞ وزاد ابن القيم نوعًا رابعًا، وهو ما نشأت المصلحة فيه من الفعل المأمور به والأمر معًا ... ومثاله: الصوم والصلاة والحج وإقامة الحدود وأكثر الأحكام الشرعية، فإن مصلحتها ناشئة من الفعل والأمر معًا، فالفعل يتضمن مصلحة والأمر به يتضمن مصلحة أخرى، فالمصلحة فيها من وجهين[٢].

(٤) الأدلة الدالة على الحكمة:

والأدلة الدالة على الحكمة كثيرة جدًّا ذكرها العلماء والفقهاء فى كتبهم،... وقد حاول الإمام ابن القيم حصرها بأنواعها بعد أن ذكر أن آحاد الأدلة كثيرة يصعب سردها كلها وقد أوصلها إلى اثنين وعشرين نوعًا.

ومن هذه الأدلة:

۞ النوع الأول: وهو أعلاها، ما ورد فيه التصريح بلفظ الحكمة.

قال تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾[٣]، أى أن الله أرى الكافرين فى آياته - وهى هنا انشقاق القمر - وأتاهم بأنباء زاجرة لهم عن غيِّهم وضلالهم، كل ذلك حكمة منه سبحانه لتقوم حجته على العاملين، ولا يبقى لأحدٍ على الله حُجة بعد الرسل.

---

(١) سورة الصافات: الآيات: (١٠٢-١٠٦).

(٢) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (١/ ٤٥٥).

(٣) سورة القمر: الآية: (٥).

۞ النوع الثانى: ذكر ما هو من صرائح التعليل، وهو من أجل أو لأجل، قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[1]، فقول ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ﴿كَتَبْنَا﴾ بمعنى: السبب فى الحكم بشرعية القصاص على ابن آدم لأجل قتل ابن آدم أخاه، وكان ذلك حراسة الدنيا.

۞ النوع الثالث: الإتيان بـ«كى» الصريحة فى التعليل،... كما قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ﴾[2].

فعلل سبحانه قسمته الفىء بين الأصناف التى ذكرها كى لا يتناوله الأغنياء دون الفقراء،... وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ﴾[3].

أن قدَّر المصائب والبلاء قبل أن يبرأ الأنفس والمصائب والأرض، ومصدر ذلك قدرته وحكمته البالغة التى منها أن لا يُحزن عباده ولا يُفرحهم بما آتاهم إذا علموا أن المصيبة مُقدَّرة كائنة ولا بد، وقد كُتبت قبل خلقهم وذلك يُهون عليهم ما أصابهم[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٣٢).

(٢) سورة الحشر: الآية: (٧).

(٣) سورة الحديد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٤) المصدر السابق (١/ ٤٥٧).

❁ **النوع الرابع**: ذكر المفعول له، وهو علة للفعل المعلل به.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، فقوله: ﴿تِبْيَانًا﴾ - وما بعدها - الأحسن أن يُنصب على أنه مفعول لأجله لدلالة قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[3].

وفى الآيتين بيان لتلك، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[4] أى لأجل التخويف[5].

❁ **النوع الخامس**: التعليل بـ«لعل» فهى فى كلام الله تأتى للتعليل المجرد لا للترجِّى لاستحالته عليه، فإنه إنما يكون فيما تجهل عاقبته ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[6]، وقوله ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[7].

فلعلّ فى المواضع المتقدمة قد أخلصت للتعليل للسبب الذى تقدم أولًا، والرجاء الذى فيها متعلق المخاطبين.

❁ **النوع السادس**: تعليله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عدم الحكم القدرى والشرعى بوجود

---

(١) سورة النحل: الآية: (٨٩).

(٢) سورة النحل: الآية: (٦٤).

(٣) سورة النحل: الآية: (٤٤).

(٤) سورة الإسراء: الآية: (٥٩).

(٥) المصدر السابق (١/ ٤٥٧) شفاء العليل (ص ٣٢٦).

(٦) سورة البقرة: الآية: (١٨٣).

(٧) سورة طه: الآية: (٤٤).

المانع منه،... فمن الأول قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

بيَّن سبحانه أنه لا يوسع الدنيا لبعض الناس سعة تضرهم فى دينهم، وهو سبحانه يُنزل من رزقه بحسب ما اقتضاه لُطفه وحكمته، فالمانع من بسط الرزق حصول البغى من الناس.

ومن الثانى قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾[2]، فوصف بعض الرزق بكونه طيبًا مانعٌ من الحكم بتحريمه.

۞ النوع السابع: إنكار الله سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة بقوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[3]، وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[4].

۞ والأنواع كثيرة والأصل أن يأتى التعليل بالحروف، وقد تدل عليه الأسماء والأفعال، ... والحق يُقال أن السياق له أثر فى الدلالة على العلية إن لم تكن الأدلة نصًّا فى العلية، فينظر فيما يحتمل التعليل وعدمه بحسب السياق[5].

---

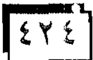
(١) سورة الشورى: الآية: (٢٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٣٢).

(٣) سورة المؤمنون: الآية: (١١٥).

(٤) سورة القيامة: الآية: (٣٦).

(٥) مسائل أصول الدين المبحوثة فى علم أصول الفقه (١/ ٤٥٩) - نقلًا عن (الإيمان بالقدر) د. على الصلابى (حفظه الله).



ما الحكمة من إيجاد الكرام الكاتبين مع أن الله يعلم كل شيء

نقول في مثل هذه الأمور إننا قد ندرك حكمتها وقد لا ندرك فإن كثيرًا من الأشياء لا نعلم حكمتها كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]، فإن هذه المخلوقات لو سألنا سائل ما الحكمة أن الله جعل الإبل على هذا الوجه، وجعل الخيل على هذا الوجه، وجعل الحمير على هذا الوجه، وجعل الآدمي على هذا الوجه، وما أشبه ذلك، ولو سألنا عن الحكمة في هذه الأمور ما علمناها ولو سُئلنا ما الحكمة في أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل الظُّهر أربعًا وصلاة العصر أربعًا والمغرب ثلاثًا وصلاة العشاء أربعًا وما أشبه ذلك ما استطعنا أن نعلم الحكمة في ذلك وبهذا علمنا أن كثيرًا من الأمور الكونية وكثيرًا من الأمور الشرعية تخفى علينا حكمتها وإذا كان كذلك فإنَّا نقول إن التماسنا للحكمة في بعض الأشياء المخلوقة أو المشروعة إن منّ الله علينا بالوصول إليها فذاك زيادة فضل وخير وعلم، وإن لم نصل إليها فإن ذلك لا يُنقصنا شيئًا، ... ثم نعود إلى جواب السؤال وهو ما الحكمة في أن الله عَزَّوَجَلَّ وكَّل بنا كرامًا كاتبين يعلمون ما نفعل؟ فالحكمة من ذلك بيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نظم الأشياء وقدّرها وأحكمها إحكامًا مُتْقَنًا حتى إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل على أفعال بني آدم وأقوالهم كرامًا كاتبين موكلين بهم يكتبون ما يفعلون مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم بما يفعلون قبل أن يفعلوه ولكن كل هذا من أجل بيان كمال عناية الله عَزَّوَجَلَّ بالإنسان، وكمال حفظه تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأن هذا الكون منظم أحسن نظام ومُحكَم أحسن إحكام والله عليم حكيم[2].

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (٨٥).

(٢) المجموع الثمين للشيخ ابن عثيمين (١/ ١٦٨).

ما الحكمة من خلق إبليس

ولعل سائلًا يسأل ويقول: ما دام الشيطان هو أصل كل شرٍّ وفسادٍ في الأرض وهو الذى يدعو الناس إلى أن يكفروا بالله ويبارزوه بالذنوب والمعاصى فما هى الحكمة من خلقه.

۞ ويجيب عن هذا السؤال الإمام الجليل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول[1]:

«فى خلق إبليس وجنوده من الحِكَم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله».

فمن ذلك:

(١) ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية:

فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومخالفته ومراغمته فى الله، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به منه، واللجوء إليه أن يُعيذهم من شره وكيده، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه.... والموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.

(٢) خوف العباد من الذنوب:

ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلية الإبليسية يكون أقوى وأتم، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك، حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى، وخضوع آخر، وخوف آخر، كما هو المشاهد من حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التى بلغت منه كل مبلغ، وهم

(١) شفاء العليل/ (ص: ٣٢٢ وما بعدها).

يشاهدونه، فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد.

(٣) جعله الله عبرة لمن اعتبر:

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره، وتكبَّر عن طاعته، وأصر على معصيته، كما جعل ذنب أبى البشر عبرة لمن ارتكب نهيه، أو عصى أمره، ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوى الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه، فلله كم فى ضمن ذلك من الحكم الباهرة، والآيات الظاهرِة.

(٤) جعله فتنة واختباراً لعباده:

ومنها أنه مَحَكٌّ امتحن الله به خلقه، ليتبين به خبيثهم من طيبهم، فإنه سبحانه خلق النوع الإنسانى من الأرض، وفيها السهل والحَزَن، والطيب والخبيث، فلا بد أن يظهر ما كان فى مادتهم،... ففى الحديث عن أبى موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود، والسهل والحزن، والطيب والخبيث**»[1].

فما كان فى المادة الأصلية فهو كائن فى المخلوق منها، فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره، فلا بد إذاً من سبب يُظهر ذلك، وكان إبليس محكًّا يميز به الطيب من الخبيث، كما جعل أنبياءه ورسله محكًّا لذلك التمييز، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[2]، فأرسل رسله إلى المكلفين، وفيهم الطيب والخبيث،

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٩٣) كتاب السنة، والترمذى (٢٩٥٥) كتاب تفسير القرآن، وأحمد (١٩٠٨٥) أول مسند الكوفيين، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٧٥٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٧٩).

فانضاف الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث.

واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم فى دار الامتحان، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم، وجعل لهؤلاء دارًا على حِدة، ولهؤلاء دارًا على حِدة، حكمة بالغة وقدرة باهرة.

(٥) إظهار كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد:

ومن هذه الحِكم أن يُظهر كمال قدرته بخلق الأضداد، مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه؛ فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث.

(٦) الضد يُظهر حُسنه الضد:

ومن هذه الحكم أنَّ خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده، فإن الضد إنما يَظهر حُسنه بضده، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى.

(٧) الابتلاء به إلى تحقيق الشكر:

ومن هذه الحكم أنه سبحانه، يحب أن يُشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده، وامتحانهم به من أنواع شكره، ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم وهو فى الجنة، قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابتُلى بعدوه، ثم اجتباه ربه، وتاب عليه وقَبِله.

(٨) فى خلق إبليس قيام سوق العبودية:

ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها أحب

العبودية إلى الله سبحانه، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله، وتقديم محبته على كل ما سواه، فالجهاد ذروة سنام العبودية، وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان فى خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التى لا يحصى حكمها وفوائدها، وما فيها من المصالح إلا الله.

(٩) وترتب على ذلك ظهور آياته وعجائب قدرته :

ومن هذه الحكم أن فى خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم، من تمام ظهور آياته، وعجائب قدرته، ولطائف صنعه ما وجوده أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه، كظهور آية الطوفان، والعصا، واليد، وفلق البحر، وإلقاء الخليل فى النار، وأضعاف ذلك من آياته، وبراهين قدرته، وعلمه، وحكمته، فلم يكن بُد من وجود الأسباب التى يترتب عليها ذلك.

(١٠) الخلق من النار آية :

ومن هذه الحكم أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد، وفيها الإشراق والإضاءة والنور، فأخرج منها - سبحانه - هذا وهذا، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، والأحمر والأسود والأبيض، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة، وآية دالة على أنه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[١].

(١١) ظهور متعلقات أسمائه :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الخافض الرافع، المُعز المُذل، الحَكَم العدل، المنتقم، وهذه الأسماء تستدعى متعلقات يظهر فيها أحكامها،

---

(١) سورة الشورى: الآية: (١١).

كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها، ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه.

(١٢) ظهور آثار تمام ملكه وعموم تصرفه:

ومن هذه الحكم أنه سبحانه المَلك التام المُلك، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب، والإكرام والإهانة والعدل، والفضل والإعزاز والإذلال، فلا بدّ من وجود من يتعلق به أحد النوعين، كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر.

(١٣) وجود إبليس من تمام حكمته تعالى:

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الحكيم، والحكمة من صفاته - سبحانه - وحكمته تستلزم وضع كل شىء فى موضعه الذى لا يليق به سواه، فاقتضت خلق المتضادات وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص، وهل تتم الحكمة إلا بذلك؟

فوجود هذا النوع من تمام الحكمة، كما أنه من كمال القدرة.

(١٤) حمده تعالى على منعه وخفضه:

ومنها أن حمده - سبحانه - تام كامل من جميع الوجوه، فهو محمود على عدله ومنعه، وخفضه ورفعه، وانتقامه وإهانته، كما هو محمود على فضله وعطائه، ورفعه وإكرامه، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأولياؤه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه، فله فى خلقه وإيجاده الحكمة التامة، كما له عليه الحمد التام، فلا يجوز تعطيل حمده، كما لا يجوز تعطيل حكمته.

(١٥) وبخلقه يُظهر الله لعباده حلمه وصبره:

ومنها أنه - سبحانه - يحب أن يُظهر لعباده حلمه وصبره، وأناته، وسعة رحمته، وجوده، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به، ويضاده فى حكمه، ويجتهد فى مخالفته، ويسعى فى مساخطه، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ويرزقه، ويعافيه، ويمكن له من الأسباب ما يلتذ به من أصناف النعم، ويجيب دعاءه، ويكشف عنه السوء، ويعامله من بِرِّه وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته فلله كم فى ذلك من حكمة وحمد.

ويتحبب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته،... كما فى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحدٌ أصبر على أذى يسمعه من الله، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم**»[1].

وفى الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: كذبنى ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته، وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أُولد، ولم يكن لى كفوًا أحد**»[2].

وهو سبحانه مع هذا الشتم له، والتكذيب له، يرزق الشاتم المكذب، ويعافيه، ويدفع عنه، ويدعوه إلى جنته، ويقبل توبته إذا تاب إليه، ويبدله بسيئاته حسنات، ويلطف به فى جميع أحواله، ويؤهله لإرسال رسله،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٧٨) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٨٠٤) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٨٢) كتاب تفسير القرآن.

ويأمرهم أن يلينوا له القول، ويرفقوا به.

قال الفضيل بن عياض: «ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل - جل جلاله - مَن أعظم منى جودًا، الخلائق لى عاصون، وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم، كأنهم لم يعصونى، وأتولى حفظهم، كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصى، وأتفضل على المسىء من ذا الذى دعانى فلم أُلبِّه؟ ومن ذا الذى سألنى فلم أُعطه؟.

أنا الجواد ومنى الجود، أنا الكريم ومنى الكرم، ومن كرمى أنى أعطى العبد ما سألنى، وأعطيه ما لم يسألنى، ومن كرمى أنى أعطى التائب كأنه لم يعصنى، فأين عنى يهرب الخلق، وأين عن بابى يتنحى العاصون؟».

وفى أثر إلهى: «إنى والإنس والجن فى نبإٍ عظيم: أَخلق ويُعبد غيرى، وأَرزق ويُشكر سواى».

وفى أثر حسن: «ابن آدم ما أنصفتنى: خيرى إليك نازل، وشَرُّك إلىَّ صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم، وأنا غنى عنك، وكم تتبغض إلىَّ بالمعاصى وأنت فقير إلىَّ، ولا يزال المَلَكُ الكريم يعرج إلىَّ منك بعملٍ قبيح».

وفى الحديث الصحيح: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»**[1].

(١٦) خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته وآثارها:

فالله سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقًا يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعفو خلق من يحسن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة.

العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له، ويحلم عنه، ويصبر عليه، ولا يعاجله، بل يكون يحب أمانه وإمهاله.

ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته، ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان، فلولا خَلْقُه مَن يجرى على أيديهم أنواع المعاصى والمخالفات، لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها، وأضعاف أضعافها، فتبارك الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة، والنعم السابغة، الذى وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته، وله فى كل شىء حكمة باهرة، كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات.

(١٧) ما حصل بسبب وجود الشيطان من محبوبات للرحمن :

فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب، المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى ، يتصل فى حبه ما حصل به من مكروه، والحكيم الباهر الحكمة هو الذى يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذى يبغضه ويسخطه إذا كان طريقًا إلى حصول ذلك المحبوب، ووجود الملزوم بدون لازمه محال.

فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصى ما حصل، فكم حصل بسبب وجوده، ووجود جنوده من طاعة هى أحب إلى الله وأرضى له من جهاد فى سبيله، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له، ويحتمل المشاق والمكاره فى محبته ومرضاته، وأحب شىء للحبيب أن يرى مُحِبَّه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته.

من أجلك قد جعلت خدى أرضًا ... للشامت والحسود حتى ترضى

ومن أثر إلهى: «بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى» فلله، ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه، وفى مرضاته، وما أنفع ذلك الأذى لهم، وما أحمدهم لعاقبته، وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه قرة عيونهم به، ولكن حرام على منكرى محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة، أو يدخلوا من هذا الباب، أو يذوقوا من هذا الشراب.

قل للعيون العمى للشمس أعين سواك يراها فى مغيب ومطلع

وسامح بؤسًا لم يؤهل لحبهم فما يحسن التخصيص فى كل موضع

فإن أغضب هذا المخلوق ربه، فقد أرضاه فيه أنبياؤه ورسله وأولياؤه، وذلك الرضا أعظم من ذلك الغضب، وإن أسخطه ما يجرى على يديه من المعاصى والمخالفات، فإنه سبحانه أشد فرحًا بتوبة عبده من الفاقد لراحلته، التى عليها طعامه وشرابه، إذا وجدها فى المفاوز المهلكات، وإن أغضبه ما جرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو اللعين، فقد سرَّه وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكبته وغيظه، وهذا الرضا أعظم عنده وأبر لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضى المحبوب.

وإن أسخطه أكل آدم من الشجرة، فقد أرضاه توبته وإنابته، وخضوعه وتذلله بين يديه وانكساره له.

وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله ﷺ من حرمه وبلدته ذلك الخروج، فقد أرضاه أعظم الرضا دخوله إليها ذلك الدخول.

وإن أسخطه قتلهم أولياءه وأحبابه، وتمزيق لحومهم، وإراقة دمائهم، فقد أرضاه نيلهم الحياة التى لا أطيب منها، ولا أنعم، ولا ألذ فى قربه،

وجواره.

وإن أسخطه معاصى عباده، فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيائه ورسله وأوليائه سعة مغفرته وعفوه وبره وكرمه وجوده والثناء عليه بذلك وحمده وتمجيده بهذه الأوصاف التى حمده بها والثناء عليه بها، أحب إليه، وأرضى له من فوات تلك المعاصى، وفوات هذه المحبوبات.

واعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله، فهو عقد نظام الخلق والأمر والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه، فما خلق شيئًا ولا حكم بشىء إلا وله فيه الحمد، فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره، حمدًا حقيقيًّا يتضمن محبته والرضا به وعنه، والثناء عليه، والإقرار بحكمته البالغة فى كل ما خلقه وأمر به، فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده.... فكما أنه لا يكون إلا حميدًا فلا يكون إلا حكيمًا، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته، وحياته من لوازم ذاته، ولا يجوز تعطيل شىء من صفاته وأسمائه ومقتضياتها وآثارها، فإن ذلك يستلزم النقص الذى يناقض كماله وكبرياءه وعظمته.

(١٨) محبته سبحانه أن يكون ملاذًا ومعاذًا لأوليائه :

وفى هذا يقول ابن القيم: «كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطى ويمنح، فمنها أنه يعيذ وينصر ويغيث، فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون، وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم، كما قال أحمد بن حسين الكندى فى ممدوحه:

يا من ألوذ به فيما أُؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذرهُ

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابرهُ

ولو قال ذلك فى ربه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله.

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به مماليكه، وأن يعوذوا به، كما أمر رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم فى غير موضع من كتابه، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاذه وأجاره من عدوه، فلم يكن إعاذته وإجارته منه بأدنى النعمتين، والله تعالى يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين، ويريهم نصره لهم على عدوهم، وحمايتهم منه، وظفرهم به، فيا لها من نعمة كمَّل بها سرورهم ونعيمهم، وعدل أظهره فى أعدائه وخصمائه.

وما منهما إلا لـه فيه حكمة   يقصر عن إدراكها كل باحث

الشرُّ لا يُنسب إلى الله

الشر لا يُنسَب إلى الله... قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»[١]، فلا يُنسب الشر لا فعلًا ولا تقديرًا ولا حكمًا، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

ولذلك حينما يشتكى ويحتاج إلى أن تكويه بالنار، فالمفعول شر ولكن الفعل خير، لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شرًّا محضًا، بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيزٍ مقتدر صار ذلك شرًّا بالنسبة له، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله، فيكون خيرًا.

قال تعالى في القرية التي اعتدت في السبت: ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾[٢].

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله.

وكم من إنسان أذنب ذنبًا ثم تذكَّر واستغفر وصار بعد التوبة خيرًا منه قبلها، لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحَدَّ من عليائها، ... فهذا آدم عليه الصلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم فقال هو وزوجه حواء: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[٣].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٦٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٢٣).

فقال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[(١)].

والثلاثة الذين خُلِّفوا (فى غزوة تبوك) بعد المعصية وبعد المصيبة التى أصابتهم حتى ضاقت عليه أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم، ... صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبى منه ومن شدة ما فى نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبدًا، وصارت حالهم أيضًا، بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذُكروا بأعينهم .... قال تعالى:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾[(٢)] [(٣)].

فهذه آيات عظيمة تُتلى فى محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة وهذا شىء عظيم، وسواء كان ذلك فى الأمور الشرعية أو فى الأمور الكونية، ولكن هاهنا أمر يجب معرفته وهو أن الخيرية والشرِّية ليست باعتبار قضاء الله سبحانه وتعالى،... فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو فى الواقع خير، وإنما الشر فى المقضى، أما قضاء الله نفسه فهو خير والدليل قول النبى ﷺ: «**الخير بيديك والشر ليس إليك**»[(٤)].

ولم يقل والشر بيدك، فلا يُنسَب الشر إلى الله أبدًا، فضلًا عن أن يكون

(١) سورة طه: الآية: (١٢٢).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١١٨).

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد / الشيخ: محمد صالح العثيمين (٣/ ١٧٨).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٧٧١).

بيديه ... فلا يُنسَب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء فالله لا يريد بقضاء الشر شرًّا، لكن الشر يكون فى المقضى، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية، فهذا فى المقضى، ومع ذلك فهو وإن كان شرًّا فى محله فهو خير فى محلٍّ آخر، ولا يمكن أن يكون شرًّا محضًا، حتى المقضى على كونه شرًّا ليس شرًّا محضًا، بل هو شر من وجه خير من وجه، أو شر فى محل خير فى محل آخر...ولنضرب لذلك مثلًا: الجدب والفقر هذا شر، لكنه خير باعتبار ما ينتج عنه، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير ويُنتج خيرًا كثيرًا، فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يَعْقُبه الصلاح ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وكم من أُناسٍ طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله عَزَّوَجَلَّ واشتغلوا بالمال فإذا أُصيبوا بفقر رجعوا إلى الله وعرفوا أنهم ضالون، فهذا الشر صار خيرًا باعتبار آخر،... كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه لكنه خير بالنسبة لغيره، أما بالنسبة له فلأن قطعها يُسقط عنه العقوبة فى الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضًا خير فى غير السارق فإن فيه ردعًا لمن أراد أن يسرق وفيه أيضًا حفظ للأموال، لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستُقطع يده امتنع من السرقة فصار فى ذلك حفظ لأموال الناس[2].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يخلق الشر المحض الذى لا خير فيه، ولا منفعة فيه

---

(١) سورة الروم: الآية: (٤١).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (٣/ ١٧٩).

لأحد، وليس له فيه حكمة ولا رحمة، ولا يعذب الناس بلا ذنب.

وقد بيَّن العلماء ما فى خلقه لإبليس والحشرات والكواسر من الحكمة والرحمة، فالشىء الواحد يكون خلقه باعتبارٍ خيرًا وباعتبارٍ آخر شرًّا، فالله خلق إبليس يبتلى به عباده فمنهم من يمقته ويحارب منهجه، ويعاديه ويعادى أولياءه، ويوالى الرحمن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته [1].

***

(١) القدر للأشقر (ص ٧١)- نقلًا عن (الإيمان بالقدر) للصلابى.

ثانيًا: التحسين والتقبيح

❁ إن إطلاق التحسين والتقبيح على كل فعل من جهة العقل وحده دون الشرع، أو نفى أى دور للعقل فى تحسين الأفعال أو تقبيحها غير صحيح ... ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مذهب أهل الحق توضيحًا كاملًا فيقول: «وقد ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

(١) أن يكون الفعل مشتملًا على مصلحة أو مفسدة ولو لم يَرِد الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم والظلم يشتمل على فساده، فهذا النوع هو حسنٌ قبيح، وقد يُعلَم بالعقل والشرع قُبح ذلك، لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن ... لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله مُعاقبًا فى الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك، وهذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين والتقبيح[١]، فإنهم قالوا: إن العباد يُعاقَبون على أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث الله إليهم رسولًا وهذا خلاف النَّص.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[٢].

(٢) أن الشارع[٣] إذا أمر بشىء صار حسنًا، وإذا نهى عن شىء صار قبيحًا، واكتسب صفة الحُسن والقُبح بخطاب الشارع.

(٣) أن يأمر الشارع بشىء ليمتحن به العبد، هل يطيعه أم يعصيه، ولا يكون المراد فعل المأمور به، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ

(١) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود (ص ٢٥٥).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (١٥).

(٣) الشارع هنا هو الله (جلَّ وعلا) أو النبى ﷺ -أي: الذى يُشرِّع-.

﴿لِلْجَبِينِ﴾[١] حصل المقصود ففداه بالذبح ... وكذلك حديث الأبرص والأقرع والأعمى لما بعث الله إليهم مَن سألهم الصدقة، فلما أجاب الأعمى قال الملك: أمسك عليك مالك فإنما ابتُليتم، فرضى الله عنك وسخط على صاحبيك[٢]، فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به، فهذه الأقسام الثلاثة هى الصواب[٣].

۞ وهناك نقطة مهمة وهى: إن إدراك العقل لحُسن الفعل أو قُبحه أكثره مُجمَل، فالعقل لا يحيط بالوجوه والاعتبارات للأفعال كلها ولذلك كان الشرع وإرسال الرسل لابد منه خاصة مع غلبة الهوى، ولكن هذا لا يمنع وجود قَدْرٍ مشترك بين العقلاء فى إدراك حسن بعض الأفعال أو قبحها[٤]، وإذا تتبعنا نصوص الشرع لوجدنا الدلالة على أن هذا مركوز فى الفطرة ومن الأدلة على ذلك:

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِۖ﴾[٥].

فالفاحشة هنا هى طواف المشركين عُراة بالبيت رجالًا ونساء، فبيَّن الله أنه لا يأمر به لقُبحه، ثم بيَّن الله أنه لا يأمر إلا بما هو حسن[٦].

---

(١) سورة الصافات: الآية: (١٠٣).

(٢) البخارى رقم (٣٤٦٤)، فتح البارى (٦/ ٥٠٠).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ٤٣٤ - ٤٣٦).

(٤) مفتاح دار السعادة نقلًا عن مسائل أصول الدين (١/ ٣٨٢).

(٥) سورة الأعراف: الآيتان: (٢٨، ٢٩).

(٦) مدارج السالكين (١/ ٢٤٩) لابن القيم.

(٢) وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] ففي الآية علق الله التحريم ببعض الأفعال لفُحشها.

(٣) وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[2]، فالله عَزَّوَجَلَّ علل النهي عن قُرب الزنا بكونه فاحشة[3].

(٤) وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[4]، فوصف الله بعض رزقه بأنه طيب، وأن هذا الوصف يقتضي عدم تحريمه، فدلَّ على ثبوت وصف للفعل هو منشأ للمصلحة مانع من التحريم، وهذا هو التحسين العقلي عينه[5].

(٥) لقد ضرب الله أمثلة عقلية كثيرة دالة على حسن التوحيد ومَدَح فاعله، وعلى قبح الشرك وذمه وذَمَّ فاعله، ... والأدلة فيه كثيرة، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[6]. ففي هذا المثل بيان من الله للمشركين أنهم إذا كانوا لا يرضون أن يكون مماليكهم شركاء لهم، فكيف ساغ لهم أن يجعلوا المخلوقين شركاء للخالق ... فالخالق أولى بالتنزيه

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٣٣).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٣٢).

(٣) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (١/ ٤٨٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (٣٢).

(٥) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٤٩).

(٦) سورة الروم: الآية: (٢٨).

ونفى الشريك فى العبادة[١]، فلو كان الشرك قبيحًا لمجرد النهى عنه، لاكتفى بالنهى عنه فقط، ولم يذكر مثلًا يدل على قبحه فى العقول والفِطَر[٢].

ومنه قول الله تعالى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٣].

فلم يحتجّ الله عليهم بمجرد الأمر، بل احتج عليهم بالعقل ومقتضى الفطرة، لأن من لا يملك دفع ضُرٍّ عن نفسه فأَولَى أن لا يقدر على دفعه عن غيره[٤].

إن مجرد معرفة حسن الأفعال وقبحها بالعقل قبل بعثة الرسول ﷺ لا يترتب عليه الثواب والعقاب، كما أننا نثبت حسن الأفعال وقُبحها لذاتها ومعرفة العقل لذلك، كما أنه له مدخل فى معرفة حُسن بعض الأفعال وقبحها،... وأما الثواب على فعل الأفعال الحسنة فإنما هو من قِبَل الشارع والعقاب على فعل الأفعال القبيحة، إنما هو من قبل الشارع، فلا يجب شىء على المُكلَّف قبل ورد الشرع، والثواب والعقاب متوقف على بعثة الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٥].

وتحقيق الحق فى هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت فى نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة[٦].

---

(١) مسائل أصول الدين المبحوثة فى علم أصول الفقه (١/ ٤٨٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٨٤).

(٣) سورة يس: الآيتان: (٢٣، ٢٤).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٨٤)، مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٣٣).

(٥) سورة الإسراء: الآية: (١٥).

(٦) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٧).

والحق الذى لا يجد التناقض إليه السبيل أن الأفعال فى نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، إلا بالأمر والنهى، وقبل ورود الأمر والنهى لا يكون العمل القبيح موجبًا للعقاب مع قُبحه فى نفسه،... والأوثان، والكذب، والزنا، والظلم، والفواحش كلها فى ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع [1].

فالله سبحانه وتعالى لا يعذب عباده إلا بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل عليهم فضلًا منه تعالى ورحمة،... قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [2].

وهذا من فضل الله ورحمته أن لا يعذب الناس إلا بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل،... قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [3]، فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الحجة إنما قامت بالرسل وأنه بعد مجيئهم لا يكون للناس على الله حجة، وهذا يدل على أنه تعالى لا يعذب الناس قبل مجيء الرسل إليهم، لأن الحجة حينئذ لم تقم عليهم، فالصواب إثبات الحُسن والقُبح عقلًا ونفى التعذيب على ذلك إلا بعد بعثة الرسل، فالحُسن والقُبح العقلى لا يستلزم التعذيب، وإنما يستلزمه مخالفة المرسلين [4].

ومن الآيات الدالة دلالة صريحة على معرفة العقل حسن الأفعال

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٤٧).

(٢) سورة القصص: الآية: (٥٩).

(٣) سورة النساء: الآية: (١٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣٥) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٩).

وقبحها وأنها فى ذاتها حسنة وقبيحة..قول الله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾(١).

وذلك لأن المعروف الذى يأمرهم به تعالى هو ما تعرفه وتُقر بحُسنه العقول والفِطَر السليمة وأن المنكر الذى ينهاهم عنه تعالى هو ما تنكره العقول والفطر السليمة وتُقر بقُبحه(٢)، ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى فى نفس الآية: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، فهذه الآية تدل دلالة صريحة فى أن الحلال كان طيبًا قبل حِلّه، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه(٣).

إن الطيب إذا أُحل من الشارع فقد اكتسب طيبًا آخر إلى طيبه، فصار طيبًا من الوجهين معًا، وكذلك القبيح إذا نهى الشارع عنه اكتسب قُبحًا إلى قبحه، فصار قبيحًا من الوجهين معًا(٤)، وذلك لأن حسن الأفعال وقبحها ثابتان لذاتها، ويكتشف ذلك بالعقل والشرع معًا(٥).

ثالثًا: فعل الأصلح ... ومعنى الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق:

(١) وجوب فعل الأصلح:

هذه المسألة متفرعة عن مسألة التحسين والتقبيح العقليين،... معتقدنا فى هذه المسألة: إنه لا يجب فعل الأصلح على الله تعالى، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، فالله أمر العباد بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٧).

(٢) منهج السلف والمتكلمين / جابر إدريس على (١/ ١٤٢).

(٣) المصدر نفسه (١/ ١٤٢).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٤٩، ٢٥٠)، المصدر نفسه (١/ ١٤٣).

(٥) منهج السلف والمتكلمين (١/ ١٤٣).

فسادهم، وأن فعل المأمور به مصلحة عامة لمن فعله، وأن إرسال الرسل مصلحة، وإن كان فيه ضرر على بعض الناس لمعصيته، ... ففعل المأمور به وترك المنهى عنه مصلحة لكل فاعل وتارك، وأما نفس الأمر وإرسال الرسل فمصلحة عامة للعباد، وإن تضمن شرًّا لبعضهم وهكذا سائر ما يقدره الله تعالى تغلب فيه المصلحة والرحمة والمنفعة، وإن كان فى ضمن ذلك ضرر لبعض الناس، فلله فى ذلك حكمة أخرى .. وإن كان فى بعض ما يخلقه ما فيه ضرر لبعض الناس، أو هو سبب ضرر كالذنوب فلا بد فى كل ذلك من حكمة ومصلحة لأجلها خلقها، وقد غلبت رحمته غضبه [(١)].

(٢) معنى الاستطاعة:

هذه المسألة من أهم المسائل فى باب القدر، لأنها تتعلق بقدرة العبد واستطاعته التى جعلها الله مناط التكليف، ويتعلق بها أمران مهمان:

أحدهما: هل للعبد قدرة يفعل أو لا؟ والثانى: هل استطاعته قبل الفعل فقط أو معه فقط، أو هى قبل الفعل وبعده؟

۞ وتحدث العلماء فى هذه المسألة بالتفصيل فقالوا:

أ- فهناك استطاعة للعبد بمعنى الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات، وهى التى تكون مناط الأمر والنهى، وهى المُصححة للفعل، فهذه لا يجب أن تقارن الفعل، بل قد تكون قبله متقدمة عليه، وهذه الاستطاعة المتقدمة صالحة للضدين، ومثال هذه الاستطاعة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [(٢)]، فهذه الاستطاعة قبل الفعل،

---

(١) القضاء والقدر/ د. عبد الرحمن المحمود (ص ٢٥٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٩٧).

ولو لم تكن إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على مَن حَجَّ، ولا عصى أحدٌ بترك الحج، ولا كان الحج واجبًا على أحد قبل الإحرام، بل قبل فراغه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1]. فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة، ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط، إذ هو الذى قارنته تلك الاستطاعة[2]، وهذه الاستطاعة هى مناط الأمر والنهى، والثواب والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء، وهى الغالبة فى عُرف الناس[3].

ب- وهناك الاستطاعة التى يجب معها وجود الفعل، وهذه هى الاستطاعة المقارنة للفعل الموجبة له، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[4].

وقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[5].

فالمراد بعدم الاستطاعة مشقة ذلك عليهم، وصعوبته على نفوسهم فنفوسهم لا تستطيع إرادته، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوا، وهذه حال مَن صَدَّه هواه أو رأيه الفاسد عن استماع كتب الله المُنزَّلة، واتباعها، وقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك، وهذه الاستطاعة هى المقارنة الموجبة له[6].

---

(١) سورة التغابن: الآية: (١٦).

(٢) القدر/ ابن تيمية (ص ٣٧٢).

(٣) القضاء والقدر/ د. عبد الرحمن المحمود (ص ٢٦٩).

(٤) سورة هود: الآية: (٢٠).

(٥) سورة الكهف: الآيتان: (١٠٠، ١٠١).

(٦) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٦١).

وهذه الاستطاعة هى الاستطاعة الكونية التى هى مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل [١].

وبذلك نثبت نوعى الاستطاعة، سواء التى هى مناط التكليف، وهذه تكون قبل الفعل، وبها يتعلق الشرع حيث لا يُكلَّف غير المستطيع، والأخرى التى تكون مع الفعل، فهذه يتحقق الفعل بها وتكون بقدرة العبد وفعله، لكنها لا تقع إلا موافقه للقضاء والقدر [٢].

(٣) لا تكليف إلا بما يُطاق:

لم يكلف الله تعالى الخلق إلا بما يطيقونه، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير «لا حول ولا قوة إلا بالله» نقول: لا حيلة لأحدٍ ولا تحوُّل لأحدٍ ولا حركة لأحدٍ عن معصية الله، إلا بمعونة الله ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [٣]، وقال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [٤].

---

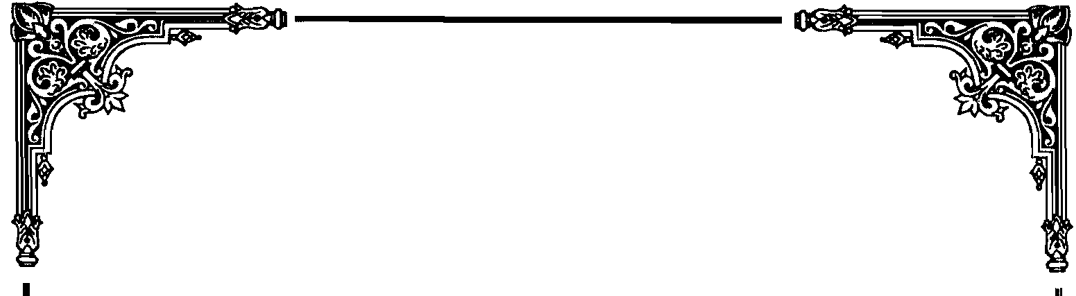
(١) القضاء والقدر (ص ٢٧٠).

(٢) القضاء والقدر (ص ٢٧٢) - نقلًا عن (الإيمان بالقدر) د. على الصلابى.

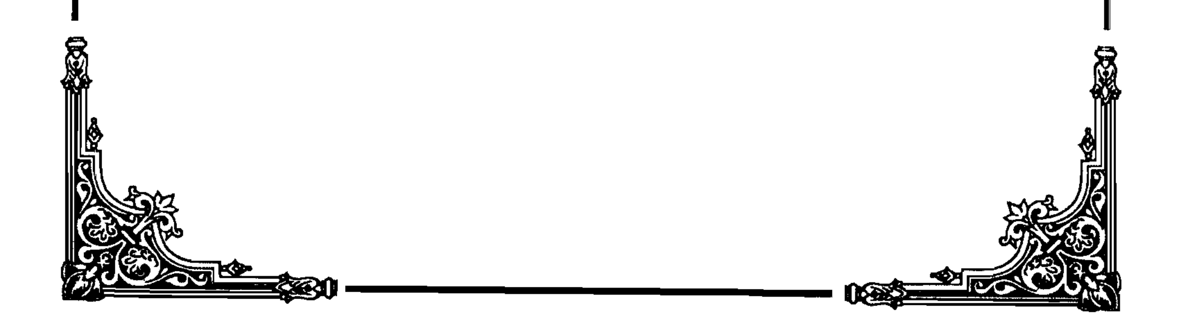
(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٨٦).

(٤) سورة الأنعام: الآية: (١٥٢).





الاحتجاج على المعاصي بالقدر



هل يجوز الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي؟

۞ بعض الناس يحتجون بالقدر على معاصيهم وسيئات أعمالهم، ويحملون عليه وزر تفريطهم فى الحقوق، أو انتهاكهم للمحرمات، ويقولون: هذا مكتوب علينا، سبق به القدر، وجرى به القلم، ولا مفر مما قدر الله وكتب، ولو شاء ما فعلناه.

ولهؤلاء سلف من المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة أخرى، وحرَّموا ما أحل الله افتراءً على الله، فلما دُعوا إلى التوحيد والحق، احتجوا بأن ماهم عليه من شرك وأباطيل، إنما هو بمشيئة الله تعالى.

وقد ذكر القرآن عنهم ذلك فى عدة مواضع، مُنكرًا عليهم، ورادًّا لقولهم، وأوضح هذه المواضع ما جاء فى سورة الأنعام حيث قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾(١).

احتج أعداء الله فى هذه الآية بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونهيه، وأنه لولا رضاه بشركهم، وتحريمهم ومحبته له، ما أقرهم عليه، ولا شاءه منهم، وعارضوا بذلك شرعه، ودعوة رسله. قالوا: كيف يأمرنا الله بشىء، قد شاء منَّا خلافه، وكيف يكره منَّا شيئًا قد شاء وقوعه، ولو كرهه لم يمكنَّا منه، ولحال بيننا وبينه ... هذا مضمون احتجاجهم، فكيف ردَّ القرآن عليهم؟

لقد كذبهم فيما ادعوا، وأخبر أن هذا تكذيب منهم لرسله، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم ويمقته، وأنه لولا بُغضه ومقته، لما

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٤٨).

أذاق المشركين بالله عذابه، فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه.

ثم طالبهم بالعلم - أو الدليل - على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه، ويرضى به، ومجرد إقراره لهم قدرًا، لا يدل على ذلك عند أحدٍ من العقلاء. وإلَّا كان الظلم والفواحش والسعى فى الأرض بالفساد والبغى محبوبًا له ومرضيًّا.

ثم أخبر سبحانه: أن مستندهم فى ذلك إنما هو الظن، وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب.

۞ وجوه الفساد في الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

والاحتجاج بالقدر على المعاصى والآثام خطأ وضلالة من وجوه:

(١) أن هذا القول «الاحتجاج بالقدر» يلزم منه أن يستوى أولياء الله وأعداء الله، ولا يتميز الأبرار من الفُجَّار، ولا أهل الجنة من أهل النار، فإنَّ هؤلاء جميعًا قد كتب الله مقاديرهم، قبل أن يخلقهم، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح، وإلى شقى بالكفر والفسوق والعصيان.

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(١)، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾(٢)، ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٣).

(٢) أن سبق القدر - لو كان عذرًا للعصاة المذنبين - لكانت الأمم

---

(١) سورة القلم: الآيتان: (٣٥، ٣٦).

(٢) سورة ص: الآية: (٢٨).

(٣) سورة الحشر: الآية: (٢٠).

الظالمة التى أهلكها الله، ودمر عليها، وأنزل بها نقمته، مثل عاد وثمود، وقوم نوح، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون، وهامان، وقارون، وغيرهم من الكفرة المفسدين- معذورين فيما صنعوا، مظلومين بما عوقبوا. أى: أن الله تعالى قد ظلمهم حين أخذهم بعقابه، على ذنوب هم فيها معذورون، مع أن الله سبحانه يقول: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾(١)، ويقول بعد أن تحدث عن بعض الأقوام وكفرهم وإعراضهم ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٢).

وإذن يكون القول بأن هؤلاء المهلكين معذورين ... من الكفر البواح الذى اتفق عليه أرباب الديانات جميعًا.

(٣) أن القائلين بهذا القول من الاحتجاج بالقدر، متناقضون تناقُضًا صريحًا؛ ... فإن القدر - لو كان حجة - قول لا يُقره أحد، ولا يتعاشر عليه اثنان، ولا تستقيم عليه جماعة، ولا تقوم به مصلحة فى دين أو دنيا، فلا يُلام مقصر، ولا يُعاقَب مجرم، ولا يُحاسَب ظالم، ولا يُجاهَد عدو، ولا يُقاوَم باطل، ولا يُقام حدّ، ولا يُؤمَر بمعروف، ولا يُنهَى عن منكر،... ومُقتضى هذا فساد فى الحياة، وهلاك المجتمع كله.

ويلزم الذى يحتج بالقدر ويتعلل به، ألا ينكر على من يظلمه ويعتدى عليه، فيهضم حقه، أو يسلب ماله، أو يهتك عرضه، أو يستحل دمه،

(١) سورة هود: الآية: (١٠١).

(٢) سورة العنكبوت: الآية: (٤٠).

وكذلك كل من يهلك الحرث والنسل، ويسعى فى الأرض فسادًا.

ولا ريب أن هؤلاء ينكرون على من يظلمهم أو يعتدى عليهم، ولا يزال أحدهم يلوم زيدًا، ويُبغض عَمرًا، ويشكو بَكرًا، حتى إن الذى ينكر عليهم مقالتهم هذه، يبغضونه ويعادونه، ولا يعتذرون له بما اعتذروا لأنفسهم.

وهذا كله دليل على كذبهم فى دعواهم، وتناقضهم فى قولهم، والتناقض دليل الفساد والبُطلان.

فتبين بهذا أن قولهم فاسد فى العقل، كما أنه ضلال فى الشرع.

(٤) أن تعلُّل المذنب العاصى بالقدر جهل؛ لأنه تعلل بما لا يجوز التعلُّل به، وهو مع ذلك تعلُّل لا ينفع صاحبه، بل يضره، فإنَّ الاعتلال بالقدر ذنبٌ ثانٍ يُعاقَب عليه أيضًا... وقد رُوى أن لِصًّا أُحضر بين يدى عمر، فسأله: لِمَ سرقت؟ فقال: قدَّر الله ذلك. فقال عمر: اضربوه سوطًا، ثم اقطعوا يده، فقيل له: لِمَ؟ فقال: يُقطَع لسرقته، ويُضرَب لكذبه على الله!

۞ وإنما اعتلَّ بالقدر إبليس حيث قال بعد أن عصى واستكبر وطُرد: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، فنسب الإغواء إلى الله، لم يذكر أنه عقوبة على استكباره وكفره... وأما آدم فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]، فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول ما قال آدم عليه السلام ومن كُتبت عليه شقوته اعتلَّ بعلَّة إبليس، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

فالمسلم يؤمن بالقدر ولا يعتذر به عن تقصيره وتعدِّيه، فمن احتجَّ

(١) سورة الحجر: الآية: (٣٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٢٣).

بالقدر فحُجته داحضة، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول.

۞ وقد شبَّه شيخ الإسلام ابن تيمية من يتعلل بالقدر عند وقوع الذنوب، برجلٍ طار إلى داره شرارة نار، فقال له العقلاء: أطفئها لئلا تحرق المنزل، فأخذ يقول: من أين كانت هذه الشرارة؟ هذه ريح ألقتها، هذه فعلها غيرى، أنا لا ذنب لى فى هذه النار. فما زال يتعلل بهذه العلل، حتى استعرت الشرارة وانتشرت، وتفاقم خطرها، فأحرقت الدار وما فيها، وأكلت الأخضر واليابس. هذه حال مَن شرع يُحمِّل الذنوب على المقادير، ولا يردها بالاستغفار والمعاذير، بل حاله أسوأ من صاحب الشرارة، فربما لم يكن له يد فيها ولا تقصير، بخلاف المذنب، فإنه مسؤول عن ذنبه[١].

۞ ولذا نقول أن الاحتجاج بالقدر أمر لا يقبله العقل السليم والفطرة السليمة، وذلك لأننا لو سلمنا بهذا لأصبح من اليسير على كلِّ إنسان أن يفعل ما بدا له من الموبقات ثم يقول هذا مكتوب علىَّ، فيسرق مال جاره ويهتك عرض زوجته وعند القبض عليه يقول هذا مكتوبٌ علىَّ، وإذا أقبل جاره على ردِّ هذه الإساءة بأن سرق ماله أو أراد أن يعتدى على بناته فإنه لا يقبل ذلك وإن احتجَّ بالقدر مثله، ... فبذلك يحدث الفساد والتناقض فلا تستقيم الأمور.

وإليك أيها القارئ الأدلة الشرعية والعقلية على بُطلان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصى وترك الأوامر والفرائض الشرعية:

۞ الجواب الأول:

قوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ

---

(١) الإيمان بالقدر (ص ٥٨-٦١).

﴿بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] ... الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرسل رسله للناس يعلمونهم التوحيد ويخبرونهم بأوامر الله تعالى وشرعه وأنَّ هناك ثواب وعقاب بالجنة والنار، فلو جاز الاحتجاج بالقدر لما كان هناك حاجة فى إرسال الرسل ما دام كل شىء مكتوب.

۞ الجواب الثاني:

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[2]، هكذا أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ بالقرآن الكريم فيه نبأ مَن قبلنا وخبر مَن بعدنا وفيه الحكم فيما بيننا ... فيه فَرَضَ الله الفرائض، وفيه حرَّم المحرمات، فلو جاز الاحتجاج بالقدر على فعل الذنوب لما كان هناك فائدة من إرسال النبى ﷺ ولا إنزال القرآن الكريم ما دام كل شىء مكتوب.

۞ الجواب الثالث:

أقول لمن يحتج بالقدر هل علمت الغيب؟ أم اتخذت عند الرحمن عهدًا؟

فإن القضاء والقدر سر الله تعالى المكتوم عن جميع خلقه، ... لم يطَّلع عليه مَلَكٌ مقرب ولا نبى مُرْسَل، فهل المحتج بالقدر اطَّلع على اللوح المحفوظ وعلم أنه سوف يسرق فى يوم كذا وأنه سوف يزنى فى يوم كذا؟ الجواب: لا،... بل إن المحتج بالقدر يدَّعى علمه بالغيب وهذا لا يعلمه إلا الله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[3]، فبطلت بذلك

---

(١) سورة النساء: الآية: (١٦٥).

(٢) سورة الفرقان: الآية: (١).

(٣) سورة الجن: الآية: (٢٦).

حجة المحتج بالقدر على فعل المعاصى.

❁ **الجواب الرابع:**

لو كان المحتج بالقدر على فعل الذنوب على صواب لكان إبليس عدو الله تعالى يستوى مع نبى الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكان فرعون عدو الله تعالى مستوٍ مع نبى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك لأنَّ كلًّا منهما ينفذ ما هو مكتوب عليه، ففرعون مكتوب عليه أن يكفر فهو بذلك مطيع لما كُتب عليه، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مطيع؛ لأنه مكتوب عليه الإيمان، وبذلك يستوى المؤمن والكافر، وهذا كلامٌ باطلٌ يخالف أصل الدين، ... قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(٢)، وهذا القول يؤدى إلى فساد العالم وإلى السلب والنهب وقطع الطريق وهتك الأعراض وإبطال جميع الشرائع السماوية وإلغاء رسالة جميع الرسل ... والواقع يخالف هذا.

❁ **الجواب الخامس: [مهم جدًّا]:**

إن الله تعالى خالق كل شىء سبحانه، والإنسان خَلْقٌ من خلق الله تعالى، والله تعالى خلق فى كل إنسان قدرة، وهذه القدرة نوعان:

أ- قدرة مُمَكِّنة: وهى موجودة فى الإنسان قبل فعل أى شىء.

ب- قدرة مُيسِّرة: وهى توجد مع الفعل لأى شىء.

ونضرب لذلك مثلًا موضحًا لما قلناه ... إذا كان هناك رجل يريد أن يطبع عدد مائة مصحف فى اليوم، فذهب إلى مطبعة وطلب منهم طبع عدد

---

(١) سورة الشورى: الآية: (٧).

(٢) سورة فاطر: الآية: (٧).

مائة مصحف فى اليوم، فقال صاحب المطبعة: لا أقدر على طبع هذا العدد فى اليوم من المصاحف، فذهب إلى مطبعة أخرى وطلب منهم طبع هذا العدد فى اليوم من المصاحف فوافق صاحب المطبعة الثانية، وشرع بالفعل فى طبع المصاحف.

فصاحب المطبعة الأولى رفض الطبع بناء على علمه بقدرته فى الطبع، أى أنه علم بقدرته الممكِّنة أنه لا يستطيع الطبع فرفض.

أما صاحب المطبعة الثانية فإنه وافق على الطبع بناء على قدراته العالية فى الطبع، فكانت الموافقة على الطبع بناءً على قدرته المُمَكِّنة.

فلما شرع فى الطبع بالفعل تحولت القدرة من قدرة ممكنة إلى قدرة ميسرة مع الطبع، أى: أنه شرع فى الطبع بناء على قدرته المُيسِّرة.

۞ مثال آخر: رجل يريد رفع كمية من الحجارة لبناء بيته خلال يومٍ واحد، فجاء إلى أحد العمال وطلب منه رفع كمية الحجارة الموجودة عنده خلال يومٍ واحد، فرفض هذا العامل أن يرفع الحجارة وقال: هذه الكمية تُرْفَع فى يومين ... قالها بناءً على قدرته فى الرفع وخبرته أجاب بالرفض، أى: أن هذه الإجابة قالها اعتمادًا على قدرته المُمكِّنة.

فذهب الرجل إلى عامل آخر وعرض عليه نفس العرض السابق فوافق على رفع كمية الحجارة فى يوم واحد؛ لأنه يعلم قدرته على العمل فى اليوم وأنه قادر على الأداء فى الزمن المطلوب، وذلك بناءً على قدرته الممكنة.

فلما شرع العامل فى رفع الحجارة عمليًّا، تحولت القدرة المُمكنة إلى قدرة مُيسرة يسرت له القيام بالعمل المطلوب.

بناءً على ذلك نعلم أن الشرع يخاطب فى الإنسان القدرة الممكنة والتى

تكون قبل الفعل أو هى (مناط التكليف).

نعود بعد هذه الأمثلة إلى موضوعنا وهو الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصى والذنوب، فنقول للسارق أو الزانى هل كان فى إمكانك الامتناع عن السرقة أو الزنا قبل أن تقع فيه أم كنت لا تقدر على الامتناع؟

الجواب الصريح: نعم، كنت تقدر على الامتناع عن السرقة أو الزنا قبل الوقوع فيه، ولكنك كنت مُصرًّا على السرقة والزنا، ووقعت فيها بمحض قدرتك ومحض اختيارك. فبذلك ثبت بطلان الاحتجاج بالقدر.

كذلك الكافر عندما دعاه النبى ﷺ إلى الدخول فى الإسلام، وإعلان كلمة التوحيد، كان يقدر أن يُعلن إسلامه أم كان لا يقدر على ذلك؟

الجواب: نعم، ... كان الكافر لديه القدرة على إعلان إسلامه ولكنه رفض الدخول فى الإسلام بمحض قدرته ومحض اختياره، أى: اختار الكفر دون جَبْرٍ من أحدٍ. وبذلك بطلت حجة المحتجين بالقدر على فعل المعاصى والذنوب والكفر والعياذ بالله.

۞ الجواب السادس:

معلوم لدى كل مسلم أن الله تعالى أحاط علمه بكل شىء، فإنه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون،... يعلم الواجبات والممكنات والمستحيلات، والماضى والحاضر والمستقبل، ويعلم الكُليات والجزئيات والظواهر والبواطن، والعالى والسافل، والكبير والصغير، بأدقِّ التفاصيل،... أى: أنه تعالى عليم بجميع خلقه ومن ذلك علمه سبحانه بالإنسان وعلمه بأهل السعادة وأهل الشقاوة، ويعلم ما سيؤول إليه عملهم وإلى أى شىء سيصيرون.

ونضرب لذلك مثلًا عمليا (ولله المثل الأعلى):

افترض أنك ذاهب فى زيارة أنت وزوجتك وسوف تترك الأولاد فى البيت أغلب النهار، فإنك قبل أن تغلق عليهم الباب تقول لهم إن الطعام فى الثلاجة ... لحم ودجاج وجبن وزبد، وبعد أن تترك البيت أنت وزوجك، تقول لها: إن الأولاد لن يأكلوا من الثلاجة إلا الجبن والزبد، وبعد قضاء الزيارة والعودة، تجد الأولاد قد تصرفوا تمامًا كما قلت لزوجتك على الرغم من أنك تركت لهم الاختيار فى الأكل لأكثر من نوع، ومع ذلك فعلوا ما توقعت أن يفعلوه.

فهل أنت تعلم الغيب أم قلت هذا بناءً على علمك بسلوك وميول أولادك؟

الجواب: أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأما كون الأولاد فعلوا كل ما توقعت أن يفعلوه فإن هذا معتمدًا على علمك بأولادك.

فإذا كنا نصدق هذا على علمنا نحن القاصر بأولادنا، فما بالكم بعلم الله تعالى بخلقه، ألا يعلم إلى أى اتجاه سوف يسيرون وإلى أى مصير سيصيرون إليه!! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

وانظر أخى المسلم إلى ذلك المثل الحى فى كتاب الله تعالى حيث يقول سبحانه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[2].

فإن الله تعالى حَكَمَ على أبى لهب بأنه من أهل النار، وذلك لأنه

(١) سورة الملك: الآية: (١٤).

(٢) سورة المسد: الآيات: (١-٣).

سيموت على الكفر، مع أن كثيرًا من الكفار قد دخلوا فى الإسلام مثل خالد ابن الوليد، وأبى سفيان بن حرب، فما المانع أن يُسْلِم أبو لهب هو الآخر؟ الواقع أن أبا لهب لم يُسلم، ومع إعلان القرآن بأن أبا لهب من أهل النار، لم يصطنع أبو لهب الدخول فى الإسلام، ولو بالكذب وظلَّ على كفره حتى الممات، لماذا؟

لأن الله تعالى علم أزلًا أن أبا لهب سيسلك مسلك أهل النار، وسيأخذ بأسباب الهلاك وبالفعل مات على الكفر، ولا يظلم ربك أحدًا.

واعلم أخا الإسلام أن صفة علم الله تعالى صفة انكشاف، أى: أن علم الله تعالى يكشف ما كان وما سيكون فلا يغيب عنه شىء ولا يحجب عن علمه شىء، كما أن العلم صفة لا تأثير لها، فالعلم وصَّاف للأشياء وكشَّاف لما سيكون.

۞ الجواب السابع:

نحن فى حياتنا اليومية نحرص كل الحرص على ما ينفعنا سواء فى التجارة أو الصناعة أو الدراسة أو أى عمل، ولا نأتى على الشىء الذى نكره ونعمله ثم نقول هذا مكتوب علينا، ونضرب لذلك مثلًا عمليًّا:

إذا كنت تاجرًا وتعمل فى تجارة الأقمشة، وقد علمت أن الأقمشة القطنية هى المطلوبة، وأن نسبة الأرباح فيها ضعف الأرباح التى تأخذها من الأقمشة الحريرية ففى أى نوع من الأقمشة سوف تتاجر؟

لا شك أنك ستتاجر فى الأقمشة القطنية؛ لأن فيها الأرباح الكثيرة، فلماذا لا نسلك طريق الجنة والفوز فى الآخرة، ونترك طريق النار والخسارة فى الآخرة؟

مثال آخر: الطالب فى المدرسة وفى المرحلة المتوسطة (ليس فى سنوات نهائية) تجد المدرس يخبر الطلبة بأن الأبواب التى سيأتى منها امتحان آخر العام (١، ٢، ٣) مثلًا، أما باقى المنهج فلا يأتى منه سوى نصف سؤال من خمسة أسئلة فى الامتحان، فأى الأبواب سيكون اهتمامك بها؟

لا شكَّ أنك ستهتم بالأبواب (١، ٢، ٣) والتى سيأتى منها امتحان آخر العام.

فلماذا أخا الإسلام لا تسلك مع الله تعالى طريق الطاعة والنجاة والفوز بالجنة يوم القيامة، وتترك طريق المعصية والهلاك والخسارة بدخول النار يوم القيامة.

۞ الجواب الثامن:

نقول لمن يحتج بالقدر على فعل المعاصى: لا تأكل ولا تشرب، فإن قدَّر الله تعالى لك الشبع والرى فسوف تشبع وتروى وإلا فلا،... ونقول له: لا تتزوج، فإن قدَّر الله تعالى لك الذرية فستأتيك وإلا فلن تأتيك، أو إن تزوجت فلا تجامع زوجتك فإن كُتب لك منها ولد فسوف تلد بدون جماع وإلا فلا، ونقول له: إذا كنت فى حديقة الحيوان وفُتح باب قفص السباع فلا تهرب منها، فإن قدَّر الله تعالى لك النجاة فستنجو وإن لم يقدر لك النجاة فلن ينفعك الهرب، ونقول له: إذا كنت مريضًا فلا تأخذ الدواء فإن كتب الله تعالى لك الشفاء شُفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء.

فإن وافق على هذه الأقوال وقال: إنها صحيحة علمنا أنه مجنون أو مختلّ العقل، وإن قال إن هذه الأقوال خاطئة، فإنه بذلك أبطل حجية الاحتجاج بالقدر وهو الصواب.

۞ الجواب التاسع:

لو جاز الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي فلا فائدة إذن من الاستغفار عن الذنوب ولا فائدة من الدعاء والتوبة والجهاد فى سبيل الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأن ذلك لن يغير شيئًا مما هو مكتوب، ... وهذا باطل لأننا مأمورون فى القرآن الكريم بفعل الخيرات كلها ... قال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1]، ومنها الاستغفار والدعاء والتوبة والجهاد فى سبيل الله تعالى.

۞ الجواب العاشر:

قاعدة جليلة في القضاء والقدر:

إن الله تعالى أراد بنا شيئًا وأراد منا شيئًا، فما أراده بنا أخفاه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فلا تنشغل بما أراده بك عما أراده منك.

۞ نوضح فى بساطة هذه القاعدة:

قوله: (إن الله تعالى أراد بنا شيئًا) أراد الله تعالى ببعض عباده أن يكونوا من أهل الجنة، وأراد ببعضٍ آخر أن يكونوا من أهل النار، فإن هذا شأنه سبحانه لا يفعل شيئًا بلا حكمة، وإنما الحكمة ملازمة لجميع أفعاله سبحانه،... وهذا الذى أراده بنا لا يعلمه أحد إلا الله تعالى.

قوله: (وأراد منا شيئًا) أراد الله تعالى منا أن نعبده ونوحده ولا نشرك به شيئًا، نأتمر بأوامره، وننتهى بنواهيه، ونقف عند حدوده فلا نتعداها.

قوله: (فما أراده بنا أخفاه عنا) أى: أنه سبحانه أخفى علم القدر المكتوب عن جميع خلقه، فإن القدر سر الله تعالى المكتوم عن جميع

---

(١) سورة الحج: الآية: (٧٧).

خلقه، لم يطَّلع عليه مَلَكٌ مقرب وإن كان جبريل عليه السلام، ولا نبى مرسل وإن كان النبى محمد ﷺ ... فإن اللوح المحفوظ لا يطَّلع عليه مخلوق، فإن الله تعالى كتب فيه كل شىء كائن قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ... كما فى حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فإن الأمر منتهٍ.

قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾(١).

قوله: (وما أراده منا أظهره لنا) أراد الله تعالى منا التوحيد والطاعة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام، فأرسل إلينا رسوله محمدًا ﷺ بالبينات والهدى وأنزل معه القرآن الكريم فيه التوحيد والتشريع والوعظ لنا.

قوله: (فلا تنشغل بما أراده بك عما أراده منك) لا بد أن تعلم أخى المسلم أن لك شأنًا وهناك عمل مطلوب منك، وأن لله تعالى شأنًا، ... أما شأنك وعملك فأنت تعرفه بكل تفاصيله ليس فيه مبهم ولا مستحيل، فإن الله تعالى لا يكلف عباده بالمستحيل، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٢)، وأما شأن الله فليس لك أن تسأل عن شىء من ذلك، وليس لك فيه إلا أن تُسلِّم لسيدك ومولاك الذى يفعل الخير ويأمر بالخير ويُشرِّع الخير ولا يُنسَب إليه الشر ولا يأمر به ولا يفعله سبحانه، بل هو رحيم رحمن عليم علام، حكيم قوى متين قادر مقتدر عدل لا يظلم مثقال ذرة، فإذا قدَّر شيئًا فى ظاهره شر لنا، فإن اطلعت على حكمته تعالى فى ذلك علمت أنه الخير كل الخير فى حقيقته.

---

(١) سورة فاطر: الآية: (٤٣).

(٢) سورة الحج: الآية: (٧٨).

۞ **الجواب الحادي عشر:**

اعلم أيها المحتج بالقدر على فعل المعاصى أنك مِلكٌ لله تعالى، لا تملك من أمر نفسك أى شىء،... فهو سبحانه خلقك وسوَّاك وعدلك ورزقك وجمَّل صورتك وكساك، وأطعمك وسقاك وأنت مِلكٌ له سبحانه يفعل بك ما يشاء؛ لأن المالك لا يُسئل عما يملكه،... ونضرب لك مثلًا (ولله المثل الأعلى):

إن كان لديك مزرعة للغنم كبيرة، ثم أتيت على كمية وأمرت أن تُذبَح لكى تُباع، وتركت باقى المزرعة بلا ذبح لمدة شهر، ثم أتى إليك رجل من الطريق لا يملك من المزرعة شيئًا، وليس له عليك سلطان، وقال: أنت رجل ظالم، لِمَ تذبح هذه الكمية من الغنم دون غيرها؟ فهل لهذا الرجل حقٌّ فى هذا الاعتراض؟ الجواب: لا،... بل إن فَعَلَ ذلك سوف يُعرض نفسه للإهانة والضرب، أو السب والطرد، لماذا؟... لأنه تدخل فى الشؤون الداخلية لملك غيره... ولله المثل الأعلى ...

فإذا لم نقبل هذا الاعتراض فى حق البشر فهل يصح أن نقبله فى حق الله تعالى؟!

فإن الله تعالى متصرف فى مُلكه كما يشاء، ويفعل ما يشاء، ولا يُسئل عن ذلك، ... قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1]، فمن سأل: لِمَ فعل فقد رَدَّ حُكم الكتاب (أى: اللوح المحفوظ) ومَنْ رَدَّ حكم الكتاب كان من الكافرين (كما قال الطحاوى).

فما أصابك من مصيبة أو ضرر أو مرض أو خسارة فاعلم أنها عدل من

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

الله تعالى؛ لأن الظلم مُحال على الله تعالى، فإن أطلعك على الحكمة من هذا البلاء فذلك خير كثير.

وما أصابك من خير ورزق ونفع وصحة ونجاح فاعلم أنه تفضُّل وكرم من الله تعالى عليك، فاحمد الله تعالى أن منَّ عليك وأعطاك دون غيرك.

فليس للمسلم أمام القضاء والقدر سوى الصبر أو الرضا عند البلاء دون أدنى اعتراض أو سؤال، وعند النعماء من الشاكرين الحامدين لله تعالى.

بعد هذه الأجوبة التى يقنع بها أبعد الناس عن الإيمان بالقضاء والقدر نورد قول شيخ الإسلام ابن تيمية من الفتاوى الكبرى الجزء الثامن ... يقول ابن تيمية عن المحتجين بالقدر: (هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إذَا أَصَرُّوا عَلَى هَذَا الِاعْتِقَادِ كَانُوا أَكْفَرَ مِنْ الْيهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَإِنَّ الْيهُودَ وَالنَّصَارَى يؤْمِنُونَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْى وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَكِنْ حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ. كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[١]. فَإِذَا كَانَ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا فَكَيْفَ بِمَنْ كَفَرَ بِالْجَمِيعِ. وَلَمْ يُقِرَّ بِأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ؛ بَلْ تَرَكَ ذَلِكَ مُحْتَجًّا بِالْقَدَرِ فَهُوَ أَكْفَرُ مِمَّنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ). اهـ[٢].

(١) سورة النساء: الآيات: (١٥٠-١٥٢).

(٢) نقلًا عن كتاب(هداية المقتدر فى حل مسائل القضاء والقدر)/ الشيخ مجدى بن عبد الرحمن لطفى

۞ وملخص القول فى الاحتجاج بالقدر على المعاصى:

لو كان الاحتجاج بالقدر، مقبولًا لقُبل إبليس وغيره من العصاة ولو كان القدر حجة للعباد لم يُعذَّب أحدٌ من الخلق لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولو كان القدر حجة لم تُقطَع يد سارق، ولم يُقتل قاتل، ولا أُقيم حَدٌّ على ذى جريمة، ولا كان هناك جهادٌ فى سبيل الله، ولا أمر بالمعروف ولا نُهى عن المنكر[١]، ... وهذا من الفساد فى الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول[٢]. وأخيرًا فإن المحتج بالقدر يُكذب واقع دعواه، إذ أنه لا يعلل بالقدر كل أحواله، وإلا لو كان صادقًا فى زعمه لرضى بكل ما يُقدره الله عليه من فقرٍ وذُلٍّ وجوعٍ وذهاب مالٍ.

والواقع يشهد بعكس ذلك ويؤكد سعيه بكل الوسائل لجمع المال ودفع المرض وإذهاب الجوع .. إلخ ... ولو كان المحتج بالقدر صادقًا فى احتجاجه للزم أن لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون[٣].

فإن أحدهم لا يزال يذم هذا، ويبغض هذا، ويخالف هذا، حتى إن الذى ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه، وينكرون عليه، فإن كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لا يَذُموا أحدًا ولا يُبغضوا

(١) مجموع الفتاوى لا بن تيمية (٨/ ٢٦٤، ٢٦٥) بتصرف.

(٢) مجموع الرسائل والمسائل (٥/ ١٣٩).

(٣) العقيدة الإسلامية / د. أحمد جلى (ص ٣٨٧).

أحدًا، ولا يقولوا في أحدٍ: إنه ظالم ولو فعل ما فعل، ومعلوم أن هذا لا يمكن أحدٌ فعله، ولو فعل الناس هذا لهلك العالم، فتبين أن قولهم فاسد في العقل ... وأنهم كذابون مفترون في قولهم: إنَّ القدر حجة للعبد [1].

---

(١) مجمع الفتاوى / ابن تيمية (٨/ ٢٦٣).

متى يجوز الاحتجاج بالقدر إذن

يجوز الاحتجاج بالقدر فى النوازل والمصائب التى تنزل بالإنسان ولا دخل له بها ... أى: أنها من القهريات، كالمرض والفقر، وموت الولد أو الوالد، وخسارة المال فى التجارة، وغرق أو تلف الزروع، وعدم الإنجاب، وما إلى ذلك مما لا دخل للعبد فيه، فإن الاحتجاج بالقدر فى هذه المواقف من تمام الرضا بربوبية الله تعالى، والتسليم الكامل لحكم الله تعالى أما المعاصى والذنوب فإن للإنسان دخل فيها؛ لأنه مأمور بترك المعاصى والذنوب ولكنه اقترفها بمحض إرادته فلا يصح الاحتجاج بالقدر عليها.

ونضرب لكم مثلًا لنفرق بين الحالتين:

رجل يسير بالسيارة فى الطريق وأثناء السير وفجأة وجد رجلًا يعبر الطريق فصدمه بالسيارة فمات فهذا يُسمَّى قتل خطأ؛ لأن صاحب السيارة لا يعرف هذا المقتول وليس بينهم ضغائن، أو ثأر حتى يُعلَّل هذا القتل بالعمد. فإذا احتج أحد على هذا القاتل فى هذه الحالة فإنه يمكن أن يحتج بالقدر فيقول: (هذا أمرٌ مكتوب علىَّ) فهذا الاحتجاج مقبول منه.

أما إذا قام هذا الرجل أثناء السير بإطلاق الرصاص على أحد الناس فى الطريق متعمدًا، ثم احتج بالقدر، فإن هذا لا يُقبل منه لأنه فعل هذا القتل عمدًا، والشرع نهى عن القتل العمد[١].

---

(١) هداية المقتدر (ص ١٢٨-١٢٩).

هل احتج آدم عليه السلام على الذنب بالقدر؟

ومن أشهر الأدلة التى يستدل بها المحتجون بالقدر على توسيع تفريطهم وعصيانهم: حديث احتجاج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخَطَّ لك بيده، أتلومنى على أمر قدَّره الله علىَّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة،... فحجَّ آدمُ موسى ثلاثًا؟**»[1] .

وهذا الحديث حجة على القدرية والمعتزلة الذين ينكرون علم الله الأزلى، ولا يثبتون القدر لله تعالى.

❁ قال البيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٢٠٥):

وَفِى هَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَقَدُّمِ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِمَا يكُونُ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَصُدُورِهَا عَنْ تَقْدِيرٍ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَيسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْآدَمِيينَ أَنْ يلُومَ أَحَدًا عَلَى الْقَدَرِ الْمُقَدَّرِ الَّذِى لَا مُدْفِعَ لَهُ ... انتهى.

❁ وقال ابن حجر فى الفتح (١١/ ٥١٩):

قَالَ الدَّاوُدِى فِيمَا نَقَله ابن التِّينِ: إِنَّمَا قَامَتْ حُجَّةُ آدَمَ لِأَنَّ اللهَ خَلَقَهُ لِيجْعَلَهُ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً فَلَمْ يحْتَجَّ آدَم فِى أَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ بِسَابِقِ الْعِلْمِ لِأَنَّهُ كَانَ عَنِ اخْتِيارٍ مِنْهُ وَإِنَّمَا احْتَجَّ بِالْقَدَرِ لِخُرُوجِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يكُنْ بُدٌّ مِنْ ذَلِك. انتهى.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٠٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم، (٢٦٥٢) كتاب القدر.

۞ ونورد أجوبة أهل العلم على احتجاج آدم على موسى عليهما السلام:

(١) أن آدم إنما احتجَّ بالقدر على المعصية (أى: مصيبته) لا على المخالفة، فإن لوم موسى إنما هو على الإخراج فكأنه قال: أنا لم أُخرجكم وإنما أخرجكم الذى رتَّب الإخراج على الأكل من الشجرة والذى رتَّب ذلك قدَّره قبل أن أُخلق فكيف تلومنى على أمرٍ ليس لى فيه نسبة إلا الأكل من الشجرة والإخراج المُرتَّب عليها ليس من فعلى.

(٢) وقعت الغلبة لآدم لأنه ليس لمخلوق أن يلوم مخلوقًا فى وقوع ما قُدِّر عليه إلا بإذن من الله تعالى فيكون الشارع هو اللائم، ... فلما أخذ موسى فى لومه من غير أن يُؤذَن له فى ذلك عارضه بالقدر فأسكته.

(٣) قيل: إن الذى فعله آدم اجتمع فيه القدر والكسب ... والتوبة تمحو أثر الكسب، وقد كان الله تاب عليه فلم يبقَ إلا القدر، والقدر لا يتوجه عليه لوم؛ لأنه فعل الله ولا يُسأل عما يفعل.

(٤) حُسن إنكارآدم ﷺ على موسى ﷺ لومه على الأكل من الشجرة؛ لأنه كان قد تِيب عليه من ذلك.

(٥) إنما توجهت الحجة لآدم؛ لأن موسى لامه بعد أن مات واللوم إنما يتوجه على المُكلَّف ما دام فى دار التكليف.

(٦) كأن آدم قال لموسى لو لم يقع إخراجى الذى رُتِّب على أكلى من الشجرة ما حصلت لك هذه المناقب؛ لأنى لو بقيت فى الجنة واستمر نسلى فيها ما وُجد مَن تَجاهَر بالكفر الشنيع، كما جاهر به فرعون حتى أُرسلتَ أنت إليه وأُعطيت ما أُعطيت فإذا كنتُ أنا السبب فى حصول هذه الفضائل لك فكيف يسوغ لك أن تلومنى.

۞ وأما بالنسبة للأربعين سنة المذكورة فى الحديث:

قَالَ ابن التِّين: يحْتَمِلُ أَنْ يكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَرْبَعِينَ سَنَةً مَا بَينَ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾[1] إِلَى نَفْخِ الرُّوحِ فِى آدَمَ.

وقد ثبت فى صحيح مسلم أن بين تصوير آدم طينًا ونفخ الروح فيه كان مدة أربعين سنة.

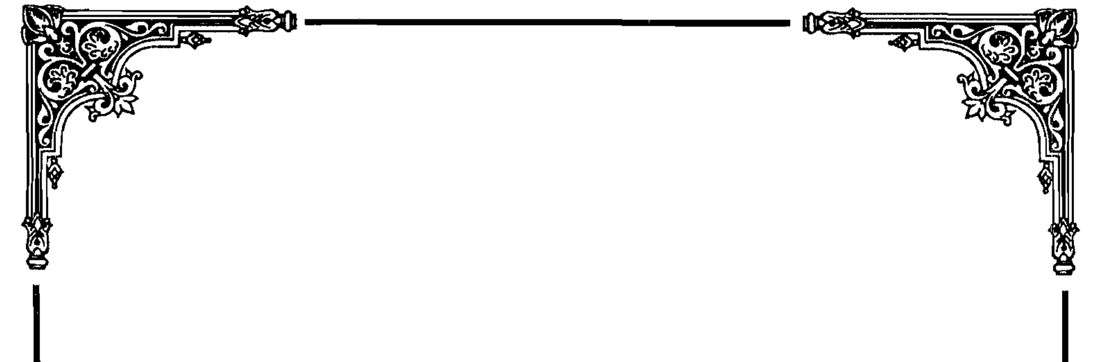
۞ وَقَالَ النَّوَوِى: الْمُرَادُ بِتَقْدِيرِهَا كَتْبُهُ فِى اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَوْ فِى التَّوْرَاةِ أَوْ فِى الْأَلْوَاحِ وَلَا يجُوزُ أَنْ يُرَادَ أَصْلُ الْقَدَرِ لِأَنَّهُ أَزَلِى وَلَمْ يزَلِ الله سبحانه وتعالى مُرِيدًا لِمَا يقَعُ مِنْ خَلْقِهِ[2].

---

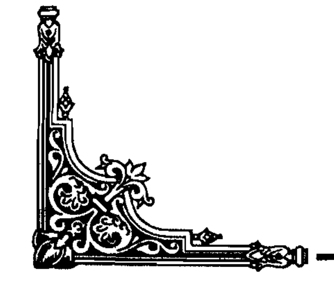
(١) سورة البقرة: الآية: (٣٠).

(٢) نقلًا عن (هداية المقتدر) (ص ١٣٠-١٣١).





ثمرات
الإيمان بالقدر





ثمرات الإيمان بالقدر

۞ للإيمان بالقدر كما جاء في القرآن والسنة وكما فهمه سلف الأمة ثمار مباركة وآثار طيبة، في عقلية المسلم ونفسيته، وفي وجدانه وإرادته، وعلاقته بنفسه وبربه، وبمن حوله، وما حوله، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة، يشهد بها كل ذي لُبٍّ، ويلمسها كل ذي بصر، لما لها من تأثير إيجابي في السلوك الخاص والعام وفي السلم والحرب، وفي اليُسر والعُسر والرخاء والشدة، والنعماء والبأساء [(١)]، ومن أهم هذه الثمار والآثار:

(١) الخلاص من الشرك

لقد زعم كثير من الفلاسفة أن الخير من الله، والشر من صنع آلهة من دونه، وإنما قالوا هذا القول فرارًا من نسبة الشر إلى الله تعالى [(٢)].

والمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظُّلمة خالقة الشر.

والذين زعموا من هذه الأمة أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الضال منها أثبتوا خالقين من دون الله.

ولا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شيء في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ... ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المكذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك. فالمؤمن بالقدر يقرُّ بأن هذا الكون وما فيه صادر عن إلهٍ واحد ومعبودٍ واحد، ومن لم يؤمن هذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأربابًا [(٣)].

---

(١) الإيمان بالقدر/ د. يوسف القرضاوي (ص ٨٨).

(٢) شفاء العليل: (ص١٤).

(٣) القضاء والقدر / د. عمر الأشقر (ص ١٠٩-١١٠)

(٢) التوكل على الله والاعتماد عليه :

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يباشر الأسباب بيده ولكن اعتماده على الله وحده لا على السبب،... وهكذا كان حال سيدنا محمد ﷺ، فقد اختفى ﷺ فى الغار وهذا منه ﷺ مباشرة لسبب الخلاص من المشركين ولكن ما كان اعتماده فى الخلاص من المشركين على هذا السبب ولا على غيره من الأسباب ولكن كان اعتماده على الله وحده.

قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[1].

فثقته ﷺ واطمئنانه وسكينته وأمله فى الخلاص، إنما كان ذلك بسبب تلك المعية الخاصة المتأنية من اعتماده على الله لا بسبب الاختفاء بالغار، وفى معركة بدر بعد أن نظم ﷺ الجيش وباشر الأسباب المادية للمعركة رجع إلى العريش المنصوب له يدعو ربه ويكثر من الدعاء؛ لأنه يعلم ﷺ أن النصر بيد الله والاعتماد فى تحصيله يجب أن يكون على الله لا على الأسباب التى باشرها وإن كان لابد من مباشرتها، وهذا هو التوكل الصحيح الذى هو من ثمرات الإيمان الصحيح بالقدر، ومن ثمرات التوكل كفاية الله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[2] [3].

(٣) الاستغناء بالخالق عن الخلق :

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الاستغناء بالخالق عن المخلوق والحرص

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٤٠).

(٢) سورة الطلاق: الآية: (٣).

(٣) القضاء والقدر للبيهقى / مقدمة عبد الكريم زيدان (ص ٣٢).

على رضى الله وحده ورجاؤه والخوف منه، والتوكل عليه والاستعانة به وتفويض الأمر إليه والانكسار بين يديه وتبليغ رسالات الله بدون وجل ولا تردُّد ولا خشية من أحد على وجه الأرض ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾(١).

وقال ﷺ: «**من أرضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس**»(٢).

فالسعيد الذى لا يعنيه إلا رضا الله، ولا يعنيه الشر إطلاقًا، لا يلتفت إلى الخلق؛ لأنه على يقين أن رزقه بيد الخالق، لا بيد الخلق وأن قلوب الخلق لا تُقبل إليه بالحب والبغض إلا بتقدير الخالق، فهذا لا يعلق قلبه بالمخلوقين..لا بثنائهم، ولا ببغضهم، ولا بذمتهم، ولا بحمدهم، بل يعلق قلبه بربهم (جل جلاله) فلا يعنيه إلا أن يقول: قال الله: قال رسوله بما يرضى الله سبحانه لا بما يُحصَّلُ به رضا الناس ، فمن قال لله لا يخشى فى الله لومة لائم، (بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة)، أسعده الله فى الدنيا والآخرة.

(٤) يجعل العبد عميق الإحسان بنعم الله عليه:

۞ ومن ثمرات الرضا بالقضاء والقدر، أنه يجعل العبد معترفًا بفضل الله عليه، بل ويجعله عميق الإحسان بنعم الله عليه.

۞ فإنه مما يسخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم، ويحرمهم لذة الرضا، أنهم قليلوا الإحساس بما يتمتعون به من نعم غامرة، ربما فقدت قيمتها بإلفها، أو بسهولة الحصول عليها، وهم يقولون دائمًا: ينقصنا كذا

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٣٩).

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٢٤١٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٩٧).

وكذا، ونريد كذا وكذا، ولا يقولون: عندنا كذا وكذا.

ولكن المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضل عميم، وإحسان عظيم، ونعم تحيط به عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته. إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان فى المهد صبيًّا، بل منذ كان فى بطن أمه جنينًا، كان صبيًّا وليدًا لا سنَّ له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، فأجرى الله له عرقين رقيقين فى صدر أمه يجريان لبنًا خالصًا، كامل الغذاء، دافئًا فى الشتاء، باردًا فى الصيف، وألقى الله محبته فى قلب أبويه، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب، ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش؛ حتى يكفياه ما أهمه ويدفعا عنه كُلَّ سوء.

وكان فى بطن أمه جنينًا، فجعل له قرارًا مكينًا، هيأ له فيه أسباب الغذاء والدفء والتنفس، وجعل له متكئًا عن يمينه، ومتكئًا عن شماله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[1].

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شىء حوله، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له، تُيسر له معيشته، وتُعينه على القيام برسالته فى الحياة. إنه يرى نعمة الله فى هبة الريح، وسير السحاب، وتفجر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات[2].

(٥) عدم استعجال الرزق .. والتخلُّق بالجود والكرم:

يا لها من سعادة يعيشها المؤمن بقضاء الله وقدره، فهو يؤمن يقينًا بأن

---

(١) سورة المرسلات: آية (٢٠-٢٣).

(٢) الإيمان والحياة (ص: ١٣٠، ١٣١).

الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه سبحانه قسَّم الأرزاق، فبسط الرزق لهذا وقتَّر الرزق على هذا؛ لأن الأول يُصلحه هذا المال، وأما الثانى فالمال يُفسده ... كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾(١)، كما أن الإنسان لن يموت حتى يستوفى رزقه كاملًا دون أى نقص بل إن هذه العقيدة تجعل المؤمن بها عزيز النفس يطلب الدنيا بعزة لا يُذل نفسه لبشرٍ مهما كان لأنه يعلم أن رزقه مكتوب ولن يأخذه غيره. قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾(٢)، فما دام الله تعالى متكفل بأرزاق العباد وحفظها لهم فى السماء فلماذا التكالُب على الدنيا؟ ولماذا الهم على الرزق؟ ولماذا الحزن على ما فاتك من عمل أو مال؟ وجواب هذه معروف لكل مؤمن بقضاء الله وقدره؛ وذلك لأن كل شىء بقدر، وكل شىء كُتب بعلم الله وحكمته فى اللوح المحفوظ.

ومهما ضاقت على المؤمن أرزاقه ومعيشته وضُيِّق عليه فى الرزق، فإن حديث النبى ﷺ الآتى هو منهج حياته،... عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»(٣).

وصدق الشاعر حين قال:

لا تَخضَعَنَّ لِمَخلوقٍ عَلى طَمَعٍ	فَإِنَّ ذَلِكَ وَهنٌ مِنكَ فى الدينِ
لا يستطيع العبد أن يعطيك درهمًا	إلا بإذن الذى سواك من طينِ

(١) سورة الشورى: الآية: (٢٧).

(٢) سورة الذاريات: الآية: (٢٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والحاكم (٦٣٠٤)، وصححه الألبانى فى صَحِيح الْجَامِع (٦٨٠٦).

فـلا تـصاحب غنيًّـا تـستعزّ بـه وكُـن عفيفًـا وعَظِّـم حُرمـة الـدينِ
واسـتـرزق اللهَ مِمّـا فى خَزائِنِـه فَـإِنَّ ذاكَ بَيـنَ الكـافِ وَالنُّـونِ

فيا لها من عقيدة تجعل صاحبها فى راحة نفس لا يحمل هم رزقٍ آتٍ، ولا يحزن على رزقٍ فاته، وبناء على ذلك فإن خُلق الكرم يتولد فى نفس هذا المؤمن ويتخلق بصفة الكرم، سواء على الأقربين كالوالدين بحيث يحسن إليهما ويغدق عليهما، وأيضًا على الزوجة والأولاد والأقارب.

بل إنه يكون حريصًا على الضيفان، فإن الكرم من أكبر ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر[1].

(٦) يحفظ العبد من الحزن وعدم الرضا:

۞ فإذا رسخت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر عند العبد، فإنه ينال منزلة الرضا بأن يرضى العبد عن ربه فى كل ما يقدره ويقضيه، فهذا يؤدى إلى رضا الرب عن العبد.

وقيل: إن رضا العبد عن الله تعالى من نتائج رضا الله عنه.

عن عبد الواحد بن زيد قال: (الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومُستراح العابدين).

وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه لعدى بن حاتم: ما لى أراك كئيبًا حزينًا؟ قال: وما يمنعنى وقد قُتل ابناى، وفُقئت عينى. فقال: يا عدى، إنه مَن رضى بقضاء الله جرى عليه، وكان له أجر، ومن لم يرضَ بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله.

وعن وهب بن منبه قال: وجدت فى زبور داود: يا داود هل تدرى مَن

(١) هداية المقتدر (ص ٢٠٥-٢٠٦).

أسرع الناس مرورًا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي، وألسنتهم رطبة من ذكري.

وقال الحسين بن علي رضي الله عنهما: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له. اهـ.

وذلك لأن من رضي بالله تعالى فوَّض أمره إليه، فيرضى كل ما اختاره له وذلك لعلمه بأن الله تعالى كامل الحكمة والرحمة واللطف.

كما أن المؤمن بالقدر يعلم أنه لا تبديل لكلمات الله، ولا رادَّ لحكمه، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالنعمة والبليَّة بقضاءٍ سابق وقدرٍ حتم. كما أنه سلَّم نفسه لله فلا يعترض على جريان أحكامه عليه ولا يسخط، بل إن معرفته بربه تجعله حَسَن الظن بربه، فلا يتهمه فيما يجريه عليه في قضائه وقدره.

والرضا يُنزل على الإنسان السكينة، فينصلح حاله وباله، والسخط يبعده عن ذلك، فيذهب عنه السرور والأمن والراحة، كما أن الرضا يفتح للإنسان باب السلامة، فيصبح قلبه سليمًا نقيًّا من الشرك والغش والغل، بل لا ينجو من عذاب الله تعالى إلا من أتاه بقلبٍ سليم. ولا سلامة للقلب مع السخط، بل تكون السلامة مع الرضا.

إن مَن ملأ قلبه من الرضا بقضاء الله وقدره، ملأ الله صدره غِنى وأمنًا وقناعة، وفرغ قلبه لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه.

فالرضا يفرغ القلب لله تعالى، والسخط يفرغ القلب من الرضا عن الله [1].

---

(١) هداية المقتدر (ص ٢٠٨-٢٠٩) بتصرف.

والإنسان قد خُلق مُحبًّا للحياة، راغبًا في متاعها، حريصًا على نفع نفسه، كارهًا للآلام والمصائب التي تحل به، وهو أيضًا يحب الخير لنفسه ويمنعه غيره، ويكره الشر لنفسه ويجزع منه ... كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾[1].

فإن أصابه الخير بطر واغترَّ به، وإن أصابه الشر والمصيبة جزع، وحزن، ولا يعصم الإنسان من البطر والطغيان إذا أصابه الخير، والحزن إذا أصابه الشر إلا الإيمان بالقدر، وأن ما وقع فقد جرت به المقادير، وسبق به علم الله، ... يقول الإمام الشوكاني: (ومن فوائد رسوخ الإيمان بهذه الخصلة أي: الإيمان بالقدر أنه يعلم أنه ما وصل إليه من الخير على أي صفة كان، وبيد من اتفق فهو منه عَزَّوَجَلَّ، فيحصل له بذلك من الحبور والسرور ما لا يقدر قدره، لما له سبحانه من العصمة التي تضيق أذهان العباد عن تصورها، وتقصر عقولهم عن إدراك أدنى منازلها ... وما أحسن ما قاله الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: من لم يؤمن بالقدر لم يتهنَّ بعيشه)[2] وهذا صحيح فما تعاظمت القلوب بالمصائب، وضاقت بها الأنفس، وحرجت بها الصدور إلا من ضعف الإيمان بالقدر[3].

(٧) الرضا والقناعة بما قسم الله:

والمؤمن راضٍ بما قَسَمَ الله له من رزق، وما قُدر له من مواهب، وما وُهِبَ له من حظ؛ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قَسمَ من أرزاق، وبحكمته فيما

(١) سورة المعارج: الآيات: (١٩-٢١).

(٢) «قطر الولي على حديث الولي للشوكاني» (ص: ٣٩٦)، ضمن «ولاية الله والطريق إليها» دراسة وتحقيق للكاتب الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال- تقديم: عبد الرحمن الوكيل.

(٣) القضاء والقدر / د. عبدالرحمن بن صالح المحمود (ص ٤٥٢-٤٥٣).

وَزَّعَ من مواهب، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ، وهذا هو معنى «القناعة» الذى حَثَّ عليه الدِّين، وأشاد به الحكماء والصالحون.

ولقد ظَلَم الناس - فيما ظلموا - كلمة «القناعة» فحسبوها الرضا بالدُّون، والحياة الهون، وضعف الهمة عن طلب معالى الأمور، وإماتة رغبة الطموح إلى الرُقى المادى والمعنوى، وتمجيد الجوع والفقر والحرمان.

وهذا كله خطأ واضح، وضلال بعيد. فالحق أن القناعة لا تعنى شيئًا من أوهام الكثيرين عنها. وإنما تعنى أول ما تعنى أمرين:

أولهما: إن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يشبع منها أو يرتوى، وقد صوَّر ذلك الحديث النبوى: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى ثالثًا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب**»[(١)].

وكان لابد للدين أن يهديه إلى الاعتدال فى السعى للغنى، والإجمال فى طلب الرزق، وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته، ويمنحه السكينة التى هى سرُّ السعادة، ويجنبه الإفراط والغلو الذى يُرهق النفس والبدن معًا، ومن ثَمَّ قال ﷺ: «**إنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ فى روعُى، أن نَفْسًا لَنْ تَموتَ حتى تَستكْملَ أجَلها، وتَستوعْبَ رِزقَها، فاتقوا الله، وأجملوا فى الطَّلبِ، ولا يَحملنَّ أحدَكُم استبطاءُ الرِّزقِ أن يطلُبَهُ بمعصيةِ الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته**»[(٢)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٧)، من حديث أبى أمامة، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٠٨٥).

ولو تُرك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه، لأصبح خطرًا على نفسه وجماعته، فكان لابد من توجيه طموحه إلى قِيَم أرفع، ومعان أخلد، ورزق أبقى، وذلك هو وظيفة الدين معه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾(١) ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾(٢).

وظيفة الإيمان هنا أن يَحدَّ من ثورة الحرص والطمع، وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها وتجعلها تحيا فى قلق دائم، لا تكتفى بقليل، ولا تشبع من كثير، لا يطفىء غلة ظمئها ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند غيرها، ولا يُشبعها الحلال فيسيل لعابها إلى الحرام، مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح، إنها كجهنم - أعاذنا الله منها - تلتهم الملايين فى جوفها، ثم يُقال لها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؟!.. ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟!(٣).

وظيفة الإيمان أن يُوجّه النفوس إلى القِيَم المعنوية الخالدة، وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحى الذى لا يموت، ويعلم المؤمن أن الغنى - إن كان ينشد الغنى - ليس فى وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى، وإنما هو فى داخل النفس أولًا، وبذلك ورد فى الحديث: «ليس الغِنى عن كثرة العَرض،

---

(١) سورة طه: الآية (١٣١).

(٢) سورة آل عمران: الآيتان: (١٤، ١٥).

(٣) سورة ق: الآية (٣٠).

إنما الغِنَى غَنى النفس»(١).

وثانى ما تعنيه القناعة: أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، وفى حدود ما قُدِّر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنيًا ما لا يتيسر له، متطلعًا إلى ما وُهِبَ لغيره ولم يُوهَب له، وذلك كتمنى الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء فى غيرة وحسد. ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل فى حسرة وتلهف، وطموح البدوى الذى يعيش فى أرض قفراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث فى عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكُنَّ لهن ما للرجال، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ﴾(٢) (٣).

۞ فالشاهد أنه ينبغى عليك أن ترضى بما قسم الله لك من المال والجمال والذكاء والصحة والزوجة والأولاد والمسكن... حتى تعيش سعيدًا راضيًا عن الله (جلَّ وعلا).

۞ ولعلنا نعلم جميعًا أن الأنبياء والمرسلين - صلوات ربى وسلامه عليهم- كلٌّ منهم رعى الغنم بل كان زكريًّا نجارًا وإدريس خياطًا، وداود حدَّادًا.. وما نقص ذلك من قدرهم ومكانتهم عند الله (جل وعلا).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة النساء: آية (٣٢).

(٣) الإيمان والحياة (ص: ٧٣١-٩٣١) بتصرف.

۞ وهناك قائمة رائعة من العظماء الذين بخسوا حظوظهم الدنيوية:

عطاء بن رباح عالم الدنيا فى عهده، مولى أسود، أفطس، أشل، مفلفل الشعر.

الأحنف بن قيس، حليم العرب قاطبة، نحيف الجسم، أحدب الظهر، أحنى الساقين، ضعيف البنية.

الأعمش مُحدِّث الدنيا، من الموالى، ضعيف البصر، فقير ذات اليد، ممزق الثياب، رثَّ الهيئة والمنزل.

۞ فقيمة المرء ما يُحسن... قيمتك فى عملك الصالح وما تقدمه لخدمة دينك وبلدك وأسرتك.. وليست قيمتك فى المال والجاه والقوة والجمال.. فارض بما قسم الله لك، تكن أغنى الناس.

الرضا والقناعة مصدر قوة للمسلم

إن القناعة بالقليل من الرزق ليست مصدر ضعف. كما يتوهم قصار النظر من الناس، كلا.. إنها مصدر قوة لأصحاب المبادئ، وحملة الرسالات المكافحين، الذين يتعرضون للاضطهاد والمصادرة والحرمان، فترى أحدهم يخوض المعركة ضد الباطل والظلم، صلب العود، متين البنيان، ثابت القدم؛ لأنه يعلم من نفسه أن القليل يكفيه مما جشب من الطعام، وما خشن من اللباس، وشظف من العيش.

إنه ينظر إلى قصور الأمراء، وخزائن الملوك، ورياش المترفين، كما ينظر راكب الطائرة المحلقة فى أعالى الفضاء إلى القرى والمدن والناس، إنه يرى القصور الشاهقة كالعلب الصغيرة، ويرى البشر كالنمل فى جحوره.

وقد قال حكيم شرقى لأحد تلاميذه: عش على أرز وماء، متخذًا من ذراعك المطوية وسادة تكن نشوة النفس نصيبك، وأما الثراء الذى ساءت وسائله، والأمجاد التى جاءتك عن طرائق السوء فكالسحائب العابرة، لا خصب فيها ولا نماء.

ومما حكى عن المسيح عليه السلام أنه كان يقول: لباسى الصوف، وطعامى الشعير، وسراجى القمر، ودابتى رجلاى، ووسادتى ذراعى... أبيت وليس لى شىء، وأصبح وليس لى شىء، وليس على وجه الأرض أغنى منى!!

وصاحب المبدأ والرسالة إذا تمكنت هذه القناعة من نفسه لم يعد يبالى أو يخاف، إنه يتغنى بما تغنى به الإمام الشافعى:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا	وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى نفس	حر ترى المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عمرى	فلماذا أخاف زيدًا وعمرا؟

ويحكى الإمام الغزالى فى كتاب «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» من إحيائه: أن شيخًا كان يمشى فى الطريق يلتقط النوى من الأرض فكسر «عودًا» مع خادم يحمله إلى جارية من جوارى أحد الأمراء تغنى عليه، وبلغ الخبر الأمير فاستشاط غضبًا واحمرت عيناه، وأرسل ليأتوا إليه بالشيخ، فجاء الرسول فقال: أجب الأمير فقال الشيخ: نعم. قال: اركب فقال: لا. فجاء يمشى حتى وقف على باب القصر، فغير الأمير مجلسه، ثم أمر بالشيخ فأُدخل. وفى كمه الكيس الذى فيه النوى. فقال له الخادم: أخرج هذا من كمك وادخل على الأمير، فقال: من هذا عشائى الليلة.

قال: نحن نعشيك.

قال: لا حاجة لى فى عشائك.

فقال الأمير للخادم: أى شىء تريد منه؟

قال: فى كمه نوى، قلت له اطرحه وادخل على الأمير.

فقال الأمير: دعه لا يطرحه.

فدخل وسلم وجلس، فقال له الأمير: يا شيخ، ما حملك على ما صنعت؟

قال: وأى شىء صنعت؟

وجعل الأمير يستحيى أن يقول: كسرت عودى!

فلما أكثر عليه قال: إنى سمعت آباءك وأجدادك يقرأون هذه الآية على المنبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[1] وأنا رأيت منكرًا فغيرته، فقال له الأمير: فغيره. قال راوى القصة: فوالله ما قال إلا هذا. فلما خرج أعطى الأمير رجلًا بدرة بها (عشرة آلاف درهم) وقال: اتبع الشيخ، فإن رأيته يقول: قلتُ للأمير وقال لى: فلا تُعطه شيئًا، وإن رأيته لا يُكلِّم أحدًا فأعطه البدرة.

فلما خرج من القصر إذا هو بنواة فى الأرض، قد غاصت فجعل يعالجها. ولم يكلم أحدًا. فقال له: يقول لك الأمير: خذ هذه البدرة. فقال: قل للأمير يردها من حيث أخذها.

ويروى أنه أقبل - بعد فراغه من كلامه - على النواة التى يعالج قلعها

(١) سورة النحل: الآية: (٩٠).

من الأرض وهو يقول:

أرى الدنيا لمن هى فى يديه | هموماً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر | وتُكرم كل مَنْ هانت عليه
إذا استغنيت عن شىء فدعه | وخُذْ ما أنت محتاج إليه

بمثل هذه النفس التى تقنع بالتقاط النوى من الأرض وترفض قبول الآلاف من الخلفاء والملوك، تعلو كلمة الحق، وتنتصر المبادئ والرسالات(١).

(٨) السكينة وراحة النفس:

فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهى هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها...وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين، من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم فى ذلك الشأن القدح المُعلَّى والنصيب الأوفى ... فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت ومالى سرور إلا فى مواضع القضاء والقدر(٢).

وهذا ابن تيمية يقول: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة(٣)، ويقول مقولته المشهورة التى قالها عندما قادوه إلى السجن: ما يصنع أعدائى بى أنا جنتى وبستانى فى صدرى، أينما رحلت فهى معى لا

---

(١) الإيمان والحياة (ص: ١٤٣-١٤٥) بتصرف.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / لابن الحكم (ص٩٧).
(٣) الشهادة الزكية فى ثناء الأئمة على ابن تيمية / لمرعى الحنبلى (ص٣٤).

تفارقنى، أنا حبسى خلوة وقتلى شهادة، وإخراجى من بلدى سياحة [١].

بل إنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والأطباء من غير المسلمين، فكم من الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب، ويذهب به العجب كل مذهب، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم واكتشف أنه مصاب بداء خطير كالسرطان مثلًا فترى هذا الطبيب يحتار فى كيفية إخبار هذا المريض ومصارحته بعلته، فتجده يُقدِّم رِجلًا ويؤخر الأخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر، وما أن يُعلمه بمرضه ويخبره بعلته، إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفسٍ راضية وصدرٍ رحب، وسكينة وهدوء.

لقد أدهش كثيرًا من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا فى هذا الشأن مُعبرين عن دهشتهم، مُسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة [٢]، فهذه شهادة حَقٍّ من قومٍ حُرموا الإيمان بالله وبقضائه وقدره.

ومليحةٌ شهدت لها ضُراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ومن هؤلاء الكُتَّاب الذين كتبوا فى ذلك الكاتب المشهور «ر. ن. سى. بودلى» مؤلف كتابى «رياح على الصحراء» و«الرسول» وأربعة عشر كتابًا أخرى، والذى أورد رأيه «ديل كارينجى» فى كتابه «دع القلق وابدأ الحياة» فى مقالة بعنوان «عشت فى جنة الله» يقول بودلى: فى عام ١٩١٨م.

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية، جهاده ودعوته / أحمد القطان (ص١٠١).

(٢) الإيمان بالقضاء والقدر / محمد إبراهيم الحمد (ص٣٢).

ولَّيت ظهرى العالم الذى عرفته طيلة حياتى، ويمَّمتُ شطر أفريقيا الشمالية، الغربية، حيث عشت بين الأعراب فى الصحراء وقضيت هنالك سبعة أعوام، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدى زِيَّهم وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم فى الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغنامًا وأنام كما ينامون فى الخيام، وقد تعمقت فى دراسة الإسلام حتى إننى أَلَّفتُ كتابًا عن محمد ﷺ وعنوانه «الرسول»، وكانت تلك الأعوام السبعة التى قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحَّل من أمتع أيام حياتى، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان والرضا بالحياة، وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق، فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر...ساعدهم هذا الإيمان على العيش فى أمان، وأخذ الحياة مأخذًا سهلًا هينًا، فهم لا يتعجلون أمرًا، ولا يُلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقًا على أمر، ... إنهم يؤمنون بأن «ما قُدر يكون» وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له)، وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون فى وجه الكارثة مكتوفى الأيادى ... كلا[1].

ثم أردَف قائلًا: ودعنى أضرب لك مثلًا لما أعنيه، ... هبَّت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادى «الرون» فى فرنسا وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، ولكن العرب لم يشكو إطلاقًا، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة «قضاء مكتوب»، لكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاطٍ كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودى القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، ... فعلوا هذا كله فى صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى، ... قال رئيس القبيلة الشيخ: لم

(١) الوسطية فى القرآن الكريم / للصلابى (ص٣٤٤).

نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمدًا لله وشكرًا، فإن لدينا نحو أربعين فى المائة من ماشيتنا، وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد"[(١)].

۞ وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يومًا فانفجرت إحدى الإطارات، وكان السائق قد نسى استحضار إطار احتياطى، وتولانى الغضب وانتابنى القلق والهم، وسألت صاحبى من الأعراب: ماذا وعسى أن نفعل؟ فذكَّرنى بأن الاندفاع إلى الغضب لن يُجدى فتيلًا، بل هو خليقٌ أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحُمق، ومن ثَمَّ درجت بنا السيارة وهى تجرى على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنها ما لبثت أن كفَّت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفد، وهنالك أيضًا لم تَثُر ثائرة أحدٍ من رفاقى الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يقطعون الطريق سيرًا على الأقدام"[(٢)].

۞ وبعد أن استعرض بودلى تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله: قد أقنعتنى الأعوام السبعة التى قضيتها فى الصحراء بين الأعراب الرُّحَّل أن مرض النفوس، والسكيرين الذين تحفل بهم أمريكا، وأوربا ما هم إلا ضحايا المدنية التى تتخذ السرعة أساسًا لها، إننى لما أُعانِ شيئًا من القلق قط وأنا أعيش فى الصحراء، بل هنالك فى جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا"[(٣)].

---

(١) دع القلق وأبدأ الحياة / ديل كارنيجى (ص٢٩٠، ٢٩١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٩٠، ٢٩١).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢٩١-٢٩٥).

۞ وأخيرًا ختم كلامه بقوله: وخلاصة القول أننى بعد انقضاء سبعة عشر عامًا على مغادرتى الصحراء ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التى لا حيلة لى فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التى اكتسبتها من العرب فى تهدئة أعصابى أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير [١].

(٩) لا يعرف اليأس طريقًا إلى قلبه:

فالذين لا يؤمنون بالقدر يعيشون فى قلق وتوتر دائم، وذلك لأنه يقف حيال أقدار الله تعالى معترضًا ومعاندًا ومكابرًا، فلا يُسلِّم الأمر لخالقه وبارئه، وإنما دائم الاعتراض على حكم الله تعالى عليه، فيكون دائم اليأس والتوتر، فلا تمر عليه بَليَّة إلا وقال: إنها القاصمة، وليس هناك أمل فى النجاة، وهكذا تكون حياته!!!

بل إذا نظر إلى حال المسلمين الآن من ضعفٍ وهوانٍ وتخاذُلٍ فإنه يسيء الظنَّ بالله تعالى، ويظن أن الباطل له الغلبة ولن تقوم لأهل الإيمان قائمة.

وكل ذلك يخالف موعود الله تعالى، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [٣].

---

(١) الوسطية فى القرآن الكريم (ص٣٤٦) - نقلًا عن (الإيمان بالقدر) د. على الصلابى.

(٢) سورة هود: الآية: (٤٩).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٣٦).

فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين بأن نصر الله تعالى، وإن تأخر بسبب الذنوب والمعاصى فإنه آتٍ لا ريب فى ذلك، فلا بد من النصر والتمكين للإسلام وأهله بمشيئة الله تعالى وعونه[1].

(١٠) المؤمن لا يعيش بين «لو» و«ليت»:

إن من أهم عوامل القلق الذى يُفقد الإنسان سكينة النفس وأمنها ورضاها هو تحسُّره على الماضى وسخطه على الحاضر وخوفه من المستقبل.

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل شهورًا وأعوامًا يُعانى من آلامها، ويستعيد ذكرياتها القاتمة، متحسرًا تارة، متمنيًا أخرى، شعاره: ليتنى فعلت، وليتنى تركت، ولو أنى فعلت كذا لكان كذا.

وقديمًا قال الشاعر:

ليت شعرى وأين منى «ليت»؟ إن «ليتا» وإن «لوّا» غناء

ولذا ينصح الأطباء النفسانيون والمرشدون الاجتماعيون، ورجال التربية، ورجال العمل، أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش فى واقع يومه، فإن الماضى بعد أن ولَّى لا يعود.

ما مضى فات، والمؤمَّل غيبٌ ولك الساعة التى أنت فيها

وقد صور هذا المعنى أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا تصويرًا بديعًا لطلبته حين سألهم: كم منكم مارس نشر الخشب؟ فرفع كثير من الطلبة أصابعهم، فعاد يسألهم: وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب؟

---

(١) هداية المقتدر (ص ٢١٠-٢١١).

فلم يرفع أحد منهم إصبعه، وعندئذ قال المحاضر: بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب، فهى منشورة فعلًا. وكذلك الحال مع الماضى: فعندما ينتابكم القلق لأمورٍ حدثت فى الماضى، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة!!

وقد نقل هذا التصوير «ديل كارينجى» فى كتابه الشهير «دع القلق وابدأ الحياة»، كما نقل قول بعضهم: لقد وجدت أن القلق على الماضى لا يُجدى شيئًا تمامًا، كما لا يجديك أن تطحن الطحين، ولا أن تنشر النشارة،... وكل ما يجديك إياه القلق هو: أن يرسم التجاعيد على وجهك، أو يصيبك بقرحة فى المعدة [1].

ولكن الضعف الإنسانى يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون، وينشرون المنشور، ويبكون على أمس الذاهب، ويعضون على أيديهم أسفًا على ما فات، ويقلبون حسرة ما مضى.

وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار الداجية هو المؤمن الذى قوى يقينه بربه، وآمن بقضائه، وقدره فلا يُسلم نفسه فريسة للماضى وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاه الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يُقابَل بغير الرضا والتسليم، ثم يقول ما قال الشاعر:

سبقت مقادير الإله وحكمه فَأَرِحْ فؤادك من «لعل» ومن «لو»

وقول الآخر:

وليس براجعٍ ما فات منى بـ(لهف) ولا بـ(ليت) ولا (لو انّى)!

---

(١) دع القلق (ص ١٧٣).

إنه لا يقول: «لو أنى فعلت كذا لكان كذا، ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان» كما علمه الرسول ﷺ[١].

إنه يوقن أن قدر الله نافذ لا محالة، فلِمَ السخط؟ ولِمَ الضيق والتبرم؟ والله تعالى يقول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٢].

وفى غزوة أُحد التى قُتل فيها سبعون من خيار المسلمين، من أصحاب رسول الله ﷺ، نعى القرآن على طائفة من المنافقين ومرضى القلوب، وضعاف الإيمان، عاشوا بين «لو» المتندمة و«ليت» المتحسرة، فيقول:

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾[٣].

ويرد على أولئك الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٤].

المؤمن لا يقف موقف هؤلاء المنافقين، ولا موقف إخوانهم من الكفار الذين نهى القرآن عن التشبه بهم فى تحسراتهم الأسيفة، وتمنياتهم الحزينة:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٢) سورة الحديد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٥٤).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٦٨).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾[١].

إن شعار المؤمن دائمًا: «قدر الله وما شاء فعل»، «الحمد لله على كل حال»، وبهذا لا يأسى على ما فات، ولا يحيا فى خِضَمٍّ أليم من الذكريات، وحسبُه أن يتلو قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢]، وهذا يُسبغ عليه أيضًا نعمة الرضا وسكينة النفس التى امتنَّ الله بها على المؤمنين فى قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[٣].

(١١) الصبر عند نزول المصائب:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الصبر عند نزول المصائب، فالمؤمن بالقدر لا يسيطر عليه الجزع، والفزع، ولا يستبد به السخط والهلع، بل يستقبل مصائب الدهر بثباتٍ، كثبات الجبال فقد استقر فى أعماقه، قول الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران: الآيات: (١٥٦-١٥٨).

(٢) سورة التغابن: الآية: (١١).

(٣) سورة الفتح: الآية: (٤) - الإيمان بالقضاء والقدر/ د. يوسف القرضاوى (ص ٩٠-٩٢).

(٤) سورة الحديد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

فإيمان المسلم بقدر الله تعالى يمنحه الثبات عند صدمة المصيبة؛ لأنه يعلم أنها مقدرة مكتوبة من قبل أن تُخلق، ويُخلق، ومن هنا لا يستخفه الأسى والحزن على ما فات، والفرح بما هو آتٍ، بل هو ثابت متوازن.

ولهذا مدح رسول الله ﷺ المؤمن، فقال: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**»(١).

والمراد بالمؤمن هنا: (المؤمن القوى) وهو خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وإن كان فى كُلٍّ خير ... والمؤمن القوى هو الذى إذا حَلَّ به ما يكره من شدائد الدنيا وكرباتها، قال فى يقين وثقة: «قدر الله وما شاء فعل» كما علمه رسوله ﷺ.

عزَّى علىٌّ رضي الله عنه رجلًا مات ابنه وكان شديد الحزن عليه، فقال له: يا أبا فلان، إنك إن صبرت نفذت فيك المقادير ولك الأجر، وإن جزعت نفذت فيك المقادير وعليك الوزر.

فالمقادير نافذة فى كلا الحالين، ولكن العاقل، هو الذى يختار أن تنفذ المقادير فيه، وهو مأجور لا مأزور، ليُبشَّر مع الصابرين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾(٢)(٣).

فالإيمان بالقدر من أعظم الأدوية التى تعين المؤمن على الشدائد

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) سورة البقرة: الآيتان: (١٥٦، ١٥٧).

(٣) الإيمان بالقدر / د. يوسف القرضاوى (ص ٨٦-٨٧).

والمصائب والبلايا، فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر.

وكان رسول الله ﷺ يغرس فى نفوس أفراد الأمة الإسلامية هذا الإيمان ويرشدهم ويعلمهم كيف يتعاملون مع المصائب والشدائد،... فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: كنا عند النبى ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيًّا لها أو ابنًا لها فى الموت، فقال للرسول: «**ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجلٍ مُسمًّى**»[1].

ففى قوله ﷺ: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى**»: معناه الحث على الصبر والتسليم لقضاء الله تعالى ... وتقديره أن هذا الذى أخذ منكم كان له لا لكم فلم يأخذ إلا ما هو له، فينبغى أن لا تجزعوا كما لا يجزع من استُردت منه وديعة...وقوله ﷺ: «**وله ما أعطى**» معناه أن ما وهبه لكم ليس خارجًا عن ملكه بل هو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء،...

وقوله ﷺ: «**وكل شىء عنده بأجل مسمى**» معناه: اصبروا ولا تجزعوا فإن كل من يأت قد انقضى أجله المسمى فمحال تقدُّمه أو تأخُّره عنه، فإذا علمتم هذا كله فاصبروا واحتسبوا ما نزل بكم والله أعلم، ... وهذا الحديث من قواعد الإسلام المشتملة على جُمَل من أصول الدين وفروعه والآداب[2]، والمراد بأصول الدين هنا الإيمان بالقضاء والقدر[3].

ومن الأذكار التى علمها رسول الله ﷺ للأمة قوله ﷺ: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطى لما منعت ولا ينفع ذا**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووى (٦/ ٢٢٤ - ٢٢٥).
(٣) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (٢/ ٨١٦).

الجد منك الجد» [1].

وفى الحديث استحباب هذا الذكر عقب الصلوات، لما اشتمل عليه من ألفاظ التوحيد ونسبة الأفعال إلى الله والمنع والإعطاء وتمام القدرة [2].

وتعلم الصحابة من رسول الله ﷺ هذا الدعاء العظيم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أصاب أحدًا قط هَمٌّ ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أَمتك ناصيتى بيدك ماضٍ فِىَّ حكمك عدلٌ فِىَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدًا من خلقك أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى ... إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا،** قال: فقيل يا رسول الله: ألا نتعلمها؟ فقال: **بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها»** [3].

مصائب الدنيا تهون

فكل مصيبة فى دنيا الإنسان قد تُعوَّض بخير منها، أما مصيبة الدين فخسارة لا تُعوض، ولذلك حين خُيِّر يوسف - عليه السلام - بين أن يصاب فى دنياه فيسُجن ويكون من الصاغرين، وأن يصاب فى دينه فيصبو إلى النسوة ويكون من الجاهلين، كما قالت امرأة العزيز للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [4].

---

(١) متفق عليه:رواه البخارى (٨٤٤) كتاب الأذان، ومسلم (٥٩٣) كتاب المساجد.

(٢)فتح البارى (٢/ ٣٣٢ - ٣٣٣).

(٣) صحيح:رواه أحمد، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٩٩).

(٤)سورة يوسف: الآية: (٣٢).

حين خُيِّر يوسف بين الأمرين كان لا بد أن يختار مصيبة الدنيا، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾[1].

وكان مما علّمه نبى الإسلام لأمته أن يقولوا: «**اللهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**»[2].

۞ فلا داعى لأن تحزن على فوات شىء من الدنيا فالدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ولو كانت تساوى جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء.

۞ لا تحزن لو فقدت الدنيا بأسرها ما دمت موحدًا لله متمسكًا بسنة رسول الله ﷺ.

۞ لا تحزن ما دمت آمنًا فى سربك معافىً فى بدنك عندك قوت يومك فكأنما حيزت لك الدنيا بحذافيرها.

۞ لا تحزن فإنه لا ينفعك مع الحزن المال الكثير ولا الزوجة الحسناء ولا كثرة الأولاد ولا المنصب ولا الجاه ولا الدور والقصور.

۞ لا تحزن فإن الحزن يجعل المصيبة مصائب كثيرة ويُشمت أعداءك فيك... بل ويجعل جسدك مرتعًا للأمراض.

۞ لا تحزن ما دمت فى أمن وأمان وعندك عينان وأذنان ويدان ورجلان.

۞ لا تحزن فلقد حزنت كثيرًا فهل عاد والدك الذى مات؟... وهل

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

(٢) حسن: رواه الترمذى (٣٥٠٢) كتاب الدعوات، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٢٦٨).

نجح ابنك الذى رسب؟ وهل عادت الأموال التى خسرتها؟ .... إذن فلماذا الحزن؟!!!.

لا تحزن ... لا تحزن ... لا تحزن.

(١٢) الطمأنينة في السراء والضراء:

فإن العبد يعيش فى هذه الحياة متقلبًا بين حالى السراء والضراء، فقد يكون غنيًّا وافر المال، وقد يكون فقيرًا مُعوذًا، وقد يكون ذا منصب ووجاهة، وقد يكون وضيعًا ذليلًا، وقد يكون ذا صحة وعافية وقوة، وقد يكون مريضًا ضعيفًا، فكل هذه الأحوال لها أثر على النفس الإنسانية، فالغِنى قد يكون سببًا للطغيان والعدوان والعصيان، والفقر قد يكون سببًا للذل والمهانة والكفر، والصحة قد تكون سببًا للبغى والاعتداء، وارتكاب الفواحش، وقد تكون عونًا على أداء العبادات الشاقة مثل الحج.

والمرض قد يكون سببًا لتغيُّر الطبع وعدم الصبر والجزع ...وهكذا.

فإن أحوال الإنسان لا تستقيم على حال، لما فيه من جهل وضعف وقصور ونقص، إلا أهل الإيمان بالقضاء والقدر. فهؤلاء لا يجعلهم المال فى طغيان ولا الفقر فى ذلٍّ وهوان، ولا الصحة فى كبر وتعالٍ.

كما أن أهل الإيمان بالقدر يتلقون المسرات وكل شىء مفرح بالشكر لله تعالى عليها، وتسخيرها لمرضاة الله تعالى. وفى المقابل يتلقون المصائب بالرضا والتحمُّل واحتساب الأجر على الله تعالى[١].

(١٣) الإقدام على عظائم الأمور:

الإيمان بالقدر فى حياة المؤمن أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام

(١) هداية المقتدر (ص ٢٠٦).

على عظائم الأمور بثبات وعزم وثقة ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر فى حياة الأجيال الأولى من المسلمين هى التى صنعت تلك العجائب التى سجلها تاريخهم والتى ثبَّتت الدعوة فى الأرض ونشرتها على نطاقٍ واسع فى فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها فى قِصَرها فى التاريخ، وهى التى أقامت هذا البناء الشاهق فى كل ميدان من ميادين الحياة.

نعم، لقد كان من أول ثماره الباهرة ذلك الاستبسال فى الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل نشر الدعوة [١]، فقد كانوا لا يخافون الموت، لأنهم يوقنون بأن الآجال مُحدَّدة لا تتأخر ولا تتقدم لحظة واحدة ... ولما كانت هذه العقيدة راسخة فى قلوب المؤمنين ثبتوا فى القتال وعزموا على مواصلة الجهاد، فجاءت ملاحم تحمل أروع الأمثلة على الثبات والصمود أمام الأعداء مهما كانت قوتهم [٢]، ومهما كان عددهم، ... لقد أيقنوا بقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣].

فإذا كان لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له، سواء كان قاعدًا فى بيته أو فى ميدان القتال، ففيم الجُبن وفيم الفرار من القتال خوفًا من الموت؟ فهل القتال هو الذى يقتل؟ أم قدر الله لإنسانٍ ما أن يموت فى لحظة معينة فى حالة معينة هو الذى يُميته؟ وإذا كان كتب عليه الموت فهل يعفيه منه ألا يذهب إلى القتال؟ وإن كان لم يكتب عليه فهل يقتله الذهاب إلى الميدان؟

---

(١) ركائز الإيمان / الأستاذ: محمد قطب (ص ٤٢٦).

(٢) الإيمان بالقضاء والقدر/ د. عبد الرحمن المحمود (ص ٤٥٤).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٥١).

هكذا كان الأمر فى حِسِّهم فأقبلوا على الجهاد فى ثقة وثبات وعزم، وكان منهم ما سجله التاريخ من مواقف رائعة من الشجاعة والصبر على الشدة مع الاطمئنان إلى قدرة الله سبحانه،... ولقد وعى المسلمون كذلك الدرس الذى نزل عليهم فى سورة آل عمران بشأن غزوة أُحد، حين قال المنافقون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ فردَّ عليهم: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وحين قالوا: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ فردَّ عليهم: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ وحين قال الله للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾[1].

وعوه فأيقنوا أنه لا يموت إلا من كُتب عليه الموت ولو كان فى مضجعه فى بيته وأنه إن لم يكن كُتب عليه الموت فى تلك اللحظة فكل هول الحرب وكل سهام الأعداء وسيوفهم لن تصيبه بالموت ...وأيقنوا كذلك أنه حين يكون الإنسان فى القتال ويموت بقدرٍ من الله فأمامه المثوبة والأجر وهو الكاسب بهذا القدر الذى قدره له الله، لذلك كان القتال فى سبيل الله أمرًا محببًا إلى نفوسهم، فنصروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم[2]، كما وعد سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: الآيات: (١٥٦-١٥٨).

(٢) ركائز الإيمان / محمد قطب (ص ٤٢٧).

(٣) سورة محمد: الآية: (٧).

كذلك كان الإيمان بالقدر على هذه الصورة هو حافزهم للانسياح فى الأرض، سواء لنشر الدعوة، أو طلب الرزق، أو اكتشاف المجهول من الأرض، فكان لهم فى كل ميدانٍ نشاط ملحوظ وآثار مشهودة.

ففى نشر الدعوة نجد أن الإسلام قد امتد من المحيط غربًا إلى الهند شرقًا فى فترة من الزمن لا تتجاوز قرنًا وهى سرعة لا مثيل لها فى التاريخ، وانتشر مع الإسلام سلطان الدولة الإسلامية بما أرهب أعداء الله.

وانتشر معه كذلك اللسان العربى بسرعة تفوق الوصف فى انتشار اللغات فى الأرض ... وفى ميدان طلب الرزق تدفقت الثروات على العالم الإسلامى حتى صار المسلمون أغنى أمة فى الأرض، لأنهم يجوبون البحار والقفار تُجَّارًا وصُنَّاعًا فيأتى إليهم المال من كل سبيل وتُتاح معه فرصة العمران والحضارة، ... وفى ميدان الكشف الجغرافى كان المسلمون هم الذين ارتادوا البقاع المجهولة ... أول من ارتادها ورسموا لها الخرائط الجغرافية الدقيقة التى مكنت «فاسكوا داجاما» و«ماجلان» فيما بعد من القيام برحلاتهما حول أفريقيا وآسيا، كما كشفوا منابع النيل ورسموا خرائطه التى جاء المكتشفون الأوربيون على هُداها من بعد ليزعموا أنهم هم المكتشفون ... وهكذا امتدت الحياة بجميع صورها شرقًا وغربًا بهذا الدافع الإيمانى العميق [1].

(١٤) العزة في طلب الحوائج:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أن يطلب المؤمن حاجته عند مَن هى عنده بعزة نفس لا يُطأطئ رأسه ولا يذل نفسه ولا يُدنى ظهره لمخلوق.

---

(١) ركائز الإيمان / محمد قطب (ص ٢٤٨).

إن الله تعالى كتب العزة للمؤمن فلا ينبغي له أن يفرط فيها،... قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

فلا يحل لمؤمن أن يُذل نفسه لمخلوق مثله من أجل حاجة عنده، فقد علم النبي ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس هذه الكلمات العظيمة: «**احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشئ، لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف**»(٢)(٣).

(١٥) يوقن العبد أن الله يعوضه عما فاته :

من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر أن يوقن العبد أنه من ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه.

لما عقر نبي الله سليمان الخيل غضبًا له إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الريح.

ولمّا ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته أعاضهم عنها أن ملّكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولمّا احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولما تغيّرت رائحة أفواه الصائمين له، كان خلوف فم الصائم أطيب

---

(١) سورة المنافقون: الآية: (٨).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٣) من كتاب (الإيمان والحياة) / د. يوسف القرضاوي.

عنده في الآخرة من ريح المسك.

ولما عطش أولياؤه في صيامهم كان جزاؤهم دخولهم من باب الريّان لا يدخله غيرهم.

ولمّا بذل الشهداء أبدانهم له حتّى مزقتها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم عنها طيرًا خضرًا أقر أرواحهم فيها تَرِدُ أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه،... ولمّا بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم، فنالوا منهم وسبوهم؛ أعاضهم عن ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

لمّا قُتل الشهداء في سبيله وهب لهم الخلود والحياة.

كل إنسان يا أخي يعاملك ليربح منك، ويكسب عليك، أمّا الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يعاملك لتربح أنت منه، فالحسنة عنده بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عنده بواحدة، وهي أسرع شيء في المحو. يشكر اليسير من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. رحمته سبقت غضبه، وحلمه سبق مؤاخذته، وعفوه سبق عقوبته. أرحم من الوالدة بولدها[1].

(١٦) القضاء على الكسل والتواكل:

القدر من أكبر الدواعي التي تدعو الفرد إلى العمل والنشاط والسعي بما يرضى الله في هذه الحياة، ... والإيمان بالقدر من أقوى الحوافز للمؤمن لكي يعمل، ويقدم على عظائم الأمور بثبات وعزم ويقين.

---

(١) موارد الظمآن (ص: ٩٦-٩٨) بتصرف.

أما دعوى أن الإيمان بالقدر يدعو إلى الكسل والتواكل فى حياة المسلمين فهذا مما روَّجه ويُروجه الملحدون فهم يقولون: إن عقيدة القدر تدعو الإنسان إلى التعلل بالمكتوب، فيكسل ولا يقوم بالواجب المُلقَى عليه، ويضربون مثلًا لذلك بواقع الأمة الإسلامية المتخلف.

والحقيقة أن واقع الأمة الإسلامية المتردى إنما نشأ ووُجد لأسباب عديدة داخلية وخارجية، ... ومن الأسباب الداخلية: جهل المسلمين بحقيقة الإسلام، وعدم تفاعلهم معه التفاعل الإيمانى الصادق الذى غيَّر واقع الأرض أول مرة، ومن جوانب الجهل بحقيقة الإيمان والإسلام، الجهل بعقيدة القضاء والقدر، وذلك حين فهموا أن معنى القدر التسليم لما يقدره الله بالقعود عن تغيير ما أصاب الإنسان من فقر، أو مرض، أو جهل، لأن كل ذلك مُقدَّر من عند الله فلا ينبغى مقاومته، وإنما يجب الاستسلام له وفقط، وكذلك حين فهموا أنه لا حاجة إلى الكَدِّ والعمل فى طلب الرزق، لأن الرزق سيأتى صاحبه ولا ضرورة للنشاط والحركة.

فإذا وُجد فى المسلمين من يفهم هذا الفهم المنحرف فى باب القدر والأخذ بالأسباب فليس عيبًا فى الإسلام وإنما هو عيب المسلمين الذين يفهمون هذا الفهم، لأن الكتاب والسنة مملوءان بالأوامر والتوجيهات للإنسان أن يعمل الصالحات، ويطلب الرزق، ويُعمر الكون، وقد طبق هذه التوجيهات صحابة رسول الله ﷺ، فعملوا وكَدُّوا، وأتعبوا أنفسهم فى ابتغاء مرضاة الله، فجاهدوا، وصبروا، وفتحوا البلاد والعباد، وأقاموا حكم الله تعالى فى الأرض، وما وُجد فيهم من يقعد به إيمانه بالقدر عن ذلك، بل كان القدر أكبر داعٍ وأكبر عامل لهم ليقوموا بما قاموا به رضوان الله عليهم.

فالمؤمنون مأمورون بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، والإيمان بأن الأسباب لا تعطى النتائج إلا بإذن الله، لأن الله هو الذى خلق الأسباب، وهو الذى خلق النتائج، ... ويَحْرُم على المسلم ترك الأخذ بالأسباب، ولو ترك إنسانٌ السعى فى طلب الرزق كان آثمًا مع أن الأرزاق بيد الله تعالى، والرسول ﷺ لما سُئل: أرأيت رُقَى نسترقى بها، وتُقى نتقى بها، وأدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هى من قدر الله**»[1] فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص فى العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح فى الشرع، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدًا على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يُصلحه فى الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله كما يؤدى الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس جُنة الحرب، ولا يكتفى فى دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به الجهاد.

ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم[2].

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كُلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قُل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[3].

---

(١) **ضعيف**: رواه الترمذى، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه (٧٤٩).

(٢) القدر لابن تيمية (ص ٥٢٨-٥٢٩)، وانظر: مجموعة بحوث فقهية/ د. عبد الكريم زيدان (ص٢٣٨-٢٤٠) ط. ١٣٩٦هـ.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

قال شارح الطحاوية: (وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافى الاكتساب وتعاطى الأسباب، وأن الأمور كانت مُقدرة فلا حاجة إلى الأسباب.

وهذا فاسد، فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام ... وقد كان النبى ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب، ويمشى فى الأسواق للاكتساب)(١). وقد قال عمر رضي الله عنه لأبى عبيدة لما جاء الخبر بانتشار الوباء فى الشام، ورأى عمر الرجوع فقال له أبو عبيدة: «أفرارًا من قدر الله؟ .. فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان: إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله»(٢).

هكذا فهم الصحابة رضوان الله عليهم العلاقة بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب، وأن الأخذ بالأسباب داخل فى معنى الإيمان بالقدر ولا ينافيه.

وحين أراد المسلمون تغيير الواقع بالجهاد أخذوا بأسباب الجهاد كلها، ثم توكلوا على الله تعالى ولم يقولوا: إن الله قدَّر نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين، واكتفوا بذلك عن الاستعداد والجهاد، والصبر، وخوض المعارك، بل فعلوا كل هذه الأمور، فنصرهم الله، وأعز الله بهم الإسلام.

واليوم إذا وُجد من يقعد عن تغيير الواقع المؤسف للمسلمين بحجة

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص: ٣٠١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٧٢٩) كتاب الطب.

أنه واقع بقدرٍ من الله ... فهذا منه جهالة عظيمة بحقيقة هذا الدين، وبحقيقة القدر الذى هو ركن من أركان الإيمان، وإننا لنسمع كثيرًا من اليائسين الذين يكررون دائمًا عبارات التيئيس للدعاة والمصلحين، مثل قولهم: إن الزمان هو الذى فسد، وإن الإصلاح صعب، وهذا آخر الزمان، وهو زمان غربة الإسلام، إلى آخر العبارات التى تَنُم عن جهلٍ كبير، ويأسٍ قاتل، وما أدرى لو عايش هؤلاء غربة الإسلام الأولى حين كانت الدنيا كلها مطبقة على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه حين كانوا قلة مستضعفين ما أدرى لو عايش هؤلاء تلك الغربة ماذا سيقولون وماذا سيفعلون؟[1]

(١٧) معرفة مكانة الأسباب:

۞ ومن ثمرات الإيمان بالقدر معرفة مكانة الأسباب على حقيقتها، وأنها غير مستقلة بالفعل، بل هى مجرد آثار تابعة لمشيئة الله تعالى وتصرُّفه... إن شاء الله تعالى أقامها، وإن شاء أفناها، وهذا يدفع المرء إلى حُسن الاعتماد على الله تعالى وحده، وعدم الاعتماد على الأسباب مهما كانت، مع علمه أنها من قدر الله، وأنها غير خارجة عن علمه تبارك وتعالى.

وهذا يمنعه من الاغترار بما بلغه أهل الكفر من التقدم - فى مجالات التقنية الحديثة - ويحفظه من الإعجاب بهم؛ لعلمه أن ما بلغوه من التقدم إنما هو من خلق الله تعالى وصنعه فى المقام الأول، وليس الأمر كما يظنون أنها أسباب مستقلة عن مشيئة الله تعالى وإرادته،... وما ظنوا ذلك وما قالوه إلا إنكارًا للقدر، واغترارًا بقدرتهم التى ستزول يومًا ما شاؤوا أم أبوا.

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ

(١) «العقائد الإسلامية» / للشيخ السيد سابق (ص: ٩٨ - ٩٩).

قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [١][٢].

(١٨) النجاة من الحسد:

الإيمـان بالقـدر يقـضى علـى كثيـر مـن الأمـراض التـى تعـصف، بالمجتمعـات وتـزرع الأحقـاد بيـن المـؤمنين، وذلـك مثـل رذيلـة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، لأنه هو الذى رزقهم وقدر لهم ذلك، وهو يعلم أنه حين يحسد غيره إنما يعترض على المقدور، وهكذا فالمؤمن يسعى لعمل الخير، ويحب للناس ما يحب لنفسه، فإن وصل إلى ما يصبو إليه حمد الله وشكره على نعمه، وإن لم يصل إلى شىء من ذلك صبر ولم يجزع، ولم يحقد على غيره ممن نال من الفضل ما لم ينله، لأن الله هـو الـذى يقسم الأرزاق فيعطـى ويمنـع وكـل ذلـك ابـتلاء وامتحان منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لخلقه [٣].

لا تحسد أحدًا حتى لا تحزن

ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى النـاس ولا تنظـر إلـى نعمـة أنعمهـا الله على عبدٍ من عباده حتى لا تتهم الحق (جل وعـلا) فى عدلـه وحكمته. قـال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [٤].

إن الحسد يُهلك صاحبه وينغص عليه حياته ويجعلـه فى هـمٍّ لازم وغـمٍّ دائمٍ .... فهو لا يرضى بقسمة الله (جلَّ وعـلا) ولا يرتـاح إلا إذا زالـت كـل

(١)سورة يونس: الآية: (٢٤).

(٢)القضاء والقدر عند السلف (ص ٢٣٥-٢٣٦).

(٣)انظر: لمحات فى وسائل التربية الإسلامية/ محمد أمين المصرى (ص ١٧٨).

(٤)سورة النساء: آية (٥٤).

النعم من عند من يحسدهم.

- فاحذر - أخى الحبيب - من هذا الداء العضال الذى يعيث فى القلب والجسد فسادًا ويجعل صاحبه فى شقاءٍ دائم.

❁ **قال معاوية** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ليس فى خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود[١].

❁ **وقال معاوية** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها، ولذلك قيل:

كل العداوات قد تُرجى إماتَتُها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد[٢]

❁ **قال الحسن**: يا ابن آدم لِمَ تحسد أخاك؟ فإن كان الذى أعطاه لكرامته عليه، فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار[٣].

❁ **قال بعض الحكماء**: يكفيك من الحاسد أنه يغتم فى وقت سرورك.

❁ **قال عبد الله بن المعتز** رَحِمَهُ اللَّهُ:

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله[٤]

❁ **وقال آخر**:

يا حاسدًا لى على نعمتى ... أتدرى على من أسأت الأدب؟

---

(١) أدب الدنيا والدين (١٧٦).

(٢) الإحياء للغزالى (٣/ ٢٠١).

(٣) الإحياء (٣/ ٢٠١).

(٤) أدب الدنيا والدين (ص: ١٧٦).

أســـأت علـــى الله فى حكمـــه ... لأنـك لـم تـرض لـى مـا وهـب

فـــأخزاك ربـــى بـــأن زادنـــى ... وســـد عليـك وجـوه الطلـب[١]

(١٩) البعد عن المعاصي:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر شدة عتاب النفس إذا حُرمت التوفيق.

ذلك لأن حرمان التوفيق معصية جُلبت من معصية، واعتياد المعاصى باب من أبواب الخسران، وطريق من طرق النفاق، وعند ذلك يبلغ المرء مبلغًا لا يحب الله تعالى فيه الطاعة ممن قام بها.

وإذا بلغ المرء ذلك انتهى به المآل إلى سوء العقاب.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[٢].

فإذا علم المرء أن فعل المعصية يؤدى إلى الحرمان من الطاعة والوقوع فى العقاب .. بالغ فى توبيخ نفسه، واشتد عليها فى العتاب حتى يتوب إلى الله تعالى[٣].

۞ فاترك المعاصى فإن المعاصى تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ... كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة، السيئة بعدها. وإن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزنى بطاعتك، ولا تُذلنى بمعصيتك.

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى (٣/ ٥٥٧).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٤٤).

(٣) القضاء والقدر عند السلف (ص ٢٣٥).

وقال الحسن البصري: إنهم إن طقطقت[1] بهم البغال وهملجت[2] بهم البراذين[3] فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ ... وقد يورث الذلَّ إدمانُها

وتركُ الذنوبِ حياة القلوبِ ... وخيرٌ لنفسِك عصيانُها

وهل أفسدَ الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها[4]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياء في الوجه ونورًا في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه وظلمة في القلب ووهنًا في البدن ونقصًا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق»

(٢٠) البعد عن ظلم الناس:

ومن ثمرات الإيمان أن يعرف المرء أنه لا يستطيع أن يستبد في الطغيان كرهًا عن الله تعالى، أو بعيدًا عن إرادة الله تعالى، فإذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكَّر قدرة الله عليك ... وهذا المفهوم إذا صحَّ في القلب فحريٌّ به أن يمنع صاحبه من الظلم ... هذا بالنسبة للظالم، أما بالنسبة للمظلوم فإنه حين يعرف أن الظالم لا يقدر على شيء إلا بإذن الله تعالى، فإن ذلك يُلجئه إلى الاستعاذة بالله تعالى أن يكفيه شر عدوه، وفي هذا ثبات للنفس، وقوة للقلب، وحُسن للخلق[5].

---

(١) طقطقت: الطقطقة: هي صوت حوافر البغال.

(٢) هملجت: أسرعت في خفة وتبختر.

(٣) البراذين: نوع من الخيل، وهو ما كان من غير نتاج العرب.

(٤) الداء والدواء / للإمام ابن القيم (ص: ٧٨).

(٥) القضاء والقدر عند السلف (ص ٢٣٤-٢٣٥).

۞ وها هو النبى ﷺ يحذرنا من الوقوع فى ظلم العباد.

قال ﷺ: «**اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحملُ على الغمام، يقول الله: وعزَّتى وجلالى لأنصرنكِ ولو بعد حين**»[١].

وقال ﷺ: «**اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة**»[٢].

فهى سريعة الوصول.

وقال ﷺ: «**اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنهُ ليس دونها حجابٌ**»[٣].

وقال ﷺ: «**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا، ففجوره على نفسه**»[٤].

۞ ومن أجل ذلك أمرنا النبى ﷺ أن نتحلل من المظالم قبل أن نلقَى الله عَزَّوَجَلَّ فقال ﷺ: «**من كانت له مظلمة لأخيه من عِرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه**»[٥].

۞ **قال عمر بن عبد العزيز**: «إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس، فاذكر قدرة الله تعالى عليك، ونفاد ما تأتى إليهم وبقاء ما يأتون إليك»[٦].

---

(١) حسن: رواه أحمد (٧٩٨٣)، وحسنه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى السلسلة الصحيحة (٨٧٠).

(٢) صحيح: رواه الحاكم عن ابن عمر، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٢٨).

(٣) حسن: رواه أحمد (١٢١٤٠)، وحسنه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى السلسلة الصحيحة (٧٦٧).

(٤) حسن: رواه أحمد (٨٥٧٧)، وحسنه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى السلسلة الصحيحة (٣٣٨٢).

(٥) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب.

(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣١).

۞ وفى بعض المأثورات: «إذا كان يوم القيامة يجتمع الظلمة وأعوانهم ومَن ملأ لهم دواة وبرى لهم قلمًا، فيُجعلون فى تابوتٍ ويُلقون فى جهنم»[١].

۞ ويا لها من حسرة عندما يرى الظالم حسناته وهى تُوزَّع على كل من ظلمهم ... فقد قال ﷺ: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال ﷺ: «**إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم، فطُرحت عليه، ثم طُرح فى النار**»[٢].

۞ وحسبنا أن نتأمل قول الحق (جل وعلا): ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[٣].

(٢١) البُعد عن الكبر:

ومن آثار الإيمان بالقدر أن يعرف الإنسان قدر نفسه فلا يتكبر ولا يبطر ولا يتعالى أبدًا لأنه عاجز عن معرفة المقدور، ومستقبل ما هو حادث، ومن ثَم يُقر الإنسان بعجزه وحاجته إلى ربه تعالى دائمًا،... وهذا من أسرار خفاء المقدور[٤].

---

(١) بصائر ذوى التمييز (٣/ ٥٤٣)، والكبائر للذهبى (ص:١١٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) سورة طه: الآية (١١١).

(٤) انظر: لمحات فى وسائل التربية الإسلامية وغاياتها/ د. محمد أمين المصرى (ص ١٨٦).

(٢٢) التواضع وخفض الجناح:

فالمؤمن بالقضاء والقدر يعلم قدره جيدًا، فلا يتعدى حدوده مهما أُوتى من نعم وخير فإنه يعلم أن هذا بتقدير الله تعالى، ولو شاء الله تعالى لنزع منه هذه النعم والخيرات،... قال تعالى: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[١].

فإن كان ذا مالٍ وغِنًى فإن ذلك يدفعه إلى التصدق وعدم التعالى على الفقراء، وإن كان ذا منصب وجاهٍ فإنه يتواضع لبنى جنسه، فلا يُظهر لهم قدرته على الظلم والتعدِّى.

وكلما تواضع الإنسان بين الناس علا بينهم، وارتفع قدره وسؤدده، ووقَّره الكبير والصغير، ... وفى الحديث: «**يا أبا ذر تواضع لله عَزَّوَجَلَّ عسى أن يرفعك يوم القيامة**»، فمن تواضع فى الدنيا كان أهلًا لرفعة الله تعالى له.

وقد كان النبى ﷺ سيد المتواضعين ... فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبى ﷺ رجل فكلمه فجعل ترتعد فرائصه، فقال له: «**هَوِّن عليك فإنى لست بملِكٍ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد**»[٢]. والقديد: اللحم المُملح المجفف فى الشمس.

وعن عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغى أحدٌ على أحدٍ**»[٣].

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٢٦).

(٢) أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (١ / ٢٣)، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٨٧٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»[١].

وعن البراء رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل معنا التراب، ولقد وارى التراب بياض بطنه..» الحديث[٢].

ومع أنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فإنه يفعل ذلك كله، ولا ينقص من قدره شىء؛ لأنه يعلم أن الله تعالى بيده الأمر، يُعز ويُذل، يرفع ويخفض فكان ﷺ هو القدوة الحسنة والأسوة الطيبة التى نقتدى بها[٣].

(٢٣) ألا يُعجب المرء بنفسه عند حصول مراده:

وذلك لأنه لابد أن يوقن أن حصوله على أى نعمة ينتفع بها فى دُنياه كان بتقدير الله وإعانته وتوفيقه ... وأن إعجابه بنفسه يُنسيه شكر تلك النعمة.

(٢٤) الاستقامة:

والإيمان بالقدر من أكبر العوامل التى تكون سببًا فى استقامة المسلم وخاصة فى معاملته للآخرين، ... فحين يقصر فى حقه أحد أو يسيء إليه، أو يرد إحسانه بالإساءة أو ينال من عِرضه بغير حق، تجده يعفو ويصفح، لأنه يعلم أن ذلك مقدر، وهذا إنما يحسن إذا كان فى حق نفسه، أما فى حق الله فلا يجوز العفو ولا التعلُّل بالقدر، لأن القدر إنما يُحتَج به فى المصائب لا فى المعايب[٤].

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى، والحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢١١٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٣٧) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٠٣) كتاب الجهاد والسير.

(٣) هداية المقتدر (ص ٢٠٩-٢١٠).

(٤) القضاء والقدر للمحمود (ص ٤٥٧).

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضى فى حياته على منهجٍ سواء لا تُبطره النعمة، ولا تُيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[(١)] ولا يكون حاله حال قارون الذى بغى على قومه واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾[(٢)].

ويكون المؤمن بالقدر على الاستقامة فى حالة السراء والضراء[(٣)].

(٢٥) يصدع بكلمة الحق:

من آثار الإيمان بالقدر أن الداعى إلى الله يصدع بدعوته، ويجهر بها أمام الكافرين والظالمين، لا يخاف فى الله لومة لائم، يبين للناس حقيقة الإيمان، ويوضح لهم مقتضياته، وواجباتهم تجاه ربهم تبارك وتعالى ، كما يبين لهم حقائق الكفر، والشرك، والنفاق ويحذرهم منها، ويكشف الباطل، وزيفه، ودُعاته، وحُماته، ويقول كلمة الحق أمام الظالمين، ويفضح ما هم فيه من كفر وظلم وما يقومون به من إفساد وتضليل،... يفعل المؤمن كل

(١) سورة النحل: الآية: (٥٣).

(٢) سورة القصص: الآيات: (٧٦-٧٨).

(٣) القضاء والقدر للأشقر (ص ١١٠).

ذلك وهو راسخ الإيمان واثق بالله، متوكل عليه، صابر على كل ما يحصل له فى سبيله، لأنه موقن أن الآجال بيد الله وحده، وأن الأرزاق عنده وحده، وأن العبيد لا يملكون من ذلك شيئًا مهما وُجد لهم من قوة وأعوان.

إن المؤمن الصادق لا يذل إلا لله، ولا يخضع إلا له، ولا يخاف إلا منه، وحين يكون كذلك تجده يسلك الطريق المستقيم، ويثبت عليه، ويدعو إليه، ويصبر على ما يلقاه فى سبيل الدعوة من عداء المعتدين، وحرب الظالمين، ومكر الماكرين، ولا يصده شىء من ذلك، لأن هؤلاء لا يملكون من أمر الحياة ولا أمر الأرزاق شيئًا، وإذا كان الأمر هكذا فكيف يبقى فى نفس المؤمن الداعية ذرة من خوف وهو يؤمن بقضاء الله وقدره، فما قُدِّر سيكون، وما لم يُقدَّر لن يكون، وهذا كله مرجعه إلى الله، والعباد لا يملكون من ذلك شيئًا(١).

(٢٦) الثبات في مواجهة الطغيان:

إذا آمن العبد بأنَّ كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلبٍ ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام فى ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت فى مظانه، ويرمى بنفسه فى مضائق يظن فيها هلكته، ثم تراه يموت على فراشه، فيبكى أن لم يسقط فى ميدان النزال شهيدًا، وهو الذى كان يقتحم الأخطار والأهوال.

وكان هذا الإيمان من أعظم ما ثَبَّت قلوب الصالحين فى مواجهة الظلمة والطغاة، ولا يخافون فى الله لومة لائم، لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله، وما

(١) القضاء والقدر / د. عبدالرحمن بن صالح المحمود (ص ٤٥٧-٤٥٨).

قدر لهم سيأتيهم.

وكانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق، فالرزق بيد الله، وما كتبه الله من رزق لا يستطيع أحد منعه، وما منعه الله لعبد من عبيده لا يستطيع أحد إيصاله إليه[١].

❁ قال الدكتور يوسف القرضاوى:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أنه يهب صاحبه ثباتًا ورسوخًا فى مقاومة الباطل ومواجهة الظلم والطغيان، وإنكار المنكر، لا يهاب فرعونًا متألهًا ولا طاغوتًا متجبرًا،... شعاره قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

وذلك أن الناس عادة يخافون على أمرين نفيسين عندهم وهما: العمر والرزق ...والعمر محتوم، والرزق مقسوم.

وكما لا يستطيع أحد أن ينتقص من عمرك ساعة، لا يستطيع أن ينتقص من رزقك لقمة،... وعبَّر بعضهم عن ذلك فقال:

لا تعجلنَّ فليس الرزق بالعَجَلِ ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجلِ

من يتق الله يرزقه ويعل به ... من غير محتسَب منه ولا وجلِ

ولهذا وقف المؤمنون فى وجه الطغاة والجبارين، ولم يعبأوا بجبروتهم، ولم يهنوا أمام قوتهم وطغيانهم.

هدد الحجاج الإمام الفقيه سعيد بن جبير بالقتل، فقال له: لو علمت أن الموت والحياة بيدك، ما عبدت إلهًا غيرك!

---

(١) القضاء والقدر / د. عمر الأشقر (ص ١١١-١١٢).

(٢) سورة التوبة: الآية: (٥١).

وقال لامرأة من الخوارج: لأحصدنكم حصدًا، فقالت له: أنت تحصد، والله يزرع، فانظر: أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق؟

وفى عصرنا رأينا العلماء، والدعاء الشامخين يواجهون المستعمرين، وأذناب المستعمرين من الملوك والرؤساء، لا يبالون بما يصيبهم فى سبيل الله(١).

فالإيمان بالقدر من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام فى ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت فى مظانه، ويرمى بنفسه فى مضائق يظن فيها هلكته، ثمّ تراه يموت على فراشه، فيبكى أن لم يسقط فى ميدان النزال شهيدًا وهو الذى كان يقتحم الأخطار والأهوال(٢)،... فهذا خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة وأدرك ذلك بكى وقال: ما من عمل أرجى عندى بعد لا إله إلا الله، من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين، بِتُّها وأنا متترس والسماء تنهل علىَّ، وأنا انتظر الصبح حتى أُغير على الكفار، فعليكم بالجهاد، لقد شهدت كذا وكذا زحفًا، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء، لقد طلبت القتل فى مظانِّه، فلم يُقدَّر لى إلا أن أموت على فراشى(٣)، وقد تصدى خالد لطغيان الفرس والروم معًا.

(٢٧) القوة والشجاعة في مواطن البأس والخطر:

الإيمانُ بالقدر يبعث فى القلوب الشجاعةَ على مواجهة الشدائد،

---

(١) الإيمان بالقدر / د. يوسف القرضاوى (ص ٨٥).

(٢) القضاء والقدر/ د. عمر الاشقر (ص ١١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٨٢)، عمر بن الخطاب / للصّلّابى (ص ٣٥١).

ويُقوى فيها العزائمَ فتثبت فى ساحات الجهادِ ولا تخافُ الموتَ، لأنها توقنُ أن الآجالَ محدودةٌ لا تتقدم ولا تتأخر لحظة واحدة.

ولما كانت هذه العقيدة راسخة فى قلوب المؤمنين ثبتوا فى القتال وعزموا على مواصلة الجهاد، فجاءت ملاحم تحمل أروع الأمثلة على الثبات والصمود أمام الأعداء مهما كانت قوتهم، ومهما كان عددهم.

لقد أيقنوا أنه لن يصيب الإنسان إلا ما كُتب له، سواء كان قاعدًا فى بيته أو فى ميدان القتال، ففيم الجُبن وفيم الفرار من القتال خوفًا من الموت؟ والموت إذا جاء سيأتيه على أية حال هو؟!

هكذا كان الأمر فى قلوب المؤمنين فأقبلوا على القتال والجهاد فى سبيل الله فى ثبات وعزم ويقين، وكانت لهم بطولات ما عُرفت فى أمة من الأمم غيرهم.

وإذا قد وُجد من المثبطين من المنافقين وغيرهم من يتخلف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ مُدَّعيًا أن السلامة فى تخلُّفه، ومتربصًا بالمؤمنين الدوائر كان الرد عليهم يأتى من الله تعالى مبينًا أن المؤمنين يقومون بما أوجبه الله عليهم طاعة لله ورسوله، وهم يعتقدون أن كل ما يصيبهم قد جرت به المقادير،... قال تعالى: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآيات: (٥٠-٥٢).

وحين قال المنافقون: ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾، جاء الجواب: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ وحين قالوا - كما حكى الله عنهم -: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ جاء الرد عليهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(١).

وهكذا وعى المؤمنون هذه الحقيقة فأيقنوا أنه لا يموت إلا مَن كُتب عليه الموت، ولو كان فى مضجعه فى بيته، وأيقنوا أيضًا أنهم لا يرتقبون إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة ومن ثَمَّ جاهدوا وثبتوا وصدقوا مع ربهم، فمنهم من رُزق الشهادة، ومنهم من نصره الله نصرًا مبينًا.

ولقد كان رسول الله ﷺ يُعلم أصحابه ويربيهم على عقيدة القدر، لأنها هى العدة التى تجعل المؤمن شجاعًا لا يخاف إلا الله، وهى التى تجعله يلاقى المصائب والصعاب راضيًا مطمئنًا، ... فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبى ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف**»(٢) وفى رواية أخرى: «**احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك،**

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٥٤).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥٧).

واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»(١).

وهذا الحديث يدل على أن الإيمان بالقدر يبعث على الشجاعة والاتجاه إلى الله وحده في وقت الشدائد فيبقى المؤمن عزيزًا لا يذل إلا لله وحده(٢).

۞ قال الدكتور يوسف القرضاوى:

أما القوة فى مواطن البأس والخطر، وعند ملاقاة الأعداء فى الحروب، فهو أمر معروف، حدثنا عنه التاريخ، وأنبأنا به الواقع.

فإيمان المسلم بأن ما قدره الله له أو عليه نافذ لا محالة، وأنه لن يموت قبل أجله المحدد، وأن أحدًا لا يستطيع أن يزيد فى عمره، أو ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٣).

والساعة لا يُراد بها الساعة الفلكية التى نتعامل بها اليوم، بل الساعة فى اللغة، هى اللحظة الزمنية، فإذا حضر الأجل لا يستطيع صاحبه أن يتأخر عنه لحظة كما لا يتقدم أيضًا.

وهذا ما جعل المسلمين فى الحروب التى تُكتب عليهم، منذ غزوة بدر الكبرى إلى حرب الشيشان ... بل إلى يومنا هذا، لا يبالون: أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم،... موقنين بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾(٤).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم (٦٣٠٤)، وصححه الألبانى فى صَحِيح الْجَامِع(٦٨٠٦).

(٢) انظر: «لمحات فى وسائل التربية الإسلامية» (ص/ ١٧٨ - ١٨١)، وانظر «الإيمان كما يصوره الكتاب والسنة» للدكتور: على عبدالمنعم عبدالحميد (ص: ١٧٠) وما بعدها.

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٣٤).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٥٤).

ولهذا كان عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخوض الحرب، وهو رابط الجأش، مطمئن النفس، راسخ القدم، وهو ينشد:

أى يومىّ الموت أفر؟ يوم لا يقدر أم يوم قدر

يوم لا يقدر لا أحذره ومن المقدور لا يُنجى الحذر

يعنى: أن الموت إذا كان مُقدَّرًا عليه فهو واقع لا محالة، ولا يغنى حذر من قدر، فلماذا يحذر ويخاف؟ وإذا لم يكن الموت مقدرًا عليه فى المعركة، فلا معنى للحذر والخوف منه؛ لأنه مستحيل وقوعه.. فعلى أى الاحتمالين لا معنى ولا مجال للخوف من الموت لديه.

۞ جاء فى مقال بمجلة (العروة الوثقى) الشهيرة:

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفات الجراءة والإقدام وخُلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأُسود ، وتنشق منها مرائر النمور.

هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحُلل الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة،... كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء؛ كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟

اندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأدهشوا العقول وحيَّروا الألباب بما دوَّخوا الدول

وقهروا الأمم، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينيه الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين مع قلة عدتهم وعددهم وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة وطبائع الأقطار المتنوعة... أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة، إن هذا ليُعَدُّ من خوارق العادات وعظائم المعجزات»[١].

(٢٨) يبقى العبد دائمًا على حذر:

المؤمنون بالقدر دائمًا على حذر ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٢] فقلوب العباد دائمة التقلُّب والتغيُّر، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها كيف يشاء، والفتن التى توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائمًا أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يُختَم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة والإكثار من الصالحات ومجانبة المعاصى والموبقات، كما يبقى قلب العبد مُعلَّقًا بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد[٣].

قال ﷺ: «**إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد يُصرفها حيث شاء**».

ثم قال ﷺ: «**اللهمَّ مُصرِّف القلوب صَرِّف قلوبنا إلى طاعتك**»[٤].

(١) انظر مجلة (العروة الوثقى) نشر دار العرب للبستانى فى بيروت (ص ٩٣)، والمقال لجمال الدين الأفغانى.

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٩٩).

(٣) القضاء والقدر/ د. عمر الأشقر (ص١١١).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر.

۞ فالمؤمن بالقدر يخشى من الخاتمة؛ لأنه لا يدرى بأى شيء يُختم له.

ففى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفيه أنه ﷺ قال: «**فوالله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»[١].

وفى لفظ سهل بن سعد الساعدى فى الصحيحين؛ لأنه يزيل الإشكال قال: «**إنَّ أحدكم ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس**»[٢].

فهذا الرجل لم يُرد بعمله وجه الله، وإنما أراد وجه الناس، وطلب الحظوة والمكانة فى قلوبهم فحبط عمله ودخل النار.

قال الله فى الحديث القدسى: «**أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، فمن عمل عملًا**» حتى لو كان فى أعين الناس عظيمًا: «**فمن عمل عملًا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه**»[٣].

وفى لفظ ابن ماجه بسند صحيح: «**فأنا منه برىء وهو للذى أشرك**»[٤].

ولذلك لما نام سفيان الثورى وهو إمام الزهد والعلم والحديث لما نام على فراش الموت بكى بكاءً شديدًا فقال له رجل: يا أبا عبد الله أتخشى ذنوبك؟!

فقال سفيان الثورى رحمه الله تعالى وقد رفع شيئًا من الأرض - يعنى: عودًا صغيرًا-: والله لذنوبى أهون عندى من هذا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٩٤) كتاب القدر، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠٧) كتاب القدر، ومسلم (١١٢) كتاب القدر.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب القدر.

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٠٢) كتاب الزهد.

ولكنى أخاف أن أُسْلَبَ الإيمان قبل الموت ... فلما دخل عليه حماد ابن سلمة رَحِمَهُ اللَّهُ قال له حماد: أبشر يا أبا عبد الله إنك مُقْبِلٌ على من كنت ترجوه فبكى سفيان، وقال لحماد: أسألك بالله يا حمَّاد أتظن أن مثلى ينجو من النار ... أتظن أن مثلى ينجو من النار؟!!

ولما نام الشافعى على فراش الموت قالوا: كيف حالك يا أبا عبد الله؟ كيف أصبحت؟ فقال الإمام الشافعى: أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولعملى ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله واردًا، ولا أدرى أتصير روحى إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأُعزيها ثم قال:

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلتُ الرجا منى لعفوك سُلَّمَا

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفُوك أعظما

وما زِلتَ ذا عفوٍ عَنْ الذنبِ لم تزل ... تجود وتعفو مِنَّةً وتكرُّما

(٢٩) الاعتراف بالذنب والمسارعة إلى التوبة :

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يشاهد نفسه عند فعل السيئات وارتكاب المنهيات ولا يحتج بالقدر على عصيانه لأنه لا حُجة لأحدٍ فيه، كما بينَّا، وإنما يرجع إلى نفسه ليوبخها من كبوتها حالًا كما ينهض من الوحل، إذا وقع فيه ... ويعقد العزم على عدم العودة إلى الذنب، ويتوجه إلى الله بالاعتراف بالذنب بانكسار قلب، وبهذا كله علّمنا القرآن وضرب لنا الأمثال وقَصَّ علينا موقف أنبيائه الكرام فى مثل هذه الأحوال،... قال تعالى عن نبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1] وقال تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾[2].

(١) سورة الأعراف: الآية: (٣). (٢) سورة القصص: الآية: (١٦).

وفى الحديث الشريف: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»(١).

أما من يشاهد القدر عند فعله السيئات محتجًا به دافعًا المسئولية عن نفسه فمثله مثل إبليس حيث قال كما أخبرنا الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

وكان عاقبته كما هو معروف الطرد من رحمة الله(٣).

هذه بعض ثمار الإيمان بالقدر وغيرها كثير:

۞ كأداة عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه بالإيمان به، وقوة الإيمان، فالذى يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله فى ذلك السبيل.

۞ الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾(٤).

۞ الكرم، فالذى يؤمن بالقدر، وأن الفقر والغِنى بيد الله وأنه لا يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك، فإنه ينفق ولا يبالى.

۞ إحسان الظن بالله وقوة الرجاء، فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوى الرجاء به فى كل أحواله.

---

(١) صحيح: رواه البخارى، (٥٩٤٧) كتاب الدعوات.

(٢) سورة الحجر: الآية: (٣٩).

(٣) القضاء والقدر للبيهقى (ص ٣٥).

(٤) سورة التغابن: الآية: (١١).

۞ عدم الاعتماد على الكُهان والمنجمين المشعوذين والتمسُّح بأتربة القبور، ودعاء غير الله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، لأنها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا.

۞ ومن ثمرات الإيمان بالقدر: السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية والتسليم لله فى ذلك كله.

۞ **عدم اليأس من انتصار الحق:** فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين وأن قدرة الله فى ذلك نافذة لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، لا يعرف إليه طريقًا مهما احلولكت ظُلمة الباطل.

علو الهمة، وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم [1].

(٣٠) الاتجاه إلى العمل والبناء:

وبعد هذه الثمرات الطيبة، التى يجتنيها المسلم فى نفسه وحياته من خلال الإيمان بقدر الله تعالى، وبعد شعوره براحة النفس، وسكينة الفؤاد، وسلامته من التحسُّر على الماضى، والجزع من الحاضر، والقلق من المستقبل، لا يجد المؤمن سبيلًا إلا الاتجاه إلى الإيجابية، والبناء، والعمل المثمر، فى تزكية النفس، وعمارة الأرض، وإصلاح المجتمع، وهداية العالم.

وهذا شأن (المؤمن القوى) الذى همه امتثال المأمور، واجتناب المحظور والرضا بالمقدور، ... وهو الذى جاء فيه الحديث الصحيح المعروف: «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كُلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن**

---

(١) الوسطية فى القرآن الكريم (ص ٣٣٩ -٣٤٣) نقلًا عن (الإيمان بالقدر) د. على الصلابى.

لو تفتح عمل الشيطان»[١].

أمر المؤمن في هذا الحديث بالحرص على ما ينفعه سواء في دينه أم دنياه، والاستعانة بالله على ذلك فهو الذي يهيئ له الأسباب، ويزيل من طريقه العوائق،... كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢].

وقال الشاعر الصالح:

إذا لم يكن عون من الله للفتى — فأول ما يجني عليه اجتهاده

۞ ومن العجز المذموم هنا: إلقاء الأحمال على القدر والاحتجاج به في الإعفاء من المسئولية، ... وقديمًا قيل: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير.

وحديثًا قال الشاعر الفيلسوف المسلم الدكتور محمد إقبال: المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله وقدره، أما المسلم القوي فيعتقد أنه قدر الله الذي لا يُغلب وقضاؤه الذي لا يُرد، ... وقد روي أن بعض الصحابة في زمن الفتوح الإسلامية سأله أحد قادة الفرس: من أنتم؟ وما حقيقتكم؟ فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكم الله بنا، وابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة في السماء لصعدنا إليكم، أو لهبطتم إلينا!

وقد روي في سنن أبي داود عن عوف بن مالك أنه حدثهم أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ «**رُدُّوا عليَّ الرجل**». قال: «**ما قلت؟**» قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل ... فقال رسول الله ﷺ: **إن الله يلوم على العجز، ولكن**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٢) سورة الفاتحة: الآية: (٥).

عليك بالكيس فإذا غلبك أمر، فقل: حسبى الله ونعم الوكيل»[١].

كره النبى عليه الصلاة والسلام من الرجل المغلوب أن يستسلم ويعجز، وله حيلة فى المغالبة والمدافعة، فإذا أتاه ما لا طاقة له بدفعه، وما هو فوق قدرته، ولا حيلة له فيه، فهنا يكون التسليم، ويحسن أن يقول: «حسبى الله ونعم الوكيل».

اعتبر الرسول الكريم استسلام الرجل من العجز الذى يلوم الله عليه، وأمره بالكيس وهو العقل والفطنة وحسن التصرف.

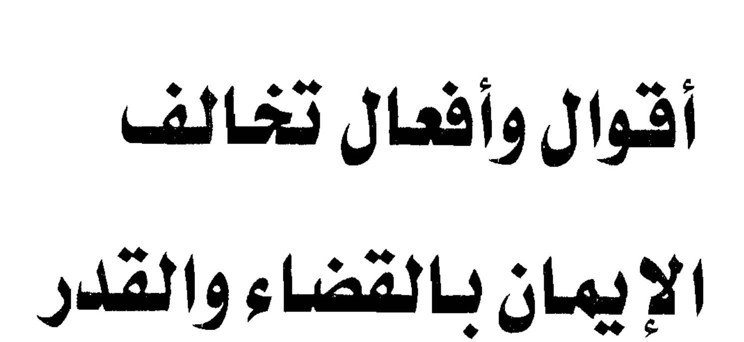
كما أوصى هذا الحديث المؤمن القوى إذا أصابه شيء من شدائد الدنيا وابتلاءاتها - وما أكثرها - ألا يُسلم نفسه للتحسُّر والأسى على ما فاته، فيصبح ويمسى، وهو يمضغ كلمات الأسى والأسف، ويقول: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، على سبيل التحسر والتمنى. ويجتر الذكريات الحزينة، بل أمره أن يرد الأمر هنا إلى قدر الله، ويُسلِّم لأمره وقضائه قائلًا: «قدر الله وما شاء فعل» معتبراً أن الخير فيما اختاره له، ثم هو لا يقدر على غير ذلك، فما فات مات، والماضى لا يعود، وقد قال أحد الحكماء: الأمور أمران، أمر لك فيه حيلة، فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة لك فيه، فلا تجزع منه.

فليكن إيجابيًّا، وليتجه إلى المستقبل ليعمل ويبنى وينتج، لا إلى (اللَّولَوة) التى يقول فيها: (لو أنى فعلت، ولو أنى تركت)! فإن (لو) هذه (لو) المتمنية والمتحسرة تفتح عمل الشيطان. وعمله ليس وراءه إلا الضياع والخسران[٢].

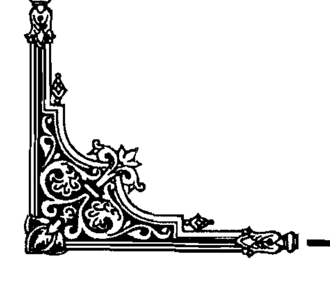
---

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٧٥٩).

(٢) الإيمان بالقدر / د. يوسف القرضاوى (ص ٩٢-٩٤).



أقوال وأفعال تخالف الإيمان بالقضاء والقدر





استعمال كلمة «صدفة»؟

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: رأينا فى هذا القول أنه لا بأس به وهذا أمر مُتعارَف عليه وأظن أن فيه أحاديث بهذا التعبير «صادفنا رسول الله» لكن لا يحضرنى الآن حديث معين فى هذا الخصوص.

والمصادفة والصدفة بالنسبة لفعل الإنسان أمرٌ واقع، لأن الإنسان لا يعلم الغيب فقد يصادفه الشىء من غير شعور به، ومن غير مقدمات له ولا تَوقُّع له، لكن بالنسبة لفعل الله لا يقع هذا، فإن كل شىء عند الله معلوم، وكل شىء عنده بمقدار وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تقع الأشياء بالنسبة إليه صدفة أبدًا،... لكن بالنسبة لى أنا وأنت نتقابل بدون ميعاد وبدون شعور وبدون مقدمات فهذا يقال له صدفة، ولا حرج فيه، وأما بالنسبة لفعل الله فهذا أمر ممتنع ولا يجوز[1].

قول القائل: «شاءت الظروف» و«شاءت الأقدار»:

بعض الناس يستعملون هذه الألفاظ كثيرًا فتراهم يقولون: «شاءت الظروف أن يحصل كذا وكذا» «شاءت الأقدار كذا وكذا» «شاءت قدرة الله».

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه اللفظة منكرة، لا قوله: «شاءت الأقدار». ولا قوله «شاءت الظروف». لأن الظروف جمع ظرفٍ، وهو الأزمان والزمن لا مشيئة له، وكذلك الأقدار جمع قدرٍ والقدر لا مشيئة له وإنما الذى يشاءُ هو الله عَزَّوَجَلَّ[2].

---

(١) فتاوى العقيدة/ للشيخ ابن عثيمين (ص ٥٣٦).

(٢) المناهى اللفظية (ص: ١٢٧).

۞ وقال فى موضع آخر:

لا يصح أن نقول «شاءت قدرة الله» لأن المشيئة إرادة، والقدرة معنى، والمعنى لا إرادة له، وإنما الإرادة للمريد والمشيئة لشىء، ولكننا نقول: اقتضت حكمة الله كذا وكذا، أو نقول عن الشىء إذا وقع: هذه قدرة الله. أى مقدوره؛ كما تقول: هذا خَلْق الله. أى مخلوقه.

وأما أن نضيف أمرًا يقتضى الفعل الاختيارى إلى القدرة فإن هذا لا يجوز. ومثل ذلك قولهم: شاء القدر كذا وكذا. وهذا لا يجوز لأن القدر والقدرة أمران معنويان ولا مشيئة لهما وإنما المشيئة لمن هو قادر ولمن هو مُقَدِّر. والله أعلم[1].

۞ **قول القائل: «تدخَّل القدر» و«تدخلت عناية الله»:**

أحيانًا تسأل صديقًا لك أو قريبًا عن حال والده الذي أُجريت له عملية جراحية في المستشفى (مثلاً) فتقول له: كيف حال والدك؟ فيقول: كاد أن يموت لولا تدخُّل القدر... أو لولا أن تدخلت عناية الله لكان من الموتى...

۞ وهذه الكلمة لا تصلح؛ لأنها تعني أن القدر اعتدى بالتدخل، وأنه كالمتطفل على الأمر، مع أنه - أي: القدر - هو الأصل، فكيف يقال: تدخل؟

والأصح أن يقال: ولكن نزل القضاء والقدر، أو غلب القدرُ، أو نحو ذلك.

(١) فتاوى العقيدة: (ص: ٥٣٦، ٥٣٧).

ومثل ذلك: تدخلت عناية الله. الأولى إبدالها بكلمة: حصلت عناية الله، أو اقتضت عناية الله[1].

❊❊❊

۞ قول القائل: (لا قدر الله):

۞ لما سُئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ عن حكم قول: «لا قدر الله».

أجاب بقوله: لا قدر الله معناه الدعاء بأن الله لا يقدر ذلك، والدعاء بأن الله لا يقدر هذا جائز... وقول: لا قدر الله ليس معناه نفى أن يقدر الله ذلك، إذ أن الحكم لله يقدر ما يشاء، لكنه نفى بمعنى الطلب فهو خبر بمعنى الطلب بلا شك، فكأنه حين يقول: «لا قدر الله» أى: أسأل الله أن لا يقدره، واستعمال النفى بمعنى الطلب شائع كثير فى اللغة العربية وعلى هذا فلا بأس بهذه العبارة[2].

❊❊❊

۞ قول القائل: «يدي الحلق للي بلا ودان»:

بعض الناس إذا رأى رجلًا غنيا أو مشهورًا أو عنده أولاد وقد حُرم هو من أى نعمة من تلك النعم... فإذا به يعترض على قدر الله ويقول: «يدِّى الحلق للى بلا ودان».

- وهذا القول فيه سوء أدب مع الله... وفيه اعتراض شديد على قدر الله... بل وفيه اتهام لله جل وعلا بأن أعماله لا تقوم عن حكمة وأنه لا يتصرف بعدل وقسط بل يسىء التصرف فى كونه وخلقه حيث أنه يعطى

(١) المناهى اللفظية (ص: ١٢٧).

(٢) فتاوى العقيدة (ص: ٢١٧).

الذى لا يستحق ويمنع الخير عمن يستحق... وأن الخلق أعلم بمواضع الفضل من ربهم واستحقاق من يستحق!!!!

۞ بالله عليكم هل من الممكن أن يصدر مثل هذا الكلام من رجلٍ يعرف قدر الله عَزَّوَجَلَّ ويعرف كيف يتأدب مع الخالق (جل وعلا) الموصوف بكمال الحكمة.. فهو الذى يضع الأشياء فى مواضعها.

۞ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾(2).

وقال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾(3).

فإن معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية والدينية بيد الله تعالى، هو الذى يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء بحسب حكمته.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾(4).

۞ وقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(5).

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٨).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٣٠).

(٣) سورة الزخرف: الآية: (٣٢).

(٤) سورة القمر: الآية: (٤٩).

(٥) سورة الزخرف: الآية: (٣٢).

- فهذا التفاوت بين درجات الناس فى الفقر والغنى ليتخذ بعضهم بعضًا سُخريا... فالمريض يحتاج للدكتور... والدكتور يحتاج للبقال... والبقال يحتاج للميكانيكى... وهكذا.

- وكل ذلك من أجل إعمار الكون... وإلا فلو كنا جميعًا فى درجة واحدة من العلم والصحة والغنى فمن الذى يحمل القمامة ومن الذى يصلح المجارى ومن الذى يبنى لنا البيوت والمساجد... فلولا هذا التفاوت لخرب الكون كله.

- وهذه حكمه جليلة من الحكيم - جل وعلا - بأن يتفاوت الناس فى معيشتهم من أجل أن يحتاج كل إنسان لغيره فيكون فى ذلك إعمار للكون كله.

۞ قول القائل: «رزق الهبل على المجانين»:

ومن الأخطاء الشائعة قول بعضهم: «رزق الهبل على المجانين» وهذا قول خاطئ؛ لأن الله هو الذي يرزق العباد بل وجميع الكائنات وليس هناك مخلوق في السماوات ولا في الأرض يملك لنفسه ولا لغيره رزقًا ولا نفعًا ولاضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فإن رزق العباد جميعًا سواء كانوا مهابيل أو عقلاء ليس على أحد سوى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

(١) سورة الذاريات: الآية: (٥٨).

وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[١].

❊ قول القائل: «من سخرية القدر»:

قد تجد رجلًا يقول لزميله (مثلًا): إن من سخرية القدر أن ابنى يرسب كل عام فى الكلية... فى الوقت الذى ينجح فيه زميله فلان ابن الرجل الفقير الذى يسكن فى البيت المجاور لنا... وهذا اعتراض على قدر الله - جل وعلا - وهذه مقولة فيها من الطعن فى تقدير المقادير الكثير وهو أمر ليس لأحد إلا لله، والله عَزَّوَجَلَّ حكيم عليم لا يفعل أمرًا ولا يقول قولًا ولا يقدر قدرًا إلا بحكمة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٣].

❊ وقد يقع شاب فى حب فتاة فإذا لم يستطع أن يتزوجها وتزوجها غيره فإذا به يقول: «هذا من عبث الأقدار، قدر أحمق الخُطا»... وهذا كله لا يجوز؛ لأنه بذلك يتهم الله عَزَّوَجَلَّ فى عدله وقضائه.

❊ **سُئل فضيلة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا السؤال:**

فضيلة الشيخ: بعض الكُتاب يقولون: إن القدر يسخر منا فى كذا وكذا مثلًا هل يجوز هذا القول؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يجوز للإنسان أن يقول هذا القول؛ لأن القدر تقدير الله عَزَّوَجَلَّ وتقدير الله كله حكمة، نعم يسخر الله من بعض الناس، كقوله تعالى:

---

(١) سورة هود: الآية: (٦).

(٢) سورة القمر: الآية: (٤٩).

(٣) سورة الفرقان: الآية: (٢).

﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾[(١)].

لكن القدر من حيث هو قدر ليس سخرية... كله حكمة، وكله موافق للصواب، وكله جد، لكن من سخر بالله وبأولياء الله سخر الله منه.

ومن سخرية الله بهؤلاء أنهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ (١٤) ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[(٢)(٣)].

التشاؤم والتطير:

ومن الناس من يتشاءم عند حدوث أمر ما أو عند رؤية شخص ما .. والتشاؤم والتطير هو اعتقاد وقوع السوء أو حدوث المكروه عند حال معين يحدث لمن يتطير وهذا من الشرك؛ لأن فيه معنى علم الغيب بهذه المجريات، وعلم الغيب لا يكون إلا لله وقد صح الحديث فى وصف هذا الأمر بأنه شرك فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: «**الطيرة شرك**»[(٤)] وفى الحديث الذى أخرجه البخارى: «**لا طيرة وخيرها الفأل**، قالوا: وما الفأل؟ قال: **الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»[(٥)].وهذا الباب باب عظيم الفساد فى الاعتقاد والأقوال والأعمال فالاعتقاد ما عرفت وهو ما يعرف

(١) سورة التوبة: الآية: (٧٩).

(٢) سورة البقرة: الآيتان: (١٤، ١٥).

(٣) المناهى اللفظية (ص ٩٠، ٩١).

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٣٩١٠) الطب، والترمذى (١٦١٤) السير، وابن ماجه (٣٥٣٨) الطب، وأحمد (٣٦٧٩)، وصححه الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى السلسلة الصحيحة (٤٢٩).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٥٤) الطب، ومسلم (٢٢٢٣) السلام.

عند الناس بالتشاؤم"[1].

❊❊❊

۞ **من صور التشاؤم والتطير:**

۞ وصور التشاؤم والتطير كثيرة ومن بين تلك الصور:

قول بعضهم: ربنا يستر لأن عينى الشمال بترف... وأذنى بتصفر... ورأيت فى الصباح قطة سوداء... والنهارده (الجمعة ١٣) إلى غير ذلك من صور التشاؤم التى نهى عنها الإسلام.

۞ بل وهناك صور أخرى أذكر بعضها فى عجالة سريعة.

❊❊❊

۞ **التشاؤم من كثرة الضحك:**

فمن الناس من إذا ضحك كثيرًا يتشاءم ويقول: «خير اللهم اجعله خيرًا» فيظن بل ويعتقد أن كثرة الضحك لا بد أن يعقبها الغم والهم والأحزان... وهذا اعتقاد باطل لأنه لا شىء يحدث إلا بتقدير الله - جل وعلا -.

۞ ولكن فى المقابل فلا بد أن نعلم أن النبى ﷺ نهى عن كثرة الضحك ولكنه لم ينه عن الضحك بل نهى عن كثرته.. فقال ﷺ «**لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تُميت القلب**»[2].

❊❊❊

---

(١) كلمات تخالف العقيدة / د. سيد العربى (ص: ٤٧، ٤٨).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٤١٩٣) الزهد، وصححه الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٥٠٦).

۞ التشاؤم من شخص بعينه:

ومن الناس من إذا خرج من بيته فرأى رجلًا فسلم عليه فحدث له حادث فى ذلك اليوم فإنه يربط بين الحادث وبين رؤية هذا الرجل فيقول: «أنا اصطبحت بوش مين النهارده» أو يقول «وشك نحس» ... إلى غير ذلك.

۞ وهذا كله لا يجوز؛ ولأننا على يقين من أنه لا شيء يحدث فى الكون إلا بتقدير الله (جل وعلا).

۞ التشاؤم إذا انقطع التيار الكهربائي عند قدوم الضيف:

بل ومن الناس من يتشاءم إذا قدم عليه ضيف فانقطع التيار الكهربائى بمجرد دخوله إلى المنزل... فيقول فى نفسه: «شرارة» أو «وشه يقطع الخميرة من البيت» أو «ده راجل شؤم»... إلى آخره.

۞ وهذا أيضًا لا يجوز؛ لأن النبى ﷺ نهانا عن التشاؤم فقال ﷺ فيما رواه مسلم: «لا طيرة» أى: لا تشاؤم.

۞ التشاؤم عند سماع صوت الغراب أو البومة أو الحدأة:

ومنهم من يتشاءم عند سماع صوت البومة أو الغراب أو الحدأة ويقول: يا ترى من الذى سيموت اليوم؟ أو يا ترى هايحصل لنا إيه؟

وهذا كله لا يجوز؛ لأن النبى ﷺ نهانا عن التشاؤم والتطير فقال ﷺ: «**الطيرة شرك**»[1]..فإنه لا يحدث شيء فى الكون كله إلا بتقدير الله جل وعلا.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٩١٠) الطب، والترمذى (١٦١٤) السير، وابن ماجه (٣٥٣٨) الطب، وأحمد (٣٦٧٩)، وصححه الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٤٢٩).

❁ قول القائل: «اللي يعتقد في حجر ينفعه»:

ومن ذلك مقولة: «اللى يعتقد فى حجر ينفعه» ولا يخفى على ذى عقل فضلًا عن ذى دين ما فى هذه العبارة من رائحة الشرك وهى اعتقاد النفع والضر فى غير الله وهذا باب من الشرك عظيم أضل فيه الشيطان جِبلًا كثيرًا، أعاذنا الله من ذلك.

ومن المعلوم المتقرر أن النفع والضر بيد الله وحده قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)] وقد تربى الرعيل الأول على ذلك... وهذا عمر وقف أمام أشرف حجر فى هذا العالم وهو «الحجر الأسود» وقال له: «والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[(٢)]. إذًا فالذى يعتقد فى حجر الضر والنفع فهذا شرك.

قال الإمام النووى رحمه الله: وأما قول عمر رضي الله عنه: «إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع» لئلا يغتر بعض قريبى العهد بالإسلام الذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها ورجاء نفعها، وخوف الضرر بالتقصير فى تعظيمها، وكان العهد قريبًا بذلك، فخاف عمر أن يراه بعضهم يقبله، ويعتنى به، فيشتبه عليه فبين أنه لا يضر ولا ينفع بذاته. فمعناه أنه لا قدرة له على نفع ولا ضر وأنه حجر مخلوق كباقى المخلوقات التى لا تضر ولا تنفع، وأشاع عمر هذا فى الموسم، ليشهد فى البلدان، ويحفظه عنه أهل الموسم المختلفوا الأوطان، والله أعلم[(٣)].

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٧).

(٢) كلمات تخالف العقيدة / د. سيد العربى (ص: ٤١، ٤٢).. والحديث رواه البخارى.

(٣) مسلم بشرح النووى (٥/ ٢٢).

❁ **قول القائل: «الباب المردود يرد القضاء المستعجل»:**

ومن ذلك مقولة القائل: «الباب المردود يرد القضاء المستعجل» وهذا جهل عظيم لأن أمر الله نافذ وقضاؤه لا يُرد... ولا يمنع حذر من قدر فإن الله يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[1].

❁ فالعاقل هو الذي يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله.

❁ فما عليك - أيها الأخ الحبيب - إلا أن تأخذ بالأسباب فإذا حدث ما ترجو فقل: الحمد لله.. وإذا حدث ما لا ترجو فقل: قدر الله وما شاء فعل.

❁ **استعمال كلمة «لو»؟**

استعمال «لو» فيه تفصيل على الوجوه التالية:

الوجه الأول: أن يكون المراد بها مجرد الخبر فهذه لا بأس بها مثل أن يقول الإنسان لشخص: لو زُرتنى لأكرمتك، أو لو علمت بك لجئت إليك.

الوجه الثانى: أن يقصد بها التمنِّى فهذه على حسب ما تمناه ... إن تمنى بها خيرًا فهو مأجور بنيته، وإن تمنى بها سوى ذلك فهو بحسبه.

ولهذا «قال النبى، ﷺ، فى الرجل الذى له مال ينفقه فى سبيل الله وفى وجوه الخير ورجل آخر ليس عنده مال، قال: لو أن لى مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان فقال رسول الله، ﷺ،: « **هما فى الأجر سواء** » والثانى رجل ذو مال لكنه ينفقه فى غير وجوه الخير فقال رجل آخر: لو أن لى مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان فقال رسول الله، ﷺ: « **هما فى**

(١) سورة الرعد: الآية: (١١).

الوزر سواء» فهى إذا جاءت للتمنى تكون بحسب ما تمناه العبد إن تمنى خيرًا فهى خير، وإن تمنى سوى ذلك فله ما تمنى.

الوجه الثالث: أن يُراد بها التحسُّر على ما مضى فهذه مَنهىٌّ عنها، لأنها لا تفيد شيئًا وإنما تفتح الأحزان والندم وفى هذه يقول الرسول، ﷺ: **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كُلٍّ خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**[(١)]. وحقيقة أنه لا فائدة منها فى هذا المقام لأن الإنسان عمل ما هو مأمور به من السعى لما ينفعه ولكن القضاء والقدر كان بخلاف ما يريد ... فكلمة « لو » فى هذا المقام إنما تفتح باب الندم والحزن، ولهذا نهى عنها رسول الله، ﷺ؛ لأن الإسلام لا يريد من الإنسان أن يكون محزونًا ومهمومًا بل يريد منه أن يكون منشرح الصدر وأن يكون مسرورًا طليق الوجه،... ونبَّه الله المؤمنين لهذه النقطة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

وكذلك فى الأحلام المكروهة التى يراها النائم فى منامه فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أرشد المرء إلى أن يَتْفُل عن يساره ثلاث مرات، وأن يستعيذ بالله من شرها ومن شر الشيطان، وأن ينقلب إلى الجنب الآخر، وألا يُحدِّث بها أحدًا لأجل أن ينساها ولا تطرأ على باله قال: **«فإن ذلك لا يضره»** .

والمهم أن الشرع يحب من المرء أن يكون دائمًا فى سرور، ودائمًا فى

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٢) سورة المجادلة: الآية: (١٠).

فرح ليكون متقبلًا لما يأتيه من أوامر الشرع؛ لأن الرجل إذا كان فى ندم وهَمٍّ وفى غم وحزن لا شك أنه يضيق ذَرعًا بما يُلقَى عليه من أمور الشرع وغيرها، ولهذا يقول الله تعالى لرسوله دائمًا: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[١] ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وهذه النقطة بالذات تجد بعض الغيورين على دينهم إذا رأوا من الناس ما يكرهون تجدهم يؤثر ذلك عليهم، حتى على عبادتهم الخاصة ولكن الذى ينبغى أن يتلقوا ذلك بحزم وقوة ونشاط فيقوموا بما أوجب الله عليهم من الدعوة إلى الله على بصيرة، ثم إنه لا يضرهم مَن خالفهم[٣].

الاعتقاد أن البركة تحل في البيت بتلطيخ جدرانه بدماء الذبائح!!!

بل ومن الناس من يعتقد أنه إذا اشترى سيارة جديدة أو بيتًا فذبح ذبيحة وغمس يده فى دمها ولطخ بها جدران البيت أو زجاج السيارة فإن البركة تحل فى البيت أو السيارة!!!.

وهذا كله من الاعتقادات الفاسدة بل ومن مخلفات الجاهلية وهذا فى الحقيقة يذكرنا بتلك البدعة التى ابتدعها قدماء المصريين حيث كانوا يلقون كل سنة فتاة فى النيل وفاء لما يقدمه لمصر من الماء الذى به حياة الناس ويسمونه (عيد وفاء النيل).

فأبطل الإسلام هذه البدعة، ففى سنة ٢٠هـ لما افتتحت مصر أتى أهلها

---

(١) سورة النحل: الآية: (١٢٧).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٣).

(٣) فتاوى العقيدة / للشيخ ابن عثيمين (ص ٥٣٣-٥٣٥).

عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين دخل شهر بؤنة وقالوا له: أيها الأمير: لنيلنا هذا سُنَّة لا يجرى إلا بها... قال: وما ذاك؟

قالوا: إذا كانت ثنتى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل.

فقال: إن هذا مما لا يكون فى الإسلام. إن الإسلام يهدم ما قبله.

فأقاموا ثلاثة أشهر: بؤونة وأبيب ومسرى، والنيل لا يجرى قليلًا ولا كثيرًا، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر:

إنك قد أصبت بالذى فعلت، وإنى قد بعثت إليك بطاقةً داخل كتابى هذا فألقها فى النيل.

فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها:

(من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإن كنت إنما تجرى من قِبَلك ومن أمرك فلا تجرِ، فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت تجرى بأمر الله الواحد القهار وهو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك؛ فَألقى البطاقةَ فى النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعًا فى ليلة واحدة). ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1][2].

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (٨١).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٠٢).

۞ الاعتقاد أن دفن العِرْسَة أمام المحل يجلب الرزق:

بعض الناس إذا ضاق عليه الرزق أو كان يشكو من قلة الزبائن الذين يأتون إلى المحل... وإذا به يسأل أحد المقربين ولو كان لا يعرف شيئًا عن دينه فينصحه نصيحه عجيبة فيقول له:

لو تعرف تدفن أمام المحل (عرسة)[1] حية فسوف يزيد الرزق وتحل البركة... وهذا اعتقاد فاسد لأن الذى يجلب الرزق هو الله فلو اعتقد أى إنسان أن دفن العرسة حية أمام المحل يجلب الرزق فهذا شرك يجب أن ينزه المسلم نفسه عنه.

❊❊❊

۞ الاعتقاد أن الشبَّة والفسوخة علاج لدفع الحسد:

ومن الناس من إذا أحس أن ابنه محسود أتى بالشبة والفسوخة ووضعهما على النار وطلب من ولده أن يمر عليها سبع مرات ثم يزعم أنها سوف تتصور بصورة الحاسد.

ثم بعد ذلك يضع الرماد فى قماشة ويلقيها بين أربعة مفارق (شوارع).

بل ومنهم من يبخر بيته أو محله كل صباح بالشبة والفسوخة لدفع الحسد... وهذا كله من الاعتقادات الفاسدة.

❊❊❊

۞ الاعتقاد أن السلحفاة في البيت تجلب الرزق:

وهناك أيضًا من يعتقد أن تربية السلحفاة فى البيت تجلب الرزق الواسع لأهل البيت ... وهذا اعتقاد فاسد.

---

(١) واسمها فى اللغة: (أم عرس).

۞ الاعتقاد أن العرقسوس يأتي بالبركة:

رأيت مرة رجلًا قد اشترى من بائع العرقسوس كوبًا وإذا به يغسل عجلات سيارته بالعرقسوس فتعجبت فسألت الشاب الذى كان يسير معى عن سبب ذلك فقال لى: إنه يعتقد أنه إذا غسل عجلات السيارة فإن الرزق يكون وفيرًا فى هذا اليوم... وأنه إذا سكب العرقسوس أمام المحل فإنه يأتى بالبركة... وهذا اعتقاد فاسد.

۞ الاعتقاد أن ذبح الغراب أو اليمامة فوق رأس الطفل الذي تأخر عن الكلام يجعله ينطق ويتكلم!!!

وهناك من يعتقد أنه لو كان هناك طفل قد تأخر عن الكلام فجاءوا إليه بغراب أو يمامة فذبحوها فوق رأس هذا الطفل الذى تأخر عن الكلام فإنه سينطق فى تلك اللحظة ويتكلم ... وهذا اعتقاد فاسد.

وكان من باب أولى أن يلجأوا إلى الله ويسألوه أن ينطق هذا الطفل... فإن الله بيده مقاليد كل شيء وهو القادر على أن يفرج الهموم ويشفى من كل الأمراض.

ولا مانع من أن يأخذوا بالأسباب فيذهبوا إلى طبيب متخصص فى علم الصوت والتخاطب ليعالجه بإذن الله - جل وعلا -.

۞ الاعتقاد بأن الإناء إذا كُسر فقد (أخذ الشر وراح):

ومن الناس من يعتقد أن الإناء أو الكوب إذا كُسر فإنه (أخذ الشر وراح) فإذا كسر الولد إناءً قالت أمه: خلاص ماحدش يضربه (أخذ الشر وراح).

وما يدرينا أن الإناء قد أخذ الشر أو جاء بالخير... فالأمور كلها لا تجرى إلا بتقدير الله – جل وعلا –.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[1].

والصواب أن نقول إذا كُسر الإناء (قدَّر الله وما شاء فعل).

الاعتقاد أن كنس البيت ليلًا يجلب الخراب:

ومن الاعتقادات الخاطئة أن هناك من يعتقد أن كنس البيت ليلًا يجلب الفقر والخراب لهذا البيت... ومنهم من يعتقد أن المسافر إذا خرج من بيته فقام أهل البيت فكنسوا بيتهم فإن هذا الرجل لن يعود من سفره ويتشاءمون بذلك ... وهذا كله من الاعتقادات الخاطئة.

الاعتقاد أن فتح المقص بدون سبب يجلب المصائب:

ومن الاعتقادات الفاسدة أن بعض الناس يعتقدون أن فتح المقص بدون سبب يجلب المصائب والبلايا والشرور... وهذا اعتقاد خاطئ.

الاعتقاد أن المرآة إذا تُركت بدون غطاءٍ ليلاً فإن الحامل تسقط:

ومن بين الاعتقادات الفاسدة أن هناك من يعتقد أن المرآة إذا تُركت بدون غطاء ليلًا فإن الحامل تسقط... بل ومنهم من يعتقد أن النظر فى المرآة ليلًا يجلب المصائب والشرور... وهذا اعتقاد خاطئ.

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٧).

۞ أنت والنجوم:

وهذه البدعة من أكثر البدع انتشارًا فى ديار المسلمين.

تجد الرجل يحسب تاريخ ميلاده ليعرف بُرجه ثم يفتح الجريدة كل يوم لينظر ماذا كتب له المنجم فى حظه اليوم... فإذا وجده قد كتب فى برجه: «لا تخرج اليوم فهناك مصيبة فى انتظارك» فإذا به يحبس نفسه ولا يخرج.

وإذا وجده قد كتب فى برجه: «ابتسم فهناك صفقة فى انتظارك» فإذا به يبتسم ويخرج مسرعًا... ومن الممكن أن تصدمه سيارة فى هذا اليوم وينقل إلى المستشفى.

۞ بل قد يكون هذا الرجل - كما يقولون - برجه مائى فيريد الارتباط بامرأة برجها ترابى فيقول له المنجم: لا يصلح هذا الزواج فأنت برجك مائى وهى برجها ترابى... ماء مع تراب هاتبقى العيشة...

۞ أيها الأخ الحبيب أيتها الأخت الفاضلة: إن هذا من الشرك الذى لا يجوز أن نفتح بابه... فإن الله وحده هو الذى يعلم الغيب.

۞ **قال تعالى:** ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[1].

۞ **وقال** ﷺ: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد»[2].

۞ فاحذروا من قراءة تلك الأبراج واحذورا أكثر وأكثر من أن تصدقوا ما جاء فيها فإن هذا من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله.

---

(١) سورة النمل: الآية: (٦٥).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٩٠٤) الطب، والترمذى (١٣٥) الطهارة، وابن ماجه (٦٣٩) الطهارة وسننها، وأحمد (٩٠٣٥)، وصححه الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٣٣٨٧).

۞ لبس الحظّاظة:

وهذه بدعة منتشرة بين بعض الشباب... فتجد أن بعض الشباب يلبس فى يده شيئًا يسمونه (الحظاظة) وهى عبارة عن حلقة من الجلد... يظن أنها تجلب له الحظ.

وهذا اعتقاد فاسد يجب أن يتجنبه المسلمون؛ لأن هذا من التمائم التى حذرنا منها النبى فقالﷺ: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»[(١)].

۞ خمسة وخميسة:

۞ ها هو رجل قد بنى بيتًا أو اشترى سيارة فخاف على نفسه وعلى بيته أو سيارته من الحسد فيا تُرى ماذا سيصنع؟

يسأل بعض المقربين إليه فيدله أحدهم على الوصفة السحرية!!!

يقول له: عليك أن تُحضر قطعة بلاستيك على صورة كف إنسان وهى التى تسمى (خمسة وخميسة) ثم ضعها على باب البيت أو على السيارة فسوف ترد العين وتدفع عنك الحسد!!!

۞ وهذا كله اعتقاد خاطئ لأن ال(خمسة وخميسة) لن تدفع ضرًا عن أحد ولن تجلب له نفعًا ... لأن النفع والضر بيد الله (جل وعلا).

ونحن نعلم أن العين حق... وهذا أمر نشاهده فى حياتنا.

---

(١) رواه أحمد (١٦٩٥١) وقال الأرنؤوط: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لجهالة خالد بن المعافرى، والحاكم فى المستدرك (٤/ ٢٤٠) وصححه، ووافقه الذهبى، وضعفه الألبانى رحمه الله فى السلسلة الضعيفة (١٢٦٦).

۞ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾[(١)].

وقال النبى ﷺ: «**العين حق، ولو كان شىء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**»[(٢)].

۞ **تعليق الحذاء على السيارة أو المحل أو المصنع:**

بل لقد رأينا - والله - من بين سائقى التاكسى والميكروباص من إذا اشترى سيارة جديدة فخاف عليها من الحسد وإذا به يأتى بحذاء قديم ويعلقه على السيارة من أسفل ظنًّا منه أن ذلك يدفع العين ويرد الحسد... وهذا اعتقاد فاسد لأن الذى يدفع الضر هو الله جل وعلا فعلينا أن نأخذ بالأسباب فقط.

- فإذا خاف الإنسان على شىء ثمين يمتلكه فعليه أن يعوِّذه بما ثبت من سنة النبى ﷺ.

فقد ثبت أن النبى ﷺ كان يقول للحسن والحسين: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**»، وقال: «**كان أبوكما إبراهيم يعوِّذ بهما إسماعيل وإسحاق**»[(٣)].

۞ **قول القائل: امسك الخشب!!!!:**

- قد تجد طالبًا يجلس مع صديقه فإذا ما سأله صديقه: عملت إيه فى البكالوريوس؟

(١) سورة القلم: الآية: (٥١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٨٨) السلام.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٣٧١).

وإذا به يقول له: امسك الخشب أنا نجحت بامتياز...

۞ وقد تجد آخر استلم وظيفة فى مكان مرموق فإذا سأله أحد: هل وجدت وظيفة؟ وإذا به يقول: امسك الخشب...أنا اشتغلت فى وظيفة مرموقة.

- وهذا اعتقاد فاسد.. أن يعتقد الإنسان أن كلمة امسك الخشب هى التى تدفع عنه العين والحسد.

۞ بل ينبغى على الإنسان أن يرقى نفسه دائمًا - كما قلنا - وهذا من الأخذ بالأسباب التى أمرنا الله بها.

۞ وعلى الإنسان إذا ما رأى نعمة على أخيه أن يقول «ما شاء الله اللهم بارك».

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1].

وقال ﷺ للصحابى الذى عان الآخر: «ألا برَّكت»[2].

۞ **إلباس المولود ملابس رثة وتسميته باسمٍ قبيح حتى لا يُحسد:**

ومن الاعتقادات الخاطئة أن بعض الناس يلبسون الطفل المولود ملابس رثة مُقطعة ويسمونه باسم قبيح ظنًا منهم أن ذلك يدفع الحسد عنه... فيسمونه مثلًا (زقلط وخيشة وشلاطة وبعجر ودومة وسوكة ...).

وهذا اعتقاد خاطئ ينبغى أن ينزه المسلم نفسه عن ذلك.

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٣٩).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٥٠٩) الطب، وأحمد (١٥٥٥٠)، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٠٢٠).

۞ تحويطه العروسين:

من الناس من إذا أراد أن يتزوج ذهب لساحرٍ ليعمل له (تحويطة)، وهى عبارة عن فتلة بطول العريس وقطع من أظفاره وشعره، ثم يعقدها وينفث عليها بعزائم فيها شرك، ويلفها فى ورقة ويغرس فيها مجموعة من الإبر ويحملها العريس حتى لا يربط، وهذا سحر وكفر لا يجوز[(١)].

۞ قول القائل: «أبكي على الزمان اللي عمل القصير شمعدان»:

قد تجد إنسانًا فقيرًا ففتح الله عليه وأغناه من فضله فإذا رآه حاسد أو حاقد قال: «أبكى على الزمان اللى عمل القصير شمعدان».

- وهذا فيه اعتراض على قدر الله وسوء أدب مع الله - جل وعلا - بل وسوء ظن بالله أنه لم يفعل ذلك لحكمة وأنه يسىء التصرف فى كونه وخلقه فيعطى من لا يستحق، ويمنع عمن يستحق، وبأن البشر أعلم بمواقع الفضل من ربهم عز وجل.

- ومن المعلوم أن الزمان لا مشيئة له وإنما الذى يشاء هو الله عز وجل والإيمان بالقدر واجب على كل مسلم فلا يتم للشخص إيمان إلا إذا آمن بالقدر خيره وشره، واعتقد أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وأيقن أن كل شىء مقدر مكتوب.

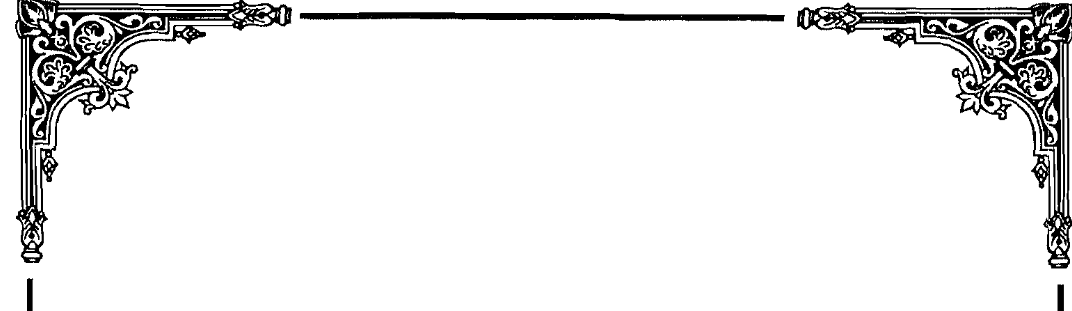
وقال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»[(٢)].

---

(١) الكلمات النافعة (ص ٢٥٦).

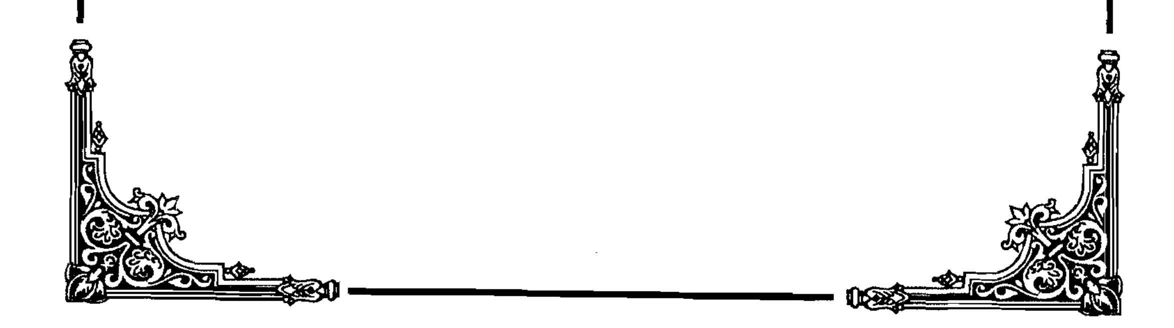
(٢) صحيح: رواه الترمذى (٢١٤٤) وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٧٥٨٥).





أسئلة عامة

فى القضاء والقدر





أسئلة عامة في القضاء والقدر

س: ما حكم الرضا بالقضاء والقدر؟ وهل الدعاء يرد القضاء؟

ج: أما الرضا بالقدر فهو واجب؛ لأنه من تمام الرضا بربوبية الله، فيجب على كل مؤمن أن يرضى بقضاء الله، ولكن المقضى هو الذى فيه التفصيل ... فالمقضى غير القضاء؛ لأن القضاء فعل الله، والمقضى مفعول الله، فالقضاء الذى هو فعل الله يجب أن نرضى به، ولا يجوز أبدًا أن نسخطه بأى حال من الأحوال.

۞ وأما المقضى فعلى أقسام:

القسم الأول: ما يجب الرضا به.

القسم الثانى: ما يحرم الرضا به.

القسم الثالث: ما يُستحب الرضا به.

فمثلا المعاصى من مقضيات الله، ويَحْرُم الرضا بالمعاصى، وإن كانت واقعة بقضاء الله، فمن نظر إلى المعاصى من حيث القضاء الذى هو فعل الله يجب أن يرضى، وأن يقول: إن الله - تعالى - حكيم، ولولا أن حكمته اقتضت هذا ما وقع، وأما من حيث المقضى وهو معصية الله فيجب ألا ترضى به، والواجب أن تسعى لإزالة هذه المعصية منك أو من غيرك.

وقسم من المقضى يجب الرضا به مثل الواجب شرعًا؛ لأن الله حكم به كونًا، وحكم به شرعًا، فيجب الرضا به من حيث القضاء ومن حيث المقضى.

وقسم ثالث: يُستحب الرضا به، ويجب الصبر عليه، وهو ما يقع من المصائب، فما يقع من المصائب يُستحب الرضا به عند أكثر أهل العلم ولا

يجب، لكن يجب الصبر عليه..والفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر يكون الإنسان فيه كارهًا للواقع، لكنه لا يأتى بما يخالف الشرع وينافى الصبر.

والرضا: لا يكون كارهًا للواقع فيكون ما وقع، وما لم يقع عنده سواء، فهذا هو الفرق بين الرضا والصبر؛ ولهذا قال الجمهور: إن الصبر واجب، والرضا مستحب.

۞ أما قول السائل: هل الدعاء يرد القضاء؟

فجوابه: أن الدعاء من الأسباب التى يحصل بها المدعو، وهو فى الواقع يرد القضاء ولا يرد القضاء؛ يعنى له جهتان،... فمثلًا هذا المريض قد يدعو الله - تعالى - بالشفاء فيشفى، فهنا لولا هذا الدعاء لبقى مريضًا، لكن بالدعاء شفى، إلا أننا نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن هذا المرض يشفى منه المريض بواسطة الدعاء، فهذا هو المكتوب، فصار الدعاء يرد القدر ظاهريًا، حيث إن الإنسان يظن أنه لولا الدعاء لبقى المرض، ولكنه فى الحقيقة لا يرد القضاء؛ لأن الأصل أن الدعاء مكتوب، وأن الشفاء سيكون بهذا الدعاء، هذا هو القدر الأصلى الذى كُتب فى الأزل، وهكذا كل شىء مقرون بسبب فإن هذا السبب جعله الله - تعالى - سببًا يحصل به الشىء، وقد كُتب ذلك فى الأزل من قبل أن يَحْدُث[1].

س: ماذا نقول لمن لا يحب دراسة العقيدة وبخاصة مسألة القضاء والقدر خوفًا من الزلل؟

ج: هذه المسألة كغيرها من المسائل المهمة التى لابد للإنسان منها فى

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٩٢-٩٣).

دينه ودُنياه، لابد أن يخوض غمارها وأن يستعين بالله تبارك وتعالى على تحقيقها ومعرفتها حتى يتبين له الأمر؛ لأنه لا ينبغى أن يكون على شك فى هذه الأمور المهمة،... أما المسائل التى لا تخلّ بدينه لو أجَّلها، ويخشى أن تكون سببًا لانحرافه، فإنه لا بأس أن يؤجلها مادام غيرها أهم منها.

ومسائل القدر من الأمور المهمة التى يجب على العبد أن يحققها تمامًا حتى يصل فيها إلى اليقين.

وهى فى الحقيقة ليس فيها إشكال- ولله الحمد- والذى يُثقِّل دروس العقيدة على بعض الناس هو أنهم مع الأسف الشديد يُرجحون جانب «كيف» على جانب «لِمَ» والإنسان مسؤول عن عمله بأداتين من أدوات الاستفهام «لِمَ» و «كيف»، فلِمَ عملت كذا؛ (هذا الإخلاص). وكيف عملت كذا؛ (هذا المتابعة للرسول ﷺ)، وأكثر الناس الآن مشغولون بتحقيق جواب «كيف» وغافلون عن تحقيق جواب «لِمَ» ولذلك تجدهم فى جانب الإخلاص لا يتحرون كثيرًا، وفى جانب المتابعة يحرصون على أدق الأمور، فالناس الآن مهتمون كثيرًا بهذا الجانب، غافلون عن الجانب الأهم وهو جانب العقيدة وجانب الإخلاص وجانب التوحيد.

لهذا تجد بعض الناس فى مسائل الدين يسأل عن مسألة يسيرة جدًّا جدًّا وقلبه مُنكَبٌّ على الدنيا غافل عن الله مطلقًا فى بيعه وشرائه، ومركوبه، ومسكنه، وملبسه، فقد يكون بعض الناس الآن عابدًا للدنيا وهو لا يشعر، وقد يكون مشركًا بالله فى الدنيا وهو لا يشعر، لأنه مع الأسف الشديد لا يهتم بجانب التوحيد وجانب العقيدة، وهذا ليس من العامة فقط، ولكن من بعض طلاب العلم وهذا أمر له خطورته.

كما أن التركيز على العقيدة فقط بدون العمل الذى جعله الشارع

كالحامى والسور لها خطأ أيضًا، لأننا نسمع فى الإذاعات ونقرأ فى الصحف التركيز على أن الدين هو العقيدة السمحاء وما أشبه ذلك من العبارات، وفى الحقيقة أن هذا يُخشَى أن يكون بابًا يَلِجُ منه مَن يلج فى استحلال بعض المحرمات بحجة أن العقيدة سليمة، ولكن لابد من ملاحظة الأمرين جميعًا ليستقيم الجواب على «لِمَ» وعلى «كيف».

وخلاصة الجواب: أنه يجب على المرء دراسة علم التوحيد والعقيدة، ليكون على بصيرة فى إلهه ومعبوده (جل وعلا) على بصيرة بأسماء الله، وصفاته، وأفعاله، على بصيرة فى أحكامه الكونية، والشرعية، على بصيرة فى حكمته، وأسرار شرعه وخلقه، حتى لا يضل بنفسه أو يضل بغيره.

وعلم التوحيد هو أشرف العلوم لشرف مُتعلقه ولهذا سمَّاه أهل العلم (الفقه الأكبر) ... وقال النبى ﷺ: «**مَن يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين**»[1].

وأول ما يدخل فى ذلك وأولاه علم التوحيد والعقيدة، لكن يجب على المرء أيضًا أن يتحرى كيف يأخذ هذا العلم ومن أى مصدر يتلقاه؟

فليأخذ من هذا العلم أولًا: ما صفا منه وسَلِمَ من الشبهات، ثم ينتقل ثانيا إلى النظر فيما أُورد عليه من البدع والشبهات؛ ليقوم بردِّها وبيانها مما أخذه من قبل من العقيدة الصافية، وليكن المصدر الذى يتلقاه منه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم كلام الصحابة رضي الله عنهم ثم ما قاله الأئمة بعدهم من التابعين وأتباعهم، ثم ما قاله العلماء الموثوق بعلمهم وأمانتهم، خصوصًا شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم ... عليهما وعلى سائر المسلمين وأئمتهم سابغ الرحمة والرضوان[2].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٧٧-٧٩).

س: هل بين القضاء والقدر عموم وخصوص؟

ج: القضاء إذا أُطلق شمل القدر، والقدر إذا أُطلق شمل القضاء، ولكن إذا قيل: القضاء والقدر صار بينهما فرق، وهذا كثير فى اللغة العربية.

تكون الكلمة لها معنى شامل عند الانفراد، ومعنى خاص عند الاجتماع، ويُقال فى مثل ذلك: « إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا »، فالقضاء والقدر الصحيح أنهما من هذا النوع، يعنى أن القضاء إذا أُفرد شمل القدر. والقدر إذا أُفرد شمل القضاء، لكن إذا اجتمعا فالقضاء: « ما يقضيه الله فى خلقه من إيجاد، أو إعدام، أو تغيير»، والقدر: « ما قدره الله- تعالى - فى الأزل ».

هذا هو الفرق بينهما، فيكون القدر سابقا، والقضاء لاحقًا[1].

س: هل للدعاء تأثير في تغيير ما كُتب للإنسان قبل خلقه؟

ج: لا شك أن للدعاء تأثيرا فى تغيير ما كُتب، لكن هذا التغيير قد كُتب أيضًا بسبب الدعاء، فلا تظن أنك إذا دعوت الله فإنك تدعو بشىء غير مكتوب، بل الدعاء مكتوب، وما يحصل به مكتوب، ولهذا نجد القارئ يقرأ على المريض فيشفى، ... وقصة السرية التى بعثها النبى ﷺ فنزلوا ضيوفًا على قوم، ولكنهم لم يُضيفوهم، وقُدِّر أن لدغت حية سيدهم، فطلبوا من يقرأ عليه، فاشترط الصحابة أُجرة على ذلك، فأعطوهم قطيعًا من الغنم، فذهب أحدهم فقرأ عليه الفاتحة، فقام اللديغ، كأنما نشط من عقال، أى كأنه بعير فُكَّ عقاله، فقد أثرت القراءة فى شفاء المريض.

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٧٩-٨٠).

فللدعاء تأثير، لكنه ليس تغييرًا للقدر، بل هو مكتوب بسببه المكتوب، وكل شيء عند الله بقدر، وكذلك جميع الأسباب لها تأثير في مسبباتها بإذن الله، فالأسباب مكتوبة، والمسببات مكتوبة[1].

س: كيف يعاقب الله على المعاصي وقد قدَّرها على الإنسان؟

ج: هذه في الحقيقة ليست مشكلة، وهي إقدام الإنسان على العمل السيئ، ثم يُعاقَب عليه هذه ليست مشكلة؛ لأن إقدام الإنسان على العمل السيئ إقدام باختياره، فلم يكن أحد شَهَرَ سيفه أمام وجهه، وقال: اعمل هذا المنكر، بل هو عمله باختياره،... والله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]، فالشاكر والكفور كلهم قد هداه الله السبيل، وبيَّنه له ووضحه له، ولكن من الناس من يختار هذا الطريق، ومن الناس من لا يختاره، وتوضيح ذلك أولًا بالإلزام، وثانيًا بالبيان:

(أما الإلزام فإننا نقول للشخص: أعمالك الدنيوية وأعمالك الأُخروية كلاهما سواء، ويلزمك أن تجعلهما سواءً، ومن المعلوم أنه لو عرض عليك من أعمال الدنيا مشروعان أحدهما ترى لنفسك الخير فيه، والثاني ترى لنفسك الشر فيه، ... من المعلوم أنك تختار المشروع الأول الذي هو مشروع الخير ولا يمكن أبدًا بأي حال من الأحوال أن تختار المشروع الثاني وهو مشروع الشر، ثم تقول:

إن القدر ألزمني به،... إذًا يُلزمك في طريق الآخرة ما التزمته في طريق

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٩٣-٩٤).

(٢) سورة الإنسان: الآية: (٣).

الدنيا، ونقول: جعل الله أمامك من أعمال الآخرة مشروعين؛ مشروعًا للشر وهى الأعمال المخالفة للشرع، ومشروعًا للخير و هى الأعمال المطابقة للشرع.

فإذا كنت فى أعمال الدنيا تختار المشروع الخيرى فلماذا لا تختار المشروع الخيرى فى أعمال الآخرة؟

إنه يلزمك فى عمل الآخرة أن تختار المشروع الخيرى كما أنت التزمت فى عمل الدنيا أن تَسْلُك المشروع الخيرى ... هذا طريق الإلزام.

أما طريق البيان فإننا نقول: كلنا يجهل ماذا قدر الله له، ... قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[1] فالإنسان حينما يقدم على العمل يقدم عليه باختيارٍ منه ليس عن علم بأن الله قدره عليه وأرعمه عليه ولهذا قال بعض العلماء: «إن القدر سِرٌّ مكتوم» ونحن جميعًا لا نعلم أن الله قدر كذا حتى يقع ذلك العمل، فنحن إذًا حينما نقدم على العمل لا نقدم عليه على أساس أنه كُتب لنا أو علينا، وإنما نقدم عليه باختيار، وحينما يقع نعلم أن الله قدره علينا، ولذلك لا يقع احتجاج الإنسان بالقدر إلا بعد وقوع العمل، ولكنه لا حجة له بذلك ... ويُذكَر عن أمير المؤمنين عمر قصة - قد تصح عنه وقد لا تصح - رُفع إليه سارق تمَّت شروط القطع فى سرقته فلما أمر أمير المؤمنين بقطع يده قال: مهلًا يا أمير المؤمنين والله ما سرقت ذلك إلا بقدر الله.

قال له: ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله.

فاحتج عليه أمير المؤمنين بما احتج به هو على سرقته من أموال

---

(١) سورة لقمان: الآية: (٣٤).

المسلمين، مع أن عمر يمكنه أن يحتج عليه بالقدر والشرع، لأنه مأمور بقطع يده، أما ذاك فلا يمكن أن يحتج إلا بالقدر إن صَحَّ أن يحتج به.

وعلى هذا فإنه لا يمكن لأى أحدٍ أن يحتج بالقدر على معصية الله، وإنه فى الواقع لا حجة فيه ... يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1].

فالله يقول: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾.

مع أن ما يعمله الناس بعد الرسل هو بقدر الله، ولو كان القدر حجة ما زالت بإرسال الرسل أبدًا... بهذا يتبين لنا أثرًا ونظرًا أنه لا حجة للعاصى بقضاء الله وقدره، لأنه لم يُجبَر على ذلك. والله الموفق[2].

س: هل الكفار مكتوب عملهم في الأزل؟ وإذا كان كذلك فكيف يعذبهم الله تعالى؟

ج: نعم .. الكفار مكتوب عملهم فى الأزل، ويُكتَب عمل الإنسان أيضًا عند تكوينه فى بطن أمه كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله، ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يُجمَع خَلْقُه فى بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسَل إليه الملك فيُؤمَر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد**». فأعمال الكفار مكتوبة عند الله عَزَّوَجَلَّ معلومة عنده ... والشقى شقىٌّ عند الله عَزَّوَجَلَّ فى الأزل، والسعيد سعيد عند الله فى الأزل.

---

(١) سورة النساء: الآية: (١٦٥).

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٩٤-٩٦).

ولكن قد يقول قائل كما قال السائل: كيف يُعذَّبون وقد كتب الله عليهم ذلك فى الأزل؟

فنقول: إنهم يُعذَّبون لأنهم قد قامت عليهم الحجة وبُيِّن لهم الطريق، فأُرسلت إليهم الرسل، وأُنزلت الكتب، وبُيِّن الهدى من الضلال ورُغِّبوا فى سلوك طريق الهدى، وحُذِّروا من سلوك طريق الضلال، ولهم عقول ولهم إرادات، ولهم اختيارات ولهذا نجد هؤلاء الكفار وغيرهم أيضًا يسعون إلى مصالح الدنيا بإرادة واختيار، ولا نجد أحدًا منهم يسعى إلى شىء يضره فى دنياه أو يتهاون ويتكاسل فى أمرٍ نافع له، ثم يقول: إن هذا مكتوب علىَّ.

أبدًا فَكُلٌّ يسعى إلى ما فيه المنفعة، فكان عليهم أن يسعوا إلى ما فيه منفعة أمور دينهم كما يسعون إلى ما فيه المنفعة فى أمور دنياهم، ولا فرق بينهما بل إن بيان الخير والشر فى أمور الدين فى الكتب المُنزَّلة على الرسل (عليهم الصلاة والسلام)، أكثر وأعظم من بيان الأمور الدنيوية، فكان عليهم أن يسلكوا الطرق التى فيها نجاتهم والتى فيها سعادتهم دون أن يسلكوا الطرق التى فيها هلاكهم وشقاؤهم.

ثم نقول: هذا الكافر حين أَقْدَم على الكفر لا يشعر أبدًا أن أحدًا أكرهه، بل هو يشعر أنه فعل ذلك بإرادته واختياره، فهل كان حين إقدامه على الكفر عالمًا بما كتب الله له؟

والجواب: لا. لأننا نحن لا نعلم أن الشىء مُقدَّرٌ علينا إلا بعد أن يقع، أما قبل أن يقع فإننا لا نعلم ماذا كُتب لأنه من علم الغيب.

ثم نقول له: الآن أنت قبل أن تقع فى الكفر أمامك شيئان: هداية وضلال فلماذا لا تسلك طريق الهداية مُقدرًا أن الله كتبه لك؟

لماذا تسلك طريق الضلال ثم بعد أن تسلكه تحتج بأن الله كتبه؟!

لأننا نقول لك قبل أن تدخل هذا الطريق: هل عندك علم أنه مكتوب عليك؟ فسيقول: لا. ولا يمكن أن يقول: نعم. فإذا قال: لا. قلنا: إذًا لماذا لم تسلك طريق الهداية وتقدر أن الله تعالى - كتب لك ذلك.

ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[2] ولما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه: بأنه ما من أحدٍ إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعدة من النار قالوا: يا رسول الله ألا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟

قال: «**لا، اعملوا فكُلٌّ مُيسَّر لما خُلق له**» ثم قرأ قوله -تعالى -: «﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾» .

فهذا جوابنا على هذا السؤال الذى أورده هذا السائل وما أكثر من يحتج به من أهل الضلال، ... وهو عجبٌ منهم لأنهم لا يحتجون بمثل هذه الحجة على مسائل الدنيا أبدًا، بل تجدهم يسلكون فى مسائل الدنيا ما هو أنفع لهم، ولا يمكن لأحدٍ أن يُقال له: هذا الطريق الذى أمامك طريقٌ وعر صعب، فيه لصوص، وفيه سباع، وهذا الطريق الثانى طريق سهل، مُيسَّر آمِن. لا يمكن لأحدٍ أن يسلك الطريق الأول ويدع الطريق الثانى مع أن هذا نظير الطريقين: طريق النار، وطريق الجنة... فالرسل بيَّنت طريق

---

(١) سورة الصف: الآية: (٥).

(٢) سورة الليل: الآيات: (٥-١٠).

الجنة وقالت: هو هذا، وبيَّنت طريق النار وقالت: هو هذا، وحذرت من الثانى ورغَّبت فى الأول، ومع ذلك فإن هؤلاء العصاة يحتجون بقضاء الله وقدره -وهم لا يعلمونه -على معاصيهم ومعايبهم التى فعلوها باختيارهم وليس لهم فى ذلك حجة عند الله تعالى[(١)].

س: ما الحكمة من وجود الكفر والمعاصي؟

ج: قد يسأل سائل ويقول: ما الحكمة من وجود الكفر والمعاصى إذا كان الله يبغضها ولا يحبها؟

ولا بد أن نعلم أن لوقوع المعاصى والكفر حِكَمٌ كثيرة منها:

(١) إتمام كلمة الله تعالى حيث وعد النار أن يملأها ... قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[(٢)].

(٢) ظهور حكمة الله تعالى وقدرته حيث قسَّم العباد إلى قسمين: طائع وعاصى، فإن هذا التقسيم يتبين به حكمة الله عَزَّوَجَلَّ فإن الطاعة لها أهل هم أهلها، والمعصية لها أهل هم أهلها .. قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[(٣)].

- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[(٤)] فهؤلاء أهل الطاعة.

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٩٧-١٠٠).

(٢) سورة هود: الآيتان: (١١٨، ١١٩).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (١٢٤).

(٤) سورة محمد: الآية: (١٧).

- وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾(١).

- وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٢)، وهؤلاء أهل المعصية، ويتبين بذلك قدرته بهذا التقسيم الذى لا يقدر عليه إلا الله ... كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٣).

- وقال تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٤).

(٣) لجوء العبد إلى ربه بالدعاء أن يباعد بينه وبين المعصية .. والدعاء عبادة لله تعالى.

(٤) ومنها أن العبد إذا وقع فى المعصية ومنَّ الله عليه بالتوبة ازداد إنابة إلى الله وانكسر قلبه وربما يكون بعد التوبة أكمل حالًا منه قبل المعصية حيث يزول عنه الغرور والعجب ويعرف شدة افتقاره إلى ربه (٥).

(٥) ومنها أن يتبين للمطيع قدر نعمة الله عليه بالطاعة إذا رأى حال أهل المعصية ... قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٦).

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١٢٥).

(٢) سورة الصف: الآية: (٥).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٧٢).

(٤) سورة القصص: الآية: (٥٦).

(٥) المجموع الثمين (١/ ١٧٠).

(٦) سورة آل عمران: الآية: (١٦٤).

(٦) ومنها إقامة الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنه لولا المعاصى والكفر لم يكن جهاد ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلى غير ذلك من الحكم والمصالح الكثيرة ... ولله فى خلقه شؤون[1].

۞ وقد أفاض ابن القيم فى الكلام عن تلك الحكم وإليك بعضها بتصرف:

(١) أن الله تعالى يحب التوابين حتى أنه سبحانه ليفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة إذا فقدها وأيس منها،.. ويقول أحد الصالحين: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه (أى: الإنسان).

(٢) أن الله عَزَّوَجَلَّ يحب أن يتفضل عليهم ويتم عليهم نعمه ويريهم مواقع بِرِّه وكرمه،... ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء ويعفو عمن ظلم ويغفر لمن أذنب ويتوب على من تاب إليه ويقبل عذر من اعتذر إليه... وقد دعا عباده إلى هذه الصفات الفاضلة وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أولى بها منهم وأحق، ...فله سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العليا.

(٣) أن الله سبحانه يُعرِّف عباده عزه فى (قضائه وقدره) ونفوذ (مشيئته) وجريان (حكمته) وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه ولا مفر له منه، بل هو فى قبضة مالكه وسيده وأنه عبده وابن عبده وابن أمته ناصيته بيده ماضٍ فيه حُكمه عدلٌ فيه قضاؤه.

(٤) أن يعرف العبد حاجته إلى حفظ الله تعالى له، ومعونته وصيانته وأنه كالوليد الطفل فى حاجته إلى من يحفظه ويصونه، ... فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك لا محالة.

---

(١) المجموع الثمين لابن عثيمين (١/ ١٧١).

(٥) أن الله سبحانه يستجلب من عبده العبوديات المتنوعة ويستخرجها منه إذا أذنب، وذلك من دعاء وتضرُّع واستعاذة وإنابة ومحبة ورجاء وخوف وابتهال .

(٦) أن يعرف العبد حقيقة نفسه وأنها الظالمة وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه، إذ الجهل والظلم منبع الشر كله، وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربها تعالى .. هو الذى زكاها به، وأعطاها إياه، فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف به نفسه ونقصها فيتضح له حِكَم ومصالح عديدة، ... من ذلك: يعرف النقص الذي في نفسه فيجتهد في إصلاحه وإكماله ويعلم افتقار نفسه إلى وليها ومولاها وبارئها سبحانه وتعالى.

(٧) تَعرُّف العبد على كرم الله سبحانه وستره وعظيم حلمه، وأنه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتك ستره عنه بين عباده فلا يطيب له العيش معهم أبدًا، ولكنه سبحانه أحاط عبده بالستر الجميل، وغشاه بحلمه، وقيض له من يحفظه وهو فى حالته هذه، ... بل إن الله سبحانه كان شاهدًا على العبد وهو يبارزه بالمعاصى والآثام ومع ذلك يحرسه بعينه التى لا تنام، وقد جاء فى بعض الآثار ... يقول الله تعالى: «**أنا الجوَّاد الكريم مَن أعظم منى جودًا وكرمًا، عبادى يبارزوننى بالعظائم وأنا أكلؤهم -أحفظهم- فى منازلهم**».

(٨) تعريف العبد أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفو الله ومغفرته وأنه رهين بحقه فإن لم يتغمده بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة، فليس أحد من خلق الله تعالى إلا وهو محتاج إلى عفوه ومغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته.

(٩) أن يعامل العبد الناس بما يحب أن يعامله الله تعالى به.

فيعامل الناس فى زلاتهم بما يحب أن يعامله الله فى إساءته وزلاته وذنوبه، فإن الجزاء من جنس العمل فمن عفى عفى الله عنه ومن سامح أخاه فى إساءته إليه سامحه الله، ومن تجاوز تجاوز الله عنه ... وهكذا.

ثم إذا علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تَعْظُم عنده إساءة الناس إليه، ... فليتأمل حاله مع ربه، كيف هو مع جزيل إحسانه إليه، وحاجته هو إلى ربه، ومع ذلك فهو مسيء، فإذا كان العبد هكذا مسيء فى حقِّ ربه، فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة؟

(١٠) أن التوبة توجب للتائب آثارًا عجيبة من المقامات التى لا تحصل بدونها، ... فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه،... فكان للعبد على ذلك أنواع من النعم لا يهتدى العبد لتفاصيلها بل لا يزال يتقلب فى بركتها ما لم يفسدها.

(١١) تعظيم نِعَم الله تعالى بحيث يراها العبد كثيرة، وذلك إذا شهد العبد ذنوبه ومعاصيه، وتفريطه فى حقِّ ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه (وإن كانت كثيرة فى الحقيقة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى) وذلك لعلمه أن الواصل إليه منها كثير على مُسيءٍ مثله، واستقلَّ الكثير من علمه، لعلمه أن الذى ينبغى أن يغسل به أضعاف ما أتى به ، فهو دائمًا مُستقلٌّ لعمله مُستكثرٌ لنعمة الله عليه وإن دقَّت.

(١٢) إذا أراد الله بعبده خيرًا أنساه رؤية طاعاته ورفعها من قلبه ولسانه، فإذا ابتلى العبد بالذنب جعله نُصب عينيه، وجعل همه كله بذنبه، فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد، أو غدا أو راح، فيكون هذا عين الرحمة فى حقه.

كما قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فلا تزال نُصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأناب إلى الله تعالى، وذَلَّ له وانكسر، وعمل لها أعمالًا فتكون سبب الرحمة فى حقه، ويعمل الحسنة فلا تزال نُصب عينيه يَمُنّ بها ويراها ويعتد بها على ربه وعلى الخلق ويتكبر بها، ويتعجب من الناس كيف لا يُعظمونه ويكرمونه ويُجلونه عليها فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتُدخله النار.

(١٣) ابتلاء العبد بالإعراض عن الرب سبحانه، فإن الله (جل وعلا) يُذيق عبده ألم الحجاب عنه، وزوال ذلك الأنس به، والقرب منه، ليمتحن عبده، فإن أقام على الرضا بحالها، ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره .. عَلِمَ أنه لا يصلح فوضعه فى مرتبته التى تليق به، وإن استغاث استغاثة الملهوف، وتَقَلَّقَ تَقَلُّقَ المكروب ودعا دعاء المضطر وعلم أنه قد فاتته حياته حقًّا، فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ويعيد ما لا حياة له بدونه .. عَلِم أنه موضع لما أُهل له،... فردَّ عليه أحوج ما هو محتاج إليه، فعظمت به فرحته، وكملت به لذته، وتمَّت به نعمته، واتصل به سروره، وعَلِمَ حينئذٍ مقداره، فعضَّ عليه بالنواجذ، وثنى عليه الخناصر، .. فالعبد إذا بُلى بعد الأنس بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد، اشتقات نفسه إلى لذة تلك المعاملة، فحنَّت وأنَّت وتصدعت، وتعرضت لنفحات مَن ليس لها عنه عِوَض أبدًا، ولا سيما إذا تذكر بِرَّه، ولُطفه وحنانه وقربه.

(١٤) أن الذنب يوجب لصاحبه التيقظ والتحرُّز من مصائد عدوه ومكائده، فيعلم من أين يدخل عليه اللصوص والقُطاع ومكامنهم، ومن

أين يخرجون عليه، وفي أي وقت يخرجون، فهو قد استعد لهم وتأهب وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم، فلو أنه مَرَّ عليهم على غرة وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به ويجتاحوه جملة.

(١٥) إقامة المعاذير للخلائق، وذلك أن العبد إذا أذنب ذنبًا أوجد وقَبِل الاعتذار من الناس، واتسعت رحمته لهم، واستراح من الضيق والحصر، وأكل بعضه بعضًا، واستراح العُصاة من دعائه عليهم، وقنوطه من هدايتهم، فإنه إذا أذنب رأى نفسه واحدًا منهم، فهو يسأل الله المغفرة ويرجو لهم ما يرجوه لنفسه ويخاف عليهم ما يخافه على نفسه.

ومع هذا فإنه يقيم أمر الله فيهم، ...طاعة لله، ورحمة بهم، وإحسانًا إليهم، إذ هو عين مصلحتهم ... لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة.

(١٦) الاشتغال بعيوب النفس والإمساك عن عيوب الناس، فالذنب يوجب له الإمساك عن عيوب الناس، والفكر فيها، فإنه في شغل بعيب نفسه، وهذا من أمارات السعادة[١].

❀❀❀

س: كيف يقضي الله كونًا ما لا يحب؟

ج: المحبوب قسمان:

الأول: محبوب لذاته.

الثاني: محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهًا لذاته، ولكن يُحَب لما فيه من الحكمة والمصلحة، فيكون حينئذ محبوبًا من وجه، مكروهًا من وجه آخر،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٨٦) وما بعدها بتصرف.

مثال ذلك قوله -تعالى -: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[١]. فالفساد فى الأرض فى حد ذاته مكروه إلى الله -تعالى -؛ لأن الله - تعالى - لا يحب الفساد ولا المفسدين، ولكن للحِكَم التى يتضمنها يكون محبوبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ من وجهٍ آخر، وكذلك العلو فى الأرض، ... ومن ذلك القحط، والجدب، والمرض، والفقر يقدره الله - تعالى - على عباده مع أنه ليس محبوبًا إليه فى حد ذاته؛ لأن الله لا يحب أن يؤذى عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليسر، لكن يقدره للحِكَم المترتبة عليه، فيكون محبوبًا إلى الله من وجه، مكروهًا من وجهٍ آخر.

قال الله -تعالى-: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢]. فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوبًا من وجه ومكروهًا من وجه آخر؟

أجيب: بأن هذا أمرٌ واقع لا ينكره العقل، ولا يرفضه الحس.

فها هو الإنسان المريض يُعطَى جرعة من الدواء مُرة كريهة الرائحة، واللون، فيشربها وهو يكرهها لما فيها من المرارة، وكراهة اللون، والرائحة، ويحبها لما يحصل فيها من الشفاء،... وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديدة المُحماة على النار، ويتألم منها فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر[٣].

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (٤).

(٢) سورة الروم: الآية: (٤١).

(٣) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٠٨، ١٠٩).

س: هل في قدر الله تعالى شر؟

ج: ليس في القدر شر، وإنما الشر في المقدور، فمن المعروف أن الناس تصيبهم المصائب وتنالهم الخيرات، فالخيرات خير، والمصائب شر، لكن الشر ليس في فعل الله - تعالى -، يعني ليس فعل الله وتقديره شرًّا،.. الشر في مفعولات الله لا في فعله، .. والله - تعالى - لم يُقدر هذا الشر إلا لخير كما قال-تعالى-: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾. هذا بيان سبب الفساد وأما الحكمة فقال: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذًا هذه مصائب مآلها الخير، فصار الشر لا يُضاف إلى الرب، ولكن يُضاف إلى المفعولات والمخلوقات، مع أن هذه المفعولات والمخلوقات شرٌّ من وجه، وخيرٌ من وجهٍ آخر، فتكون شرًّا بالنظر إلى ما يحصل منها من الأذية، ولكنها خير بما يحصل فيها من العاقبة الحميدة ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

س: لماذا يثقل الله على المؤمنين الذي يكثرون العبادة بالأمراض والبلايا في حين أن العُصاة يتمتعون بكل مطايب الحياة؟

ج: هذا السؤال يرِد على وجهين أحدهما اعتراض والثاني استرشاد، فأما وقوعه على سبيل الاعتراض فإنَّه دليل على جهل السائل، فإنّ حكمة الله سبحانه وتعالى أعظم من أن تبلغها عقولنا ... والله عز وجل يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٠٨).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٨٥).

فهذه الروح التى هى بين جنبينا والتى هى مادة حياتنا نحن لا نعرفها وقد عجز النُّظار والفلاسفة والمتكلمون عن تحديدها وكيفيتها، فإذا كانت هذه الروح التى هى أقرب مخلوق إلينا لا نعلم منها إلا ما وُصف فى الكتاب والسنة فما بالك بما وراء هذا؟ فالله عَزَّوَجَلَّ أحكم وأعظم وأجلُّ وأقدر، فعلينا أن نُسلِّم بقضائه تسليمًا تامًّا: قضائه الكونى وقضائه القدرى، لأننا عاجزون عن إدراك غايات حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ... وعليه فالجواب عن هذا الوجه من السؤال أن نقول: الله أعلم وأحكم وأقدر وأعظم.

وأما الوجه الثانى وهو سؤال استرشاد فإننا نقول لهذا السائل: المؤمن يُبتلى .. وابتلاء الله له بما يؤذيه له فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: اختبار هذا الرجل فى إيمانه. هل إيمانه صادق أو متزعزع، فالمؤمن الصادق فى إيمانه يصبر لقضاء الله وقدره، ويحتسب الأجر منه وحينئذ يهون عليه الأمر، ... ويُذكر عن بعض العابدات أنه أُصيب أصبعها بقطع أو جرح ولكنها لم تتألم ولم تُظهر التضجر فقيل لها فى ذلك فقالت: إن حلاوة أجرها أنستنى مرارة صبرها، ... والمؤمن يحتسب الأجر من الله تعالى ويُسلم تسليمًا. وهذه فائدة.

أما الفائدة الثانية: فإن الله سبحانه أثنى على الصابرين ثناءً كبيرًا وأخبر أنه معهم ويوفيهم أجرهم بغير حساب، والصبر درجة عالية لا ينالها إلا من ابتُلى بالأمور التى يُصبَر عليها فإذا صبر نال هذه الدرجة العالية التى فيها هذا الأجر الكثير، فيكون ابتلاء الله للمؤمنين بما يؤذيهم من أجل أن ينالوا درجة الصابرين، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أعظم الناس إيمانًا وأتقاهم لله وأخشاهم لله كان يُوعَك كما يوعك الرجلان

وشُدد عليه ﷺ عند النزع .. كل ذلك لأجل أن تتم له منزلة الصبر فإنه عليه الصلاة والسلام أصبر الصابرين، ومن هذا يتبين لك الحكمة من كون الله سبحانه وتعالى يبتلى المؤمن بمثل هذه المصائب،... أما كونه يعطى العصاة والفساق والفجار والكفار العافية والرزق يُدره عليهم فهذا استدراج منه سبحانه وتعالى لهم، وقد ثبت عن النبى ﷺ قوله: «**إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**». فهم يُعطَون هذه الطيبات لتُعجَّل لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا، ويوم القيامة ينالون ما يستحقونه من جزاء.

قال الله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ**﴾[١].

فالحاصل أن هذه الدنيا هى للكفار يُستدرَجون بها وهم إذا انتقلوا إلى الآخرة من هذه الحياة الدنيا التى نعموا بها وجدوا العذاب والعياذ بالله، فإنه يكون العذاب أشد عليهم لأنهم يجدون فى العذاب النكال والعقوبة، ولأنه مع فوات محبوبهم من الدنيا ونعيمهم وترفهم، وهذه فائدة ثالثة يمكن أن نضيفها إلى الفائدتين السابقتين فيما سينال المؤمن من الأذى والأمراض، فالمؤمن ينتقل إلى دارٍ خير من هذه الدنيا فيكون قد انتقل من أمرٍ يؤذيه ويؤلمه إلى أمرٍ يَسُرُّه ويُفرحه، فيكون فرحه بما قدم عليه من النعيم مضاعفًا لأنه حصل به النعيم وفات عنه ما يجرى من الآلام والمصائب[٢].

(١) سورة الأحقاف: الآية: (٢٠).

(٢) فتاوى العقيدة / للشيخ ابن عثيمين (ص/ ٥٧٦-٥٧٨).

س: ما حكم من يتسخط إذا نزلت به مصيبة؟

ج: الناس حال المصيبة على مراتبٍ أربع:

۞ المرتبة الأولى: التسخُّط وهو على أنواع:

النوع الأول: أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه يغتاظ مما قدره الله عليه فهذا حرام، وقد يؤدى إلى الكفر ... قال -تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾[1].

النوع الثانى: أن يكون باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وهذا حرام.

النوع الثالث: أن يكون بالجوارح كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور وما أشبه ذلك وكل هذا حرام مُنافٍ للصبر الواجب.

۞ المرتبة الثانية: الصبر وهو كما قال الشاعر:

والصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته   لكن عواقبه أحلى من العسل

فيرى أن هذا الشيء ثقيل عليه لكنه يتحمله وهو يكره وقوعه ولكن يحميه إيمانه من السخط، فليس وقوعه وعدمه سواء عنده وهذا واجب لأن الله تعالى أمر بالصبر فقال: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

۞ المرتبة الثالثة: الرضا ... بأن يرضى الإنسان بالمصيبة بحيث يكون وجودها وعدمها سواء فلا يشق عليه وجودها، ولا يتحمل لها حملًا ثقيلًا، وهذه مُستحبة وليست بواجبة على القول الراجح، والفرق بينها وبين

(١) سورة الحج: الآية: (١١).

(٢) سورة الأنفال: الآية: (٤٦).

المرتبة التى قبلها ظاهر لأن المصيبة وعدمها سواء فى الرضا عند هذا أما التى قبلها فالمصيبة صعبة عليه لكن صَبَر عليها.

۞ المرتبة الرابعة: الشكر وهو أعلى المراتب، وذلك بأن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة حيث عرف أن هذه المصيبة سببٌ لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته ... قال ﷺ: «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها**»(١).

س: هل الرزق والزواج مكتوبان في اللوح المحفوظ؟

ج: كل شيء منذ خلق الله القلم إلى يوم القيامة فإنه مكتوب فى اللوح المحفوظ لأن الله ﷻ أول ما خلق القلم قال له: «**اكتب قال: ربى وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»(٢).

وثبت عن النبى، ﷺ، أن الجنين فى بطن أمه إذا مضى عليه أربعة أشهر، بعث الله إليه مَلَكًا ينفح فيه الروح ويكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد.

والرزق أيضًا مكتوب مُقدر بأسبابه لا يزيد ولا ينقص،... فمن الأسباب أن يعمل الإنسان لطلب الرزق كما قال الله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(٣).

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١١٠، ١١١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧-٢٠١٨).

(٣) سورة الملك: الآية: (١٥).

ومن الأسباب أيضًا صلة الرحم: من بر الوالدين،وصلة القرابات، فإن النبى، ﷺ، قال: «**من أحب أن يُبسَط له فى رزقه ويُنسأ له فى أثره فليَصِل رحمه**» ومن الأسباب تقوى الله عَزَّوَجَلَّ كما قال -تعالى-:﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ..﴾[1] ولا تقل: إن الرزق مكتوب ومُحدَّد ولن أفعل الأسباب التى توصل إليه فإن هذا من العجز... والكياسة والحزم أن تسعى لرزقك، ولما ينفعك فى دينك ودنياك .. قال النبى ﷺ: «**الكيِّس مَن دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى**» . وكما أن الرزق مكتوب مُقدر بأسبابه فكذلك الزواج مكتوب مقدر، وقد كُتب لكلٍّ من الزوجين أن يكون زوج الآخر بعينه ... والله - تعالى - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء[2].

***

س: هل هناك تعارض بين قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ...﴾[3] وبين قول النبي ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»؟

ج: يخبر النبى، ﷺ، فى هذا الحديث أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع؛ لقرب أجله وموته ثم يسبق عليه الكتاب الأول الذى كتب أنه من أهل النار، فيعمل بعمل أهل النار - والعياذ بالله -

---

(١) سورة الطلاق: الآيتان: (٢، ٣).

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٩٦، ٩٧).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٣٠).

فيدخلها، وهذا فيما يبدو للناس ويظهر كما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**». - نسأل الله العافية - وكذلك الأمر بالنسبة للثانى ... يعمل الإنسان بعمل أهل النار، فيمُنُّ الله تعالى عليه بالتوبة والرجوع إلى الله عند قرب أجله، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

والآية التي ذكرها السائل لا تعارض الحديث لأن الله تعالى قال: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ومن أحسن العمل في قلبه وظاهره فإن الله - تعالى -لا يضيع أجره، لكن الأول الذي عمل بعمل أهل الجنة فسبق عليه الكتاب، كان يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس فيسبق عليه الكتاب، وعلى هذا يكون عمله ليس حسنًا وحينئذ لا يعارض الآية الكريمة. والله الموفق[1].

۞ أقول (محمود): فالرجل الذي عمل بعمل أهل الجنة فيما يظهر للناس لم يُرد بذلك العمل وجه الله، وإنما أراد الرياء وحب الظهور والمكانة في قلوب الناس.. فهو بذلك لم يُحسن عملًا فضاع أجره بسبب الرياء فدخل النار ... وبذلك لا يتعارض الحديث مع الآية.

س: كيف نجمع بين قول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] **وقوله:** ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[3]؟

ج: الجمع بينهما أن الله تعالى يخبر في بعض الآيات بأن الأمر بيده

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٠٠، ١٠١).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٢٥).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٢٩).

ويخبر فى بعض الآيات أن الأمر راجع إلى المُكلَّف،... والجمع بين هذه النصوص أن يُقال: إن للمكلف إرادة واختيارًا وقدرة، وإن خالق هذه الإرادة والاختيار والقدرة هو الله عَزَّوَجَلَّ فلا يكون للمخلوق إرادة إلا بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ ... وقد قال الله تعالى مُبينًا الجمع بين هذه النصوص: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)] ولكن متى يشاء الله - تعالى - أن يهدى الإنسان أو أن يضله؟

هذا هو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[(٢)] واقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[(٣)] تجد أن سبب ضلال العبد من نفسه فهو السبب...والله -تعالى- يخلق عند ذلك فيه إرادة للسوء لأنه هو يريد السوء، وأما من أراد الخير وسعى فى الخير وحرص عليه فإن الله تعالى يُيسره لليسرى.

ولما حدَّث النبى ﷺ أصحابه: بأنه ما من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: «**لا، اعملوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له**» ثم قرأ هذه الآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ إلخ» .

واعلم يا أخى أنه لا يمكن أن يوجد فى كلام الله أو فيما صح عن رسول الله ﷺ، تناقُض أبدًا، فإذا قرأت نصَّين ظاهرهما التناقض فأَعِد النظر مرة

---

(١) سورة التكوير: الآيتان: (٢٨، ٢٩).

(٢) سورة الليل: الآيات: (٥-١٠).

(٣) سورة الصف: الآية: (٥).

أخرى، فسيتبين لك الأمر، فإن لم تعلم فالواجب عليك التوقف وأن تكل الأمر إلى عالمه والله بكل شيء عليم[١].

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؟

ج: هذا مما قاله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، لقومه ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢] أي ما تعملون من هذه الأصنام ليقيم عليهم الحجة بأنها لا تصلح آلهة، لأنها إذا كانت مخلوقة لله - تعالى - فمن الذي يستحق العبادة المخلوق أم الخالق؟

الجواب: الخالق .. وهل يستحق المخلوق أن يكون شريكًا في هذه العبادة؟ ... لا. فإبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أراد أن يقيم الحجة على قومه بأن ما عملوه من هذه الأصنام التي نحتوها مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ فكيف يليق بهم أن يُشركوا مع الله -تعالى- هذا المخلوق.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (ما) اسم موصول عائد على قوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ هذا وجه هذه الآية.

وليس فيها أنه يبرر شركهم بالله ويقول: إن عملكم مخلوق لله فأنتم بريئون من اللوم عليه، كلا لأننا لو قلنا ذلك لكان يُحتج لهم ولا يُحتج عليهم، ولكن هو يحتج عليهم وليس يحتج لهم[٣].

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) سورة الصافات: الآيتان: (٩٥، ٩٦).

(٣) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٠٦، ١٠٧).

س: ماذا نقول لمن يرفض الهداية ويقول: إن الله لم يكتب لي الهداية؟

ج: نقول بكل بساطة: أطَّلعت الغيب أم اتخذت عند الله عهدًا؟

إن قال: نعم، كَفَر لأنه ادَّعى علم الغيب ... وإن قال: لا، خُصم وغُلب.

إذا كنت لم تطلع أن الله لم يكتب لك الهداية فاهتدِ، فالله ما منعك الهداية بل دعاك إلى الهداية، ورغَّبك فيها، وحذرك من الضلالة، ونهاك عنها ولم يشأ الله عَزَّوَجَلَّ أن يدع عباده على ضلالة أبدًا ... قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾[1]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[2]. فتب إلى الله .. والله عَزَّوَجَلَّ أشد فرحًا بتوبتك من رجل أضل راحلته وعليها طعامه وشرابه، وأيس منها، ونام تحت شجرة ينتظر الموت، فاستيقظ فإذا بخطام ناقته متعلق بالشجرة فأخذ بخطام الناقة فرحًا وقال: «**اللهم أنت عبدى وأنا ربك**». أخطأ من شدة الفرح... فنقول: تب إلى الله، والله أمرك بالاهتداء وبيَّن لك طريق الحق. والله ولى التوفيق[3].

س: هل في مُحاجة آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إقرار للاحتجاج بالقدر؟

وذلك «أن آدم احتج هو وموسى فقال له موسى: «أنت أبونا خيَّبتنا أخرجتنا ونفسك من الجنة». فقال له آدم: «أتلومني على شيء قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني؟» فقال النبي، ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى».

أي: غلبه بالحجة وآدم احتج بقضاء الله وقدره.

ج: هذا ليس احتجاجًا بالقضاء والقدر على فعل العبد ومعصية العبد،

(١) سورة النساء: الآية: (١٧٦).

(٢) سورة النساء: الآية: (٢٦).

(٣) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٠٣، ١٠٤).

لكنه احتجاج بالقدر على المصيبة الناتجة من فعله، فهو من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، ولهذا قال: «خيبتنا وأخرجتنا، ونفسك من الجنة» ولم يقل: عصيت ربك فأُخرجت من الجنة.

فاحتج آدم بالقدر على الخروج من الجنة الذى يعتبره مصيبة، والاحتجاج بالقدر على المصائب لا بأس به، ... أرأيت لو أنك سافرت سفرًا وحصل لك حادث، وقال لك إنسان: لماذا تسافر؟ لو أنك بقيت فى بيتك ما حصل لك شيء.

فستجيبه: بأن هذا قضاء الله وقدره، أنا ما خرجت لأجل أن أُصاب بالحادث، وإنما خرجت لمصلحة، فأُصبت بالحادث، ... كذلك آدم عليه الصلاة والسلام، هل عصى الله لأجل أن يُخرجه من الجنة؟ لا. فالمصيبة إذًا التى حصلت له مجرد قضاء وقدر، وحينئذ يكون احتجاجه بالقدر على المصيبة الحاصلة احتجاجًا صحيحًا.

ولهذا قال النبى، ﷺ: «**حَجَّ آدم موسى، حَجَّ آدم موسى**» . وفى رواية للإمام أحمد: «**فحجه آدم**» يعنى غلبه فى الحجة.

۞ مثال آخر: رجل أصاب ذنبًا وندم على هذا الذنب وتاب منه، وجاء رجل من إخوانه يقول: له يا فلان كيف يقع منك هذا الشيء فقال: هذا قضاء الله وقدره. فهل يصح احتجاجه هذا أو لا؟

نعم يصح لأنه تاب، فهو لم يحتج بالقدر ليمضى فى معصيته، لكنه نادم ومتأسف، ونظير ذلك «أن النبى، ﷺ، دخل ليلة على على بن أبى طالب وفاطمة رضي الله عنهما فقال: «**ألا تصليان؟** » فقال علىٌّ رضي الله عنه: يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله، فإن شاء الله أن يبعثنا بعثنا فانصرف النبى ﷺ، يضرب على فخذه

وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[(١)]» فالرسول، ﷺ، لم يقبل حُجته، وبيَّن أن هذا من الجدل؛ لأن الرسول، ﷺ، يعلم أن الأنفس بيد الله، لكن يريد أن يكون الإنسان حازمًا فيحرص على أن يقوم ويصلي.

على كل حال تبين لنا أن الاحتجاج بالقدرعلى المعصية بعد التوبة منها جائز، وأما الاحتجاج بالقدر على المعصية تبريرًا لموقف الإنسان واستمرارًا فيها فغير جائز[(٢)].

س: كيف يكون القضاء والقدر مُعينًا على زيادة إيمان المسلم؟

ج: يكون الإيمان بالقضاء والقدر عونًا للمسلم على أمور دينه ودنياه؛ لأنه يؤمن بأن قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ فوق كل قدرة، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد شيئًا فلن يَحُول دونه شيء، فإذا آمن بهذا فعل الأسباب التي يتوصل بها إلى مقصوده، ... ونحن نعلم فيما سبق من التاريخ أن هناك انتصارات عظيمة انتصر فيها المسلمون مع قلة عَددهم وعُددهم، ... كل ذلك لإيمانهم بوعد الله عَزَّ وَجَلَّ وبقضائه وقدره وأن الأمور كلها بيده - سبحانه -[(٣)].

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٥٤).

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٢/ ١١٣).

دعوة مستجابة

۞ أخى الحبيب.. أختى الفاضلة:

أضع بين أيديكم هذا الكتاب المتواضع سائلًا ربى عَزَّوَجَلَّ أن ينفع به المسلمين فى كل زمان ومكان، وأن يجعله فى ميزان حسنات أبى وأمى.

فما كان فى هذا الكتاب من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من سهوٍ أو خطأ أو نسيان فمنى ومن الشيطان.. والله ورسوله ﷺ منه براء... وأعوذ بالله أن أُذكّركم به وأنساه.

فمن استفاد فائدة من هذا الكتيب فلا يبخل على بدعوة لعل الله أن يتجاوز عنى وعنكم، وأن يجمعنا جميعًا فى جنته إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

۞ روى مسلم أن النبى ﷺ قال: «**من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكَّل به: آمين ولك بمثله**»[1].

۞ جزى الله خيرًا كل من قرأ هذا الكتاب وتعلم منه شيئًا وعلَّمه لمن حوله.

۞ كما أنصح إخوانى وأخواتى بقراءة هذا الكتاب على المسلمين فى المساجد والبيوت ومجالس العلم لتعم الفائدة وتموت البدع وتحيا السنن وتعود الأمة مرة أخرى خير أمة أُخرجت للناس.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

۞ سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك....

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار



فهرس الموضوعات

مراتب القدر

أزمنة المقادير

نظرة في تاريخ القدر

سنة الله في الأخذ بالأسباب

الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

الهداية والضلال

الاحتجاج على المعاصي بالقدر

ثمرات الإيمان بالقدر

أقوال وأفعال تخالف الإيمان بالقضاء والقدر

أسئلة عامة في القضاء والقدر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



من إصداراتنا













